كراسات المنتدى

Les Cahiers du FTDES

الكراس عدد 2

سوسيولوجيا الفعل الجماعي في تونس منذ 14 جانفي 2011

تعدد طرق الإنخراط و تنوع أشكال الإحتجاج

جويلية 2019

الكراس عدد 2

جويلية 2019

Observatoire Social Tunisien
المرصد الاجتماعي التونسي
FORUM TUNISIEN POUR LES DROITS ÉCONOMIQUES ET SOCIAUX

FTDES
Forum Tunisien pour les Droits Economiques et Sociaux

كراسات المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

العدد2

سوسيولوجيا الفعل الجماعي

في تونس منذ 14 جانفي2011

تعدّد طرق الانخراط وتنوّع أشكال الإحتجاج

المُشرف على أعمال الكرّاس:

سفيان جاب الله

المساهمون في كتابة هذا الكرّاس:

سفيان جاب الله
علي كنيس
محمد سليم بن يوسف
مالك زغدودي
عبدالرحمان بن شعبان
امين الحسيني
شيماء بن رجب
سميحة الحامدي
مولدي بن علية
آية بن منصور
وليد العمري
منتصر بالله النغموشي
أسامة سليم

التدقيق اللغوي:

وليد فيّالة

تقديم :

يحتجّون من أجل حقوق ومطالب وينخرطون في فعل جماعي لِتغيير واقع يناهضونه. هم شتات متباعد ومتقارب في آن، يُحيوُن رميم صيرورة لم تصِرْ، يحافظون على نار أولمب ثورة لم ينطفئ أمل تحقّقها منذ أحرق البوعزيزي نفسه أم يبحثون عن ثورة دون الاستيلاء على السلطة، ثورة تجعل هذه الأخيرة تتحلّل وتتفكّك لا من أجل افتكاكها ؟

في فنّ طرح الأسئلة التّي لا نُجهضها بأحكام مسبقة عن ماهيّة الفعل وهويّة الفاعلين. في دراسة طرق انخراطهم وأشكال احتجاجهم وفي انتقالنا من الحديث عن المعركة الكُبرى والسرديات الكبرى، إلى مُقاربة معارك صُغرى تُخاض في كلّ الأرجاء وسرديات صُغرى لا تروي إلاّ ما هو عاجل وعابر لكنّها تحدث أثرًا دائما. معارك تتراءى وكأنّها مع نفس الخصم أو خصوم تتشابه ككُلٍّ، لكن بأساليب تختلف باختلاف الجبهات مع أجزائه وتنوعّ وتعدّد أسباب منطلقات ودوافع الخصومة.

فمن هم هؤلاء ؟ بين الوحدة والكثرة، بين الخصوصيّة والتشابه، بين فعل جماعيٍّ ينطقُ سِرّا وفاعلينَ في صمتهم جهر،في اشتباك متعاضد أو متفرّق ضدّ أعداء ظاهرين ومُستترين وفي تشبيك منشود أو موجود، بتعدّد طُرق الانخراط في ديناميكيّة الفعل بين الفردي والجماعي من جهة، وبين الكلاسيكي والمُجدّد من جهة أخرى وفي تنوعّ أشكال الاحتجاج القديمة منها والجديدة.

ما الذّي يجمع فسيفساء تشتتت قطعها لكنّها في نظر بحوثٍ علميّة تراها ملتئمة ومجمّعة ومتناسقة؟ كيف لبحوث مُماثلة أن تُقرَأَ مجتمعة رغم فرادة كلّ إشكاليّة على حدة؟ إشكاليّات تُقارب واقعا متشابها ومختلفا تتحدّ فيه أضداده وتتفرق في آن؟ كيف لنا أن نبحث عن تشخيص واقع مماثل؟

واقع فيه فنّان راب من هوامش المدينة يُغنّي ليحتجّ على مركزيّة الحقّ في الحياة، وحركة احتجاجيّة هامشيّة تعادي التهميش بفعل جماعي يلغي من ألغاه ولو كان من مسانديه. واقع فيه شباب "أولتراس" يتنبؤون بالثورة ولا تعنيهم صيرورتها، وباحثون يتفاجؤون بها فينخرطون في فعل ينشد تحقّقها ! فيه مُدوّنون يناضلون في شبكة عنكبوتيّة ضدّ نظام سقط رأسه فصار كأرملة سوداء! وحملات أفقيّة في فعلها تنتشركجذمور في بيئة احتلّتها أشجار السلطة التّي لا تثمر وفنّانون يجعلون الفضاء العامّ مكانا لرفض الواقع، الواقع برّمته. واقع فيه أساتذة غادر طباشيرهم الأقسام ليحتجّ في الشوارع، عُمّالٌ في مصانع الظلّ لا ضوء يُسلّط على نضالاتهم، مُهرّجون يجعلون البوليس يَبتسمْ ويعوّضون مناضلين أتعبتهم كلاسيكيّة احتجاجهم وأحزنتهم في آن! واقع ترسمه صحراء الكامور بوشائج أوليّة تنتخب فاعلين عاديّين لكن بفعل لم تعتده السلطة، واقع تُصوّره مشاهد جرّرات في جندوبة تغادر حقلا لتذهب إلى حقل آخر :من الحقل الفلاحي إلى الحقل الاحتجاجي ! وواحات جمنة التّي تحتجّ فيها الدقلة في عراجينها مطالبة بالحقّ في الأرض.

كيف لنا أن نبحث عن تشخيص واقع كهذا تقاطع فيه هؤلاء الفاعلون باختلافهم في ديناميكيّة فعل جماعي تميّز بضبابيّة أفقه الإستراتيجي، ضبابيّة جعلَت مصائرهم رهينَةَ تغيير عميق يشمل الكلّ. الكلّ المتجاوز لمجموع أجزائه.الكلّ بما هو المجتمع والنظام والدولة. فَكيف للبحث العلمي أن يكون،كالفعل، جماعيّا منخرطا في مشروع لتغيير الواقع؟ كيف يمكن أن يكون الباحث فاعلا يمارس الفعل والبحث في آن أو إلى أيّ مدى يمكن له أن يكون موضوعيا في بحثه وفاعلا بكلّ جوارحه، جوارحٍ قد تحدّها العين الناقدة؟ كيف ينقل لنا كاتبو هذا الكرّاس عوالم يندمج فيها البحث والفعل ليحدّثونا عن الواقع بزاويتيْ اطّلاع ودراية مختلفتين لكن متقاطعتين في آن؛ زاوية الفاعل المشارك في الفعل وزاوية الباحث المرتدي لقُبّعتين؟! فهنا أيضا تتعدّد طرقُ انخراط القلم وأشكال

احتجاجه. قلم مُلتزم علميًّا يقوم بوَضعنةِ البحث من جهة، ويجد له موضع نضالٍ من جهة أخرى.

فيكتب لنا القلم الأولّ ورقة بحثيّة ستكون منطلقنا النظري والمفاهيمي في بداية هذا الكرّاس لنتبيّن مفهوم "الباحث الفاعل"، المعرّف لأغلب كاتبات وكاتبي هذا المقال،في مراوحة بين ما أشارت إليه النظريات السوسيولوجية حول هذا الموضوع،رغم ندرتها، وبحثٍ ميداني بحثَ عن هؤلاء الباحثِين ليدرس سوسيولوجيا انخراطهم في الفِعل الجماعي.

الورقة الثانية تذهب لما سُميَّ "هامِشًا" لتبحث عن شكل جديد من فنّ الراب كشكل احتجاجي ألا وهو ما سمّاه كاتب الورقة "راب الهامش" عبر تحليل سيرة حياتيّة لفنّان راب منخرط في الفعل الجماعي المحتجّ على هيمنة "المركز" وذلك بطريقته ك "هامشيّ ومُهمّش" وبالأساس حسب فهمه واستبطانه للهامشيّة والتهميش.

الورقة الثالثة تقترح علينا شكلا جديدا من الانخراط في الفعل الجماعي الاحتجاجي بإعادة قراءة سوسيولوجية لما يسمّى ب"فنّ الشارع" وبالتّالي لتمثلّ فئة من الشباب لفنّ، للشارع وللفضاء العام وكيفيّة الاحتجاج فيهضدّ ميكرو-فيزياء سُلطةٍ صارت ضدّ الكلّ وفي كلّ مكان.

الورقة الرابعة تدرس مجموعات "الألتراس" لكن لا باعتبارها مجموعات أنصار فرق كرة قدم فقط، بل باعتبارها فاعلا احتجاجيا كان قبل 14 جانفي 2011 ولازال منخرطا،على طريقته، في الفعل الجماعي المُنادي بالحريّة والمُعادي لمنظومة الحكم البوليسيّة.

الورقة الخامسة تبحث في كيفيّة انخراط "المدوّنين" عبر الشبكة العنكبوتيّة في سيرورة نضال فردي وجماعي في آن ضدّ نظام "بن علي" ثمّ الأنظمة التّي تلَت سقوطه. انخراط ضدّ خصم مشترك لكن بمنطلقات وأساليب مختلفة.

الورقة السادسة تسعى لوصف، فهم وتفسير ظاهرة الحملات الشبابيّة في تونس وانخراط فئات شبابية فيها باعتبارها فاعلا جديدا وشكلا فريدا لممارسة فعل جماعي وللانخراط في سيرورةِ ديناميكيّةٍ احتجاجيّة تنشد إيقاف اشتغال ميكانيزمات إعادة إنتاج النظام السابق.

الورقة السابعة تُحايثُ محتجّين جُدد فاجؤوا الجميع بداية من المحتجّين الكلاسيكيّين مرورا بالبوليس وصولا للإعلام. هم المُهرّجون الناشطون الذين غادروا فضاءات ضيقة رسمتها لهم حدود حقل فنيّ يأسرهم ليحجّوا للفضاء العامّ، المُهرّجون الناشطون الذين لا يمارسون الإضحاك بل يحتجون ويسخرون، بطريقتهم، على واقع يعتبرونه مضحكا ومستدعيا لسخرية سوداء. واقع اللاعدالة.

الورقة الثامنة أعادتنا ولو لوهلة لرائعة "البشير خريّف" «الدقلة في عراجينها» ، ليروي لنا كاتبها رواية تفسيريّة لـ "لماذا" احتج فاعلو جمنة وكيف استردّوا أرضًا اعتبروها حقّا سلبته منهم سيرورة ما سميّ بتشكلِّ "الدولة الوطنية". دولة يحتجون ضد طبيعتها ووطن لا يشعرون تجاهه بالانتماء إلاّ حين تتعادل القُوى ويُرَدُّ ما يعتبرونه "ظلما" لتحُلّ مكانه العدالة.عدالة لا تعطى بل تُفتكُّ.

الورقة التاسعة ذهبت كاتبتها لصحراء الكامور لتعود بفهمٍ دقيق لكيفيةتحوّل من أسمتهم "مواطنين عاديّين" لأبطال محليّين عبر خلق فعل جماعيّ خاطب ماهو وطني لتحقيق ماهو جهويّ وذلك بشكل جديد من التنظمّ والاحتجاج جعل الباحثين كما السلطة، عاجزين عن قراءة واقع نتج عن شعار رفعه فاعلو "الكامور"، شعار "الرخّ لا".

الورقة العاشرة،عبر دمج عالمي السينما والإتنوغرافيا، وبعبور حقل الفلاحة نحو حقل الاحتجاج. يواكب كاتبها كيف ولماذا يحتجّ فلاّحو جندوبة على متن جرّاراتهم عبر مقاربة تُكثّف فهم وتفسير الفعل الجماعي بالجهة.

الورقة الحادية عشرة بحثَت في أطر تأويل ما نسمّيه فعلا جماعيا يأتي من الداخل والهامش، حركة احتجاجيّة وجدت لها مكانا وزمانا وأسبابا موضوعية ومنطقيات فعل

فردية ذات جانفي 2016 في القصرين. حركة أَفْرَدَتْ الأحزاب والنقابات ووضعت مُسلّمة أنّ الفعل الجماعي لا ينتجه التنظّم السياسي الذّي صار على هامش تكتيكها ووضعت في استراتيجيتها إجبار "المركز" على إعطائهم حقّهم في تنمية عادلة عبر احتجاج فريد من نوعه.

الورقة الثانية عشرة ذهبت للمصانع والمعامل لِتسلّط الضوء على احتجاجات العمّال في خصوصيّة تطوّرها بعد 14 جانفي 2011، والتّي،بحدوثها داخل أبنية مغلقة، شملها النسيان وغطاّها الظلّ. احتجاجات كانت تُعتبر في السابق محرّكة للتاريخ في نظر أغلب الدارسين للفعل الجماعي.

الورقة الثالثة عشرة رصدت، تاريخيّا ولحظة حدوثها عبر مقاربة سوسيو-تاريخيّة، تحرّكات احتجاجية لقطاع التعليم الثانوي والتّي تحوّلت، بحكم خروجها عن الحدود التّي رسمتها لها البنية التنظيميّة للاتّحاد العام التونسي للشغل، بخصوصيّة هويّة فاعليها وبطبيعة مطالبها، إلى شكل جديد من الفعل النقابي، فعل احتجاجي جماعيّ أُطلق عليه "جيش الطباشير".

وهكذا تتباين وتختلف هذه الورقات في زوايا محايثتها للواقع المدروس في تونس منذ سقوط حكم "بن علي" في جانفي 2011، لكنّها تصبح ورقة واحدة حين نستقرئ سوسيولوجيا تقاطع مواضيعها من خلال تنزيلها في إشكاليّة يلخّصها ويكثّفها عنوان الكرّاس "سوسيولوجيا الفعل الجماعي في تونس منذ 2011؛ تعدّد طرق الانخراط وتنوّع أشكال الاحتجاج". تقاطع أو بالأحرى تقاطعيّة الأشكال الاحتجاجيّة وطرق انخراط الفاعلين في ديناميكيّة تتناقض مع واقع يشترك المناهضون له في تأويله كواقع اللاعدالة. تقاطع يُرسم من خلال تجميع أجزائه مشهد مكتمل. مشهدٌ نحاول من خلال هذا الكرّاس إعادة صياغة مختلف أُطره لنراه فنفهمه ونؤوّله ونفسّره بصورة أعمق.

وبعد أسئلة الكيف.نمرّ لسؤال ؛ لماذا هذا الكرّاس ؟

هذا العمل، وإن كان تكثيفا لورقات بحثيّة، ليست الغاية منه إنتاج عمل أكاديميٍّ محكّمٍ حول طرق الانخراط وأشكال الاحتجاج بل هو بالأساس طريقة ينخرط بها المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعيّة،من خلال مرصده الاجتماعي ومن خلال هذه الورقات البحثيّة، في الفعل الجماعي الناشد للشغل والحريّة والعدالة الاجتماعيّة وذلك بخلق فرصة لباحثين فاعلِين كي يكتبوا عن الفعل الباحث عن التغيير عبر بحوث لا تنشد المكوث في رفوف مكاتب البحث والمكتبات، بل بحوث تتميّز بقدرتها ،عبر اعتماد مقاربة منجهيّة أوريستيكيّة (heuristique)، على النفاذ لحركات وأشكال فعل من داخلها والكتابة عنها قصد فهمها وكذلك تطويرها عبر ممارسة فعل نضاليّ في صفوفها. فهذا الكرّاس هو أيضا طريقة انخراط في ديناميكيّة فعل جماعي منذ 17 ديسمبر 2010 - 14جانفي 2011 وشكل احتجاجي يراوح بين الفكر والممارسة.

هذا ما سنسعى في قادم السطور لتشخيصه، لوصفه، فهمه وتفسيره. سُطور يكتبها شباب، شباب لا بتحديد بيولوجي أو باعتبارهم زمنا اجتماعيا، بل باعتبارهم منذ 17 ديسمبر 2010 و 14 جانفي2011 والسيرورة التّي تَلَتْ تلك الفترة ، مجالا اجتماعيّا ينتج فاعلين وباحثين بل وباحثين فاعلين منخرطين في حركيّة فعل جماعي يقاوم ويحتجّ ويعاضد من يقاوم ويحتجّ. شباب ساهموا،بطريقتِهم، في ما حدث، ما يحدث و ما سيحدث نحو صيرورة ينشدونها. صيرورة الحريّة والعدالة الاجتماعيّة والكرامة. صيرورة منشودة تجعلهم يكتُبون، في إطار المنتدى التونسي للحقوق الاجتماعية والاقتصاديّة، هذا الكرّاس لنقلِ صورة لواقع نعيشه جميعًا، واقع يجب أن نفهمه لكي نتمكّن من تغييره.

المُشرف على الكُرّاس

سفيان جاب الله

الفهرس

- **مقدمة**
- **الباحثون الفاعلون كأفق تفكير :**

"من مدارج الكليّات إلى الفضاء العام". ..... ص 1

- **حين يحتجّ "راب" الهامش :**

"الشاب ثامر المالكي شخصا ونصا". ..... ص 29

- **في خطاب الرفض:**

"المجموعات الناشطة بشارع الحبيب بورقيبة مثالا". ..... ص 57

- **الألتراس:**

"أشكال التنظم وأبعاده السياسية والاجتماعية"..... ص 87

- **المدونون والتغيير الافتراضي:**

"النشأة، السياق، الأهداف". ..... ص 117

- **مانيش مسامح، فاش نستناو، باستا:**

"مُقاربة سوسيولوجية للحملات الشبابية في تونس"..... ص 145

- **الاحتجاج الفني :**

" استقراء في تجربة كتيبة المهرجين الناشطين باعتبارهم أحد الفاعلين الجدد"... ص 179

- **جِمْنَة: الصراع حول الأرض :**

" الدولة في مواجهة المجتمع المحلي". ..... ص 203

- **اعتصام الكامور بالجنوب التونسي:**

"مواطنون عاديون يحرجون الديمقراطية التمثيلية"..... ص 237

- **احتجاجات الفلاّحين في جندوبة :**

"الجرّار من الحقل الفلاحي إلى الحقل الاحتجاجي "..... ص 265

- **العمال التونسيون والمسألة الاجتماعية في تونس بعد 2011 :**

"احتجاجات "شوكوطوم" و "تكنوفير" مثالاً ..... ص 287

- **جيش الطباشير :**

"عندما ينفُذُ القطاعي إلى العمق الوطني " ..... ص 311

- **خصوصيّة الفعل الجماعي في الهوامش :**

"قراءة في حدود الحركة الاحتجاجية جانفي 2016 " ..... ص 333

أمين الحسيني- باحث في علم الاجتماع

الباحثون الفاعلون كأفق تفكير:

من مدارج الكليات إلى الفضاء العام

ملخّص:

من هو الباحث الفاعل؟

رغم كثرة الدراسات العلمية التي تناولت الفاعلين في الحركة الاجتماعية على اختلافهم إلاّ أنّنا لم نحظَ بتعريف واضح ومباشر لمفهوم الباحث الفاعل، ولذلك يُحاول هذا المقال في مقام أوّل تقديم مفهوم له، وتحديد دوره وموقعه صُلب الحركة الاجتماعية مُقدّما تصوّراً حول بورتريه هذا الفاعل. ولمزيد توضيح هذه الرؤية قمنا بإدراج مقارنة بينه وبين باقي الفاعلين النوعيين على غرار الفنانين والمدونين والصحافيين، وفي الأخير قمنا بدراسة مدى تأثيره في الحركة الاجتماعية وتأثّره بها، معتمدين في ذلك على مقابلات تمّ إجراؤها مع باحثين في مجال العلوم الإنسانية وناشطين ميدانيين في ذات الوقت.

Abstract

Who’s the « active researcher»?

In spite of the many bibliographic researches that have studied the different types of « actors » in the social movements, we haven’t encounter a clear and obvious definition of the concept of «the active researcher ». That’s why we will try in this paper to define this concept, define its role and its position in the social movement with a presentation of a portrait of this « actor » .

And in order to have a further look on this issue, we have made a comparison between the « active researcher » and the other typical

actors such as artists, bloggers and journalists. Finally, we have studied how he influences the social movement and to what extent does he impacts it ; making in that different interviews with specialist researchers in human sciences and field activists.

تعيس هو البلد الذي في حاجة إلى أبطال

بريخت

"يجب علينا أن نجلس ونفكّر فقط!"[1]

هكذا صرخ الفيلسوف السلوفيني سلافوي جيجك (Slavoj Žižek) طالباً من العالم بأسره أن يصرف النظر عن الفعل ويتوقف لبرهة من أجل إعادة التأمّل من جديد.

إنّ هذا الواقع الذي يحتكم إلى دينامية مخيفة ومرعبة صار شيئاً فشيئاً غازياً، انفجارات تكنولوجية متتالية، كون برمته يغرق وسط فضاء سبرنيطيقي دقيق ومعقّد، حياة ملايين من البشر مرتبطة بأهواء السوق، ثورات هنا وهناك، أنظمة تسقط وتنبني أخرى على أنقاضها لتُعاود السقوط من جديد، جماعات تظهر لتختفي مرّة أخرى، وحلفاء الأمس أعداء اليوم!

إنّ هذا الواقع المتقلّب القائم على مبدأ اللاستقرار وعدم الثبات تماماً كماء نهر هيرقليطس (Héraclite) أو كديمومة هنري برغسون (Henri Bergson) التي لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن تُعاد إلى الوراء، لم يؤثر فقط على عالم الاقتصاد ولا على المعطيات الجيوسياسية بل مسّ الجسد الاجتماعي وجعل من الفعل البشري -في سياقات تتّسم بالتعقيد- يأخذ أشكالاً ومضامين جديدة، ولعلّ من أدوات قياس هذا الفعل ما تُقدّمه الحركات الاجتماعية من مواد دسمة يجب على الدرس السوسيولوجي أن يلفت النظر إليها ويبحث فيها.

---

[1] سلافوي جيجك: لنبدأ التفكير الآن
[En ligne] https://www.youtube.com/watch?v=mxe_6F_pm3o (18 Mars 2019)

إنّ الحركة الاجتماعية باعتبارها مجهوداً جماعياً لا تقتصرفقط على خلق نظام جديد للحياة أو فرض تغيير جزئي داخلها، إنها براكسيس شبيه بالميكانيزم الذي تتكاثر به ومن خلاله الفطريات، فتتولّد عنها تغييرات في المؤسسات الاجتماعية وتفرز حالات ثورية في دينامية سيرورتها/صيرورتها.

علاوةً على الجانب المطلبي لهذه الحركات فقد ساهمت إلى حدّ معيّن في خلق صنف فريد من الاندماج الاجتماعي الذي لم يتولّد عن انتماء لعرق واحد أو دين واحد، إذ جمعت بين فاعلين مختلفين مطامح واحدة ترتبط في غالب الأحيان بقيم المواطنة والعيش بكرامة. وهذا يعود على نحو من الأنحاء إلى أنّ مطالبهم لم تكن تخصّ فئة دون أخرى، فلم تقتصر على الشباب فقط أو منطقة معيّنة أو قطاع بعينه (ليست سكتارية) بل ضمّت جميع الشرائح الاجتماعية دون استثناء. وقدّ اعتبر تشارلز تيلي أنّ هذه الحركات تجمع بين فئات اجتماعية مختلفة يجمع بينها إحساس بالظلم والقهر لتُترجم هذا الاحتقان إلى فعل جماعي يهدف إلى تشييد نظام جديد للحياة، وقد قال في هذا الصدد "إنّ الحركات الاجتماعية كما يوحي الاسم هي تنظيمات شاملة مؤلفة من جماعات متنوعة المصالح، تضمّ حال تشكّلها طبقات مهمة في المجتمع مثل العمال والجماعات النسائية والطلاّب إلى جانب العنصر الفكري. والشيء الذي سيجمع هذه القطاعات المختلفة من المجتمع ذات المصالح المتنوعة هو شعور عام بالضيم"[2]

إذ على عكس الأحزاب السياسية التي لها أهداف تخصّها ولها تقاطعات ومصالح تحتكم إليها، فإنّ الحركات الاجتماعية تُمارس من خلال فعلها الاحتجاجي -مهما كان الشكل الذي أخذه- ما يُعرف بالـ"السياسة الفوقية" (Méta-politique)[3]، فأهدافها لا تقتصر على مساءلة الحكومة فقط في المسائل السياسية بل تسعى إلى فرض تغيير أعمق يلمس

[2]تشارلز تيلي- الحركات الاجتماعية1768/2004- ص33- ترجمة ربيع وهبة- المجلس الأعلى للثقافة-2005- القاهرة

[3] Eduardo ROMANOS "Les Indignés et la démocratie des mouvements sociaux"- La vie des idées

جميع أوجه الحياة الاجتماعية وأولوياتها (التشغيل/ التضخم المالي/ الفساد...)، والجدير بالذكر أيضا اعتماد هذه الحركات على سياسة التدرّج، إذ تنتقل من مطالب معيّنة مثل رفض مشروع قانون ما لبلوغ مطالب أشدّ شمولية كالتشغيل أو القضاء على الفساد وصولاً إلى المناداة بإسقاط الحكومة.

بالعودة إلى الواقع التونسي، سنلحظ أنّ الفاعلين الاجتماعيين خلقوا أطراً مختلفة للاحتجاج سعوْا من خلالها إلى إحداث تغييرات في البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية الخ... على غرار الحركات السياسية الشبابية أو النسوية أو الفيراج...

لكن وبالتوازي مع هذا الزخم في الفعل الميداني خُلق جيل من الباحثين الشباب الذي عايشوا مراحل تشكّلالحركة الاجتماعية، وأوجدوا أطراً مختلفة للتكوين مكّنتهم فيما بعد من التفكير من داخلها وممارسة فعلهم الاحتجاجي سواءً من خلال بحوثهم الأكاديمية أو تأطيرهم ومشاركتهم الميدانية في الحركة الاجتماعية.

الطرح الإشكالي:

مع السعي الحثيث للمنظومة التقليدية لإعادة إنتاج نفسها في جميع المواقع، أفرز السياق الثوري فاعلين مختلفين من حيث الرساميل والأدوار على غرار الفنانين والصحفيين والمدونين والباحثين لفرض صراع مع قوى الارتداد نحو الوراء في جلّ الحقول، وذلك من أجل السيطرة/الهيمنة على الخيرات الرمزية (Les biens symboliques) للمجتمع وإدارتها من جهة، ودفع عجلة تقدّم الحركة الاجتماعية وخلق مسارات جديدة ومن ثمّة تصدير هذا الوعي لعموم الناس من جهة ثانية، باعتبارها مهمة تاريخية يضطلع بها المثقف الملتزم بقضايا مجتمعه.

من هذه الزاوية يتراءى لنا أنّ هؤلاء الباحثين يُمثّلون على نحو من الأنحاء جزءاً من فسيفساء الحركة الاجتماعية، أولاً لكونهم يهدفون إلى تغيير الواقع الأكاديمي والتفرّد بالبحث في القضايا الأساسية والمركزية، التي كانت تُعدّ في المنظومة القديمة تابوهات، وثانياً لكونهم مشاركين في هذه الحركة باعتبارهم عيناً ناقدةً بإمكانها تفكيك آليات السلطة من جهة وفاعلين ميدانيين من جهة أخرى.

فمن هو الباحث الفاعل؟ وما هي سماته؟ وفيمَ يختلف عن باقي الفاعلين؟ وأخيراً ما مدى تأثيره في الحركة الاجتماعية وتأثّره بها؟

المقاربة المنهجية:

سنعتمد في مستوى أوّل على بحث بيبليوغرافي للمراجع التي تناولت المفاهيم ذات الصلة بالباحث الفاعل، أمّا في مستوى ثانٍ سنعتمد على المنهج الكيفي، وتحديداً عبر تقنية المقابلة شبه المسيرة، وهي عبارة عن مجموعة من الأسئلة المحددة والمرتبة ترتيباً منهجياً معيناً تتضمن عدة مواضيع فرعية ومقصودة تتعلق بموضوع البحث. وهو ما سيساعدنا على محاولة فهم دوافع انخراط هؤلاء الباحثين في الحركة الاجتماعية ورصد تمثلاتهم حول الالتزام. وستكون الشريحة المستهدفة موضوع الدراسة من الباحثين الشبان الذين شاركوا فعلياً في الحركة الاجتماعية ميدانيا وعبر مداخلاتهم الإعلامية أو مقالاتهم المنشورة أو الدراسات الذين قاموا بها أو شاركوا فيها.

1- من هو الباحث الفاعل؟

"كونوا واقعيين... طالبوا بالمستحيل!".

لم تكن هذه الجملة مقتطفاً من نص أدبي أو بيتاً في قصيدة، بل كانت أحد شعارات ماي 68 التي خطّها الطلاّب على الجدران الباريسية، معلنين عن انخراطهم في حركة اجتماعية لها مطامحها وأدواتها الثورية.

شارك في تلك الحركة -التي انطلقت من ساحات الكليات بقيادة الطلبة إلى الفضاء العام ليلتف حولها بعد ذلك جموع الناس على اختلافهم- العديد من المفكرين والمبدعين الذين نزلوا إلى الشوارع والتحموا بالجماهير على غرار فرنسوا تروفو وجان لوك غوداروسيمون دو بوفوار وجيل دولوز وألان باديو وجون بول سارتر الذي اعتقله البوليس الفرنسي مع رفاقه حين كانوا يُوزّعون جريدة (La cause du peuple)المناهضة للسلطة.

إنّ تناول مفهوم إشكالي حول الباحث الفاعل ودوره ومكانته داخل الحركة الاجتماعية موضوع هذه الورقة، يضعنا في مأزق سوسيولوجي نظراً إلى انعدام وجود تعريف علمي له، وبسؤالنا للمبحوثين -أثناء إجراء المقابلات- حول كيفية تعريف أنفسهم في سياق الحركة الاجتماعية وأيّ موقع شغلوه داخلها تباينت آراؤهم، فمنهم من رجّح كفّة الفاعل على الباحث، واعتبر أنّ دوره سيقتصر على النضال الميداني، فالجماهير على حدّ اعتباره لا تقرأ بطبعها، وبالتالي فهو لن يختلف عن أيّ فاعل آخر في الحركة الاجتماعية، كما أنّ مسألة التجييش والتأثير في عموم الناس غير مرتبطة بالرأسمال الأكاديمي للشخص، بل بمميزات ذاتية قد توجد في الباحث أو في غيره (شخصية كاريزمية). وهو ما يحيلنا إلى إلغاء صفة الباحث والاحتفاظ بالتعريف الذي خصّ به علماء الاجتماع الفاعلين.

في حين رأى آخرون أنّه يُقدّم إضافة نوعية إلى الحركة الاجتماعية، فقد اعتبره أحدهم أنّه الشخص الذي يقوم بدراسات بحثية علمية في الإنسانيات، ويكون في نفس الوقت منخرطاً في الفعل المجتمعي سواءً بالرأي أو النقد أو المقترحات، ولا يشترط أن تكون أبحاثه الأكاديمية مرتبطة بالحركة الاجتماعية. فيما رأى آخر أنّه يشغل صُلب الحركة الاجتماعية وظيفة الراصد والموثق والناقد لها والساعي إلى تطويرها في آن واحد. وأضاف مبحوث آخر أنّ اعتماد قبعتين -أي باعتباره باحثاً وفاعلاً في آن واحد- يُتيح له أن يحتل موقعاً مميّزاً داخل الحركة الاجتماعية، فالتكوين الأكاديمي يُمكّنه من رأسمال معرفي يجعله مُلِمّاً بتعقيدات الحركة الاجتماعية وقادراً على تفكيك آليات الهيمنة الرمزية للسلطة، وبذلك تكون تصريحاته الصحفية أو الاجتماعات العامة وحلقات النقاش مع الجماهير التي

يقوم بها أثناء الاحتجاجات عميقة لكونها من زاوية علمية/موضوعية ليس بإمكان باقي الفاعلين التطرق إليها. ونخلص من خلال هذا الموقف إلى أنّ أغلب المبحوثين قدّ عرّفوا وجودهم كفاعلين باحثين انطلاقاً من الدور الذي يضطلعون به في الحركة الاجتماعية ومن نوع القيمة المضافة التي يُحققها وجودهم في سياق الفعل الجماعي.

يتراءى للقارئ منذ الوهلة الأولى ازدواجية مفهوم الباحث الفاعل، وكأننا أمام وجودين اجتماعيين حدث انصهار بينهما، فالفاعل في السوسيولوجيا الفيبرية يُقصد به الفرد الذي تُوجّهه قيم معيّنة فيُضفي معانٍ على فعله. وقد خَلَفَهُ في هذا التوجه رايمون بودون (Raymond Boudon) الذي اعتبر أنّ "الظاهرة الاجتماعية كيفما كانت هي نتاج لأفعال ومواقف ومعتقدات وسلوكات الأفراد"[4]، في حين رأى آلان توران (Alain Touraine) أنّ الذات الفاعلة هي المتحررة من الهيمنة التي تمارسها الأنظمة بشكل عام، وبالتالي فإنّ ما يُميّز هذه الذوات الفاعلة عن غيرها قدرتها على الفعل والحركة أي أنّها حرّة في اختياراتها وساعية إلى التغيير، وقد قال في هذا الصدد "ليس عنصرا من عناصر التعارض (الذات الفاعلة من جهة والعقل من الجهة الأخرى)، بل كتعبير محسوس عن رفض مزدوج وعن قرار. هناك رفض للسلطة التكنوقراطية، للعقلنة بالمفهوم التايلوري، ورفض للسلطة الجالياتية، لتسلط الهوية، لأن كل ذات فاعلة هي في آن واحد كونية وجالياتية"[5]، وأضاف في مقام آخر بأنّ "الذات الفاعلة ليست من يتكلم بصيغة المتكلم المفرد أنا فحسب، بل من يعي حقه في استعمال هذه الصيغة"[6].

كما اعتبر أنّ المعنى الذي تصبو إليه هذه الذوات من خلال فعلها هو التاريخانية (historicité)، وقدّ وضّح هذا بقوله " أُسَمِّي ما أدعوه تاريخانية ذلك البعد الذي يتخذه المجتمع اتجاه نشاطه، والفعل الذي يحدد من خلاله مقولات ممارسته، فليس المجتمع ما هو كائن، ولكن ما يفعله لكي يكون عن طريق المعرفة التي تخلق وضعاً للعلاقات بين

---

[4]Raymond BOUDON: Traité de sociologie. PUF. 1992. p22

[5]فيليب كابان وجان فرانسوا دوتيه، علم الاجتماع: من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية أعلام وتواريخ وتيارات، ترجمة إياس حسن، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، سورية ـ دمشق، الطبعة الأولى 2010، ص 226

[6]Alain Toraine-un nouveau paradigme: pour comprendre le monde aujourd'hui- Fayard 2005 Paris

المجتمع ومحيطه، من خلال التراكم الذي يقتطع جزءاً من الناتج المتوفر من الدائرة المؤدية إلى الاستهلاك، عن طريق النموذج الثقافي الذي يتحكّم في الإبداعية بأشكال تخضع لنفوذ المجتمع العملية على سيره الذاتي، فهو الذي يخلق مجموع توجهاته الاجتماعية والثقافية بفعل تاريخي يكون فعلاً ومعنى"[7]، ويُقصد هنا بالتاريخانية امتلاك التاريخ لنفسها ويقع ذلك بإعادة إنتاج المجتمع لذاته عبر تأسيسه لتوجهاته الاجتماعية والثقافية النابعة منه، ممارساً بذلك هيمنة مضادة على الأنظمة التي تسعى دائما إلى تشكيل هذه التاريخانية.

أمّا مفهوم الباحث -وسنتناول هنا المختصين في العلوم الإنسانية- فهو كلّ من تلقى تكويناً أكاديمياً مكّنه من دراسة الظواهر وفق مناهج علمية صارمة، ويمكن أن يقع انتدابه ليشغل وظيفة خبير في مشروع ما، ويفكّ ارتباطه به ما إن ينتهي من أبحاثه حولهوبالتالي فإنّ علاقته بموضوع البحث نفعية بالأساس. أي أنّه شخص له رأسمال أكاديمي يقع اللجوء إليه لتأدية مهام/خدمات بحثية داخل مراكز الخبرة والتفكير (Think Tank) كما هو رائج في الدول الغربية.

كما سلف وذكرنا سابقاً بأنّه لا يوجد تعريف دقيق وجلي للباحث الفاعل في السوسيولوجيا أو باقي العلوم الإنسانية، لكن في المقابل يوجد مفهوم آخر ذو صلة والمتمثل في "المثقف" (L'intellectuel).

لقد مثّلت قضية "دريفوس" (Dreyfus) -وهو ضابط فرنسي يهودي المعتقد اتهمته فرنسا بالتخابر لفائدة الألمان، وزُج به في السجن تحت مسمى خيانة الوطن- لحظة تاريخية فارقة شهدت ولادة مفهوم المثقف، فقد وجّه إميل زولا (Emile Zola) رسالة إلى الرئيس الفرنسي فليكس فور في 23 جانفي 1898 بعنوان "أنا أتهم" (J'accuse)[8] يُندّد فيها بالمظلمة التي تعرّض إليها دريفوس طالباً إطلاق سراحه وردّ الاعتبار له.

[7]Alain touraine (1973): Production de la société, Paris: Le Seuil, P. 10
[8]Emile Zola- J'accuse! Et autres textes sur l'affaire Dreyfus- Paris: J'ai lu-2001

إنّ المظلمة المثارة في هذه القضية تابعة إلى هيئة الأركان والقضاء العسكريْن في فرنسا، وليست مرتبطة بالشأن العام، ولكن رغم ذلك سمح زولا لنفسه بأن يُعبّر عن امتعاضه وأن يدعو إلى الكشف عن الحقيقة وتطبيق العدالة. ومن خلال هذه الحادثة انبثق مفهوم المثقف الذي يواجه السلطة السياسية بالكلمة، ويساهم في تشكيل وعي الجماهير التي نزلت إلى الشوارع نُصْرة لذلك الضابط الذي أُنصف في قضيته فيما بعد ووقع إطلاق سراحه.

لكن مفهوم المثقف منذ تشكّله لم يحظَ بتعريف واضح بل ظلّ زئبقياً، فأنطونيو غرامشي (Antonio Gramsci) على سبيل المثال ابتدع مفهوم المثقف العضوي الذي جعله مناقضاً للمثقف التقليدي أي ذاك الذي يظلّ سجين برجه العاجي محافظاً بذلك على مسافة تفصله عن باقي الناس معتقدا بعلويته وأفضليته عليهم وبالتالي فهو متماهٍ مع ثقافة الطبقة السائدة، وقد أُسقطت عنه صفة/لقب المثقف لأنّه لم يتحسّس آلام شعبه، فيما يلتحم المثقف العضوي بهموم النّاس مواجهاً بذلك ما أسماه الهيمنة الثقافية، فالسلطة القائمة لا تنبني على القهر الفيزيقي للأفراد فحسب، بل كذلك على عامل القبول الذي تُكوّنه ثقافة الطبقة الحاكمة في أذهان الناس. وقد خلص غرامشي إلى اعتباره الاسمنت العضوي الذي يربط البنية التحتية بالبنى الفوقية ممّا يُتيح تشكيل "الكتلة التاريخية" التي تمتلك رؤى واستراتيجيات تمزج ما هو إيديولوجي بما هو ثقافي لتأسيس هيمنة ثقافية مضادة.

وقد تبنّى هذه الرؤية عدد قليل من المبحوثين، الذين أشاروا في أكثر من مرة إلى اعتبار ذواتهم مثقفين عضويين مهمتهم الالتصاق بالحركة من أجل تأطير الجماهير داخلها وبالتالي المراكمة من أجل اندلاع ثورة حقيقية تقلب موازين القوى وتقطع مع نمط الإنتاج السائد، وبالتالي تشييد نظام مجتمعي جديد على أنقاض ذلك المتهاوي، وقد تبيّن لنا أثناء إجراء المقابلات أنّ أصحاب هذه المقولة قد مرّوا جميعاً بتجربة سياسية في أحزاب يسارية.

من جهته وضّح ميشال فوكو (Michel Foucault) رؤيته حول المثقف في حوار أجراه قائلاً "يبدو لي بأنّ المهمة السياسية الحقيقية في مجتمع كمجتمعنا، هي نقد عمل المؤسسات، وخاصة تلك التي تبدو ظاهرياً وكأنّها محايدة ومستقلة، أي نقدها ومهاجمتها بطريقة يُنزع النقاب فيها عن العنف الذي تتضمنه بحيث نكون قادرين على النضال ضدّها. إذا كنّا نسعى إلى صياغة مجتمع المستقبل من غير نقد دقيق لهذه العلاقات بين مختلف أشكال العنف السياسي التي تمارس في مجتمعنا، فنحن مهددون بأنّ نرى سلطة الطبقة المهيمنة تُعيد إنتاج نفسها"[9].

انطلاقاً من هذه الشذرة نستخلص أنّ فوكو قد عرّف المثقف انطلاقاً من الدور المنوط بعهدته والمتمثل في تعرية وفضح ممارسات الأنظمة أو كما عبّر عنها فريديريك غرو (Frédéric Gros) بأنّ مهمة المثقف عند فوكو تتمثل في شجب العلاقات الخفية للسلطة. فالسلطة وفق تصوره ليست مجرّد مؤسسات ثابتة تمتلكها الطبقة المهيمنة بل إنّها صيرورة قائمة على الفعل والممارسة، أي بمعنى أنّها على عكس التصور الماركسي الكلاسيكي ليست بنية فوقية بل هي سيرورة محايثة[10] (Processus d'immanence) تعمل بشكل تقني في جميع المجالات الحياتية أي لا يمكن التعامل معها سوى على مستوى الميكرو-سلطوي، كما أنّها تُعبّر عن علاقات قوة قائمة على الحرب، وهذه الحرب تُدار على جبهتين: مادية ورمزية. فأبنية الدولة لا يتم المحافظة عليها دائما وأبداً بالقسر والتهديد، وإنّما أيضاً بالتلاعب بالعقول عن طريق الإعلام والمدارس والسجون...، بمعنى أنّ الحرب تستمر بوسائل أخرى.

ولمزيد توضيح مفهوم المثقف قام فوكو بطرح نموذجين متناقضين والمتمثلين في "المثقف الكلّي" و"المثقف المتخصّص"، وقد قال في هذا الصدد "ليس مثقّفو الكلّي هؤلاء سوى نسخ للأحزاب السياسية، على نحو ما. فلا، لا نريد هذا وأعتقد أن الحال

---

[9] خطر الجامعات (ومهمة المثقف الحقيقية تجاهها) عند ميشيل فوكو [En ligne]https://www.youtube.com/watch?v=Q7cg5sZAigQ (22 Mars 2019)

[10] نقصد بالمحايثة هنا فهم السلطة من داخلها أي لذاتها

ليست على هذا المنوال. في المقابل، أرى أن المثقّف الذي يسعه الانطلاق من العمل الفكري الذي يقوم به ليضطلع بمهمة إظهار الهشاشة التي تقوم عليها حالات الاستقرار الاجتماعي أو حالات الجمود الاجتماعي، التاريخية منها والسياسية والاقتصادية..."[11].

وهذا ما تعارض على نحو من الأنحاء مع مقولات رفعت من شأن المثقف الكلي كمفهوم "رجل القلم"، الذي صاغه توماس كارلايل (Thomas Carlyle)، واعتبر أنّه رأى النور مع اكتشاف تقنية الطباعة، وأكّد أنّ مهمته تتمثل في وراثة النبوة، إذ أنّ له القدرة على النفاذ إلى جوهر الحقيقة التي تخفى على عموم الناس. وبالتالي فهو صاحب أهمّ وظيفة وأشدّها تأثيراً في الوجود الإنساني برمته، فالمجتمعات في حالة تحوّل دائم وهؤلاء الأبطال/الأنبياء هم المسؤولون عن هذا التغيير.

لكنّ فوكو رأى أنّ المثقف الكلّي يُجسّد على نحو من الأنحاء مالك المعرفة، أو بالأحرى مالك الحقيقة الاجتماعية على غرار الماركسيين أو الوجوديين، والذي يعتمد على خطاب كلّي وشمولي وهو ما يُتيح له أن يُدْليَ بدلوه في كلّ قضية شائكة كانت أم بسيطة معتبراً نفسه ضمير المجتمع والمتحدث/المفكر نيابة عنه، مؤسساً بذلك إلى وهم "الحقيقة" وإضفاء شرعية عليه، كما أنّه يرى نفسه مُحرّك التاريخ والجسر الذي يقود المجتمعات نحو الأمام وقد قال بيار بورديو (Pierre Bourdieu) في هذا المقام "أقوال المثقفين تُساهم قي صنع التاريخ وفي تغيير التاريخ"[12]، هذا الصنف من المثقفين هو حسب المنظور الفوكووي ليس مخطئاً في تقدير نفسه ودوره فحسب بل إنّه مضاد لحركة التاريخ من الأساس ويُعتبراً شرخاً في جينيالوجيا المثقف، فالواقع لا يحتمل أن يُنصب أحد نفسه وصياً عليه أو على تغييره لكنه على العكس من ذلك في أمسّ الحاجة إلى مطرقة نيتشه كي يهدم هذه الصورة الوهمية ويبني على أنقاضها مثقفاً آخر، وهو نفس ما ذهب إليه جان فرانسوا ليوتار (Jean-François Lyotard) حين تطرّق إلى "موت السرديات

---

[11] يتعذّر وجود المجتمعات بلا حركاتٍ تمرّد - حوار مع ميشيل فوكو [En ligne]
http://post2modernisme.blogspot.com/2016/10/blog-post_57.html (21 Mars 2019)

[12] Pierre Bourdieu- Questions de sociologie- Paris: Les éditions de minuit 1984-P67

الكبرى" ذات التصوّرات الشمولية والكليانية كالديمقراطية والمجتمع الشيوعي، ويقصد بمفردة "موت" أنّ وجودهم غير ذي معنى.

لقد اعتبر فوكو أنّ "المثقف ليس مهمته نشر الوعي لأنّ الوعي كما المعرفة صارت مسألة مكتسبة لدى الجماهير، بل إنّ دوره النضال من أجل تقويض السلطة ومن ثمّة الاستحواذ عليها. "[13]، وبالتالي فإنّ عموم الناس لم تَعُدْ في حاجة إلى هذا الصنف من المثقفين لسبر أغوار واقعها، بل على العكس إنّ وجودهم يعكس في جوهره حضوراً **سلطوياً** باعتبارهم أرباب معرفة. وكأننا هنا أمام مثقف فرانكشتايني مشوّه التكوين، له ثقافة واسعة عابرة للاختصاصات، لكنها سفسطائية إذ لا تحمل أيّ مشروع.

وبالتالي فإنّ هناك دعوة إلى أن يُعيد المثقف تموقعه، وهذا يمرّ عبر "أن يكفّ عن تضخيم دوره التاريخي وأن يُقلع عن عادة انتداب النفس لأداء مهمات أعظم من حقل الثقافة ذاته"[14]. وقد اتفق مع فوكو في هذه الرؤية عدد من مفكري بعد الحداثة على غرار جيل دو لوز وجاك دريدا.

لقد كانت ماي 68 رجّة كوبرنيكية جديدة لهذا المثقف الكلّي، وقد قال محمد شيخ في هذا الصدد واصفاً سارتر "إنّ أحداث ماي 68 التي انخرط فيها، والتي مسَّته بعمق، كانت بالنسبة إليه فرصة لمُراجعة جديدة. لقد أحسَّ بتشكُّك من وجوده كمُثقَّف، ومن ثَمَّ اضطر في غضون السنتين اللاحقتَين، إلى التساؤل حول دور المثقف، وإلى تغيير التصوُّر الذي كان لديه عنه. وهو في هذا يَتشابه كثيرًا مع مفكري 68. إنّ المثقف محكوم عليه بالانسحاب من الأفق كإنسان يُفكِّر بدل الآخرين: أن نُفكِّر بدل الآخرين، أمرٌ غير معقول يضع مفهوم المثقف ذاته موضع سؤال"[15].

---

[13]Daniel Mouchard:" INTELLECTUEL SPÉCIFIQUE"- Presses de Sciences Po 2009- P 309

[14]بلقزيز، عبد الإله. نهاية الداعية. الممكن والممتنع في أدوار المثقفين. طبعة 2 بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2010 ص149

[15]محمد الشيخ- المثقَّف والسلطة- دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت لبنان- الطبعة الأولى 1991- ص109-110

في الجهة المقابلة لهذا الكلّي، نجد المتخصص أي ذلك المثقف الذي يُفكّر في مجال محدّد أي أنّه لا يكون مثقفاً سوى في مجال تخصّصه وبالتالي فإنّه يتحتّم عليه أن يُراقب عمل السلطة ويكشف آليات ممارستها للهيمنة انطلاقاً من حقله المعرفي، ومن خلال نقده وتشخيصه لما هو كائن سيفرض تغييراً، وقد قال محمد شيخ موضحاً رؤية فوكو لهذه المسألة "لا يتمثَّل عمل المثقَّف في تشكيل الإرادة السياسية للآخرين؛ إذ بأي حقٍّ يَفعل ذلك، بل في إعادة مساءلة البديهيات والمصادرات عن طريق التحليلات التي يقوم بها في المجالات الخاصة به، وفي زعزعة العادات وطرق العمل والتفكير، وفي تبديد المألوف والمسلَّم به، وفي استعادة حدود القواعد والمؤسسات"[16].

يرى فوكو أنّ السلطة تستغل قدر الإمكان الثورات المعرفية لمزيد تحديد الناس وتطوير تقنيات مراقبتها لهم، فاليوم -كما هو ملاحظ- ومع هذا الانفجار التكنولوجي صارت السلطة مدركة لتوجهات الناس ورؤاهم وما يصبون إليه لمزيد التحكّم فيهم كما أفادنا بعض المبحوثين. وللتصدّي لهيمنة السلطة فإن على المثقف المتخصّص أن يلعب دوره التاريخي والمتمثل في فك شفرات الميكرو-سلطوي وتحليل الخطاب السياسي. وقد قال في هذا الصدد "لا نستطيع إعادة بناء منظومة فكرية إلاّ بالاعتماد على مجموعة من الخطابات، ويتمّ ذلك على نحوٍ يكون الغرض منه هو العثور خلف العبارات نفسها على قصدية الذات المتكلّمة وعلى نشاطها الواعي، وما كانت ترغب في قوله، بل وعلى بعض التجلّيات اللاّشعورية التي برزت إلى واضحة النهار، فيما قالته صراحةً أو ضمناً، ومهما يكن من أمر، يتعلق الأمر في تاريخ الفكر بإعادة إنشاء خطاب جديد، بالعثور على الكلام الأبكم الهامس الذي لا يتوقّف، والذي يُحرّك من الداخل الصوت الذي نسمعه. يتعلق باستعادة النص الرفيع اللامنظور الذي يسري ما بين السطور المكتوبة ويزاحمها أحياناً. فتحليل الفكر هو دوماً وباستمرار تحليلٌ يسعى إلى البحث عن المعنى الحقيقي وراء المعنى المجازي، يبحث عن ما وراء الخطاب، سؤاله يتجه بلا شك نحو استكناه ماذا كان يقال وراء ما قيل فعلاً؟ أمّا تحليل الحقل الخطابي، فيتّجه وجهة أخرى مغايرةً، همُّه الأساسي

[16] محمد الشيخ-مرجع سابق- ص108

هو التعامل مع العبارة كشيءٍ قائمٍ بالذات، لا يُحيلُ إلى مستوى آخر، والنظر إلى ما في خصوصيتها وتميّزها كحدثٍ لا أصول له، وتحديد شروط وجودها، وتعيين حدود تلك الشروط بكيفية واضحة ودقيقة أكثر...، لا يتوجّه الاهتمام إطلاقاً إلى البحث خلف ما هو ظاهر، عن الثرثرة شبه الصامتة لخطاب آخر، بل إلى إظهار لماذا صعب عليه أن يكون غير ما كان، وكيف ينفرد عن باقي الخطابات الأخرى"[17].

في نفس السياق اعتبر فرنسوا ليوتار أنّ دور المثقف الحقيقي يتمثّل في إنتاج السرديات الصغرى القادرة على التغيير، وقد قصد بها "جميع الخطابات التي تشكلها جماعات أو تجمعات معينة لتحقيق أهداف محددة لها طبيعة مرحلية وبراغماتية، ولا تحمل الطابع الشمولي ولا السلطوي القسري للسرديات الكبرى"[18].

لكنّ راسل جاكوبي (Russell Jacoby) في كتابه "آخر المفكرين" عارض هذا المتخصص واعتبر أنّه تقهقر وارتداد نحو الوراء، فالمثقفون وفق رؤيته حتى نهايات الخمسينات من القرن المنصرم كانوا موسوعيين وبإمكانهم مخاطبة الجماهير بلغة يفهمونها وهذا ما مكّنهم حسب رأيه من القيام بدور ريادي في طرح قضايا مجتمعاتهم والاضطلاع بمهمة التغيير، لكنّ بعد تلك الحقبة اضمحلت تلك الصورة وحلّ محلّهم ما يُعرف بالأكاديميين المتخصصين الذين لا يمتلكون لا القدرة ولا الإمكانيات التي تخوّل لهم مخاطبة الجماهير والتغلغل داخلها، واقتصر دورهم على تطوير اللغة العلمية لاختصاصاتهم بطريقة تجعل فهمها عسيراً على عموم الناس، وبذلك يصير هؤلاء الباحثون الأكاديميون فئة مغلقة ومنعزلة عن محيطها الاجتماعي.

وهذا ما أثارته الباحثة النسوية ميراندا فريكر حين تناولت مسألة "الجور الهرمينوطيقي" والتي وضحت فيها عدم قدرة الضحايا على وصف تجاربهم وآثارها النفسية عليهم نظراً

[17]ميشيل فوكو- حفريات المعرفة- ترجمة سالم يفوت- المركز الثقافي العربي بيروت الدار البيضاء- الطبعة الثانية 1987- ص 27
[18]مديحة دبابي ما بعد الحداثة- خطابات الـ"ما بعد": في استنقاد أو تعديل المشروعات الفلسفية- دار الأمان الرباط 2013- ص154

إلى محدودية رأسمالهم الثقافي[19]، وبالتالي فإن المثقف عموماً هو صوت من لا صوت له على حدّ تعبير ادوارد سعيد، ومن لا صوت لهم هنا هم الفاعلون الذين يعانون من فقر ثقافي.

أمّا بورديو فقد أوجد الخيط الفاصل بين السوسيولوجي التقني، والآخر النقدي الملتزم، فالأوّل يُوظّف معارفه ورأسماله الأكاديمي/الثقافي من أجل كسب رزقه وهذا ما يجعل بينه وبين موضوع البحث هوّة عميقة، أمّا الثاني فهاجسه التغيير المجتمعي والنضال، ولذلك فإنّه يُعرّي العنف الرمزي للسلطة ويخترق الحقل الاجتماعي لينتج المعنى -أي ذلك المبني على النقد والسّاعي إلى بيان الحقيقة- الذي تحتاجه الجماهير، موظفاً في ذلك معارفه المتّصلة بالفعل، ولذلك اعتبر أنّ السوسيولوجيا هي العلم الذي **"يُزعج"**.

استناداً إلى ما تمّ ذكره في جينيالوجيا المثقف من جهة ومن تحديد مفهوميْ الفاعل والباحث وما خلصنا إليه من خلال المقابلات البحثية من جهة ثانية، فإننا سنقدّم محاولة صياغة مفهوم للباحث الفاعل.

إنّه كلّ فرد تلقّى تكويناً أكاديمياً في مجال العلوم الإنسانية، وفي ذات الوقت ليس منفصلاً عمّا حوله نائياً بنفسه عن مشاغل مجتمعه، إذ أنّه ملتزم بها وساعٍ إلى المساهمة في التغيير.

إنّ هؤلاء الباحثين الفاعلين على غرار السوسيولوجي والمؤرخ ورجل القانون وعالم النفس والخبير في مجال العلوم السياسية يوظفون معارفهم في مجالات تخصصهم -على نحو تطبيقي وبشكل تفاعلي داخل مراكز الخبرة والتفكير وسط الحركة الاجتماعية- على نطاق الميكرو-سلطوي لاستقراء الواقع الموضوعي من زوايا مختلفة ونقد آليات السلطة والأمراض التي قد تطال جسد الحركة الاجتماعية، وتحويل المطالب إلى مفاهيم سياسية ممّا يُخوّل لهذه الحركة صياغة توجه عام يفرض هيمنة مضادة على الماكرو-سلطوي.

[19]Miranda Fricker-Epistemic Injustice: Power and the ethics of knowing- New York: Oxford-University Press-2007-P147

نحن -الآن وهنا- إزاء فاعل جديد، فاعل لم يصطف وراء كارل الماركس (Karl Marx) الذي أوكل له مهمة التغيير، كما أنّه لم يتخندق مع سلافوي جيجك (Slavoj Žižek) الذي اعتبر أنّ الخلاص يكمن في إعادة تفسير العالم، والّذي قال في هذا الصدد "في القرن العشرين ربما حاولنا أن نُغيّر العالم بسرعة شديدة، وقد حان الوقت لتفسيره مرة أخرى، فلنبدأ التفكير"[20].

إنّه فاعل متماهٍ مع السياق التاريخي الذي يوجد فيه، يُراوح بين فهمه ومشاركته **الميدانية** باقي الفاعلين -على اختلافهم- في الفعل والتغيير. كما أنّه مدرك لانسيابية الواقع وهذا ما يجعله ينأى بنفسه عن سلطة المتكلم باسم الحركة الاجتماعية أو ادّعائه أنّه المالك الوحيد للمعرفة، بل على عكس ذلك فهو يُولّد خطاباً تشاركياً أفقياً يبني معانٍ ورؤى واستراتيجيات.

2- سمات الباحث الفاعل:

إنّ الباحث الفاعل هو ابن بيئته أولاً وقبل كلّ شيء، وهذا ما يجعله يعي خصوصية واقعه المجتمعي بعيداً عن الأطر النظرية الكبرى والإسقاطات التي جعلت الوجود الإنساني خاضعاً لمبدأ الحتميات، ويقطع مع الشمولية التي تمنح للمفكر عموماً حق العبور من اختصاص لآخر جاعلا الواقع محكوماً بنظريات عامة، وهذا تقريباً ما جاء على لسان عدد من المبحوثين الذين أكّدوا أنّهم لم ينطلقوا ممّا درسوه طيلة تكوينهم الأكاديمي فقط، بل إنّهم راوحوا بينه وبين المعطيات الواقعية.

إنّ الباحث الفاعل هو كلّ فرد انتقل من سلطة المتكلم "أنا" إلى "نحن" التشاركية التي ترنو إلى التفكير بعقل جماعي، فكلّ يفكك ويحلل ويفهم معطيات الواقع -التي يُلاحظها عن

---

[20] سلافوي جيجك: لنبدأ التفكير الآن
[En ligne] https://www.youtube.com/watch?v=mxe_6F_pm3o (18 Mars 2019)

قرب باعتباره مشاركاً ميدانياً في الحركة الاجتماعية- حسب اختصاصه الأكاديمي، نائياً بنفسه عن فعل المراكمة حسب الأدبيات الماركسية مؤسساً إلى إستراتيجية تفاعليةتشاركية يلتحم فيها المختصون على اختلاف حقولهم المعرفية بباقي الفاعلين وسط مراكز الخبرة والتفكير داخل الحركة الاجتماعية، ليقع الانتقال من الكوجيتو الديكارتي **"أنا أفكر إذاً أنا موجود"** إلى **"نحن نفكّر إذاً نحن نُغيّر"**، فعمليات التفكير الجماعي هذه التي تنبني على إستراتيجية التفكيك هدفها تحويل المعرفة إلى أدوات فعل وتغيير.

هؤلاء الباحثون الفاعلون وظّفوا إلى حدّ مُعيّن إحدى التقنيات البحثية والمتمثلة في الملاحظة بالمشاركة، والتي اعتبر توران أنّ المغزى منها فهم الآخر من خلال تقاسم ظروف مشتركة، إذ أنّها تجعل الباحث يخترق الظاهرة موضوع الدراسة ويتحوّل من خلالها من مجرّد مراقب إلى فاعل وهو ما يُتيح له فهماً أعمق لها. لكنّ ما يُميّز الفاعلين الباحثين عمّن يعتمدون هذه التقنية، أنّهم منخرطون فعلياً في الممارسة ويتبنون القضايا التي قامت عليها الحركة الاجتماعية، وبالتالي فإنّ دورهم لا يقتصر فقط على الفهم عن طريق التشبيك فيما بينهم وإنّما كذلك بترجمة هذا الفهم إلى أدوات نضالية. وهذا ما ذهب إليه جلّ المبحوثين.

هذا الأمر يقودنا كذلك إلى الكشف عن تقاطع مع تقنية البحث الأوريستيكي (Heuristique)، والتي تقوم على فكرة مفادها أنّ الباحث لا يمكنه فهم ظاهرة ما وهو يكتفي بالتحديق من الخارج، بل عبر انغماسه فيها وعيش تجربة حيّة داخلها، فهذا البحث يشغله المعنى وليس القياس، والجوهر وليس ما هو ظاهري، والكيفي وليس ما هو كمّي، والتجربة وليس السلوك"[21].

[21]P.Paillé "Recherche Heuristique" Mucchieli et collaborateurs- Dictionnaires des méthodes qualitatives en sciences humaines- Editions Armand Colin-2019-pp 217-218

من زاوية أخرى، صار من الجليّ أنّ مواقع الاتصال الاجتماعي اليوم تتضمن معاملات إنسانية مكثفة يتقاطع فيها التواصلي بالتجاري كما تُعرض فيها المواقف السياسية وتُنظّم من خلالها وعبرها التظاهرات الثقافية وتُنسق فيها الحركات الاحتجاجية. وقد أكّد يورغن هابرماس (Jurgen Habermas) على أنّ وسائل الإعلام الالكتروني أحدثت جدلاً واسعاً وسط الجماهير، وأتاحت أثراً كبيراً في القضايا العامة في النخبة والسلطة والجماهير على حدّ السواء[22].

تبعاً لما أوردناه فإنّ ما يُميّز الباحث الفاعل قدرته على توظيف المجال السيبيراني من أجل فتح نقاشات تخصّ قضايا الحركة في مواقع التواصل الاجتماعي وعرض إنتاجه المعرفي وقد يتحوّل داخل هذا الفضاء الافتراضي إلى فرد مؤثر وقائد رأي، وهو ما يُتيح له أن يجعل من الفضاء الرقمي أداة احتجاج وحشد.

إنّ هذا الباحث الفاعل هو بمثابة المثقف الذي أدرك أنّ العالم صار مرادفاً لـ "عن بُعْد" فهو اختزال لتكثيف زماني ومكاني في آن واحد، وهو ما اعتبره جورج غيرفيتش (georges gurvitch) "تكثيف الزمنية". ففي وقت وجيز تتدفق أخبار عديدة وأحداث لا حصر لها، تسقط أنظمة وتحدث انقلابات وتتحرك مجموعة ضغط هنا ويُحكم ناشطون في بلد ما بالإعدام، ومن واجب الباحثين الأكاديميين مسايرة هذا الواقع الانسيابي واستغلال وسائط التواصل الجماهيري الحديثة.

وسنذكر على سبيل التعداد لا الحصر، مساهمة الفاعلين المختصين في مجال القانون في حملة "مانيش مسامح" على توضيح الإخلالات وما قد ينجم عن تمرير مشروع قانون المصالحة، وقد استندوا في ذلك -بالتوازي مع نشاطهم الميداني- على منشورات فايسبوكية مكتوبة بالعامية التونسية، كما اعتمدوا على النقل الحي والمباشر لجلسات نقاشهم عبر مواقع التواصل الاجتماعية وفسح المجال أمام تفاعل النّاس الذين لم يكونوا مدركين لحيثيات الموضوع، هذا دون التغاضي عن دور هشتاغ "مانيش_مسامح" الذي

[22]Jurgen Habermas-L'espace public- Paris:Payot 1987

ساهم في نشر القضية على نطاق واسع. وينسحب نفس الأمر على ما قام به الأساتذة في احتجاجاتهم الأخيرة والحملة المرافقة لها تحت اسم "جيش_الطباشير". الأمر الّذي ساعدهم على اختراق التعتيم الذي فرضه الإعلام الرسمي أو الرؤية الواحدة التي مرّرها.

انطلاقاً من كلّ ما سبق ذكره نستطيع أن نستشفّ سمة مركزية لهذا الفاعل الباحث، فهو انغماسي مخترق للحدود الزمكانية، إذ أنّه لم يظلّ سجين الأطر الأكاديمية كالجامعات والمنتديات ولم تقتصر إنتاجاته على مذكرات البحث أو المقالات العلمية التي لا يقرؤها سوى أهل الاختصاص، بل صار منفتحاً على الفضاء العام بما في ذلك الرقمي منه مستعملاً في ذلك لغة سلسلة، وبالتالي فقد جعل من معرفته أداةً للمساهمة في التحليل والتغيير.

3- اختلافه عن باقي الفاعلين:

إنّ الفاعلين في صلب الحركة الاجتماعية غير متماثلين، لا من حيث بيئتهم الاجتماعية أو الأسباب الكامنة وراء انخراطهم في هذه الحركات ولا حتى أدوارهم داخلها.

فالمبدع -وسنخصّ بالذكر أولئك الذين يمارسون فن الشارع- حين يُناصر حركة ما، فإنّه يسعى إلى تقديم مشروع مزدوج يجمع بين ما هو سيميائي من جهة والقضايا التي تنادي بها تلك الحركة من جهة ثانية نظراً إلى ما تملكه الفنون على اختلاف أشكالها من قدرة على التعبير الرمزي. فأثره الفنّي هو عبارة عن حالة نقدية سياسية واجتماعية ذات بُعد احتجاجي، فمثلا في تونس يوم 14 جانفي 2018 نزلت فرقة مسرحية تحمل اسم "كتيبة المهرجين الناشطين" للاحتجاج على مشروع قانون المالية للسنة ذاتها، وقد تعمّدت عناصرها استفزاز عناصر البوليس بالقيام بحركات معينة، ومردّ هذا كسر الصورة النمطية المرتبطة بهيبة/قوة جهاز البوليس وهذا ما يُحرّر وفق نظرهم باقي الناس من سجن الخوف ويُحفّزهم على المطالبة بحقوقهم. هذا علاوة على سرعة انتشار الأثر الفني على مواقع التواصل الاجتماعي -على غرار أغاني الراب أو "Slam" أو صور الغرافيتي أو

المسرح الارتجالي...- وما يرافقه من شحنات وجدانية، تكون مدخلاً يُمكّن من حشد أنصارٍ جددٍ لهذه الحركة.

لذلك، يمكن القول إنّ حضور التعبير الفني في الفضاء العام هو انتقال بصوت الرفض/المقاومة من الدوائر المهمشة إلى أمكنة لا يمكن تجاهلها، فارضاً هيمنة مضادة لتلك التي تعتقد بحقها القسري في تشكيل الفضاء المديني العام، وهنا تستمد مقولة أنّ **"الإبداع حاجة اجتماعية"** مشروعيتها.

من جهته يرى الصحافي -بغضّ النظر عن انخراطه في حركة اجتماعية ما من عدمه- كلّ العالم المحيط به على أنّه **"حركة اجتماعية ضخمة ومكثّفة"** عليه تفكيكها إلى أجزاء وفق آليات الخبر وأولوياته. وإن خصصنا بالذكر الصحفي الذي يكون جزءاً من حركة اجتماعية فالواقع الموضوعي يقول إنّ وجوده هناك يمكنه من مادة خام وفيرة عليه أن يُحوّلها إلى مادة للاستهلاك الخبري أي صناعة الخبر. وهنا يبرز دوره في الحركة الاجتماعية، فهو أولاً وقبل كل شيء أداة لحمل الصورة والوقائع إلى الجماهير، ممّا يساعد على توسيع قاعدة المناصرين، كما أنّ تعريته وفضحه لحقائق معيّنة يُحرج السلطة ويجعلها في أغلب الأحيان تُعير انتباهها للإشكالات التي تطرحها جماعة الضغط تلك أو الأخرى.

من جهة أخرى شهد عالم الصحافة تطوّراً في تقنيات البحث عن المعلومة وفي شكل نقل الخبر، وقد استفادت من ذلك الحركة الاجتماعية، ونخصّ بالذكر هنا صحافة الانغماس التي يتحوّل فيها الصحافي من وسيط لنقل/صناعة الخبر إلى جزء من القصة الصحفية، فهو لا يعتمد فقط على تحليل الخطاب وتقديم أدلّة ملموسة حول قضية ما، فله موقف داخل هذه الحكاية إذ يُوجّه اتهامات مشفوعة بالمؤيّدات ويُحرك المياه الراكدة التي تَخْفَى عن باقي الناس، والتي تكون ذات صلة بالقضايا الكبرى للحركة الاجتماعية على غرار الفساد الإداري أو المحسوبية مثلاً، ونذكر هنا على سبيل المثال ما قام به موقع

"انكيفادة" حين قام بالكشف عن وثائق بنما وما لاقته من موجة استهجان واسعة، وقد تكون تحقيقات من هذا النوع في بعض الحالات شرارة تنبثق منها حركة اجتماعية ما.

إنّ المسرح الأثيني قديماً كان وجهاً من وجوه الصحافة، لكن شكل نقل الصورة إلى الجماهير مختلف. فلئن كانت المقالة آليةً صحفيةً، فإن الدراما والكوميديا والتراجيديا آليات وأطر فنية لإيصال البلاغ ذاته إلى الناس. بل وتوجد مدارس حديثة على غرار مدرسة الصحافة الجديدة الأمريكية ومن أعلامها توماس وولف، والتي تشير إلى أنّ الكتابة الصحفية هي فن قصصي أولاً وقبل كلّ شيء. وبالتالي ليس للصحفي أي اختلاف، في جوهر الوظيفة، مع الفنان. إذ أنّ الاختلافات بينهما تقنية وفي وجهة الخطاب، فالفنان يُخاطب على نحو من الأنحاء وجدان الجمهور في حين يسعى الصحافي إلى توضيح رؤى الجماهير والاشتغال حول إنتاج تمثلات جمعية مبنية على منطق الاستدلال والبرهان لمسائل معينة.

أمّا المدوّنون فقد شكّلوا الفئة الأشدّ فاعلية خلال الفترة الممتدة 17 ديسمبر 2010 و14 جانفي 2011 -هذا دون أن نتغاضى عن دورهم ما قبل هذه الفترة وما بعدها- إذ نقلوا الأحداث لحظة بلحظة وفضحوا الممارسات القمعية التي انتهجتها السلطة مشكلين بذلك إعلاماً بديلاً، وهذا ما جعلهم على نحو من الأنحاء قادة رأي، لهم القدرة على الحشد والتعبئة ضدّ النظام وقتئذ أو ما اعتبروه منصفاً فيما بَعْد.

في المقابل نجد أنّ الباحث الفاعل لا ينفعل وجدانياً كما الفنان، فالفنان يُترجم حنقه أو تعاطفه بعمل فنّي، فما هو شعوري مولّد الفن. كما أنّه لا يبحث عن سبق إعلامي كالصحافي، ولهذا فهو لا يخاطب وجدان المتلقي ولا يكتفي بوظيفة الإخبار، بل يقوده ما هو علمي، وتُحرّكه ديناميكية الفكر بما تفترضه من نقد ونقاش واتصال وابتكار، ولذلك بانخراطه في الحركة الاجتماعية يستطيع أن يخترق الظاهرة من الداخل ويفهمها عن كثب ويُحلّل تشاركياً أدوات الهيمنة التي تُسخّرها الدولة ويبني بشكل تفاعلي وأفقي استراتيجيات الفعل من أجل التغيير.

4- حدود دور الباحث الفاعل في الحركة الاجتماعية:

امتداداً للعنصر السابق سنلاحظ أنّ تأثيره على الجماهير يبقى محدوداً مقارنة بالفنان الذي يسهل عليه استفزاز وجدان المتقبل، أو بالصحفي الذي قد يؤلب تقريره حول مسألة ما الرأي العام وقد يكون سبباً مباشراً في تكوّن حركة اجتماعية. فالجماهير لا تتأثر بالخطاب العلمي ولا يستهويها كذلك كما ذكر أحد المبحوثين. وهذا الأمر نستخلصه أيضاً من الملاحظة البسيطة، فمستخدمو مواقع التواصل الاجتماعي يتناقلون الأخبار الصحفية أو الأثر الفني أكثر بكثير من مقال رأي أو منشور فايسبوكي حول تحليل معيّن لخطاب سياسي أو أمر آخر.

كما تجدر الإشارة أيضاً إلى أنّ الفنانين والصحفيين والمدوّنين سبّاقون في توظيف الرقمي في التواصل مع المتقبلين، ويعتمدونه أكثر من الباحثين الفاعلين الذين ظلّ تعاملهم الشبكي محتشماً بالمقارنة بهم علاوةً على كونه جاء متأخراً نسبياً.

من زاوية أخرى نجد أنّ الفنان بإمكانه التنبؤ بالمستقبل باعتماد حدسه نظراً إلى كونه عكس الباحث الفاعل متحرر من سطوة النظري، فعلى سبيل المثال تنبّأت إحدى مجموعات الألتراس باقتراب اندلاع الثورة في إحدى أغانيها، إذ قيل بصريح العبارة "يا الحكومة Révolution قريبة"[23].

إنّ الحديث عن موضوعية -كما وصف أحد المبحوثين- مسألة أشبه بـ"الإيثوبيا" (Utopie) أو الهراء، ويُذكرنا هذا بما قال ناجي العلي واصفاً موقعه داخل مجتمعه "أنا متهم بالانحياز، وتلك تهمةٌ لا أنفيها. أنا منحاز لمن هم **تحت**"، كما أنّ لا شيء موضوعي في البناء الصحفي سوى الحدث فقط، لأنه حاصل لا محالة لكن النقاش سيكون دائراً حول كيفية تناول الصحفي للحدث الاجتماعي، فهو منحاز إلى رؤية ما في هذا السياق.

[23] Manifesto - una storia Club Africain[En ligne] https://www.youtube.com/watch?v=hWv6HaiHZlc (27 Mars 2019)

إنّ الفاعل الباحث كغيره من الفاعلين -وإن كان بمستوى أقل نسبياً- منحاز بالضرورة لرؤية الحركة الاجتماعية، فلو كان غير مؤمن بها لما انخرط فيها من الأساس، وقد وضّح أحد المبحوثين هذه المسألة قائلاً بأنّ الباحث سواءً كان فاعلاً أم لا فهو محكوم بموضوعية البحث ومنهجه، لكنّ الباحث الفاعل يكون أكثر انحيازاً في بعض الاستنتاجات والتقديرات في المواقف التي تنتصر للحركة الاجتماعية التي انخرط فيها عبر أبحاث موضوعية.

لكنّ مبحوثاً آخر أكّد على كون التقنيات البحثية من السهل التحكّم فيها وتوجيهها من قِبَلِ الباحث وهذا ما سيجعله قادراً على الخلوص إلى استنتاجات تنتصر إلى الحركة الاجتماعية وتتجاوز في بعض الأحيان الإخلالات التي قد تطالها من الداخل.

نحن إذاً إزاء تطبع (Habitus) مزدوج، فما هو علمي يتقاطع مع ما هو نضالي على حدّ تعبير أحد المبحوثين، وقد أضاف في ذات السياق أنّ الحديث عن "وضعنة" البحث، لا يمرّ إلاّ عبر وضعنة الباحث نفسه أي عبر تحديد علاقته بموضوع البحث، وبما أنّ الباحثين الفاعلين منصهرون داخل الحركة الاجتماعية موضوع البحث فقضية الوضعنة تُصبح غير ذات معنى.

من زاوية أخرى، لطالما تمّ اعتبار العلوم الإنسانية من الشعب الهزيلة التي لا يتوجّه إليها سوى الذين اجتازوا امتحان الباكالوريا بتحصيل ضعيف مقارنةً بشعب أخرى على غرار الدراسات الهندسية أو الطب، كما أنّ الباحث الأكاديمي في هذا المجال فُرضت عليه في السابق عزلة بشكل جعله يسير على يمين الجماهير وشواغلها، وعلاوة على ذلك كانت مواضيع على غرار الفساد أو الاستبداد تابوهات، ناهيك عن ضحالة الإنفاق على البحث العلمي ممّا جعلهم سجناء الأطر النظرية، وطبعاً لا يمكننا أن نتغاضى عن صراع التموقع داخل هذا الحقل، الذي يستأثر به الأساتذة الجامعيون ولا مكان فيه للباحثين الشبان. من جهة أخرى مرّ أغلب المبحوثين بتجارب سياسية لكنّهم لم يحظوا بمواقع قيادية أو

زعامتية في أحزابهم. وكما سبق وأشرنا إلى أسبقية الفاعلين الآخرين في الانخراط والتأثير صلب الحركة الاجتماعية.

جميع هذه المعطيات وغيرها في حاجة إلى تحليل وتأمل أعمق وتناول أوسع، فهذا العنف الرمزي -المتعدد والخاضع لمبدأ التعقيد- المسلّط على الباحثين قد يكون سبباً من الأسباب الكامنة وراء انخراطهم في الحركة الاجتماعية بُغية التنازع الخفي مع باقي الفاعلين حول قيادة الحركة باعتباره ردّ فعل على هذا العنف، لردّ الاعتبار لهم كذوات وللاعتراف بهم كما سبق ووضّح ذلك أكسل هانث (Axel Honneth) عند تناوله لمفهوم "الاعتراف"، وقد اعتبر أنّ الأفراد في حاجة إليه لتقدير ذواتهم وتحقيق شعور بأهميتهم داخل النسيج المجتمعي.

توليف:

كنّا قد حاولنا من خلال هذه الورقة، تحديد مفهوم للباحث الفاعل، نظراً إلى شُحّ الأبحاث السوسيولوجية التي تناولت هذا الموضوع، فغالباً ما يتمّ التطرّق إلى المثقف بوصفه مُصدّراً/مساهماً في التفكير النقدي لا مشاركاً فعلياً في الحركة الاجتماعية، وخلصنا إلى كون هذا الباحث الفاعل يلتحم بالجماهير في ميادين الاحتجاج جالباً معه رأسماله الأكاديمي وأدواته التحليلية لتطويع هذه المعرفة من خلال التجربة الحيّة وعلاقته بباقي الفاعلين من جهة والسياق العام من جهة ثانية، ليُسهم بعد ذلك مع باقي الفاعلين على اختلاف اختصاصاتهم العلمية في تحويل ذاك الزخم النظري المبني بشكل تشاركي إلى أدوات فعل وتغيير تُمارس هيمنة مضادة على الماكرو-سلطوي.

أمّا في مستوى ثانٍ، فقد سعينا إلى تحديد بورتريه هذا الباحث الفاعل، وتوصلنا إلى أنّه أوجد الخيط الرابط بين المعارف التي اكتسبها وبين الواقع الاحتجاجي الذي انخرط فيه وتبنى قضاياه، كما أنّه مدرك لحدوده كعقل مفكر، إذ ليس بإمكانه فهم ما يدور حوله من

زاوية تحليله فحسب، بل بالتشبيك والتشارك مع باقي المختصين، والاقتراب أكثر من تمثلات الجماهير للواقع. هذا دون صرف النظر عن ضرورة توظيفه للفضاء الرقمي.

بعد ذلك قمنا بإجراء مقارنة بينه وباقي الفاعلين النوعيين كالفنان أو الصحافي أو المُدوّن، واستنتجنا أنّ الفنان والصحافي والمدوّن بإمكانهم حشد الجماهير، نظراً إلى كون الفنان له القدرة على مخاطبة وجدان الجماهير، أمّا الصحافي والمدوّن فإنهما يستطيعان توجيه الرأي العام، لكن في المقابل يُحاول الباحث الفاعل تفكيك آليات هيمنة السلطة انطلاقاً من حقله المعرفي وهو ما يُخوّل له ابتداع أدوات فعل وتغيير.

أمّا في النهاية، فقد حاولنا ضبط حدود الفاعل الباحث، وكيف أنّ إدارة البحث العلمي باعتباره ينشد الموضوعية والالتزام النضالي في ذات الوقت أمر صعب، وتتطلب مُساءلة "وضعنة" الباحث ذاته في علاقته بالموضوع.

خاتمة:

إنّ فرادة موضوع كهذا لا تتعلق فقط بقلّة الدراسات التي تناولته بل كذلك في القيمة المضافة التي قد يُحقّقها، فليس من السهل أن يتحوّل مثقف ظلّ لقرون إنساناً يُفكّر بدل الآخرين إلى ذات متفاعلة مع من/ما حولها في بناء معارف متخصّصة تصبو كي تُشكّل تصوّراً عاماًيواجه الهيمنة الرمزية للسلطة التي صادرت حتى أحقية الأفراد في "عالم متخيّل"، أو أن ينتقل من التحدّث بضمير المتكلم "أنا" إلى ضمير الجماعة التي تفكّر وتفعل وتُغيّر "نحن".

على الباحث الفاعل أن يُعيد النظر من جديد في موقعه صُلب الحركة الاجتماعية، وأن يعي دوره بعيداً عن حاجزيْ التضخيم والاستنقاص، كي يبلغ المعادلة التي تجعل من تكوينه الأكاديمي والتزامه وجهين لذات العملة!

وليد عمري - باحث في علم الاجتماع

حين يحجّ "راب" الهامش :الشاب ثامر المالكي شخصا ونصا.

تلخيص

من خلال هذه الدراسة المقتضبة للسيرة الحياتية لمغني الراب التونسي ثامر المالكي، سنحاول أن نبين كيف ساهمت حركة "الهيب هوب" في تشكيل الهوية الجماعية لهذا الشاب، وما هي الظروف الاجتماعية التي جعلت من الهيب هوب كثقافة مضادة تصير ملاذا له من الأشكال المختلفة للتهميش، وسنسلط الضوء على السيرورة التي مكنت من أن تصير هذه الحركة الاجتماعية المخصوصة وسيلة لكسر اللامرئية الاجتماعية، كما سنبين كيف أصبح غناء الراب أداة للاحتجاج، وبعد ذلك سنقوم بمحاولة رسم الخطوط العريضة للقضايا التي يطرحها هذا الشاب في أغانيه، وذلك عبر تحليل محوري لمدونة متكونة من مقاطع قام ثامر المالكي بكتابتها وتسجيلها ونشرها.

ABSTRACT

Throughout this brief study about the biography of the tunisian rapper Thamer Malki , we will try to show how the hip-hop movement contributed in shaping the social identity of this young man, and what are the social circumstances that made hip-hop, as a counterculture , becomes a shelter from the different forms of marginalisation and exclusion . we will aslo shed the light on the process thatmade this particular movement a tool to break the social invisibility and a way ofprotest .Then we will try to highlight the main issues in his songs through the thematic analysis of the passages he wrote , recorded and published in the social media.

"إن الرجل يوجد لذاته،ومن خلال أغنيته، وفي داخلها أيضا،إنه هو نفسه أغنيته الخاصة،أنا أغني إذن أنا موجود..." بيار كلاستر-المجتمع ضد الدولة"

مدخل إشكالي:

يعتبر "الراب" ضربا غنائيا من الأخبار والكلام الموزون الذي يترافق مع موسيقى إلكترونية إيقاعية بالأساس [24] وقد ظهر كمكون أساسي من ضمن مكونات ثقافة "الهيب هوب"[25] التي تعتبر ثقافة مضادة وأسلوبا للعيش يلبي لمعتنقيه جملة من المساعي والمطالب الفكرية والروحية والجمالية، وكان ذلك في منتصف ستينات القرن المنصرم تزامنا مع موجة الحركات الاجتماعية التي شهدتها الولايات المتحدة الأمريكية ضمن نضال الأقليات العرقية من أجل مطالبتها بالحقوق المدنية[26]. وقد انعكست الوضعية السوسيواقتصادية المتردية لجنوب "برونكس" شمال نيويورك تحديدا من حيث كثافتها السكانية وارتفاع معدلات البطالة والفقر والجريمة على التوجه العام للمواضيع التي تتناولها أغاني "الراب" فأصبح هذا الضرب من الغناء احتجاجيا بشكل مباشر وصار صوتا لمن لا صوت لهم.

لقد وضح "واتكين" أن "الهيب هوب" هو شكل خاص من الحركات الاجتماعية،أولا هذه الحركة تحتل موقعها من ضمن الثقافة الشعبية، وهذا الموقع ليس سياسيا بشكل مباشر. ثانيا يترسخ "الهيب هوب" من خلال العمل الخلاق لعناصره الشبابية التي لا يقع اعتبارها على أنها مهتمة بأحداث التغيير الاجتماعي. ثالثا،على شاكلة الحركات الاجتماعية بشكل عام، يسمح "الهيب هوب"لمعتنقيه بتصور أنفسهم كمنتمين

---

[24]Andrew S. Ross • Damian J. Rivers -The Sociolinguistics of Hip-hop as Critical Conscience-Palgrave Macmillan 2018 p1

[25]سنستخدم في هذا النص عبارة الهيب هوب للإشارة الى حركة اجتماعية و ثقافية و أسلوب حياة،بينما يقتصر الراب على كونه موسيقى إيقاعية ظهرت في صميم هذه الحركة.

[26]Price, Emmett George-Hip hop culture-ABC-CLIO 2006 p1

لجماعة واسعة، وهو ما يعني أن هذه الثقافة تنتج معنى للهوية الجماعية وتقوم بتحويرها[27].وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار هذه الخاصية الهووية الجماعية لهذه الثقافة، يمكن تصنيفها ضمن الحركات الاجتماعية الجديدة التي تختلف عن الحركات الاجتماعية القديمة بكونها تتأسس على الهوية الجماعية وأنماط العيش لا على المصالح والانتماء الطبقي [28] فالصراع الذي يشنه المنضوون تحت راية الحركات الاجتماعية الجديدة إنما تكون مطالبه غير قابلة للتفاوض بما أنها تهدف أساسا إلى مقاومة شكل من أشكال الهيمنة والتحكم الاجتماعي لانتزاع الاعتراف، وهو أمر يختلف عما يحدث مثلا في التحركات النقابية المطالبة بإعادة النظر في تقسيم مردودية العمل، ففي الحالة الأخيرة تخضع المطالب للتفاوض.

إن الهوية الجماعية خاصية ملازمة لكل فعل جمعي بشكل عام، ذلك أنه لا يمكن للحركة الاجتماعية أن توجد دون تحديد "نحن" ذات سمات معينة وتضامن مخصوص، إذ يمكن الإحالة للمثال الأكثر كلاسيكية من استبطان الهوية الجماعية في الأدبيات الماركسية في شكل الوعي الطبقي للبروليتاريا، لكن فيما يخص الهوية الجماعية لمعتنقي "الهيب هوب" فهي يمكن أن تحيلنا إلى السيرورة التي يتعرف من خلالها الأفراد على أنفسهم ويعرفون بها على أنها جزء من مجموعة موسعة، هذه المجموعة لا تحيل مباشرة إلى طبقة، أو نوع أو عرق أو توجه جنسي، بل تحيل إلى توجهات مشتركة وقيم وأنماط الحياة تختلف عن تلك التي يروج لها في الثقافة المهيمنة.

لقد انتشرت ثقافة "الهيب هوب" وموسيقى "الراب" في المغرب العربي في مستهل تسعينات القرن العشرين ومكّن بذلك شباب المناطق الحضرية من توظيفه كأداة يعبرون من خلالها على نقدهم للوضع السياسي والاجتماعي [29]فصار من المألوف أن يقع رصد الكثير من أشكال التعبير عن الظلم والإقصاء والتهميش و"الحقرة"، والمشاكل الاجتماعية

[27]MICHAEL P. JEFFRIES -Thug life : race, gender, and the meaning of hip-hop-The University of Chicago Press,2011 P 25
[28]HANK JOHNSTONWhat is a Social Movement? Polity 2014 P85
[29]Felix Wiedemann -L'alternance codique dans le rap algérien et tunisien-L'Année du Maghreb, n° 14, 2016 p 57

التي يعاني منها كثير من الشباب في أغاني "الراب"، لكن على اعتبارها ثقافة مضادة نشأت في أمريكا الشمالية نجد أنفسنا إزاء مشكلة أخرى تجابه الباحث الذي يريد دراسة الطريقة التي تنخرط بها أغاني "الراب" في سيرورة الحركات الاجتماعية المختلفة وهي أنها – شأنها في ذلك شأن كل عنصر من العناصر التي تتركب منها ثقافة معينة-تخضع لتغيرات في أشكال تأويلها واستعمالها حين تنتقل إلى ثقافة أخرى، ويتم إسباغ صفة المحلية عليها، وهو ما يجعلها مختلفة عنها في الثقافة التي ظهرت فيها .[30]

لكن ماذا عن العلاقة السببية المعاكسة التي يمكن افتراضها، وهي أن تكون للحركات الاجتماعية المختلفة -ونعني بذلك الحركات التي شهدتها الساحة السياسية والثقافية والاجتماعية في تونس بعد 14 جانفي 2011- تأثيرات على الهوية الفردية والجماعية لمعتنقي "الهيب هوب" ومغني "الراب" خصوصا؟ ثم ألا يمكن لكل ثقافة محلية انزاحت عن سياقها أن يستتبعها انزياح ثان، أي استعارة منا للمعجم الدولوزي، كل عملية انتقال وانفصال عن الوسط الأصلي déterritorialisation يستتبعها بالضرورة إعادة استيطان réterritorialisation [31]، فكل ظاهرة ثقافية أو منتوج ثقافي ينتشر خارج المجال الذي ظهر فيه يتعرض إلى إعادة تأويل بشكل متفرد أو يتغير حسب كل وسط جديد ينتقل إليه، فكيف يمكن أن تعاش تجربة غناء "الراب"عند الشباب في تونس؟ وما هي المشاكل الاجتماعية التي يكتبون عنها كلمات أغانيهم؟ وما هي رؤيتهم للواقع السياسي والاقتصادي بشكل عام؟، وما هي مساهمتهم في الحركات الاجتماعية والاحتجاجية؟

توضيح منهجي:

إن لمحة عابرة عن أشكال توظيف "الهيب هوب" و"الراب" في الحركات الاجتماعية التي شهدها السياق التونسي في السنوات العشر الأخيرة تحيل إلى وفرة متضاربة في أحيان كثيرة، ويصعب في المنهج الكيفي تحديد الظاهر le récurrent في

[30]Steve GadetLA FUSION DE LA CULTURE HIP-HOPET DU MOUVEMENT RASTAFARIL'Harmattan, 2010 P37

[31]Roberto Sasso et Arnaud Villani Le vocabulaire de Gilles Deleuze Centre de recherche et d histoire d'idée 2003 P87-88

تمثلات وممارسات مغني "الراب"، فمثلما تمت رسملة "الراب" وإخضاعه لمنطق السوق والسلعنة تجاريا فقد عرفت الساحة السياسية التونسية أيضا كثيرا من حالات توظيف مغني "الراب" المعروفين في حملاتهم الانتخابية لاستغلال شعبيتهم، ففي الانتخابات الرئاسية من سنة ألفين وأربعة عشر مثلا نجد أن المغني حمادة بن عمر أو الجنرال الذي كان مناهضا لبن علي قد ناصر محمد المنصف المرزوقي في فيديو كليب له، بينما اختار مغني راب آخر وهو بلطي الاصطفاف خلف الباجي قايد السبسي بتسجيل حضوره في بعض الاجتماعات الشعبية لهذا المترشح، وبقي البعض الآخر رافضا للترويج لأي طرف مثل المغني كلاي بيبيجي الذي كتب أغنية في هذا الصدد بعنوان"لسنا للبيع"، فضلا عن أن هناك بعض المغنين اختاروا مسلك التطرف والجهاد في سوريا مع تنظيم الدولة الإسلامية وبالمقابل وعلى النقيض من ذلك نجد أن المغني الملقب بددجي كوستا الذي فقد أخاه في سوريا يشن حربا غنائية ضد تنظيم داعش.

لهذا السبب تحديدا فضلنا القيام بهذه الدراسة بالتعويل على تقنية السيرة الحياتية لمغني راب تونسي يستجيب لجملة من الشروط التي تفرضها إشكالية البحث، وهو ثامر المالكي الملقب بـ "تي أم سي" T.M.C لأنه من الذين كانوا يغنون الراب قبل الرابع عشر من جانفي 2011، وهو من النشطين في تحركات احتجاجية كثيرة، وذلك كي نتعرف على دوره فيها وتأثير هذه التجارب على رؤيته لذاته، وللمجتمع بشكل عام، كما سنحاول في مرحلة لاحقة أن نستعين بتحليل محوري لبعض الأغاني للكشف على الأشكال المختلفة للاحتجاج، وأنماط التمرد التي يضمنها هذا الشاب في أغانيه.

وهذا الخيار المنهجي تبريره أن السيرة الحياتية حسب "دوناتيلا ديلا بورتا" تمكّن من تجاوز القصور الذي يعتري تصاميم البحوث التجريبية حين يتعلق الأمر بتحليل هوية

الحركة الاجتماعية، ولهذا فالسيرة توفر وضوحا أكثر في الإخبار عن استبطان هوية الحركة داخل الوعي الفردي [32].

وعلاوة على ذلك فهي تسمح من ضمن ما تسمح به، بالكشف عن السيرورة التي تتشكل من خلالها الهوية وذلك عبر تمكين الأشخاص من استجماع ذكرياتهم، تجاربهم المختلفة وتركيبها.

أما بالنسبة للتحليل المحوري، فهو تقنية تحليل للمعطيات النوعية والكيفية ويسمح لنا عبر إنشاء مدونة لأغاني هذا الشاب من الكشف عن همومه واهتماماته وأيضا استخراج أشكال المقاومة بالكلمة وبالممارسة، إذ يمكن اعتبار هذه الأغاني بلغة "جايمس سكوت" مدونة خفية تخلقها الجماعة المهيمن عليها لنقد السلطة خلف ظهرها وفي الكواليس.

الأصل الاجتماعي والنشأة الأولى:

ولد ثامر المالكي في الثاني عشر من جوان لسنة تسع وثمانين وتسع مائة وألف في الدهماني بولاية الكاف في الشمال الغربي للبلاد التونسية، وقد كان أبوه عاملا يوميا من منطقة "صراورتان" وكان جد هذا الأب من جهة أمه جنديا من الذين حملوا السلاح ضد الألمان، أمّا والدة ثامر "المرأة الريفية بأتم ما في الكلمة من معنى"[33] كما وصفها لنا، فهي ربة بيت نشأت هي الأخرى في الشمال الغربي في عين القصيبة بولاية الكاف، وكان والدها من أعيان عين القصيبة، لكن ثروته تبددت وتلاشت بعد أن كثر أبناؤه وصاروا إلى ما يربو عن العشرين ابنا وبنتا.

[32] « An experimental research design concentrates on the analysis of the movement identity, telling us much less about the internalization of movement identities in individual consciousness »
Donatella della PortaMethodological Practices in Social Movement ResearchOxford University Press 2014 P284

[33]كل العبارات التي سنوردها بين ظفرين هي مأخوذة حرفيا من محادثتنا مع ثامر المالكي، ودون محاولة منا لنقلها إلى اللغة العربية الفصحى

حين ولد ثامر وهو الابن البكر للعائلة، أخبرته والدته بأنه قد كاد أن يأكله هرّ أسود حين كان بجانبها وهي نائمة بمستشفى الدهماني، ولئن كانت هذه الحادثة نقطة لالتقاء الكوميديا بالتراجيديا، فإن ذاكرته الأولى عن مستهل وجوده في هذا العالم انطبعت فيها صورة الحذاء المطاطي، والجوارب المصنوعة من القماش الخشن "المنشفة"، فمنذ أن فتح عينيه في الدنيا وجد أنه يرتديهما، هكذا أخبرنا.

حين تزوج والدا ثامر المالكي، انتقلا للعيش في "كوخ" في جبل يسمى بـ"كاف العمود"، وهو في أرض على ملك جده من الأب، وقد تسوّغ الجدّ كوخا لوالد ثامر المالكي لكي يقيم فيه. وغير بعيد عن هذه الرقعة من الأرض الجبلية الوعرة تناثرت وتجاورت أكواخ أخرى رفعت جدرانها بالطين والحجر، وغطت سقوفها أغصان الشجر، تليها طبقة رقيقة من البلاستيك، ثم نُثرت فوقها طبقة من الطين لتثبيته وحمايته من العواصف.

وغير بعيد عن الكوخ الذي كانت تقطنه عائلة ثامر المالكي، كان يقيم أخُ جده من جهة الأب، فقد كان ذلك الجبل كما هو واضح مساحة تأوي إليها عائلة ممتدة. حين بلغ سن ثامر الأربع سنوات أصبحت لديه أخت، ونظرا لأن والدته أحيانا ما تغادر المنزل، أصبح من المنوط به الاعتناء بها حين تخرج والدته للعمل في جني الزيتون، وما يماثله من الأنشطة الريفية، ولم يكن لثامر في نشأته الأولى من وسيلة للترفيه سوى ما يصنعه يدويا من ألعاب تشبه الآلات الفلاحية كالجرار و"الكريطة" المصنوعة من أسلاك الحديد، ومن علب المصبّرات المهملة، هذا فضلا عن صيد الطيور والعصافير، ولعب كرة القدم مع الأتراب؛ سالم الجدر وأخيه أنيس وزياد ولد محمد وخليل وأخيه. لقد ذكرهم ثامر على أنهم أصدقاء البطحاء، حتى مشاهدة التلفاز كانت أحيانا ما تكون أمرا متعذرا في فترة الطفولة بما أنه لم يكن للعائلة جهاز تلفاز حتى سنة ثمانية وألفين، لكن مشاهدة الصور المتحركة مثل "داي الشجاع" كانت تتاح في منازل الأصدقاء وبعض المعارف.

انطلقت المسيرة الدراسية لثامر بالمدرسة الابتدائية بانو بصراورتان بمعتمدية القصور سنة ست وتسعين وتسعمائة وألف، ولم تكن تجربة مثيرة للاهتمام أو ذات تأثير

إيجابي في سيرة حياة ثامر. كانت المدرسة تبعد قرابة السبعة كيلومترات عن مقر سكناه، واعتاد أن يقطع هذه المسافة وحيدا، ويضطره العطش أحيانا للشرب من المياه الراكدة في الصيف، ورغم المسافة الطويلة التي كان يقطعها، لم يكن يتذكر أن أحد المعلمين كان يثير إعجابه أو ترك أثرا في نفسه.

ثم انتقلت عائلة ثامر في أواخر سنة سبع وتسعين وتسعمائة وألف للعيش في حي النور فلم يعد جده راغبا في بقائهم للعيش معه نظرا لأنه كان يتطلع لأن يدفع له ابنه أجرة الإقامة هناك، وكانت أولى إقامة العائلة بتونس الكبرى في منزل خالته بمرناق مدة أسبوع تقريبا قبل أن يستطيع والده تدبّر أمره وتوفير منزل متكون من غرفة واحدة على وجه الكراء في حي النور. كان المورد المالي الوحيد للعائلة هو ما يجنيه أبوه من العمل اليومي في البناء، ويذكر ثامر أن الظروف المادية للعائلة كانت صعبة جدا، إلى حد أن والده يتعذر عليه أحيانا ترك أكثر من دينار واحد لوالدته كمصروف يومي.

استمرت إقامة العائلة بحي النور طيلة سنتين، رسب ثامر في سنته الثانية، ثم نجح في العام الموالي، لكن العائلة لم تكن مستقرة، فقد انتقلت لتغيّر مقر السكنى إلى المروج لمدة سنتين. انعكس عدم الاستقرار بشكل واضح على المسيرة الدراسية لثامر، فرسب في سنته الثالثة من التعليم الابتدائي، لكنه تدارك الأمر في السنة الموالية، ولم يكن انتقال العائلة للإقامة في المحمدية إلا في سنة ألفين وواحد، ليكمل ثامر تعليمه الابتدائي بمدرسة حي العياري بالمحمدية.

لقد أخبرنا ثامر بأنه كان دائم التعرض للتعنيف والضرب، لهذا فهو لا يتذكر إلا المعلمين الذين كانوا يضربونه، وهو ينسب هذا الأمر إلى كونه ابن "زوالي"، كان طفلا داكن البشرة نحيلا تبدو عليه علامات الخصاصة، وحدث ذات مرة أن تعرض لإهانة من أحد المعلمين الذين درسوه في الابتدائي، إذ لما كان يجلس في الطاولات الأخيرة نظرا لأنّ النجباء كانوا يحتلون الطاولات الأقرب إلى مكتب المعلم، حاول مرة أن يجيب عن سؤال طرحه عليه المعلم، لكنه أخطأ في جوابه، فأهانه وشبهه بالطبل وأثار ذلك سخرية زملائه منه

وخلفت هذه الحادثة لدى ثامر أثرا بالغا لسنوات طويلة، لكنه مع ذلك كان يحب مواد الرسم والموسيقى والرياضة، وهو عكس ما يكنه لمادة اللغة الفرنسية.

أتم ثامر مرحلة التعليم الابتدائي بتميز، لقد ذكر لنا أنه نجح بمعدل 14.5، وهو معدل جعل والده يفتخر به و فسح له هامشا من الحرية في الصائفة التي تلت نجاحه في مناظرة ختم التعليم الابتدائي، لكن الحرية التي كان ثامر يتمتع بها في تلك الصائفة لم تكن تسمح بالشيء الكثير، فعلاقة والديه ببعضهما البعض كانت متشنجة، وكان ثامر يتلقى تربية قاسية وتأديبا يتركز على العنف من جانب الأب خاصة، لأنه كان صعب المراس، بينما كانت والدته أكثر ليونة من والده.

بالنظر إلى الوضعية المادية الصعبة للعائلة لم يكن هناك مجال للسفر أو للقيام برحلة في العطل وللترفيه في المناسبات المختلفة، ولم تعلق بذاكرته أية حادثة عائلية من هذا القبيل، فأقصى مشاعر الفرح التي كان ثامر يعيشها هي النهوض مبكرا للذهاب لصيد العصافير رفقة الأقران أو اللعب بالكرة في "البطاحي".

انتقل ثامر ليكمل تعليمه الأساسي بالمدرسة الإعدادية بحي القصر بالمحمدية، لكن انتقاله إلى تلك المؤسسة لم يكن في مستوى تطلعاته، فقد كان يأمل في مزيد من الحرية والاحترام، بالمقابل ازداد شعوره بالفقر والخصاصة حين كان يقارن هندامه بهندام زملائه خاصة مع دخوله في سن المراهقة، لهذا السبب كان كثير التغيب عن الدروس مما جعله يرسب السنة السابعة من التعليم الأساسي، لينجح فيها في عامه الثاني، وتكرر هذا السيناريو مع الثامنة أساسي، لكن تم طرده في السنة التاسعة لأنه أحرز أقل معدل بالمعهد، وكان أحد أسباب ذلك أنه كان يشتغل في مقهى بالمحمدية، لكنه أتم دراسته بمعهد خاص بالتعويل على ما يجنيه من العمل بالمقهى واستطاع أن يصل إلى الباكالوريا بتلك الطريقة، ورغم صعوبة تلك المرحلة، كان يعتبرها انفراجا نسبيا لأنه استطاع "أن يستقل بذاته" ماديا.

المراهقة وتبني "الهيب هوب" كثقافة مضادة :

لقد اقتطفنا هذا المقطع الذي دار بيننا وبين ثامر المالكي عبر موقع للتواصل الاجتماعي وذلك في معرض الحديث عن منطلقات ممارسته لغناء "الراب" واعتناقه لثقافة "الهيب هوب"، وقد آثرنا نقله حرفيا حتى لا يتم اتهامنا بالتعسف في تحليل السيرة البيوغرافية لهذا الشاب.

بديت الراب في السنة السابعة يعني مباشرة بعد ما طلعت لليسي

- كان وصفي للوضع يتعلق بكل ما هو يشكل ظلم وحقرة للناس إلي كيفي وكنت نحس بتعاطف كبير مع الناس الزواولة وكنت أعتبر أن الأثرياء هما مصدر الشر والعدو المباشر لينا كفقراء وكنت نطمح للانتقام وفي نفس الوقت للاختلاف عن المحيط إلي عايش فيه وفي نفس الوقت للتميز بذاتي بما تحمل من أفكار أعتقد أنها أفكار تفوق في أهميتها الناس إلي دون مستوى الوعي إلي نخمم بيه أنا في الوقت هذاكة
- كنت نمارس في الهواية هذه تقريبا في كل مكان حتى في النوم
- كانو أقلية الناس إلي تنبهر بيك وكان الأغلبية ناس كانت تسخر منك
- مكانتليش علاقات لا مباشرة ولا غير مباشرة مع الإناث في الموضوع هذا أو غيره
- استلهمت في فترة ما من لطفي دوبل كانون ثم أغنية عباد في تركينة متع فريد الحاج ثم بعد فتتهم لأنو ما كنتش نؤمن أن الغناء بالعربي باش يوصل الميساج كما ينبغي للعالم فقررت إني نتعلم الانجليزية ونولي نغني بيها
- إلي أثارني وشدني ليهم الحس الثوري في غناهم إلي أساسا هوّا ضد الحقرة إلي هيا العنصرية على أساس الطبقة الاجتماعية إلي عايشين فيها
- يعني عنصرية أو طبقية سميها كيما الأكثرية

- إلي شدني في غناهم هوا إنهم في فنهم ثاروا ضد الاحتقار والعنصرية
- أكيد كانت هناك مشاكل من قبيل أن مظهري تغير ونظرتي للمجتمع تغيرت
- من هندام عادي إلى هندام متاع إنسان كي تشوفو تعرف إلي انتماؤو أصبح موالي لثقافة غير مفهومة في الوقت هذاكة إلي هيا ثقافة الهيب هوب إلي وقتها قاعد نفهم فيها بشوية بشوية وأصبحت جزء لا يتجزأ منها في المحيط لأنو مش فاهم إنتي فاش تعمل فقابلك بالرفض المباشر[34]

نكتشف من خلال هذا المقطع المقتطف من بين المقابلات التي أجريناها منعرجا اتخذته سيرة الشاب ثامر نحو اعتناق ثقافة "الهيب هوب"، فقد كان شابا يعاني وصما على أساس اقتصادي بالأساس، ورغم أنه كان قبل انتقاله للمحمدية يعيش في وسط ريفي يختلف عن الوسط الذي انتقل إليه، فإنه ذاتيا بقي يحافظ على استبطانه لنفس مشاعر الدونية التي نتجت عن وضعه الاجتماعي والاقتصادي الهش. إن تجربة الفشل الدراسي لثامر هي نتيجة عدم قدرته على التكيف مع واقع يتطلب ذاتيا-حسب رأيه الخاص والعفوي، جملة من الموارد غير المتوفرة، وقد اختصرها ثامر في المقطع الذي أوردناه في الموارد الاقتصادية، لكن يبدو أن هذا الأمر قد وقع تداركه بتحوله للعمل في مقهى واستطاع أن يوفر تكاليف الدراسة بمعهد خاص،لكن ذلك بقي شكليا، لأنه لم يكن يتردد كثيرا على المعهد للضرورات التي تفرضها المهنة آنذاك.

إن عدم التواجد بالفضاء المدرسي حتى أثناء الدراسة بمعهد خاص تبدو لنا نتيجة معقولة لعدم قدرة ثامر على التكيف مع المؤسسات التعليمية بشكل عام لأنه لم يذكر لنا رغم تعدد المدارس الابتدائية التي زاول بها تعليمه أي جانب إيجابي أو مكسب جناه من تواجده بها. كل ما كان يحصل عليه هو النجاة من عقاب الوالدين والمعلمين والذين وصل الأمر

[34]كانت هذه التصريحات على إثر جملة من الأسئلة التي طرحناها على الصديق ثامر، إذ كان لا بد لنا من تحفيز واستثارة ذاكرته للتنقيب قدر المستطاع عن أبرز الأحداث الكبرى والتجارب المؤثّرة التي تعتبر أسبابا أو نتائج لانخراطه الفاعل في حركة الهيب هوب.

بأحدهم إلى أن خلع معصمه بالعصا ذات مرة. لكنه أخبرنا أن رسوبه بالسنة السابعة حين انتقل إلى المحمدية كان محبطا لأبويه اللذين فقدا الأمل في مواصلته للدراسة، فالوضع المادي للعائلة لم يكن يسمح أصلا بذلك بما أن والده كان المعيل الوحيد للعائلة.

لكن هناك معطى آخر مسكوت عنه في هذه السردية التي استجمعها ثامر عن حياته، فانتقاله إلى المحمدية للدراسة بمدرسة إعدادية جردته أيضا من الرأسمال الاجتماعي الذي كان لديه في مسقط رأسه، وبالتالي فإن غياب هذا الرأسمال الاجتماعي قد اقترن تلازميا بغياب الضبط الاجتماعي، مما أفسح له قسطا من الحرية ما جعل من السهل على ثامر أن يترك مقر إقامته في ربيع سنة ألفين وأربعة بعد أن تشاجر مع والده ليذهب بعد ذلك رفقة صديق له إلى مدينة ساحلية ليعثر على مهنة، دون أن يكون له أي مقر إقامة مضمون هناك، وقد بين لنا أن تلك التجربة أيضا قد فاقمت شعوره بالعنصرية.

لكنه حين عاد إلى المحمدية وقام بالترسيم في معهد خاص، ذكر لنا أنه أصبح يهتم كثيرا بمظهره حتى يعوض عن الوضع المادي السيئ الذي كان يعيشه في طفولته.

لكن من الواضح أن ثقافة "الهيب هوب" قد ساهمت في تشكيل الهوية الاجتماعية لثامر بشكل متفرد، فقد كان استعارة منا للمعجم البورديوزي يعيش ندرة في الرساميل الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، وهذه الندرة هي خاصية عامة لجماعة الانتماء عند ثامر المالكي، إذ أنه من عائلة تفتقد بدورها إلى هذه الرساميل كما هو واضح لكنه عبر اعتناقه لثقافة "الهيب هوب" قد جعل من جماعته المرجعية غير جماعة الانتماء[35]، إذ أنه صمم على تعلم الانجليزية، وقام بتغيير شكله الخارجي بما يجعله يتعرض إلى وصم مزدوج، فهو وإن كان يتعرض للوصم على أساس اقتصادي بالأساس،فقد كان لتبنيه "الهيب هوب" وصم إضافي، وذلك بالنظر إلى كونه يقترن بجملة من الخاصيات المستهجنة، إذ أن عدة أصناف من الموسيقى الهامشية تلحق بأصحابها وصما لأنها

[35]يستخدم مفهوم الجماعة المرجعية للإشارة الى الجماعة التي يتماهى معها الفرد،ويقتبس منها قيمه ومعاييره ويتبنى نمط حياتها،ويمكن أن تتطابق الجماعة المرجعية مع جماعة الانتماء التي يعتبر الفرد موضوعيا أنه عضو فيها، كما يمكن أن تختلف الجماعتان، مثل التلميذ الذي يحاول تقليد لغة معلمه.

تربطهم بالانحراف والتضارب مع نمط العيش السائد مثلما هو حال موسيقى "الروك" أو "الهيب هوب" أو "الريغي"، لكن الرفض الذي تعرض إليه ثامر لم يكن على هذا الأساس، بل على أساس فسره على أنه جهل المحيط الذي يعيش فيه بهذه الثقافة المضادة وغير المفهومة.

وهو ما يجعلنا ننتبه إلى هذا الضرب من السلوك الذي يمكن اعتباره لاعقلانيا، بالقياس مع عقلانية الكائن الاقتصادي الذي يتوخى أكثر الوسائل جدوى لتحقيق أكبر قدر من النتائج، فيقع رد ثامر على الإقصاء الذي يعيشه بشكل مغاير للمتوقع، فإذا كان من المفروض أن يسعى لإرضاء عائلته ومحيطه عبر محاولة تحسين وضعه المادي من خلال مزاولة نشاط ربحي أو مهنة معينة، فإنه كان يرفض هذا الشكل من الترقي الاجتماعي الذي يتأسس على الثروة بشكل رئيسي. إن "الهيب هوب" عند هذا الشاب كان شكلا للاحتجاج على طبيعة المجتمع التراتبي والعنصري، ومثلما لا يمكن أيضا في أغنية "راب" أن يكون الخصم هو الحكم، تتماهى الجماعة المرجعية أيضا مع جماعة الانتماء تحديدا، إذ أن المتوجه إليه بأغاني الراب التي يكتبها ثامر كانت ناطقة باللغة الانجليزية، فإنّ ثامرا لم يكن يخاطب المجتمع أو المحيط، بل كان يخاطب العالم باللغة الأكثر انتشارا، لكن بلهجة "شوارعية"، إذ أن اختيار اللغة أو اللهجة والتخاطب بواسطتها هو أيضا من ضمن تمظهرات الهوية الجماعية، إذ فضل ثامر أن يمارس الراب بلهجة الشارع، والتخاطب اليومي عند الهامشيين الزنوج في الولايات المتحدة الأمريكية، وهذه اللهجة تختلف عن اللهجة التي تدرسها المعاهد والجامعات ضمن إطار رسمي وأكاديمي.

من ثامر المالكي إلى ثامر الـ "تي أم سي" :الراب كرهان لتحطيم اللامرئية الاجتماعية:

تستخدم عبارة اللامرئية الاجتماعية في أدبيات علوم الإنسان والمجتمع للإشارة إلى مجموعة من الخصائص المركبة والتي تتضمن من ضمن ما تتضمنه عدم الاعتراف وغياب

القدرة على النفاذ إلى المعلومة، والإقصاء واللامساواة[36]. وبإمكاننا الذهاب إلى أن الرهان المشترك لكل حركة اجتماعية يكمن في انتزاع الاعتراف والخروج من حالة اللامرئية الاجتماعية، وليست حركة "الهيب هوب" حالة شاذة عن هذه القاعدة، فسواء تعلق الأمر برسم "الغرافيتي" أو رقصة "البريك أو غناء الراب، فالهدف من هذه الأنشطة كان محاولة لاحتلال موقع في الفضاء العام بشكل من الأشكال. ويمكن من استجماع ثامر المالكي لسيرة طفولته ومراهقته أن يكشف عن خاصية توفرها ثقافة "الهيب هوب" للاحتجاج على نطاق واسع، الاحتجاج عبر الغناء، عبر الشكل الخارجي والهندام، الاحتجاج عبر التعلم خارج أطر المؤسسات الرسمية،أي خارج الأوساط الأكاديمية خاصة، إذ أن الكنية التي اختارها ثامر المالكي لنفسه وهي تي أم سي T.M.C تعني أنه سيد الطقوس أو المراسم،[37] وهو تقليد للخطباء الزنوج الذين لهم القدرة على التحدث إلى الجماهير وإقناعهم وإمتاعهم وتجييشهم، وربما كان محمد علي كلاي أحد الذين فسحوا المجال أمام ظهور هذا النوع من الخطباء[38]. ليس من الصدفة إذن أن نلاحظ أن كثيرا من أغاني "الراب" تحاول أن تؤدي وظيفة تعليمية، فضلا على أن سيد المراسم هو الدور الأكثر ظهورا في حركة "الهيب هوب"، في الحفلات، والبرامج التلفزية، وهو الذي يؤدي أغاني "الراب" ويحظى بالصدارة في مقاطع الفيديو الغنائية لموسيقى "الراب".

كانت موسيقى "الراب" قد أخذت في الانتشار على نطاق واسع في تونس واقترن انتشارها بشيوع الأنترنت وسهولة نشر وتحميل الأغاني، وقد كانت أول تجربة لغناء "الراب"وتسجيلها في أستوديو"تونتي فور ريكورد" 24record وهو أستوديو معروف عند كثير من قدماء مغني "الراب" في تونس ويقع بفوشانة التابعة لبلدية المحمدية آنذاك، وقد أسس مغني "الراب" ذاكر البجاوي وكنيته R.A.R هذا الأستوديو في أواخر سنة ألفين وسبعة، وكان يتيح للكثير من المحترفين والهواة تسجيل أغانيهم وتشفيرها إلى شكل mp3 لتصبح قابلة للتداول بين المهتمين بهذا الضرب من الموسيقى. وقد أخبرنا ثامر المالكي أن

[36]http://v.ht/80VR
[37]M.C (master of ceremony)
[38]E M M E T T G . P R I C E Hip Hop Culture ed ABC-CLIO 2006 P35

كثيرين من مغني "الراب" المعروفين قد قاموا بتسجيل أغانيهم بشكل مجاني في هذا الاستوديو ومن ضمنهم على سبيل الذكر لا الحصر الجينرال، وبسيكو آم، وحمزاوي ماد أمين وآخرون...

إن موسيقى الراب كما نلاحظ إذن ليست ذات وظيفة تجارية بحتة، بل هي تخلق رابطة رمزية بين أعضائها، وتقوم بتجميعهم وفقا لأخلاق محددة وعواطف معينة حتى أنه لم يكن هناك بينهم علاقة مباشرة، ولكن لأنهم يتقاسمون قيما مشتركة وتطلعات متشابهة وأذواقا متقاربة.

وقد ساهم أستوديو 24record أو "التسجيل على مدى أربع وعشرين ساعة" في التعريف بثامر المالكي وتعرفه على عديد مغني الراب الآخرين من كافة الجهات داخل تونس وأيضا خارجها، فضلا عن أنه لعب دورا هاما في التعريف بثامر المالكي كمغني راب له أسلوبه المتفرد في أدائه لهذا النمط الغنائي، وإلى حدود سنة ألفين وأربعة عشر، أي تاريخ بداية انحلال هذا الأستوديو وتراجعه، ظهرت مجموعة كبيرة من مغني الراب الذين يرتادون هذا الأستوديو للتعريف بذواتهم كمغنين للراب، لكن ثامر المالكي كان من القلائل الذين نجحوا في الإبقاء على أسمائهم في هذا الميدان، وذلك من خلال تلبية الدعوات للغناء ولو مجانا في الحفلات التي يرتادها جمهور الراب في عديد الجهات بتونس، وأيضا من خلال الغناء في الكليبات مع فرقة تأسست لاحقا و تدعى B.A.T هي اختصار لعبارة تعني لواء مقاومة الطحانة. وذلك برفقة مغني الراب المعروف باسم جب Gueb وأيضا المغني المكنى بـ أفيرو Aveyro

لقد ذكر لنا ثامر أن صديقه "جب" قد ترك هو الآخر أثره الخاص في حركة الهيب هوب في تونس، إذ أنه كان أول من قام بتصوير فيديو كليب محترف بالمحمدية رفقة مغني راب وممثل سينمائي إيطالي يكنى بـ Ion وكان ذلك في سنة ألفين وتسعة. لقد كان الكليب Crew international آنذاك تعبيرا واضحا عن تكسر الحدود الجغرافية أمام الرابطة الاجتماعية التي يمكن للهيب هوب أن يخلقها، فالفيديو كليب ترجمة عنوانه تعني

العصابة المسلحة العالمية، وقد تم غناؤه بثلاث لغات مختلفة وهي الفرنسية والعربية والايطالية، ويوجد بالكليب مشهد لأطفال يركضون حاملين العلم التونسي والجزائري جنبا إلى جنب، إذ حين يتعلق الأمر بتلبية رغبة الأفراد في البحث عن صداقات وتحالفات بشكل منظم، فإن الهيب هوب يسمح بتوفير رابطة هوية جماعية تمكن من ذلك.

ما بعد المخاض الثوري التونسي

مثل كل الأحياء الشعبية في تونس فإن المحمدية لم تكن حالة شاذة في الغليان والغضب الذي انتشر بين أفرادها بُعيد السابع عشر من ديسمبر من سنة ألفين وعشرة، وقد استشهد يوم الثالث عشر من جانفي المواطن الهادي المحجبي في مظاهرة تنادي بإسقاط النظام، وذلك في اليوم الذي سبق مغادرة الرئيس السابق زين العابدين بن علي للتراب التونسي نهائيا، ورغم أن ثامر لم يتذكر اسم الشهيد، فقد أخبرنا أنه قد عاش تجربة استثنائية حين كان يمشي في جنازة الشهيد، أي في الرابع عشر من جانفي، ولم يعش في حياته تجربة الخوف مثل ذلك اليوم، إذ كانت الجنازة متكونة من حشود غاضبة ومتسلحة بالحجارة، وكان الطريق إلى المقبرة يمر بالضرورة من أمام منطقة الحرس الوطني بالمحمدية، وبمجرد أن وصلت الجنازة أمام المنطقة، قام بعض الشباب برشق أعوان الأمن بالحجارة، فشرعوا بدورهم في إطلاق الرصاص بشكل مكثف وعشوائي لتفريق الجنازة، فلاذ ثامر بكشك لاقتطاع تذاكر الحافلة بالقرب من منطقة الأمن، لأنها كانت الملاذ الأقرب إليه، وربما كانت الملاذ الوحيد، لكن ما حدث هو أن حشدا من المواطنين التحقوا به ليختبئوا مثله بذلك الكشك، لكن مع تكاثر عدد الذين توافدوا إلى هناك، تم دفع ثامر إلى العراء، ليجد نفسه في مواجهة مباشرة مع أعوان بوليس مسلحين لا يفصله عنهم سوى أمتار قليلة، فلم يكن يسعه التفكير في ما سيفعله آنذاك، وكان لا بد له من الهرب وتسوّر حائط المستشفى القريب، وكان أعوان الأمن يرشقونه بالغاز المسيل للدموع حتى بعد أن قفز إلى داخل المستشفى، وقفز معه رجل آخر وطاردهم أعوان الأمن بعد أن خرجوا من المستشفى، ولم يستطيعوا اللحاق بثامر لأنه تمكن من الوصول إلى القنال

الفاصل بين المحمدية وفوشانة. في الحقيقة ازداد حقد ثامر المالكي على الجهاز الأمني بعد هذه الحادثة التي كادت تودي بحياته، ولكنها لم تكن الحادثة الوحيدة وإن كانت أشدها خطورة.

ينبغي الإشارة إلى أن المحمدية هي الأخرى قد شهدت محاولات تخريب وسطو على عديد المنشآت، ومن ضمن تلك المنشآت فرع بنكي قبالة مقهى النسيم، وبعد الرابع عشر من جانفي، تم افتتاح مقهى جديد سمي بمقهى الرابع عشر من جانفي بجانب ذلك الفرع البنكي، ونظرا لأنه كان يوجد قرب مركز للحرس، ودار شباب، وقصر بلدية، فقد كان المقهى وسطا نشيطا لالتقاء كثير من النشطاء السياسيين، وقد ذكر لنا ثامر أن كل ركن كان يضم منتمين لتوجه سياسي معين، لكن يمكن بشكل عام حصرهم في ثلاث فئات كبرى، وهم، قدماء التجمع الدستوري الديمقراطي المنحل، وهم من المنتمين لعوام الشعب الذين كانت الثورة خسارة فادحة بالنسبة إليهم، ومن جهة أخرى مناصرو حركة النهضة الإسلامية، وكانت هناك أيضا حلقات للسلفية الجهادية، وكانت أحيانا ما تدور عمليات استقطاب للشباب الهامشي من أبناء المحمدية في تلك المنطقة، وقد كان لثامر عديد الأصدقاء الذين اعتنقوا مذهب السلفية بعد الثورة، وكانت عملية استقطاب هؤلاء الشباب تجري بشكل خاص على يد السيد كمال الذي كان يعيش في الباكستان وعاد إلى تونس قبيل الرابع عشر من جانفي، لقد كشف لنا ثامر عن تغير في سلوك كثير من أصدقائه تجاهه بعد اعتناقهم للمذهب السلفي رغم أنهم كانوا يحيون حياة الصعلكة والتشرد سويا، فبخلاف أن بعضهم كان يمارس دور بوليس الأخلاق، وصل ببعضهم الأمر حدّ الاعتداء على بائع خمر بالمنطقة. وفي إحدى الحلقات في مقهى الرابع عشر من جانفي، التحق ثامر ليجالس أصدقاءه السلفيين، وكان يرتدي تبانا قصيرا، فعاتبه أصدقاؤه لأنه يرتدي مثل هذا الزي في حضرة السيد كمال، وبعد نقاش محتدم، تم تكفير ثامر من قبل أصدقائه القدامى في تلك الحلقة، وانقطعت علاقته بهم نهائيا.

لقد ازدادت المواقف السياسية لثامر المالكي في الاتضاح شيئا فشيئا وتدريجيا بعد اندلاع المخاض الثوري، ومن بين الأحداث العالقة في ذهنه والتي قد كانت هي الأخرى سببا في تعريضه لجملة من المشاكل وإثارة امتعاض الكثيرين من سكان المحمدية، لكنها قد زادت بالمقابل من شعبيته عند قسم آخر كبير من أبناء المنطقة، وكانت هذه الحادثة على إثر زيارة وزير عدل تابع لحركة النهضة لدار الشباب بالمحمدية،واجتماعه بالأهالي هناك في أواخر سنة ألفين واثنتي عشرة، وقد كان ثامر المالكي حاضرا هناك، وأخذ الميكروفون ليقرأ على مسامع الوزير مداخلة كان قد دونها مضمنا إياها جملة من مشاكل وشواغل سكان المنطقة، وقد لقي كلامه تفاعلا إيجابيا بين الحضور الذين صفقوا له وأثنوا عليه، إلى حد أن الوزير طلب منه أن يسلمه الورقة التي كان ثامر قد كتبها وقرأ منها خطابه، وكان ذلك أثناء مغادرة الوزير للاجتماع وخروجه مصحوبا بطاقم حراسة من المدخل الرئيسي لدار الشباب، لكن ذلك كان حسب ثامر لأن الوزير كان ممتعضا من ذلك.

استمر ثامر المالكي في تلك الفترة في ممارسة الراب وكتابة الأغاني وتسجيلها رغم المضايقات التي تعرض لها نظرا لمجاهرته بعديد الآراء في مواضيع شتى.

لكن أبرز الأحداث التي جعلته معروفا على نطاق واسع هو ظهوره في برنامج تلفزي بقناة الجنوبية "كاميكاز الليل" وهو برنامج ينقل صورا عن الحياة الليلة للهامشيين في تونس، وخاصة في الأحياء الشعبية، وقد تسبب هذا الظهور في إزعاج السلطات التي قامت باعتقاله بعد بث البرنامج مباشرة، وعن حادثة الاعتقال، أخبرنا ثامر أنه في صباح اليوم الموالي لبث البرنامج كان قد التقى أحد المعارف من باعة الخمر خلسة، وكان هذا الأخير حين محادثته مع ثامر يقوم بالتنسيق هاتفيا مع أعوان الأمن بالمنطقة بالمحمدية، ولذلك لم يضطر ثامر للابتعاد كثيرا عن بائع الخمر حتى توقفت أمامه سيارة أجرة فيها أعوان أمن بالزي المدني وزجوا به في سيارة الأجرة قاصدين منطقة المحمدية، حيث تم استجوابه عن سبب تصريحه لقناة الجنوبية بواقع المنطقة، ولكن في ما بعد سأله أحد الأعوان إن كان يدخن القنب الهندي، أخبرهم ثامر بأنه كان يدخن لكنه بدأ بممارسة الرياضة وترك

التدخين، وبالفعل،فقد اتصل بثامر في تلك الفترة مجموعة من الشباب بمدينة المروج وطلبوا منه أن يؤلف من أجلهم أغنية للتعريف برياضة الكاليستينيكس Calisthenic والتي يطلق عليها اسم "الورك آوت"، فنالت إعجاب ثامر وشرع في ممارستها في تلك الفترة، لكن ذلك لم يشفع له وتم اقتياده إلى بوشوشة ليحتفظ به هناك مدة ستة أيام بتهمة تدخين القنب الهندي، لكن التحليل الطبي أثبت عكس ذلك فتم إخلاء سبيله، ولكن ربما لم يكن ذلك ليحدث لولا الحملة الإعلامية الواسعة التي أثارتها حادثة إيقافه، وأبرزها الإشارة إلى هذه الحادثة من طرف الآنسة لينا بن مهني في قناة نسمة، وأيضا الاهتمام الذي أبداه السيد كمال الجندوبي إزاء الحادثة وخاصة بعد اكتشافه أن ثامر كان يعد مجموعة من أغاني الراب رفقة فريق Team fladedOutمن المغنين المقيمين ببوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية، وحين تم الإفراج عن ثامر، ذكر لنا أن السيد كمال الجندوبي قد زاره في سيارة معدة للكراء ومعتمرا قبعته ومرتديا معطفا طويلا، وقد جرت بينه وبين ثامر محادثة حول مشاكل المحمدية والصعوبات التي يعيشها أبناء المنطقة، لكن السيد كمال ذهب ولم يعد، وفقا لعبارة ثامر...

واصل ثامر اشتغاله على الأغاني مع أعضاء فرقة بوسطن، وأيضا رفقة صديقه جب وأفيرو، ونشروا جميعا على اليوتيوب مقاطع فيديو كليب لأغاني راب بالإنجليزية فقط مثل أغنية struggle والتي تعني الصراع، وأداها ثامر رفقة المغنيين الأمريكيين كاسترو وجينيوس، وأيضا أغنية we movin up وتعني نحن نرتقي صعودا، وأداها ثامر رفقة الأمريكي استوود، وقد غنى ثامر أيضا كثيرا منفردا مثل أغنية lifeless التي تعني "بلا حياة".

لكن هناك كثيرا من الأغاني الجماعية المشتركة مثل أغنية تبا للدولة[39] لمجموعة BATأو أغنية StillRealوتعني ابق واقعيا والتي تم أداؤها باللهجة التونسية الشوارعية

[39]قمنا بتلطيف العنوان وذلك لأنه يتضمن عبارة تنتمي إلى الوحشي من اللغة ،ولكن يمكن لمن يريد أن يطلع على هذه الأغنية ويتعرف على مواقف فرقة البات منها الاطلاع على الرابط الآتي :http://v.ht/4l03

الدارجة، وباللهجة الانجليزية الإفريقية الدارجةAAVE أيضا، وهي التي يستخدمها ثامر وأيضا كل مغني الراب في الولايات المتحدة الأمريكية...

لقد تأثر ثامر إلى حد كبير بما وقع بعد الرابع عشر من جانفي ألفين وإحدى عشر في تونس، وانخرط في عديد الحركات الاحتجاجية وكانت له مواقف شاذة أحيانا مثلما حدث في اعتصام الرحيل، حيث أخبرنا أنه لم يكن مقتنعا بتلك الحملة، ورفع يافطة من الورق المقوى كتب عليها شعار "نحن نعيش في ظل نظام الفقراء فيه محكوم عليهم بالموت"،أي أنه شعار خارج السياق في ذلك الوقت، وذكر لنا بأنه قد تم اتهامه بأوصاف شتى، منها العدمية، وغياب الوعي وغيرها من التهم، لكن بالمقابل استمر في تسجيل حضوره ودعمه لكثير من الاحتجاجات والتحركات المطلبية سواء على شبكات التواصل الاجتماعي ومن خلال التدوين كما في حملة مانيش مسامح، أو عبر الإشارة المستمرة إلى الإقصاء والعنصرية واللامساواة المستشرية في الأوساط الشعبية، فضلا عن نشاطه الدائم والمستمر في المشاركة والتعريف بالهيب هوب عند شباب المحمدية، وحتى في تونس، إذ تمت دعوته في السفارة الأمريكية ضمن برنامج أمريكان كورنر American Cornerليقوم بتنشيط ندوة تشاركية حول واقع الهيب هوب في تونس ولمحاولة تقريب وجهات النظر حول هذه الحركة التي تفرعت في كافة أنحاء العالم، وكانت مشاركة ثامر في هذه الندوة في سنة ألفين وسبعة عشر، ورغم ذلك، فقد بقي الراب عند ثامر المالكي هواية ولم تتحول إلى مصدر للربح والاسترزاق، كما حافظ على الهيب هوب كأسلوب حياة متمرد، فما هي أسباب الاحتجاج وعدم الرضا التي يضمنها ثامر في أغانيه، وما هي دعوات التمرد والعصيان التي صاغها فيها؟

أشكال التمرد وأنماط الاحتجاج في أغاني ثامر المالكي:

لمحة عامة عن المدونة:

نظرا لصعوبة الحصول على كافة الأغاني التي ألفها ثامر المالكي، فقد اقتصرنا على مدونة متكونة من ثلاثة أغان كتبها وسبق أن قام بتسجيلها ونشرها على موقع اليوتوب، وهذه الأغاني هي أغنية أداها منفردا، ومقطع أداه ضمن أغنية لفرقة BAT،أغنية أخرى أيضا شارك فيها مغن من بوسطن اسمه Eastwood كما هو مبين بالجدول :

الأغنية	رمشة عين	We movin up	Lifeless
المغنين	Gūeb-Aveyro	Tmc-Big Tmc–Eastwood	Tmc
تاريخ صدورها	2018	2017	2015

هذه المدونة مكنتنا من استخراج ثلاثة محاور كبرى:

1. **الحديث عن الذات وتقديمها**: وهذا المحور غالبا ما يأتي كرد اعتبار للذات وإعلاء من شأنها، وإن جاز لنا التشبيه، فإن المقاطع التي تندرج ضمن هذا المحور تماثل الشعر المكتوب بغرض الفخر كما في المقطع التالي

I hypnotize the mass,runnig after cash..

أنا أنوّم الحشود مغناطيسيا، وأركض خلف المال..

2. **التفكير بصوت عال**: وهذا المحور يضمنه ثامر أفكاره التي تخص الحياة بشكل عام، وانطباعاته العاطفية عنها، ومن ذلك ما ذكره عن موت صديق مقرب وابن الحي الشعبي الذي يعيش فيه ثامر في أغنية رمشة عين.

Too many brothers gone from where i live

Like AUB Brother RIP,look into my eyes don't question me

كثير من اخوتي غادروا المكان الذي أعيش فيه

مثل أخي أيوب، فليرقد بسلام، انظر إلى عيني ولا تسألني

3. **النقد الاجتماعي**: في هذا المحور تحديدا نجد أشكالا مختلفة من الاحتجاج واستعراض مشاكل اجتماعية وسياسية معينة، ويكون هذا الاستعراض في شكل سردي وهذا المحور هو الذي سنستثمره لاستخراج أسباب الاحتجاج والدعوات للتمرد والانشقاق.

أسباب الاحتجاج والدعوة للتمرد:

1) احتجاج على النظام السياسي:

نعني بالنظام السياسي هذا الكل المعقد الذي لا ينحصر فقط في السياسيين فقط، بل أيضا في المشرعين الذين يدونون القانون، وطبعا دون إغفال للجهاز البوليسي لأن له العلاقة الأكثر مباشرة بسكان الأحياء الشعبية، وأيضا باعتباره كثيرا ما يصير حاضرا بكثافة في الحياة اليومية لثامر مثلما يخبر به هذا المقطع:

Fuck the police still stalking me

تبا للشرطة التي لازالت تلاحقني

وتشير عبارة Fuck إلى الشتم، ولكن أيضا إلى اللامبالاة، كما تتضمن مقاطع أخرى دعوة لرفض التعاطف مع الشرطة، فوظيفتها قمعية بامتياز لأنها تخدم سياسيين وقوانين جائرة وتمنع سكان المناطق الشعبية من كسب القوت والاسترزاق.

Cops come and get em,put em in the jail

start back from the zero

يأتي رجال الشرطة ليأخذوهم ويضعوهم في السجن

ليعودوا مجددا إلى النقطة الصفر

إن رجال الشرطة يساهمون في تنكيد عيش الأمهات والزوجات اللواتي يتم اعتقال أزواجهن وأبنائهنّ، أو أقربائهنّ، مثلما يدل هذا المقطع الذي أخبرنا ثامر أنه كتبه عن موقف عاشه شخصيا

My mother could’t sleep when my father is arrested

والدتي لا تستطيع أن تنام لأن والدي تم اعتقاله

لكن للسياسيين أيضا دور في حالة عدم الرضا التي يعيشها ثامر، ومثل كثير من مغني الراب، مثلما يشير إليه هذا المقطع:

You Fuck the politics,people need to eat,can’t feed em fuck promisses

تبا للسياسة، الناس تحتاج إلى أن تأكل، والوعود اللعينة لن توفر لهم الطعام.

كما أن الاحتجاج يتجاوز الاقتصار على وصف الواقع، بل يمرّ ثامر إلى رد الاعتبار لشخصه المتمرد، لأنه يكفر بالنظام ويحاول تغييره والتحرر من القيود التي يفرضها عليه:

Keep the hard work to release my pain

Threat to the system am a be i remain

I don’t play to loose am a go for the gain...

أستمر في الكفاح لكي أخفف من ألمي

أنا تهديد للنظام، وسأبقى كذلك

لست ألعب لكي أخسر بل أنا ألعب لكي أنتصر

2) احتجاج على النظام الاقتصادي:

تظهر بوضوح التفرقة والتمييز بين نحن وهم، الفقراء والأغنياء، في أغاني ثامر المالكي، ويمكن اكتشاف هذا التقسيم الثنائي في هذا المقطع:

Riches lives long,poor die young

They happy cause we suffer and they just having fun

Shoot em with the gun,ain'gonna run

الأغنياء يعيشون طويلا، الفقراء يموتون صغارا

هم سعداء لأننا نتعذب وهم يلهون فقط

أطلق عليهم النار بالسلاح ولا تهرب بعد ذلك

بالنسبة لثامر المالكي يعتبر طول الحياة وجودتها مرتبطة بتوزع الموارد بين الأفراد. إن انقسام المجتمع إلى أغنياء وفقراء في هذا المقطع يحيل إلى شكل من غياب العدل في توزيع الموارد يترتب عنه شعور بالألم عند الفقراء الذين يتعبون ليرتاح غيرهم، إذا ما جاز لنا استعارة عبارة عالم الإناسة الفرنسي بيار كلاستر، ولكن أيضا الأغنياء يستمدون سعادتهم من معاناة الفقراء، لكن الاحتجاج أيضا يشمل الممولين والمساندين وتجار الأغاني الذين يصنعون من مغني الراب شخصيات ثرية ومعروفة مثل ما يبينه هذا المقطع

Keep my whole life thuging out fuck all sponsors

سأبقى أعيش حياة الصعلكة واللعنة على الممولين

لقد آثرنا استخدام مصطلح حياة الصعلكة thug life لأنها حياة قطاع الطرق والخارجين عن القانون من رجال العصابات الزنوج الذين كانوا يتبنون الهيب هوب كنمط حياة وأسلوب نضال في الولايات المتحدة الأمريكية، وأصبح هذا النمط الهامشي للعيش تقليدا شائعا للعيش عند معتنقي هذه الثقافة المضادة .

3) احتجاج على صعوبة الحياة و قسوتها في الأحياء الشعبية:

إن الحياة في الحي الشعبي محفوفة بالمخاطر وتتطلب الحذر الدائم والمستمر، إذ أن الأصدقاء أيضا يمكن أن يصبحوا مصدرا للتهديد مثلما يبين ثامر فيما يلي:

Busted hanging with some brothers that i never trusted in

عندما كنت متشردا في الشارع مع أصدقاء لم أكن أثق في أي منهم

لكن حياة مغني الراب تحديدا تجلب لصاحبها المزيد من الأعداء والخصوم، وليس مغني الراب وحده من يعاني، بل كل سكان الأحياء الشعبية التي لا يعرفها الأثرياء، فالشارع مقبرة للأحلام، أحلام ثامر المالكي الذي لا زال يقاوم بالفعل والقول، وكثير من الشباب الذين لم يعد لهم غير هذا الشارع الذي تم الزج بهم إليه.

بمثابة خلاصة:

حاولنا في هذه الدراسة الاستشرافية المندرجة ضمن دراسات الهيب هوب Hip-hop studies لمس العلاقة الرابطة بين أغاني الراب، باعتبارها خطابا في قالب أغنية، وحياة كاتبها، وهو شاب تونسي شوارعي من أصول فقيرة لم تستوعبه الثقافة المهيمنة، ولم ينخرط بدوره في إعادة إنتاجها، وحتى لا ندعي أننا حاولنا إنتاج خطاب موضوعي، فقد اقتصرنا قدر الإمكان على ذكر سيرة ثامر المالكي كما أدلى بها إلينا وفقا لسيرورة زمنية خطية

متسلسلة، ومحاولين أيضا ترجمة مقاطع الأغاني وتبويبها وفقا لمحاور ذات علاقة بإشكالية البحث، وهو الدور الذي يمكن أن يلعبه مغني راب في الحركات الاجتماعية التي لازالت مستمرة بعد اندلاعها في السابع عشر من ديسمبر 2010، وانعكاساتها على طبيعة الخطاب الاحتجاجي في أغانيه، ويمكن القول أن دراسة واحدة لا تكفي للكشف عن تنوع توظيفات الراب للفضاء العام، وفي الأحياء الشعبية خاصة، لهذا فإن دراستنا هذه تعبر عن حالة خاصة واستثنائية ولا يمكن بأي حال من الأحوال اتخاذها كنموذج تعميمي، ولكن إحدى توظيفات السيرة الحياتية هي وظيفة استطلاعية كما يذهب غلى ذلك عالم الاجتماع الفرنسي دانيال برتو، وفي ذات الوقت الذي استطعنا فيه اكتشاف شكل ممكن للالتزام بالقضايا الاجتماعية عبر تبني شكل مختلف للاحتجاج، بعيدا عن الشكل الممأسس والمنظم، وهذه السطور أيضا دعوة لمزيد الاهتمام بالهيب هوب كمبادرة جماعية لأشخاص يعيشون على هامش السلطة، ويحاولون تحقيق تغيير اجتماعي.

آية بن منصور - باحثة دكتوراه في علم اجتماع الفن

خطاب الرفض لدى المجموعات الفنية لفن الشارع: المجموعات الناشطة بشارع الحبيب بورقيبة مثالا

الملخص

تقرّ النظريات السوسيولوجية الكلاسيكية والحديثة، بعدم وجود لمجتمع ثابت ومستقر، نظرا لما يتّسم به من نسق ذي سيرورة ديناميكية لا متناهية. ينعكس ذلك على المنظومة الفكرية للأفراد وجملة تفاعلاتهم مع ما يعيشونه من تغييرات سوسيوسياسية وثقافية وطرق تفاعلهم معها. تماما مثل ما حدث في ثورة 17 ديسمبر 2010 - 14 جانفي 2011، حيث عمدت الشريحة الاجتماعية الشبابية إلى خلق وابتكار أساليب احتجاجية جديدة تعبّر بواسطتها عمّا تختلج داخلها من مواقف وآراء حول مردود النظام السياسي، على غرار التعبيرات الفنية المستقاة من ثقافة فنّ الشارع.

Abstract

It is undeniable that all classical, as well as modern sociological theories, uphold the fact that there is no stable nor fixed society because it is dynamic, ever-changing and infinite. This is reflected in the intellectual system of individuals and in their modes of interactions with the sociological and cultural changes that they are prone to during their lives. As in the revolution of December 17th, 2010 or January 14th, 2011, where the Tunisian youth has created new methods of protests that testify to the attitudes

and views of the political system, similar to the artistic expressions found in street art culture.

"إن غسلنا أيدينا من الصراع بين الأقوى والأضعف، فإننا نقف إلى جانب الأقوى، لذا لن نكون محايدين"

" بانكسي"

على إثر اندلاع أحداث "انتفاضة" 14 جانفي 2011، ومع اشتداد وتيرة نسق التغيير الاجتماعي وتعاقب الحكومات السياسية وتداولها على السلطة بحسب الشرعية الانتخابية، أصبح من الملاحظ للعيان بأن "فن الشارع" قد بدأ يكتسح الشارع التونسي عن طريق مجموعات شبابية ذات انحدارات فكرية واجتماعية متنوعة ومختلفة في محاولة منهم لهدم البُنى الرسمية للثقافة وإعادة بناء تصور مغاير تماما للفن شكلا ومضمونا وممارسة عن الفن الكلاسيكي الذي لا يتوفر إلا في الفضاءات المغلقة والمشرعة له من قبل الدولة، بما في ذلك دور الثقافة والشباب وقاعات السينما والمهرجانات. بيد أن الفئة الشبابية لم تعد تلجئ لصناديق الاقتراع للإدلاء بأصواتها واختيار من يمثلها من المترشحين السياسيين. كما انخفضت نسبة انخراطها في الأطر الحزبية والجمعياتية المنظمة لفعلها السياسي، لتتخذ المواقف السياسية للشباب شكل تعبيرات فنية نابعة عن "الثقافة الصاعدة" بما هي الأنماط الجديدة للعمل الفني التي لم تندمج بعد في شبكة المؤسسات الثقافية (مثل Slam والغرافيتي) تسعى من خلالها إلى إرساء مناخ تفاعلي جديد لا فقط مع النظام السياسي الحالي وإنما أيضا مع محيطها الاجتماعي ككل. تعبيرات يمكن قراءتها على الجدران أو سماعها في شكل مقطوعات موسيقية ونصوص نثرية مشفّرة أو مشاهدتها ضمن أداء مسرحي تفاعلي بين الممثلين والجمهور المارّ في المساحات والفضاءات العمومية.

هذا السلوك التفاعلي الفني للشباب مع ما يستجدّ من معطيات سياسية وما ينجرّ عنه من تبعات على مستوى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، يجعل منه مبحثا سوسيولوجيا مهمّا خاصة وأنه يعدّ حقلا بحثيا جديدا لم يتمّ الخوض في غماره إلا من قبل عدد قليل من الباحثين. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الورقة تأتي كخلاصة لما تمّ التوصّل إليه في رسالة الماجستير بعنوان:" تعبيرات الشباب السياسية من خلال فن الشارع، نموذج المجموعات الفنية في شارع الحبيب بورقيبة بالعاصمة". أهمية هذا المبحث، تستلزم عدم اقتصاره عند حدود المرحلة الأكاديمية وضرورة إدراجه ضمن سياقات جديدة بهدف تعميق الإدراك بمدى تأثير تعبيرات فن الشارع الصادرة عن هؤلاء الفاعلين الاجتماعيين الجدد على الوقع الحركي لمحيطهم السوسيوسياسي، وكيفية مساهمتها في الدفع بسيرورة نسق الاحتجاجات وتصاعدها نحو صيرورة ثورية منشودة.

وعليه، تأتي مشاركة هذه الورقة ضمن كرّاس المنتدى التونسي للحقوق الاجتماعية والاقتصادية حول أشكال الفعل الجديد والفاعلين الجدد من أجل تبيان مختلف أنماط التفاعل الوجاهي بين المجموعات الشبابية الممارسة لفن الشارع وفضائها السوسيوسياسي، بواسطة فهم وتحليل الكيفية التي يعتمدونها لممارسة هذا الفعل الفني وإدراك مقاصده ونواياه. ليكون بالتالي شارع الحبيب بورقيبة والأحياء المضارعة مثل نهج "مارسيليا" وشارع "باريس" بمثابة حقلنا البحثي.

ففي هذه الورقة، لن نسقط في خانة التحليل ذات الأفق المغلق والمستهلك من قبل العديد من وسائل الإعلام وبعض المحللين السياسيين، وحتى بعض الباحثين الذين تناولوا بالشرح والتحليل طبيعة المشاركة السياسية للشباب، مختزلين إيّاها في مفهوم ضيق للدلالة على "عزوف الشباب عن المواعيد الانتخابية وعن العمل السياسي". وإنما سنعمل بالأساس على دراسة وفهم الكيفية التي مارست بها هاته المجموعات الشبابية فعلها السياسي والغوص في أبرز تجلياته الفنية. وهو ما يتماشى مع ما أشار إليه "منير السعيداني" في مقالته الأكاديمية بعنوان "شباب، فن، احتجاج ووسائل التواصل الاجتماعي في تونس

ما بعد الثورة"[40]،أين بيّن مدى قابلية هذا الفاعل الاجتماعي وقدرته على الخلق والتجديد في عمله السياسي عبر ما يبتكره من منتوجات فنية نابعة عن الظروف الاجتماعية المحيطة به وما يحمله من مواقف تجاهها.

مدخل إشكالي:

إثر أحداث جانفي 2011، بدأت تطفو على سطح الراهن المجتمعي جملة من الظواهر الاجتماعية شدّت اهتمام المفكرين والباحثين وساهمت في تدفق سيل البحوث للمؤسسات المختصة في القيام بالدراسات الاجتماعية. نذكر من بينها على وجه الخصوص قضية الشباب بما يحمله من خصوصية ثقافية وفكرية، فعند اطلاعنا على العديد من الأطروحات والدراسات السابقة التي تناولت مسألة المشاركة السياسية للشباب، تبيّن لنا وجود مخزون ثري من القراءات المتنوعة والمختلفة حول دور هذا الفاعل الاجتماعي داخل الحقل السياسي وطرق انخراطه فيه. من بينها دراسات "مادلين غوثيير" والتي أمعنت في مناقشة هاته الفكرة في كتابها بعنوان "نظرة على الشباب في كندا"[41]، منطلقة في تحليلها من الخطة الوظيفية التي تشتغل وفقها المؤسسات الاجتماعية في المجتمع الكندي. فعلى الرغم من سعي تلك المؤسسات لتحقيق رغبات الشباب والاستجابة لمطالبه الاجتماعية، فإنها في المقابل لا تفسح له هامشا من الحرية لتحقيق ذاته والتصرف حرا وفق قراراته ووجهات نظره. وقد بينت "مادلين غوثيير" أن الشباب الكندي المعاصر ونظرا لما يعيشه مجتمعه اليوم من تحولات وتغييرات

[40]Saidani Mounir, "Jeunes, art, contestation et réseaux sociaux en Tunisie postrévolutionnaire", In: Academia,2012, p30 https://www.academia.edu/31381405/Jeunes_art_contestation_et_r%C3%A9seaux _sociaux en_Tunisie_post%C3%A9volutionnaire , consulté le 11 /3/2016.

[41] González Castillo Eduardo, "L'engagement politique des jeunes militants à Pueble Mexique", In : Sociétés et jeunesses en difficulté, N14, 2014, URL:http://sejed.revues.org/7634.

سوسيوثقافية، بصدد إرساء لصور جديدة لمشاركته السياسية ولكيفية تموقعه ضمن صفوف الفاعلين الاجتماعيين العاملين على التغيير لتحقيق النموذج المجتمعي "المنشود".

شكلت جملة التساؤلات والأطروحات التي تعرضنا لها، مبحثا سوسيولوجيا مهمّا اقتضى منا البحث الدقيق والتقصّي العميق في خبايا هذه الظاهرة، سلطنا من خلاله الضوء على علاقة المجموعات الشبابية الفنية بالممارسة السياسة اليوم وكيفية مشاركتهم فيها بواسطة الاعتماد على فلسفة ثقافية أخذت في التشكل والبروز للعيان في السنوات الأخيرة إثر سيرورة التحولات التي شهدها مجتمعنا ألا وهي ثقافة "فن الشارع"[42] أو ما يعرف "بالفن البديل". أين تقوم المجموعات الشبابية الفنية باستخدام جملة من الأشكال والتعبيرات الفنية الاحتجاجية لتبليغ آرائها والإدلاء بمواقفها الرافضة لمردود النظام السياسي وما يشرّعه من قوانين وأحكام لا تخدم صالح المجتمع التونسي، ليصبح بالتالي العمل الفني عملا حاملا للقضية، ووسيطا تواصليا بين الشباب والنظام السياسي.وهكذا يخرج الفعل السياسي عن إطار التنظيم الكلاسيكي الحزبي أو غيره المقنّن للعمل السياسي التي لم تعد تلبي تطلّعاته، متّجها نحو إطار مفتوح للفعل والتفاعل وهو الشارع [43]. أين

[42]بالعودة إلى أدبيات علم اجتماع الفن والدراسات السوسيولوجية التي بحثت في ظاهرة "فن الشارع"، نجد العديد من التعاريف المتنوعة المسندة لهذا النوع الفني نظرا لخصوصية السياق السياسي والاجتماعي والاقتصادي المنبثق منه. إضافة لخصوصيته الثقافية التي لم تكن ناتجة بحسب تعبير "كريستيان غارين" عن المقاربات الثقافية الكلاسيكية المعهودة في إنتاج الأعمال الفنية. وإنما كانت وليدة الشارع ووليدة ثقافة "هيب-هوب" التي برزت في الستينات القرن الماضي في أمريكيا اللاتينية خلال الحركة التحريرية للسود، تطرح تجديدا في مستوى المفهوم والممارسة والأهداف والقضايا التي يعالجها والرسالة التي يحملها وطرق إيصالها إما بشكل معلن أو خفي إلى جانب معجمه اللغوي الرمزي وطابعه العفوي. وهو ما يجعل الممارسين "لفن الشارع" لا يتفقون بدورهم حول مفهوم محدد له وانما لكل منهم تمثله الخاص يستقي على ضوئه عمله الفني. إذ يعد فن الشارع طريقة لرؤية وتأويل الفضاء الحضري، يتميّز بطابعه "الأناركي" الذي يطرح تحويلا لطبيعة الفن وتحويلا لطبيعة الفضاء في حدّ ذاته بشكل يقطع مع الثقافة الرسمية المغلقة لمؤسسات دور الثقافة والشباب المنظمة للعمل الفني منفتحا على المساحات العمومية. أين يعمل ممارسه على الدمج بين القيمة الجمالية للفن بالمنظومة اللغوية للشارع بهدف التعبير بأسلوب ذكي عن القضايا الاجتماعية والسياسية. أنظر:

Gerini Christian, "Le street art a-t-il toujours / n'a-t-il jamais existé ?" , In: Cahiers de Narratologie, p2, file:///C:/Users/USER/Downloads/narratologie-7492%20(1).pdf , consulté le 7/8/ 2017.

[43]يتمدّد مفهوم "الشارع" خارجا من حبسه اللغوي داخل المعاجم العربية التي عرفته على أنه "الطريق أو الدرب"، ليصير بذلك أكثر صلة بالبنى الاجتماعية خلال علاقاتها الاقتصادية السياسية المتحركة. ولعل مدلولات الفعل والاتساع تظل الأقرب إلى الرمز اللغوي لمفهوم "الشارع"، فهو مصطلح إشكالي في تعميم مضامينه التي ترتبط بالمتغير الزمني وبالتراكم المعرفي للمجتمع. فبالعودة للدراسة التي قام بها "محسن البوعزيزي" بعنوان "الشارع نصّا: بحث في لغة الشارع المكتوبة في تونس"، نجده قد سار في هذا السياق أين

تجد هذه المجموعات هامشا من الحرية لتحقيق ذاتها وتشكيل هويتها اجتماعيا سياسيا وثقافيا بالتوافق مع تطلّعاتها وأهدافها معيدة صياغة شارع "الحبيب بورقيبة" وتأثيثه بتعابيره الفنية. حيث أصبح هذا الأخير بمثابة ركح لهم بحسب تعبير "غوفمان"[44] يقومون بتأثيثه بواسطة الرقص والغناء والتمثيل المسرحي المحمل بالتشفيرات والرموز المبتكرة والمعبرة عن مواقفهم السياسية بأسلوب مختلف ومتجدد لفعل انخراطهم في الحقل السياسي. فمن خلال ثقافة "فن الشارع" لم تجدد هذه المجموعات الفنية طريقة مشاركتها السياسية فقط، وإنما ساهمت كذلك في تجديد طبيعة العمل الفني الذي خرج بدوره عن الأطر الرسمية والمشرعة له من قبل الدولة كدور الثقافة والمهرجانات. لتتحول بالتالي المساحات العمومية إلى مسرح للتعبيرات الشبابية الفنية على اختلاف أنماطها من مسرح وغرافيتي وموسيقى ورقص تتواصل من خلالها المجموعات الفنية مع محيطها

أخرج مفهوم الشارع من مجاله الجغرافي الضيق الممتلئ بالعمارات والبنايات السكانية. ليصوره في شكل نصّ متماسك يمكن قراءته واستخراج القوانين البنيوية التي تسيّره، عبر البحث في بعض جوانب لغة "الشارع" المكتوبة كنصّ متماسك يجدر الكشف عن بنائه الداخليعلى اعتباره نظاما تواصليا يتضمن رسالة مشفّرة تحمل دلالات جمالية ورمزية.

فمن منظوره، لا يختلف "الشارع" عن بقية النصوص المقروءة كالنصوص الأدبية التي "يتقبلها المارّ في شكل مقتطفات مجزّأة خارج سياقها النصّي التكميلي"، فهو يعتبر جزءا من نسيج حياتنا اليومية التي نعيشها ونمارسها كلّ يوم. يسانده في الرأي "روب كرير" مؤكّدا أهمية الدور الذي يلعبه هذا الفضاء العام في صيرورة بناء حياتنا الاجتماعية، على اعتباره أول مؤسسة اجتماعية في المدينة يحدث فيها نمط منظّم من السلوك الجماعي. فهذا الفضاء بإمكانه أن يتحول بحسب تحليل "أحمد خواجة" من موضوع مستهجن إلى ذات فاعلة متمثّلة في "حركة شعبية عارمة" نابعة من مجموعة أفراد موحّدين في الأهداف والغايات، يتحرّكون وفق منطق مصلحة الجماعة تماما مثل ما حدث يوم 14 جانفي 2011. أين كان شارع "الحبيب بورقيبة" الفضاء الذي جمّع تقريبا كل الفاعلين الاجتماعيين المحتجين ليصبح على إثرها رمزا وطنيا لكل الحركات الاحتجاجية التي تتالت منذ ذلك الحين إلى حدّ اللحظة الراهنة ممّا انجرّ عنه تغيير في نسق اشتغاله.

فبعد أن كان مجرّد فضاء تتقاطع فيه ممرّات الأحياء المضارعة له، أو مجرّد اسم يُذكر إمّا لتحديد عنوان معين أو لضرب موعد. أصبح شارع "الحبيب بورقيبة" ذلك الفضاء الحيوي المفتوح بصورة لم نعهدها من قبل، على مختلف أشكال التفاعل بأنماطه المتعدّدة والمتنوعة التي لم تقتصر فقط على التظاهرات ذات الطابع السياسي. وإنّما شملت أيضا كل التظاهرات الثقافية والفنية التي كانت تعترضنا أثناء عملية رصدنا للمجموعات الشبابية. ليتحول بالتالي شارع "الحبيب بورقيبة" من مجرّد ممرّ ذي ملكية عامة إلى أداة تواصلية ومحورا للربط الاجتماعي بين الفاعلين، ونموذجا مصغرا عن مجتمعنا ككل والفضاء الوسيط بين المنزل والعالم، بين الداخل والخارج، فضاء تواصل وتنقل وتعلّم الأدوار الاجتماعية وتنظيم المدينة ومسرحا للإبداع المتميز بوقعه الحركي الديناميكي. أنظر:

البوعزيزي محسن، الشارع نصّا: بحث في لغة الشارع المكتوبة في تونس، رسالة ختم الدروس الجامعية، تحت إشراف الطّاهر لبيب، جامعةتونس: المعهد العالي للتنشيط الثقافي، السنة الجامعية: 1986-1987، ص 44.

خواجة أحمد، الممارسات الثقافية ودورها في اندلاع الثورة في ولايتي سيدي بوزيد والقصرين، في: الثورة التونسية القادح المحلّي تحت مجهر العلوم الإنسانية، مجموعة مؤلفين، تحت إشراف المولدي لحمر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، بيروت، سبتمبر 2014، ص 183.

[44] Goffman Erving, La mise en scène de la vie quotidienne, Minuit, Paris, 1973, p35.

السوسيوسياسي. وهو ما سنعمل على الخوض في غماره والتمحيص فيه في سياق هذه الورقة بغاية فهم وتحليل الاستراتيجيات التي يتبناها هؤلاء الفاعلون الاجتماعيون للقيام بعملهم السياسي وكيفية تفاعلهم مع السلطة بواسطة تعبيرات "فن الشارع".

تُعدّ هاته الورقة بحثا في ماهية الفعل السياسي للمجموعات الشبابية الفنية وفي كيفية تفاعلها مع المعطى السياسي بوسائلها الخاصة المعبّرة عنها. في محاولة منا فهم وتحليل الأسباب والمعاني الكامنة وراء بنية هاته الممارسة والطقوس التي تشتغل وفقها، ومراقبة أنماط السلوك الوجاهي لأوضاع التفاعل الممكنة بين هذا الفاعل الاجتماعي الجديد، ومحيطه السوسيوسياسي، وهو ما يجعل من مفاهيم الفعل والتفاعل السياسي ضمن تعبيرات فنية نابعة عن "ثقافة الشارع" المحور الرئيسي الذي تتمحور حوله ورقتنا البحثية.

وبناء عليه، ارتأينا أنه من الأفضل من الناحية المنهجية والنظرية تناول هذا المبحث السوسيولوجي وفق براديغم "التفاعلية الرمزية" الذي ينطلق من الذات وما تصدره من أفعال تساهم في التأثير في محيطها الاجتماعي، نظرا لاعتبارها الفرد ذاتا مبدعة وخلّاقة تعمل دوما على تجديد ظروف إنتاج سياقها الاجتماعي بحسب تعبير "ويليام إزاك توماس"[45]. فكيف تمارس المجموعات الشبابية الفنية الناشطة بشارع الحبيب بورقيبة عملها السياسي عبر تعبيرات "فن الشارع"؟ وكيف تتفاعل من خلالها مع ما يحدث من تغييرات وتطورات في الحقل السياسي؟ وإلى أي مدى يمكن أن تؤثر تعبيرات الشباب الفنية على الوقع الحركي "لشارع الحبيب بورقيبة"؟

[45] Issac Thomas William; Howell Volkart Edmund: Social behavior and personality: contribution of w.I. Thomas to theory and social research, Oxford, United-States, 1951, p8.

مدخل منهجي:

تعتبر هذه الورقة البحثية محاولة لا فقط في النفاذ إلى عالم المجموعات الشبابية الفنية الناشطة بشارع الحبيب بورقيبة والإبصار في عمق تفاعلها مع المعطى السياسي في ضوء التحولات الاقتصادية والسياسية المتسارعة التي يفرضها واقعنا الاجتماعي اليوم، وإنما هي كذلك سعي للتفكير فيما إذا كان فعلها السياسي ينطوي على نوع من التجديد في مستوى التصور والممارسة من خلال الاقتراب أكثر من نسق حياتها الديدني، نظرا لما تمثّله لنا من مجال ثري يزخر بالتعبيرات والسلوكات ذات الدلالات السوسيولوجية التي تعكس تفاعل هاته الفئة الاجتماعية مع الواقع الآني للحقل السياسي. وبناء عليه، قمنا في إطار هذه الورقة البحثية بالاعتماد على منهجية تفهمية استقرائية نرمي من خلالها إلى جعل هذا السلوك السياسي الشبابي ذا صبغة ودلالة علمية مفهومة داخل إطار معرفي فكري وعقلاني[46]نظرا إلى أنّ ما هو سياسي يمكن أن يكون اجتماعيا. حيث نهدف بواسطتها إلى فهم الكيفية التي مارس بها الشباب الأشكال الفنية وطرقه التعبيرية الموجهة ذات الطابع السياسي والتي تخرج عن أطر التنظيم الكلاسيكي الحزبية أو الجمعياتية. لتنفتح على فضاء مغاير ذي خصوصية مختلفة تماما ألا وهو الشارع، ليكون بذلك "شارع الحبيب بورقيبة" حقلا رئيسيا لبحثنا نرصد من خلاله أهم الممارسات السياسية الشبابية في العديد من المناسبات والعروض وكيفية تواصلها مع محيطها.

اخترنا "فن الشارع" كأبرز مثال سنعتمده في دراستنا، وقد لاحظنا خلال عملية رصدنا اليومي للفاعلين من الشباب التي امتدت من 15 مارس إلى 15 ماي 2017، بأنّ نشاطات المجموعات الشبابية الفنية غير ثابتة وغير محدّدة بتوقيت زمني وإطار مكاني، وإنما هي في حركة ديناميكية مستمرة. الأمر الذي دفعنا ضرورة لاتباع عيّنتنا في الشوارع المضارعة

[46] Schnapper Dominique, La compréhension sociologique, Paris, PUF, 1999, p9.

لشارع "الحبيب بورقيبة" وتحديدا "نهج مرسيليا" و"شارع باريس" التي كانت تزخر بجملة من التمظهرات الفنية "البديلة". وأثناء عملية رصدنا للعروض الفنية، عملنا على توثيق أهم الملاحظات المتعلقة بالسلوكات الصادرة عن المجموعات الشبابية، مما سهّل لنا فيما بعد تشكيل صورة تقريبية لحقلنا البحثي، تسمح لنا بأن نكون على بيّنة من نسق اشتغاله وسيرورته الديناميكية التي تتحرّك وفقها المجموعات الشبابية التي ندرسها. ذلك أنّ المشاركة السياسية لا يمكن قياسها كميا أو حصرها في مجرّد نسبة إحصائية، وإنّما هي مجموعة مؤشّرات وسلوكات وردود أفعال ومواقف تستوجب منّا لزوما اعتماد المنهج الكيفي التفهّمي[47]، كي نتمكّن من قراءة السلوك السياسي المتمظهر للمجموعات الشبابية الفنية من خلال تعبيرات "فن الشارع" والغوص في كل ما هو معلن وخفي لهاته الممارسة بالاعتماد على تقنيتين أساسيتين وهما الملاحظة بالمعايشة والمقابلة نصف الموجهة.

لماذا شارع الحبيب بورقيبة؟

يعود اختيارنا لشارع الحبيب بورقيبة نظرا لرمزيته السياسية ولما شهده من أحداث تاريخية هامة ساهمت في تعزيز مكانته في الذاكرة الشعبية. كما ساهمت أحداث 14 جانفي في إكسابه رونقا خاصا حولت اسمه إلى "شارع الثورة" نظرا لما عاشه عموم المواطنين حينها من وقائع شعبية لا يزال يذكرها إلى اليوم ويحتفل برمزيتها كل سنة.بالإضافة إلى ذلك، يعتبر شارع "الحبيب بورقيبة" مركزا للتفاعلات البشرية نظرا لتميزه بموقعه الاستراتيجي، إذ يعدّ محطة فاصلة بين جميع الطرقات الفرعية المؤدية إلى محطات النقل العمومي، كما يحتوي على العديد من المعالم التاريخية والفنية وقاعات السينما مما يجعله محط إقبال كثيف من قبل الأفراد ومعبرهم اليومي ونقطة التقاء بين الجميع وهو ما يدفع

[47]Wilhelm Dilthey, Introduction à l'étude des sciences humaines, trad: Lousi Sauzin, Paris: presses universitaires, France, 1942, p27.

الفرق الشبابية لتركيز أنشطتها الفنية في هذا الفضاء لضمان إيصال تعبيراتهم الفنية إلى أكبر عدد ممكن من الجمهور المتفرج.

يكتسب الفضاء العام في ثقافة "فن الشارع" رونقا خاصا يجعله نقيض رواق العرض التشكيلي المحترف الخاص أو التابع للدولة، ونقيض الترتيب الرسمي للفضاء المديني. ليتحول بالتالي إلى فضاء إلهام يستمد منه الشاب تعابيره الفنية المرتبطة بمضامين حية وواقعية، وفضاء للمشاعر المكثفة والحية يستغله الشباب لتحقيق البروز والانتشار. إذ أن هذه الثقافة الشبابية لا تعتبر الشارع مجرد زاوية فاصلة بين الفضاء الخاص والفضاء العام، أو مجرد مسلك للمرور وللحركة، وإنما يصبح للفضاء العام بعدٌ رمزيٌ للقاء والتناقل والاستكشاف والمغامرة ومساحة للتعبير الفني والسياسي. بحيث يتحول كل ركن من أركانه وأرصفته وجدرانه إلى منطوقة فنية نسمعها ونقرؤها من خلال عيون هاته الفئة الشبابية.

1- تعبيرات فن الشارع: رغبة في التجديد في الفعل الفني والسياسي:

لا ينفصل "فن الشارع" عن فضاء الشارع نفسه وعمّا يدور في سياقه من تظاهرات ثقافية وسياسية ووقفات احتجاجية وأحداث يومية. إذ أن الحديث عن هذا النوع الفني يجعلنا نسلط الضوء على أسلوب فني جديد يقوم على منطق الخلق والابتكار بتطلعات فكرية مستحدثة، يمنح من خلالها الفن فرصة تزاوج المكتسبات الذهنية بالفعل الفني في ساحات مفتوحة يمكن أن نحددها على أنها الحاوي للأثر الفني الناتج عن المجموعات الشبابية الناشطة بشارع "الحبيب بورقيبة" مما يجعلهم في صراع دائم مع أجهزة الدولة والمجتمع وحتى الفنانين المحترفين ذاتهم.

1-1 الممارسة الفنية الموسيقية: تجربة *رغدة*:

تعود بدايات تجربة "رغدة"[48] في "فن الشارع" إلى حدود ما يقارب السنتين، حيث تميزت بمشاركاتها المتنوعة مع فرق موسيقية مختلفة أولها كانت مع مجموعة "الفن سلاح". لكن هاته التجربة لم تدم طويلا نظرا لارتداد أعضائها عن خطة اشتغالهم الموضوعة منذ تأسيس الفرقة، وهو ما أدى بالتالي لخلق نوع من التعارض بين توجهات الأعضاء، بين من يمارس الفن كوسيلة للنضال وبين من يمارس الفن كوسيلة لتحقيق الربح المادي وانسحاب "رغدة" لتنظم إلى مجموعة لمجموعة "Taguida" لموسيقى الشارع المتأسسة بتاريخ 20 فيفري 2017، وهي مجموعة متكونة من ستة أعضاء. إذ يحمل اسمها بعدا رمزيا مستوحى من غصن الزيتون كدلالة على معنى الرسوخ والثبات.

يرتبط وعي "رغدة" بأهمية فعل عزفها المليء بالرسائل في المساحات العمومية وبما تحمله من وعي سياسي متأتٍّ أولا من عامل انتمائها الجغرافي لمنطقة "جبنيانة" بولاية صفاقس، التي تلقبها "بقلعة النضال" نظرا لتاريخها اليساري المعارض للنظام السياسي السابق، وهو ما ساهم في اكتسابها تنشئة سياسية [49]مهدت دخولها للحقل السياسي وانخراطها في العمل السياسي الذي يمثل العامل الثاني لتشكل وعيها. حيث يحقق العمل السياسي من منظورها القيمة المعنوية للوجود الاجتماعي للأفراد، إذ يعد من الهام أن يكون الفرد قوة فاعلة ومؤثرة في المجتمع وساعية نحو التغيير عبر ما يبتكره من وسائل خاصة. فمن حق كل فاعل اجتماعي أن يمارس نشاطه السياسي تحقيقا لمواطنته، إذ أن "الحقوق في منظورها تفتك ولا تهدى وبالتالي تصبح كل أشكال ووسائل النضال مشروعة

[48]تعدّ رغدة أوّل فتاة عملت على اكتساح مجال شارع الحبيب بورقيبة بواسطة آلتها الموسيقية "الكاخون"، الأمر الذي جعلها عرضة للمضايقات في مناسبات عدة من قبل ما وصفته "بالنظرة الدونية والاحتقار" التي يسلطها نحوها الوعي الجمعي التونسي، نظرا لعدم تقبلهم فكرة تواجدها في الشارع والعزف وسط مجموعة من الشبان. وهو ما يعكس مدى تجذر الثقافة الذكورية في المخيال المجتمعي وتواصل تجذر التوزيع الجنسي للفضاءات، إذ لا يزال يعتبر الفضاء العام إلى اليوم ملكية خاصة بالرجل في حين على المرأة البقاء في فضائها الخاص والاعتناء بأسرتها.

49 Gaxie Daniel, Le sens caché, Seuil, Paris, 1978.

ضد أي نظام سياسي لا يخدم إلا مصالحه الشخصية غير عابئ بما في الواقع الاجتماعي من إشكاليات وقضايا وأزمات وجب حلها"[50].

وهو ما يحيلنا على مفهوم "رغدة" للممارسة السياسية التي لا يمكن اختزالها إما في العمل النقابي والحزبي فقط الذي يحتم ممارستها تحت غطاء قانوني يصبغها بالشرعية. وإنما وجب على الفرد خلق وابتكار طرق وأشكال احتجاجية متطورة تتماشى وجملة التحولات الاجتماعية والسياسية التي يعيشها مجتمعنا التونسي. ليصبح بذلك "فن الشارع" وجهة "رغدة" ووسيلتها لممارسة عملها السياسي والتفاعل مع السلطة وما تنتجه من قرارات، فأغنية "السور" مثلا، كانت أول معزوفة غنائية تقوم بكتابتها واستعراضها مجموعة "Taguida" تفاعلا منهم مع ارتفاع وتيرة الغليان الاجتماعي وردا منهم عمّا وصفته "رغدة" بالهرسلة التي يتعرضون لها بشكل يومي من قبل أعوان الأمن لمنعهم من الغناء في شارع "الحبيب بورقيبة". حيث تقول الأغنية:" مهما علّيتو السور ومهما حجبتو الشمس، مازال فما نور ومازلت نغني في همس، رديتو أرضنا بور لازم يكون لكم درس، الطريق صحراء وبرور نسقي ونعيد الغرس"[51].

2-1 الممارسة الفنية عبر الغرافيتي:

يمتلئ شارع الحبيب بورقيبة وأحياؤه المضارعة بلوحات جدارية تحمل بدورها تعبيرات سياسية وألفاظ نابعة عن وعي سياسي واجتماعي بالقضايا التي يعيشها المجتمع التونسي قامت بنقشها مجموعات فنية، من ذلك مجموعة زواولة، أين قابلنا "حمزة" أحد مؤسسيها. تسمية المجموعة، هي تسمية رمزية مستوحاة من الوضعية الاجتماعية والاقتصادية التي يعيشها أعضاؤها المنتمين أغلبهم لفئة الطلبة الحاملين لشهادات عليا

50 مقابلة مع رغدة بتاريخ 25 مارس 2017

[51]مقابلة مع رغدة

والعاطلين عن العمل، وتعمل على نصرة القضايا الاجتماعية والاقتصادية التي يعيشها الفقراء بحسب ما عايناه في صفحتها على موقع التواصل الاجتماعي "الفايسبوك"[52] .

إذ تمّ تأسيس هذه المجموعة إثر الإعلان عن النتائج الانتخابية بسنة 2011، حيث أدرك "حمزة" حينها خطورة الأوضاع التي سيؤول إليها المجتمع التونسي خاصة بعد سيطرة الحزب اليميني على مقاليد الحكم بالإضافة لانعدام ثقته في الفاعلين السياسيين الذين لا يمثلون شريحته العمرية ولا يمثلون همومه ومشاكله:" بابا يجي ولدهم الصغير"[53]. فقرر بذلك عدم الانضمام إلى أي تنظيم سياسي والالتجاء لممارسة السياسة عن طريق الغرافيتي التي يجد فيها مساحة من الحرية للتعبير عن آرائه السياسية والتفاعل مع النخبة الحاكمة والضغط على برامجهم السياسية، وهو ما نلمسه من خلال شاهده القولي التالي:" البلاد قاعدة تغرق وأحنا نتفرجو، مالقيت حتى حل قدامي، قلت للروحي برّا معلم اشكي همكببومبة وحيط"[54].

ويشتق "حمزة" تعبيراته الجدارية من ثقافة "الفن البديل" التي يجدها تختلف عن الثقافة التي يسوق لها الفن التجاري الاستهلاكي[55]، ما يجعلها تعبيرات نابعة من نبض الشارع وإيقاعاته ومعبرة عن المشاغل الحياتية لممارسها. ليضع بذلك على محك النقد كُلّا من سلوك الفاعل السياسي وخطة عمله التي يجب في منظوره أن تراعي خصوصية الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للظرفية الحالية التي تمر بها البلاد اليوم. ولعل في ذلك تعويضا عن غيابه عن المجالس السياسية وفضاءاتها بفضاء حركي منفتح ومستوعب لما يحمله

52 تصف مجموعة "زواولة" نفسها عبر صفحتها في موقع التواصل الاجتماعي "الفايسبوك" كالأتي: "خاطر الزوالي ما يخمّم فيه حدّ، خاطر قلنا عملنا ثورة شعّلها الزوّالي قدّمنا ومشينا وبعد عام خلّيناه التالي، الزوّالي الّي شقى وتعب وسهر ليالي، الزوّالي الّي أمن وحلم بيوم جديد، الزوّالي الّي جرى وراء أحلامو واليوم لقا روحو بعيد وكل همّو وشقاه يزيد، خاطرنا اليوم اخترنا الزوّالي وعلى خاطرو السياسة خلّيناها التالي قرّرنا نسمعو صوتو ونكتبو حكاية الزوّالي على حيوطنا لا صوت يعلو فوق صوت الزواولة، رابط الصفحة: . www.zwewla.com

53 مقابلة مع حمزة بتاريخ 1 أفريل 2017

54 مقابلة مع حمزة

55 بالعودة إلى الفصل الثالث من كتاب "مدخل إلى سوسيولوجيا الثقافة" في بابه الخامس "الإبداع الثقافي"، يعد الفن الاستهلاكي منتجا سريع التآكل يتم عرضه بغرض البيع والمشاهدة من قبل نوع من الجمهور الذي يشبع لذته ورغبته في حالة من التقبل الظرفي والآني والسريع والخالي من الروح الإبداعية. حيث جاء هذا النوع الفني في سياق ما بعد الحداثة وبروز العولمة والمجتمع الاستهلاكي وهيمنة وسائل الدعاية وغياب الجمهور الفاعل والخلاق. لمزيد التعمق أنظر: إنغليز ديفيد ; هيوسون جون، مدخل إلى سوسيولوجيا الثقافة، ترجمة: لما النصير، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسيات ، الطبعة الأولى ، بيروت، 2013، ص 149.

الشباب من رسائل تنمّ عن وعيه بما يدور حوله من تحولات وما يقع ضمنها من مشادات واختلافات وتجاذبات بين الفاعلين السياسيين. طارحا بذلك لتصور مغاير ومختلف تماما عما هو متعارف عليه حول العمل الفني والسياسي والعلاقة الجدلية التي تربطهما.

حيث نجد "حمزة" متبنيا لموقف "جيل دولوز" حول الفن، عبر سعيه لصنع إمكانات القوة وإنتاج الأثر بشكل يصبح فيه الفن محملا بجملة من المواقف تجاه الموجودات ومغيرا لطبيعة إدراكنا للواقع الاجتماعي[56]. إضافة لعمله للجمع بين فرشاته وبخّاخة الألوان، بغاية خلق تباين بين الصورة الجدارية وواقعه الاجتماعي في محاولة منه لجعل المتناهي واللامتناهي الدنيوي والماورائي مرئيا في هيئة كتابات جدارية تتبنى مؤثرات جمالية هدفها التأثير في الرأي العام لإدراك أبعاد كانت غائبة عنه[57]. إذ عديدة هي الرسائل التي وعلى الرغم من محاولات النظام السياسي محوها، لا تزال مدونة لا فقط في الأحياء والأزقة المضارعة لشارع "الحبيب بورقيبة"، وإنما نجد امتداداتها تقريبا بكامل أرجاء العاصمة التونسية وضواحيها وحتى الجهات الداخلية. ومن بين هاته الرسائل نجد مثلا "الزوالي وصل للعين وما شربش"، "الحلمة عمرها ما تموت يا توانسة"، "أضحك وبقلا ليها".

[56] Sauvagnargues Anne, Deleuze et l'art, PUF, France, 2005, p30.

[57] Mensch Nicolas, "L'art transgressif du graffiti: Pratiques et contrôle social", IN: Sciences Humaines Combinées, N14, http://revuesshs.u-bourgogne.fr/lisit491/document.php?id=1449 , consulté le 3/7/2016.

3-1 الممارسة الفنية عبر"Slam":

إلى جانب التعبيرات الموسيقية والكتابية والجسدية التي امتلأت بها أرصفة شارع "الحبيب بورقيبة" وجدرانه، كانت تعبيرات " Slam " حاضرة أيضا من خلال "آية" التي جعلت منه وسيلتها المترجمة لذاتها كشابة تونسية. تطرح عبر ما تكتبه من نصوص نثرية مواقفها مما يحدث داخل الحقل السياسي وكواليس المجلس التأسيسي، منتقدة سلوك النواب وما يتخذونه من قوانين وإجراءات تجدها متعارضة مع مصالح المواطنين. حيث استطاعت أن تخلق من حبر القلم وقوة الكلمة آلية للتواصل بأسلوب فني مع محيطها السوسيوسياسي ومخاطبة مشاغل الحياة اليومية للأفراد. ومنذ سن الثالثة عشر، اختارت "آية" عدم الانخراط داخل أي تنظيم حزبي بهدف المحافظة على استقلالية نشاطها وحرية فعلها السياسي والعمل خارج أطره الرسمية المغلقة على الرغم من محاولات بعض الأحزاب استقطابها. لتجد في "فن الشارع" فضاء حرا لممارسة عملها السياسي من خلال نصوصها العامية.

من وجهة نظرها، يمكن ممارسة السياسة ضمن سياقين اثنين، وذلك إما عبر تقلّد مراكز القرار أو عبر الخروج للشارع كوسيلة للضغط والتأثير على الفاعل السياسي. إذ تزول المناصب والأحزاب ويستمر الشارع في الوجود، لتتحول بالتالي المساحات العمومية لمرقاب نرصد من خلاله ما يجول في واقع المجتمع من أحداث وقضايا وهموم. وقد سجلنا لمستجوبتنا مشاركات متعددة في العديد من التظاهرات الميدانية الشبابية المناهضة للفساد مثل حملة "مانيش مسامح" ومنظمة "أنا يقظ". لكن تجدر الإشارة هنا إلى أن مشاركتها في مثل هذه التنظيمات لا تكون إلا بطريقة فنية عبر إلقاء نصوص " Slam " المحملة برسائل سياسية نقدية. ففي تفاعلها مع "مشروع المصالحة الوطنية"، ألقت "آية" خلال المسيرة الاحتجاجية التي نظمتها حملة "مانيش مسامح" بتاريخ 13

ماي 2017 النص التالي أمام مجلس النواب:" هام هاجو وماجو، في حواليهم دارو، إيديهم طوالت وتمدت في جيوبنا، والشعب بدا يبتبت، وكان يوصل لعروقنا تتخذ علينا"[58].

فبواسطة هذا المحمول الكلامي، تنتقد "آية" أداء السلطة ومشاريعها القانونية التي لا تخدم مصالح المجتمع التونسي وتساهم في مزيد إغراقه في المديونية مما يثقل كاهل المواطن ويؤثر على مقدرته الشرائية.

2-إلى أي مدى يمكن أن ينسحب الطابع السياسي على الفعل الفني:

يلعب متغير التجربة السياسية لعيّنتنا المدروسة دورا هاما في تشكيل وعيهم السياسي، إذ أن أغلب المجموعات الشبابية الفنية الناشطة في شارع "الحبيب بورقيبة" قد غلب على تعبيراتهم السياسية الطابع السياسي. ويعود ذلك أساسا لتجاربهم السابقة في المنظمات النقابية الطلابية والحزبية التي لعبت دورا هاما في تنشئتهم سياسيا واكتسابهم لآليات العمل السياسي ورصيدا ثقافيا يستطيعون من خلاله قراءة التحولات الاجتماعية والسياسية للمجتمع التونسي بعين ناقدة. كما لعب متغير العمر دورا هاما في دفع هؤلاء الشباب نحو تجديد استراتيجيات فعلهم السياسي وخلق وابتكار طرق تعبيرية فنية تخرج عن الأطر الكلاسيكية المغلقة والمنظمة لفعل الانخراط في العمل السياسي. واتخاذهم "فن الشارع" وثقافة "الهيب-هوب"بديلا سياسيا يتفاعلون من خلاله مع القرارات الصادرة عن الفئة السياسية، لتتحول بذلك جدران وأرصفة المساحات العمومية لإطار مستعد لخلع ثوب القلق والإفلات من الروتين اليومي وثقله، وجسر تواصل ونقطة تقاطع والتقاء بين الشباب الممارس لـ"فن الشارع" والفاعل السياسي. أو لعلّ هذا الشباب هو صوت الشارع النابض بما يعتمل داخله، نظرا لإيمان هذه الفئة بضرورة إخراج العمل السياسي من نسقه الرسمي والمقنن، ليتخذ أطر فعل جديدة ذات هوية شبابية.

---

[58] مقابلة مع آية بتاريخ 27 مارس 2017.

إذ أن التداخل بين ما هو سياسي وما هو فني، قد ساهم في الرفع من وعي هؤلاء الشباب بأهمية ما يقومون به من خلال "فن الشارع" كحركة ثقافية وصفت من قبل عينتنا المدروسة "بالمتمردة" على كل ما هو سائد ثقافيا وتقليديا وقديما، كما تقوم على طابع من "الجدية"، مما يعزز من فاعلية تعبيراتها الموسيقية والمسرحية ونصوصها النثرية وقدرتها على محاولة التغيير وتمكنها من ضبط وتحديد اختياراتها التنظيمية والعلائقية وتموقعها الميداني، والآليات التي تمارس من خلالها فعلها السياسي من جهة أخرى[59] .

ويعود فعل قطعهم مع الأنماط الكلاسيكية للمشاركة السياسية كالنشاط الانتخابي والانتماء الحزبي بحسب "آن موكسال" لعامل "الهوة" الحاصلة بين شريحة الشباب وشريحة الكهول [60]إذ يمتلك كل جيل مفاتيحه الخاصة وآليات إنتاجه لفعله ووسائله التفاعلية التي تعبر عنه وتمثله، حيث تنطوي التعبيرات الفنية للشباب الناشط في شارع "الحبيب بورقيبة" على درجة من الوعي بالغايات والآثار التي يعمل على تركها وتحقيقها في محيطه السياسي والاجتماعي، لترتسم بالتالي الخطوط العريضة للعلاقة الجدلية الجامعة بين الفعل الفني والفعل السياسي، ويتحقق على إثره وبحسب تحليل "منير السعيداني" عملية "تثوير الفن بالسياسة وتثوير السياسية بالفن"[61] .

إلا أن تعبيراتهم السياسية لا تؤول دون صراع ونزاع مستمر مع المحيط السوسيوسياسي لهؤلاء الشباب من أجل إضفاء صفة الفن إلى تعبيراتهم السياسية ودفع المجتمع ومؤسساته الرسمية نحو الاعتراف بها. فهناك شحنة من الإصرار على ضرورة استغلال هذا

---

[59] السعيداني منير، يريد ويبدع ما يريد: شباب في الانتقال الديمقراطي بتونس، دار محمد علي للنشر، تونس، 1141 ، ص 15.

[60] Muxel Anne,"Les jeunes et la politique: entre héritage et renouvellement", In: Empan, N50, 2003, https://www.cairn.info/ revue-empan-2003-2-p-62.htm, consulté le /5/6/2016.

[61] السعيداني منير، يريد ويبدع ما يريد: شباب في الانتقال الديمقراطي بتونس، مرجع سابق، ص 11.

الحيّز الفضائي للتعبير بحرّية عن المواقف والآراء تجاه ما يقع حوله من مشاكل وأزمات وأوضاع مختلفة. وقد كان لمحاولة هذه الفئة الشبابية التجديد من طرق تفاعلاتهم السياسية بواسطة تعبيرات "فن الشارع"، انعكاس هامٌّ على الفعل الفني الذي شهد بدوره وبالتوازي مع الفعل السياسي تطورا في مستوى الممارسة. ويعود ذلك لعامل سحبهم للفن خارج أطره الرسمية المغلقة والمشرعة له وإقحامه داخل الفضاء العام ليصبح بالتالي من بين العناصر المؤثثة لليومي.

إذ أصبح شارع "الحبيب بورقيبة" مسرحا للفرق الشبابية، بحيث تنتفي محددات العلاقة العمودية والجامدة الفاصلة بين خشبة المسرح والجمهور لتتأسس في المقابل علاقة أفقية تفاعلية وتواصلية "وجها لوجه"[62] دون أية حواجز تذكر بين الباث والمتقبل حسب مقاربة "غوفمان". يتبادلون خلالها جملة من الانطباعات والإيماءات القولية وغير القولية والإشارات الصوتية بحسب تعبير "رغدة": "فرق بين واحد طالع sur scène في بلاصة عالية والعباد ما تنجمش تشوفك، ما تنجمش تمسك، وما تنجمش تهمسلك في وذنك غنيلي غناية نحبها، وبين واحد يبدا face à face مع المتفرج يغنيلو ويتقاسمو مع بعضهم الضحكة والبكية والنفس والهواء"[63] حيث تسعى هذه الفئة الشبابية إلى جانب تفاعلها السياسي الفني، إلى تقريب العمل الفني من المواطن التونسي. إذ أدى تردي الأوضاع الاقتصادية للمجتمع التونسي وتراكم المديونية، وخاصة مع انخفاض قيمة الدينار التونسي إلى مستويات لم يعهدها من قبل إلى التأثير وبشكل كبير على المقدرة الشرائية للمواطن، الأمر الذي جعله يحول دون ارتياد قاعات العروض السينمائية والمسرحية لعدم قدرته على توفير معاليم الدخول. وفي المقابل، وجدنا فرقا شبابية أخرى ناشطة في "فن الشارع" دون غايات سياسية، وإنما لغايات فنية بحتة وللتزود بالقليل من المال. مبررين ذلك بسببين رئيسيين، يتمثل أولها في رغبتهم في الخروج عن أطر دور

[62] Goffman Erving, La mise en scène de la vie quotidienne, Op. cit, p 13.

[63] مقابلة مع رغدة

الثقافة والشباب التي لا تفسح لهم المجال لممارسة أنشطتهم الثقافية نظرا لعدم اعترافها "بفن الشارع" واعتباره دخيلا هجينا على الحقل الفني الرسمي. بالإضافة إلى الظروف الاقتصادية الصعبة التي يعيشها مجتمعنا التونسي والمنعكسة خاصة على فئة الشباب الحاملة لشهادات عليا والمعطلين عن العمل والتي تعيش حالة من الهشاشة الاجتماعية وأزمات الفقر والبطالة.

لذلك تتخذ هذه الفرق الشبابية من شارع "الحبيب بورقيبة" ركحا لها لتمارس فيه ذاتها وتبحث عن هويتها المبعثرة بين ثنايا جدرانه وأرصفته ومحطاته بواسطة تعبيرات "فن الشارع". علّها تحقق جزءًا من الاعتراف لتعبيراتها الفنية في ظل ما نعيشه من تحولات اجتماعية وسياسية وتنزع عن الشارع كآبته وترسم على وجوه المارة ابتسامة دائمة.

3-شارع "الحبيب بورقيبة" منطوقة فنية بتعبيرات شبابية:

في سياق ما بعد "انتفاضة" 14 جانفي، اتّخذت المجموعات الشبابية الفنية الناشطة بشارع "الحبيب بورقيبة" من تعبيرات "فن الشارع" لغة لها تتواصل بواسطتها مع محيطها الاجتماعي وتستمد هويتها المبعثرة من بين تلافيفه. وعوض أن تنتمي للموروث الثقافي النمطي المسير لصيرورة نسق البناء الاجتماعي ومنظومة أفعاله، أضحت لهاته الفئة الشبابية ثقافتها الخاصة التي تستمد منها وسائلها التعبيرية السياسية والفنية ألا وهي "ثقافة الشارع" الرافضة لركود الموروث السوسيوثقافي. متجاوزة بذلك لحدود الأطر والقيم الكلاسيكية والتقليدية، لتعيد تشكيل الواقع الاجتماعي وتحويله إلى مادة فنية تثير من خلالها جملة القضايا التي تعمل على مناصرتها، ليتحول بالتالي هذا الفضاء العام إلى وطن المجموعات الشبابية الفنية ومدرستهم التي يتعلمون في سياقها تعبيرات "فن الشارع"، ووسيطا للعبور لمحيطهم الاجتماعي والتفاعل معه، في محاولة للتقرب من الفاعلين الاجتماعيين والسياسيين، وإنهاء النزاعات فيما بينهم وبين التصورات القديمة

للعمل الفني والسياسي. إذ لعب متغير الانتماء لثقافة "فن الشارع" دورا هاما في زعزعة التمثلات القديمة للوعي الجمعي حول المساحات العمومية وتحويل طبيعتها إلى فضاء تعلّم وتدريب ومسرح مليء بالرموز التفاعلية بواسطة التعاطي الثقافي والفنّي التلقائي والمباشر وجها لوجه مع الجمهور المتفرج. فسواء كانت تعبيراتهم المستلهمة منه ذات خصوصية سياسية أو فنية، فإنها تطرح بشكل أو بآخر علاقة تواصلية جديدة بين هؤلاء الشباب بمحيطهم الخارجي يسعون في سياقها لإعادة استيعاب وهيكلة المساحات العمومية بواسطة بأساليب إبداعية.

وهو ما لمسناه خلال مقابلتنا "لغيث"[64]، إذ أن علاقة اللحمة التي تجمعه بالفضاء العام والممتدة جذورها منذ صغره دفعته لأن يلقب نفسه "بولد شارع"[65]. ففي أدائه لشخصية "الكلون"، استطاع "غيث" إضفاء قيمة جمالية لشارع "الحبيب بورقيبة" وتزينه ورسمه في حلّة جديدة غير معهودة من قبل، ساهمت في إخراجه من طابعه الرسمي كفضاء للتنظيم المديني وتحويله إلى منصة كبيرة يمارس على سجادها مختلف تعبيراته السياسية الفنية بغاية التواصل مع الآخرين. وهو ما ينعكس على علاقته التفاعلية مع الشارع وعلى سلوكاته في الفضاء العام، إذ نجده يخير النوم في الحدائق العمومية وعلى أرصفة الطرقات إلى جانب الفئات الاجتماعية المهمشة، كي يرصد بعين ثاقبة جلّ التفاصيل التي تؤثث الشارع التونسي بشكل يومي. ليتحوّل بذلك الشارع إلى مخبر يستنبط من خلاله المواضيع التي يشتغل عليها ويعمل على معالجتها بطريقة فنية.

---

[64]اختار غيث أن يمارس فعله السياسي ويتفاعل مع أصحاب السلطة بواسطة جسده، حيث وجد هذا الممثل المسرحي في شخصية المهرج سبيلا له للتعبير عن مواقفه تجاه النظام السابق ووسيلة للتخاطب معه. مؤكدا بأن الفن لا يمكن أن يكون نابعا إلا من الشارع لما يزخر به من ظواهر اجتماعية مختلفة يمكن أن يحتويها العمل الفني، كما أن الشارع لا يمكن أن تتحقق رمزيته إلا من خلال الفن الذي يساهم في إحيائه وإكسابه رونقا جماليا خاصا. ليصبح بذلك الفن لغة للشارع ويصير الشارع ركحا للفن، حيث تؤسس تعبيرات فن الشارع لشكل مباشراتي في تلقي الرسالة الفنية وفي اختصار المسافة بين الباث والمبثوث.

[65] أثناء مقابلتنا لغيث، بيّن أن استخدامه للفظة "ولد شارع" لا يقصد بها ما يتداول في اللغة الدارجة الذي يحيل على معنى المستهترين والخارجين عن العرف الاجتماعي، وإنما تشير إلى مدى ارتباط وجوده وإبداعه ومشاركته لفضاء الشارع.

ففي ثقافة "فن الشارع"، يطلق الشاب العنان لنفسه لينغمس في الشارع بكل مكوناته ليعيد تأثيثه من جديد وفق رؤيته الخاصة. فالشارع بذلك دافع ملهم، ومحرّك دينامي لمختلف ما يدور فيه من حيثيات تفاعلية متنوّعة. فعلى الرغم من رفض الوعي الجمعي لتعبيراتهم السياسية والفنية، وعلى الرغم من تصدّي هياكل السلطة والفنانين الناشطين في الحقل الفني الرسمي لتعبيراتهم، فإن هذه الفئة الشبابية تظلّ مصرّة على اكتساح الشارع وإكسابه هوية شبابية بواسطة مقطوعاتهم الموسيقية المعزوفة وأجسادهم الراقصة وأقلامهم المنتفضة، إذ عادة ما تقابل المجموعات الشبابية الفنية موقف دور الثقافة بالرفض، فهم يعتبرونها فضاءات لا تستجيب لرغباتهم نظرا لبرمجتها لأنشطة لا تشدّ اهتمامهم، وهو ما يدفع بهم إلى الشارع أين يجدون ضالتهم رغم الصعوبات، حيث تساهم تعبيرات "فن الشارع" في إعادة تشكيل الفضاء العام واستيعابه بكل محتوياته. يتميز الشاب المنتمي لهذه الثقافة برؤية فلسفية تخرج عن أنماط الفكر الكلاسيكي المديني. فالشارع في منظوره يمثل عنوانا للحرية. يستمد من براثينه تعبيراته السياسية والفنية، ويستغل كل مساحاته ليرسم إيقاعاته من جديد، تأكيدا لحضوره داخل المجتمع وتحقيقا لهويته.

بواسطة ما يعتمل في حقله من تعبيرات فنية، أصبح شارع "الحبيب بورقيبة" في الآونة الأخيرة فضاء ناطقا بتعبيرات شبابية فنية متنوعة ومختلفة تزين أروقته وتؤثثه وتمسح عنه غبار الكآبة وتكسر إيقاعه الروتيني بألحان فنية صادرة عن آلات وأجساد هؤلاء الشباب، فيتحول بالتالي إلى معزوفة فنية ناطقة بتعابير الحياة، تضعنا في وضعية ذهنية نقدية تجاه منظومة الرموز والعلامات المشفرة والمبثوثة في رسائلهم المسائلة للواقع على مستويين:

المستوى الجمالي، وذلك عبر تحدي التقنيات التقليدية وتقديم أدوات فنية معاصرة، والمستوى الذهني عبر طرح جريء لمواضيع اجتماعية وسياسية وأخلاقية تضعنا أمام تساؤلات عدة عن علاقتنا بالقوانين والمحظورات وعن الذوق السائد.

تجدر الإشارة إلى أن الممارسات الفنية التي نراها اليوم لم تكن وليدة الثورة التونسية، وإنما كانت بالأحرى هذه الأخيرة مادة مثالية للمجموعات الشبابية الفنية لجعل تعبيراتها أكثر معايشة للواقع وتطوراته الاجتماعية والسياسية، مكنتهم من لقاء الجماهير التي جعلت من الشارع فضاء تظاهر وتعبير. لكن في المقابل، لم تجد تعبيرات "فن الشارع" ترحيبا كبيرا من قبل المخيال المجتمعي الذي استقبلها بنوع من الحذر الأخلاقي والإدانة الصامتة، هذا إضافة إلى أجهزة السلطة والوسط الفني الرسمي الذين لم يتقبلوا ثقافة "فن الشارع" وعملوا على إخراجه من دائرة الفن بالأساس وإقصاء ممارسيها لاعتبارها ظاهرة دخيلة على الموروث الثقافي التونسي.

4- شارع الحبيب بورقيبة: المعقل التاريخي للاحتجاج والثورة والفن:

تختلف أساليب الاحتجاج وتتطوّر مواكبة الهبّات الاحتجاجية وتمثلات فاعليها المحركين، فاعتماد مجموعة من الشباب لأساليب فنية مستقاة من خلفية ثقافية تتعارض مع أدبيات الفعل الفني المتعارف عليه داخل أسوار دور الثقافة والشباب، ثقافة الهيب-هوب لم يأتِ من فراغ وإنما كان نتيجة ما راكمه هؤلاء الشباب من تجارب سياسية تبيّن لهم من خلالها ضرورة التجديد على النحو الذي يتوافق مع تطلعاته الفكرية وتمثلاته لوجوده الاجتماعي وموقعه في المشهد السياسي. فكانت تعبيرات فن الشارع، منهجه في التفاعل مع النظام السياسي، وأصبح الشارع مسرحه/ فضاءه المستحدث للتعبير بكل "حرية" عن مواقفه الرافضة وتطلعاته من الفاعلين السياسيين.

حيث أصبح شارع "الحبيب بورقيبة" في الآونة الأخيرة، فضاء ناطقا بتعبيرات شبابية فنية متنوعة ومختلفة تزين أروقته وتؤثثه وتمسح عنه غبار الكآبة وتكسر إيقاعه الروتيني بألحان فنية صادرة عن آلات وأجساد هؤلاء الشباب فيتحول بالتالي إلى معزوفة فنية

ناطقة بتعابير الحياة، تضعنا في وضعية ذهنية نقدية تجاه منظومة الرموز والعلامات المشفرة والمبثوثة في رسائلهم المسائلة للواقع على مستويين، المستوى الجمالي وذلك عبر تحدي التقنيات التقليدية وتقديم أدوات فنية معاصرة، وعلى المستوى الذهني عبر تقديم مواضيع اجتماعية وسياسية وأخلاقية.

وهنا يمكننا استحضار ما كتبته نانسي فريزر[66] حول الفضاء العام، فعلى عكس مفهوم هابرماس للمساحات العمومية القائمة على هيمنة الثقافة البرجوازية - بمعنى المؤسسات الكلاسيكية للفعل الثقافي/ الفني مثل دور الشباب والثقافة والمسارح والسينما-، تشكلت في السنوات الأخيرة حركات مناهضة لهذه الثقافة تعمل على تأسيس مساحات قائمة على مبدأ الحرية تقطع مع كل ما هو مناسباتي وتظاهري للعمل الفني تماشيا مع استراتيجيات العمل الثقافي للدولة. لكن في المقابل، وهو ما يفسر عدم تلقي تعبيرات "فن الشارع" ترحيبا كبيرا من قبل المخيال المجتمعي وأجهزة السلطة وحتى الوسط الفني الرسمي، نظرا لعدم تقبلهم لثقافة "فن الشارع" وإقصائهم لممارسيها لاعتبارها ظاهرة دخيلة على الموروث الثقافي التونسي، وهو ما نلاحظه من خلال جملة من الألفاظ التالية المتكررة من قبل عينتنا المستجوبة:" غزرتو ليك تحس فيها تعنيف،يسبني، جاي يبزنس فيا موش يحب يسمع موزيكا،هز قشّك واقلب من هوني" والتي نلتمس في سياقها النظرة الدونية للمارين/ الجمهور المتفرجتجاه هؤلاء الشباب. فعلى الرغم من ردود الأفعال الإيجابية التي تتلقاها عينتنا، إلا أنها تظل في نزاع مستمر مع النظام السياسي الذي يعتبرهم شبابا فاقدا للقيم وللمعايير الأخلاقية تخلى عن هويته لفائدة ممارسات ليس لها أية دلالة ثقافية واجتماعية تهدد تماسك نسيج المجتمع التونسي. بالإضافة إلى ذلك، يجد الفنانون التصاميم المعروضة في الأزقة والطرقات مجرد ألوان وبنًى شكلية تشخيصية أو تجريدية ذات إيحاءات مباشرة يغيب فيها التأطير الأكاديمي كما تغيب فيها الدلالات الرمزية أو

[66] Fraser Nancy, Qu'est-ce que la justice sociale ? Reconnaissance et redistribution, La Découverte, 2011, p 178.

الضمنية العميقة التي من شأنها أن تعكس خطابا موجها يمكن أن يكون موضوعا للدراسة التشكيلية أو النقدية خاصة عندما تمارس من قبل ما يعتبرونه عامة الناس فتنحدر في سجل فن الهواة.

كما لم تتوارَ كذلك أجهزة الدولة في العمل على ردع هذه الممارسات الشبابية وإيقافها وضبطها، حيث تظل السلطة في ملاحقة يومية للفرق الشبابية إما عبر محْو الكتابات الجدارية أو بالقبض عليهم وإجبارهم على إمضاء الالتزامات التي يتعهدون فيها بعدم العودة مجددا للمساحات العمومية وذلك خشية من كتاباتهم السياسية المعادية. ولعل هذا ما يفسر السرعة الكبيرة للشباب في الرسم على الجدران ليلا وخلسة خوفا من ملاحقتهم وإلقاء القبض عليهم من قبل السلطة التي لا تتردد في حظر تعبيرات الغرافيتي التي ترى فيها تعديا على ممتلكات الآخرين.

فمثل هذه الممارسات المعادية لتعبيرات "فن الشارع" نجدها منتشرة في العديد من المجتمعات الغربية وتصل إلى حد تجريمها نظرا لاختلاف طبيعتها عما هو سائد ومقنن من قبل العرف المجتمعي. ففي تركيا مثلا وبحسب دراسة أجرتها "زينب ألبسلان" حول "فن الشارع"[67]، يتم وصم هذا النوع الفني وتحريم ممارسته نظرا لعدم شرعيته القانونية ونزعته الثورية المعادية للتصورات القديمة للفضاء المدني وللعمل الفني. لكن وعلى الرغم من ممّا تتلقاه تعبيرات فن الشارع من رفض من قبل الوعي الجمعي ومحاولات النظام السياسي لتشريعه وصبغه بلونه ومأسسته، إلا أن هذا الأسلوب الاحتجاجي الفني لا يزال معتمدا من قبل المجموعات الشبابية الفنية في محاولة منهم لصنع التغيير وإرساء نظام اجتماعي على النحو الذي يريدون.

[67]Alpaslan Zeynep, Is street art a crime? An attempt at examining street art using criminology, In: scientificResearch, Vol2, N1, 2012, p54, URL: https://file.scirp.org/pdf/AASoci20120100006_10710522.pdf.

الخاتمة:

عملنا في سياق هذه الورقة على البحث في ماهية تعبيرات "فن الشارع" كممارسة استحدثتها المجموعات الشبابية الفنية الناشط في شارع "الحبيب بورقيبة" بغاية تطوير عملها السياسي خارج حدود الأطر الحزبية الضيقة والمحددة لفعلها، ساعين لفهم منطق اشتغالها وغاياتها المختلفة وفك شيفراتها التواصلية. وقد توصلنا إلى أن المشاركة السياسية لهاته المجموعات قد ابتعدت عن السياسة في شكلها المؤسساتي لتتحول إلى فعل منظم من خلال ثقافة "فن الشارع"، بحيث أصبح سلوكها السياسي ذا هوية شبابية وقرار قاعدي قادر على جذب الفاعلين السياسيين وتجسيد قيم سياسية لا تتبناها السلطة بفعل تبنيه لمبادئ جديدة للتفاعل السياسي. مما مكّنها من إرساء علاقة تواصلية بينها وبين محيطها السوسيوسياسي بواسطة لغة متفردة وخارجة عن المألوف. إذ كان لمتغير الوعي السياسي المكتسب من التجارب المتعددة مع هياكل حزبية أو جمعياتية سابقا بالإضافة إلى إيمانها بقيمة العمل الفني وقدرته على الدفع بنسق التحولات الاجتماعية والسياسية دافعا رئيسيا في تطوير العمل السياسي لهاته المجموعات في سياق ما بعد انتفاضة 14 جانفي ضمن أساليب فنية متميزة بطابعها المتمرد على كل التصورات القديمة للعمل السياسي والفني.

فمن خلال تعبيرات "فن الشارع"، أسّست المجموعات الشبابية الفنية علاقة تواصلية جديدة مع السلطة وأعادت تشكيل طرق انخراطه ضمن الحقل السياسي. بحيث تكون لوحات الغرافيتي والمقطوعات الموسيقية والعروض المسرحية التي تعرض في شارع "الحبيب بورقيبة" والأحياء المضارعة له، بمثابة محامل فنية مضمّنة لمواقف سياسية ناقدة للوضع المعيش ومحفزة للخبرة العاطفية للوعي الجمعي.

وهو ما ساهم في تطوير طبيعة العمل الفني، إذ أن سحبها لفعلها السياسي للحقل الفني قد ساهم بدوره في تحويل طبيعة الفن وذلك عبر دمقرطته ضمن أطر شارعية وغير مقيدة يلتمس من خلالها الشباب جانبا من الحرية في أداء فعله والتعبير عن مواقفه. ولئن اختلفت محامل التعبيرات الفنية وتنوعت مضامينها، فإنها تدل على نزوع الشباب من عينتنا نحو البحث عن استراتيجيات جديدة لبناء هويته والإقرار بوجوده الاجتماعي وذاته المتفردة في ظل مجتمع طغى عليه سياق التحولات السوسيوثقافية والسياسية وتضاعفت أزماته الاقتصادية، حيث تأتي هذه التعبيرات على خلفية تراجع أداء المؤسسات والفضاءات المخصصة لاستقبال الشباب.

بالإضافة إلى عمق القطيعة الفاصلة بين البرمجة الثقافية والترفيهية الشبابية وبين الشباب التونسي، وبخاصة الجيل الحالي الذي يشهد تفاعلات العولمة وتسارع تحولاتها. فقد ظلت دور الثقافة والشباب تعيد على مرّ السنوات إنتاج وظائف متقادمة أملتها عقود نشأة الدولة الوطنية وبناء مجتمع الاستقلال. وبقيت عاجزة على تجاوز أزمتها بحكم ما اكتسبته من إرث بيروقراطي وما ترزح تحته من أعباء التنميط والمناسباتية والانغلاق داخل الفضاء.

شيماء بن رجب- باحثة في علم الاجتماع

الألتراس:
أشكال التنظم وأبعاده السياسية والاجتماعية

الملخّص:

تحاول هذه الورقة البحثية إماطة اللّثام عن مجموعات "الألتراس" في تونس، التّي تُضمر أكثر ممّا تُفصح به، فترى أفرادها في المدرجات وآثارها على جدران الفضاء العام، لكن في ذات الوقت ظلّت غامضة لدى الكثيرين وقد يصل ظنّ بعضهم إلى اعتبارها امتداداً لأجهزة سريّة كالمافيا. ولذلك سعينا في البداية إلى توضيح آليات اشتغال هذه المجموعات باعتبارها منظمات لا هيكلية، ثمّ قمنا فيما بَعدُ بتوضيح أشكال احتجاجهم قبل وبعد الفترة الممتدة بين 17 ديسمبر 2010 و14 جانفي 2011. وقد اعتمدنا في ذلك على المقابلات نصف الموجهة وتحليل مضمون بعض أغانيها.

Abstract

We try with this research paper to unfold the secret of the « Ultras » groups in Tunisia. These groups which there’s to them more than the eye scansee. You may find them in the stadiums and find their paintings on the street walls. However, their existence is still a mystery. Some even think that they’re an extension of some secret organs like the Mafia. That’s why we tried, in the beginning, to clarify the mechanisms by which these groups work as they’re unstructured organisations. Then we’ve explicited their protestation models before and after the period between the 17th of December 2010 and the 14th of January 2011. And we have deloyed in that the semi-structured interviews and the analysis of some songs content.

"جئت للعالم كي أحتج"
مكسيم غوركي

لعلّ ما يشدّ انتباه أيّ متابع لمباريات كرة القدم، تلك العروض التي تُقام وسط المدرّجات في أجواء احتفالية، والّتي قد تتحوّل أحياناً -إن لم نقل في الغالب- إلى مشاحنات عنيفة تقوم بها فئات معيّنة من محبّي فريق ما سواءً مع جماهير الخصم أو مع أجهزة البوليس.

هذه الظاهرة العالمية فرضت نفسها تدريجياً في السّياق التونسي بشكل عام -إذ تتباين من قطر إلى آخر- وصارت ملازمة للمشهد الكروي بتونس، ثم انتقلت شيئاً فشيئاً لتحفر وجودها في الفضاء العام.

هذه الظاهرة جمعت الأنظار حولها وشدّت انتباه المتابعين للشأن الرياضي بشكل مخصوص والسياسي والاجتماعي بصفة عامة. فقد صار جليّاً للكثيرين الحضور المكثّف لما يُعرف بمجموعات "الألتراس"، ولعلّ قياس حجم تأثيرها ينطلق من ملاحظة محاولة العديد من رجال الأعمال والسياسيين منذ نشأتها التقرب منها نظرا إلى وزنها في عالم كرة القدم. ناهيك عن الثقل العددي لها، والذي قد يتحوّل ليكون حاضنة لأفكار سياسية أو إيديولوجية أو نصيراً لحزب أو مترشح معيّن.

الطرح الإشكالي:

بالرجوع إلى تاريخانية الظاهرة في تونس فإنّ تشكّل أولى هذه المجموعات يعود إلى أوائل الألفية الثالثة، وقد تمكّنت في فترة وجيزة من تغيير المشهد الرياضي حيث جعلت

من الملاعب ساحات للعروض موظّفة في ذلك طقوسها في التشجيع على غرار توحيد الملابس التي يقع ارتداؤها والتي تُعرف بالاسم الفرنسي (produit)[68] والشعارات المكتوبة على الـ(banderole)[69] و "الدخلات"[70]، كما لا يتوجب علينا إغفال تعبيراتهم الفنية خصوصاً الأغاني التي تكون مشحونة بمعانٍ خارجة عن الإطار الرياضي وحاملة لمضامين سياسية واجتماعية وحتى اقتصادية، والّتي تتمحور أساساً حول الدفاع عن الحقوق والحريات والتجاهر بمعاداة ما يعتبرونه أنظمة دكتاتورية.

لكنّ وجودها وصراعها مع النظام لم يقتصر على الملاعب فقط بل اكتسح الفضاء العام وقد شكّلت ما يُعرف بالـ (secteur)[71] مضمنةً جملةً من المواقف السياسية والاجتماعية في تعبيرات فنية على غرار "الغرافيتي"[72] و"التاغ"[73].

إنّ الملفت للانتباه في هذه المجموعات، والشأن الذي حفّزنا على المُضيّ قُدماً في البحث ومحاولة فهمها هو فرضها لنفسها باعتبارها فاعلاً جديداً ومُتجددّاً في آن واحد - نظراً إلى وجود ثلاثة أجيال منذ نشأتها إلى حدود كتابة هذه الأسطر- في سياق الحركة الاجتماعية قبل وبعد الفترة الفاصلة بين 17 ديسمبر 2010 و14 جانفي 2011، واعتمادها على مانيفستو احتجاجي/ملحمي له مضامينه وتعبيراته الفنيّة الخاصة.

جميع ما سلف ذكره جعلنا نوجّه نظرنا نحو الإشكالية التالية: كيف تجسّدت مقاومة مجموعات الألتراس للهيمنة المادية/الرمزية للسلطة قبل وبعد الفترة الممتدة بين 17 ديسمبر 2010 و14 جانفي2011؟

---

[68]ملابس أو إكسسوارات موحّدة يلبسها الأفراد التابعون إلى نفس المجموعة
[69]لافتة تُكتب عليها شعارات مجموعة ألتراس
[70]كرنفال احتفالي يقوم به أفراد نفس المجموعة قبل انطلاق المباراة
[71]تكون في الأحياء الشعبية، وهي دلالة على أنّ تلك المنطقة تحت نفوذ مجموعة ألتراس ما
[72]رسوم جدارية
[73]علامة يقع طبعها على الجدران توحي بهوية المجموعة التي استحوذت على تلك المنطقة

وكي نُحاول الإجابة عنها رصدنا جملة من الأسئلة البحثية نسوقها كالآتي: كيف تتنظّم هذه المجموعات؟ وما هي أدوات فعلها الاحتجاجي قبل وبعد الفترة الممتدة بين 17 ديسمبر 2010 و14 جانفي2011؟ وإلى أيّ مدى أثّرت في سياق الحركة الاجتماعية؟

المدخل المنهجي:

يسعى المنهج الكيفي -الذي يشتمل على العديد من التقنيات- إلى محاولة فهم الظاهرة في إطارها الكلي من خلال معايشتها على عين المكان وملاحظتها، والاهتمام بالآراء ووجهات النظر والتجارب الإنسانية والتقرب من المبحوثين لفهم شعورهم والمعنى الذي يمنحونه لأفعالهم، ومن بين أهداف هذا المنهج محاولة فهم الظواهر الاجتماعية وخاصة التي لا تتوفر حولها معلومات كافية. وهذا ما يجعلها تحيط بجوانب لا يمكن بلوغها في حالات معيّنة باعتماد تقنيات أخرى.

على ضوء ما قُدّم، سنعتمد المنهج الكيفي وذلك باستخدام تقنية المقابلة التي ستساعدنا على فهم عقلية الألتراس المرسخة لدى الشباب حيث سيتم اعتماد المقابلة شبه الموجهة وذلك لعدم خروج المبحوث عن الإطار العام للأسئلة. وبعبارة أوضح، سنحاول فهم الديناميكية الجماعية داخل المنظمات غير المهيكلة.

هذا الموضوع لاقى صدى واسعاً خاصة في السنوات الأخيرة باعتباره ظاهرة تشق الطبقات ويُعد الشباب الفئة الأبرز فيها، وقد استخدمنا لهذا الغرض تقنية كرة الثلج التي ساعدت على جلب مبحوثين أكثر قُرباً من اللّبنة الأساس لهذه المجموعات.

إنّ اعتماد هذه التقنية سيساعدنا على جمع الكثير من المعلومات خاصة وأنّ موضوع الألتراس في تونس لا تتوفر حوله المعلومات والوثائق الكافية التي تساعدنا على فهم الظاهرة، هذا ما جعلنا لا نكتفي بالمقابلة كتقنية للبحث فحسب بل استعنا بتحليل

مضمون للأغاني التي أصدرتها مجموعات ألتراس "المنعرج الجنوبي" و"المنعرج الشمالي" التي يتم تنزيلها على اليوتوب إضافة إلى الفيديوات المحملة على نفس الموقع والتي تُظهر كيفية عمل هذه المجموعات سواءً أكان في مدرّجات الملاعب أو في اجتماعات خاصة بهم، فضلاً عن تحليل الجرافيتي المتواجدة في أحياء تونس العاصمة. وهذا ما سيساعدنا على تحديد مضامين هذا الخطاب ودلالاته.

أُجري هذا البحث في ولاية تونس، وتحديداً في وسط العاصمة. وقد وقع هذا الاختيار لعدّة اعتبارات وهي: أولاً، أنّ هذه المنطقة تتواجد فيها العديد من مجموعات الألتراس سواءً كانت مجموعات مشجعة للنادي الإفريقي أو نادي الترجي الرياضي التونسي، وهذه الميزة تجعل هذا المكان أكثر سلاسة في العثور على مبحوثين رغم صعوبة الأمر أو بالأدق خطورته.

I. الألتراس باعتبارها منظمة لا هيكلية :

لغةً نقصد بالـ"ألتراس" الزائد والفائق عن الحدّ. أما المعنى الشائع والمتداول لها فهو مرتبط بالمجموعات التي تُعرف بانتمائها الشديد والوثيق إلى فرقها الرياضية.

هذا التعريف المقتضب بإمكانه أن يحيلنا على الملامح العامة لعضو الألتراس وهو محب شغوف بتشجيع ناديه مسخر جلّ وقته لحضور المباريات سواءً كانت داخل البلاد أم خارجها. وعلى هذا العنصر أن ينتظم في إحدى المجموعات، والتي عادة ما تحمل أسماءً ترمز إلى قادة أو شعارات ثورية مرتبطة بمفهوم الحرية، وسنوضّح هذه المسألة في مستوى لاحق. كما خلصنا من خلال ما لاحظناه عن كثب أو من خلال العيّنة التي أجرينا معها المقابلات أنّ الانتماء لا يرتبط بالطبقة الاجتماعية للفرد لكنّ أغلبهم ينحدرون من الأحياء الشعبية.

إنّ المُلاَحظ أيضاً سواءً من الدراسات التي تناولت هذا الموضوع أو من خلال المقابلات التي وقع إجراؤها أنّ هذه المجموعات تخضع إلى تنظيم معيّن، إذ أنّ لها مقراً تُعقد فيه الاجتماعات، كما يتمّ تقسيم المهام والأدوار على أعضائها، والذين يقع تعيين أفراد منهم في عديد المناطق قصد بسط نفوذها والانتشار قدر المستطاع، وضمان حسن سير الأمور فيها.

في هذا السياق اعتبر نيكولا أوركاد أنّ الألتراس تقودهم جرأة مجنونة إلى أقصى الحدود، فعلاوة على كونهم يُسخرون وقتهم وجهدهم لضمان مراسم احتفالية مثيرة لباقي المحبين عند متابعة المباريات التي يُجريها ناديهم سواءً في داخل القطر الواحد أو خارجه، فإنهم في ذات الوقت يكونون متعصبين في انتمائهم إليه، وهذا ما خلق حسب رأيه نخبة من المشجعين المتطرفين في تمثلهم لكرة القدم[74].

كما أنّ هذه المجموعات تُعدّ منظمات غير هيكلية تقسّم أدوارها وفق أهداف قصيرة وطويلة المدى تسعى إلى تحقيقها، ويقوم أفرادها بالعمل في وحدة متناغمة لكي يصلوا إلى ذلك، وهذه الوحدة تُحقّق على نحو من الأنحاء ديناميكية اشتغالها، فرغم كونها منظمة غير هيكلية إلاّ أنّ تمثلات أعضاء هذه المجموعات حول الأدوار داخلها تُترجم إلى معايير رمزية تكون سداً منيعا ضامناً لسيرورة/صيرورة عملها.

يمكننا أن نستخلص إلى حدود هذا المستوى التحليلي أنّ أعضاء كلّ مجموعة يشتغلون على ذات الوتيرة وبخطى موحدة، ويمكننا اعتباره على نحو من الأنحاء تنظيماً عقلانياً كما سبق وتعامل ميشال كروزيي (Michel Crozier) مع هذا المفهوم في إطار نظريته حول التحليل الاستراتيجي والتي رفض من خلالها جميع أشكال الحتمية المطلقة، وقد اعتبر أنّ "الإنسان يملك عقلا يُفكّر به، وله حرية. وبمعنى أكثر وضوحا، إنّه عبارة عن فاعل مستقل قادر على الحساب والتحكم والتسيير، كما أنه قادر على التأقلم والابتكار في ظل الظروف

[74]Hourcade Nicolas. Les groupes de supporters ultras. In: Agora débats/jeunesses,, 2004. Sports et identités. pp. 32-42;

السائدة وحركية باقي الشركاء"[75] وعلى هذا الأساس فإنّه ربط هذا التنظيم العقلاني بغايات الفاعلين وأهدافهم وانتظاراتهم فلهم حريّة نسبية في الاختيار حتّى وإن كانت غير واعية.

انطلاقاً ممّا وقع ذكره نتبيّن أنّ لكلّ فرد دوافع جعلته يسعى إلى الانضمام ولعلّ أكثر الإجابات التي ردّدها أغلب المستجوبين "هنا عالمي الكل".إنّ التوقف عند هذه الجملة المكثّفة والمليئة بالدلالات الرمزية يجعلنا نعود إلى توصيف ادغار موران لفئة الشباب حين اعتبرها الحلقة الأضعف التي تُعاني من تهميش مختلف الأبعاد والمستويات، أي جميع السلط المادية والرمزية على غرار العائلة أو المدرسة أو أجهزة البوليس إلخ...، وهذا ما دفعهم للبحث عن انتماء آخر يعترف بهم كأفراد ويُعاملهم كذوات قادرة وفاعلة، والتي نجدها في الترتيب الهرمي لماسلو للاحتياجات مثل الاجتماعية منها (الصداقة...) والتقدير وتحقيق الذات[76]، أو مبدأ الاعتراف الذي اشتغل عليه أكسل هانث، الذي انطلق من تحديد أشكال الاحتقار التي قد تطال فرداً أو مجموعة أفراد، ومنها ما هو جسدي كالتعرّض للتعنيف سواءً من طرف العائلة أو المدرسة أو قوات البوليس الخ... والتي أفادنا بها أغلب المبحوثين، علاوة على الاحتقار في مستوى الحقوق الاجتماعية كالحرمان من الشغل أو المساواة أمام القانون، وأخيراً الاحتقار في مستواه القيمي حيث يفقد شعوره بأهميته داخل النسيج المجتمعي. في المقابل وفّرت هذه المجموعات ركائز هذا الاعتراف، وهي الحب الذي يلمسه فرد الألتراس من خلال علاقات الصداقة المتينة التي تجمعه بباقي الأفراد، ولعلّ من أبرز الإشارات على ذلك اعتمادهم في تعاملهم مع بعض على معجم لغوي يدلّ على الأخوّة "خويا، صاحبي..."، كما نجد أيضاً تركّز هياكل هذه المجموعات على قيمة التضامن المتأتيّة من التقدير المتبادل فيما بينهم.

أمّا فيما يتعلق بتوزيع الأدوار داخل هذه المجموعات فإنّه يُضمر جوانب أخرى خفية على المراقب من الخارج. فالمعلوم لدى عموم الناس أنّ مجموعات الألتراس متكوّنة من

---

[75] M.Crozier،E.Friedberg : L'acteur et le système-éditions du seuil-1977-p: 45

[76] أهمية تقدير الذات في هرم ماسلو-لمياء محمد الدوسري [En ligne] http://lamiapstv.blogspot.com/2016/08/blog-post_18.html (02 Avril 2019)

مجموعة شباب ساعين إلى نشر العنف. لكن في الحقيقة تقوم هذه المجموعات على قواعد ثابتة لا يمكن الانحراف عنها، كما أنّها مؤسسة قائمة بذاتها لها مواردها المالية وأشخاص معنيون بتطبيق المهام التي وقع تكليفهم بها.

وبسؤالنا للمبحوثين حول هذه المسألة، وقع إجماع على كون توزيع الأدوار قائم على معايير واضحة. وقد قال عضو الـ"تورسيدا" ع.ز في هذا الصدد أنّ :"كل إنسان وtacheمتاعو، مش نفسو إلي يعمل الـmaquette هو بيدو إلي يتراسيها، لموهبة هي المعيار الوحيد لتمييز".

ما يشدّ الانتباه أيضاً تكرر مفردات بعينها لدى أغلب المبحوثين على غرار الأقدمية والقيمة. فعلى سبيل المثال قال عضو الـ"بلود" :"تتوزع أدوار حسب القيمة و إلي عندو قدر في groupe"ولم يختلف كثيرا مع عضو الـ"سوبرا سود"م.خ الّذي قال موضّحاً هذه النقطة :"حسب الأقدمية وحسب présence متاعو لازمك تبرزنتي بش تبان".

كما أقر بعض الأفراد أنّ توزيع الأدوار مرتبط كذلك بالمستوى التعليمي وبالتخصّص الأكاديمي. وقد قال أحد المستجوبين ب.ب:"لازم واحد نعرفوه يعني قديم وفما عامل آخر نعطيك مثال إلي لاهي بل produit لازمو يفهم في الـ informatique و توا إلي شادد الـcaissa بانكاجي".

الملفت للانتباه أيضاً، أنّ جميع المبحوثين أكّدوا على تبني كلّ مجموعة لتراتبية قائمة بذاتها أي بمعنى اختلافها من مجموعة إلى أخرى، وهذا التقسيم المنظم يلتزم به كافة الأعضاء. ويمكننا عرض الجدول التالي الذي يفسر الهرمية المتبعة داخل تنظيم إحدى مجموعات الألتراس:

- **التراتبية داخل "البلود اند غولد"**

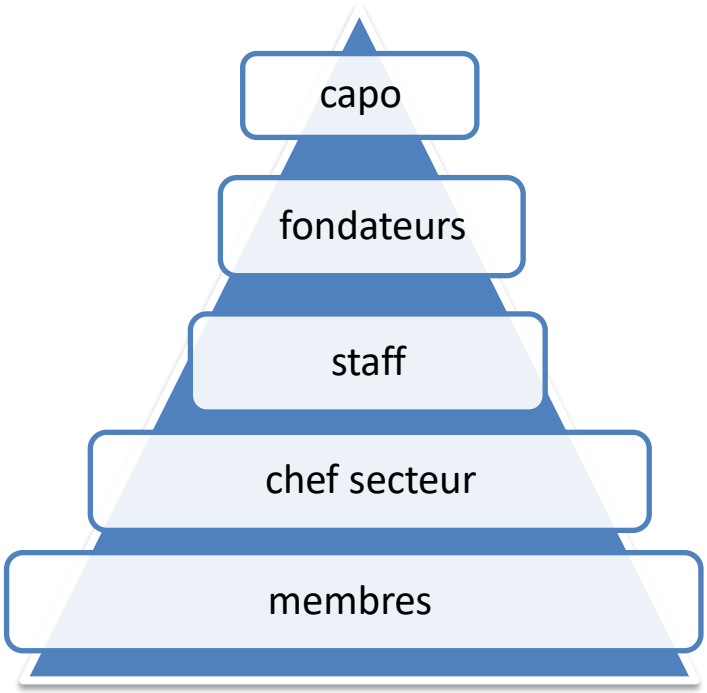

1-مهمة الكابو أو القائد هي التفاوض مع المجموعات الأخرى وتعيين الأعضاء المهمين.

2- مهمة المؤسسين تتمثل في الحفاظ على وحدة وتماسك المجموعة وأخذ المال من العاملين (staff).

3- "staff" جمع المال من "chef secteur".

4-الأعضاء "les membres " يقومون بأدوار غير قارة وتتغير باستمرار وينقسمون إلى أعضاء فاعلين أو ناشطين "membre actif " وأعضاء غير ناشطين " membre passif".

بالرجوع إلى الفكرة المتعلقة بالاختلاف الحاصل في التراتبية بين المجموعات، أفادنا أحد أعضاء الـ"سزيراسود" بأنّ مجموعتهم سابقا كان لها تنظيمها الخاص الذي يختلف قليلا عن البقية وقد قال لمزيد توضيح هذه النقطة :"كان عنا 2 كابوات و des

fondateurs و noyaux و chef de sud الي هو لاهي بجنوب لكل بحكم عنا برشا أعضاء في جنوب يتلها باهم واحد بركا وعندو اسم أما نسيتو".

من زاوية أخرى في تناول الموضوع، نلاحظ أنّ هذه المجموعات تسعى على الدوام إلى عدم لفت الأنظار إلى تنظيمها، ولذلك يُعدّ تنظيماً خفياً وهنا يمكننا تشبيهه بالطائفة.

تُعرّف الطائفة على أنّها "مجموعة من الناس الذين يلتزمون بنفس العقيدة الدينية أو الفلسفية"[77]. وهكذا يمكن تسمية طوائف مدارس الفكر المشتقة من البوذية والهندوسية والطاوية والشنتو، وهو أيضا الاسم الذي يُطلق على مجموعة منظمة من الناس الذين اعتمدوا نفس المذهب المشتق من وجهة نظر علم الاجتماع .

تتقاطع مجموعات الألتراس مع الطائفة في العديد من الجوانب، ولا نقصد هنا المعنى الديني للطائفة وإنّما المعني التنظيمي لها، لكن لا يمكن أن نعتبر في المطلق أنّ الألتراس تنظيم طائفي، فالأعمال التي تقوم بها لها نتائج ملموسة وظاهرية مثلا الـ"دخلات" أوالأغاني أو الملابس الدّالة على المجموعة.

من خلال ما وقع ذكره يمكننا أن نتبيّن أنّ الألتراس بصفتها منظمة لا هيكلية لها ديناميتها وقواعدها وشكلها التنظيمي الخاص، كما أنّ عضو الألتراس هو فاعل في المجتمع باعتبار المجتمع مسرحاً أي أنّ لكلّ فرد العديد من الأدوار التي يتمّ الاضطلاع بها كي تتماشى مع الواقع المعاش.

[77] La définition du secte" [En ligne] https://www.notrefamille.com/dictionnaire/definition/secte/ (24 Mars 2019)

II. الألتراس باعتباره فاعلا احتجاجيا قبل 14 جانفي 2011:

لقد أضافت مجموعات الألتراس منذ تأسيسها إلى المشهد الرياضي، إذ تواجدت على الدوام في الملاعب من خلال العروض التي تقوم بها في المدارج. ولكن تاريخ الألتراس في تونس يعكس أنّ هذه المجموعات لم تتواجد للتشجيع فحسب بل إنّ لها دوراً أساسياً وفعالاً في العديد من المحطات النضالية التي شهدتها البلاد في الكثير من المناسبات وهذا يعود لكونها تُمثّل صدى المجتمع لأنّها تجمع مختلف شرائحه. وهذا ما قطع مع الرؤية الكلاسيكية التي جعلت للمثقف دوراً ريادياً في قيادة الحركة الاجتماعية وتوجيهها والاستئثار بتشكيل الوعي، ونذكر على سبيل المثال مفهوم "المثقف العضوي" الذي صاغه أنطونيو غرامشي.

لقد تبنت الألتراس عديد القضايا وعلى رأسها الحرية، ويمكن استخلاص ذلك من خلال عدّة مؤشرات على غرار الأسماء أو الصور الرمزية المعتمدة، فال"ألتراس المكشخين" مثلا اختارت صورة الزعيم "جيرانيمو" شعاراً لها، ويُعدّ هذا الزعيم أحد قادة الهنود الحمر في نهاية القرن التاسع عشر وهو مقاتل من قبيلة "أباتشي جيريكاهو"، وقد قاد هجمات ضد المستوطنين والجنود البيض في كل من الولايات المتحدة الأمريكية والمكسيك، كما نسوق مثال مجموعة "ألزاباتيستا اسبرنزا" أيضاً والتي تأسست سنة 2007، وقد استوحت اسمها من "جيش الزاباتيستا" للتحرير القومي في المكسيك، وهي مجموعة ثورية في ولاية "تشياباس" في المكسيك وقد تأسست سنة 1994 واتخذت "ايمليانوزاباتا" اسما لها والذي كان أحد الثوار في المكسيك ووقع اغتياله سنة 1919 بعد أن احتل مدينة ميكسيكو سنة 1914. قام اختيار اسم "الزاباتيستا" من قبل مجموعة من محبّي الترجي لتأسيس مجموعة الألتراس الخاصة بهم لرمزية سنة وفاته فهو يصادف في تلك السنة -أي 1919- تأسيس "نادي الترجي التونسي" ناهيك عن اقتران هذا الاسم بقيمتيْ الحرية والثورة. تعددت الأسماء الحاملة لمعاني الثورة والرافضة لقمع الأنظمة

البوليسية والمنددة بكل ما هو سلطوي وفي هذا السياق نذكر مجموعة الـ" north vandales" والتي تأسست سنة 2007 وهي مجموعة من محبي النادي الإفريقي، وينقسم هذا الاسم إلى جزئين الأول "north" أي الشمال ويدل على المنعرج الشمالي وهو المكان المخصص لمشجعي النادي الإفريقي أمّا الجزء الثاني " vandales" ويُقصد به مجموعة من القبائل الجرمانية التي استقرت في شمال إفريقيا واتخذت من قرطاج عاصمة لها بعد افتكاكها من الرومان. يلقب الـ"north vandales" كذلك بـ"مخربو الشمال " وذلك لتبنيهم للفكر اللاسلطوي وعادةً ما يستخدمون رمز هذه الأيدولوجيا.

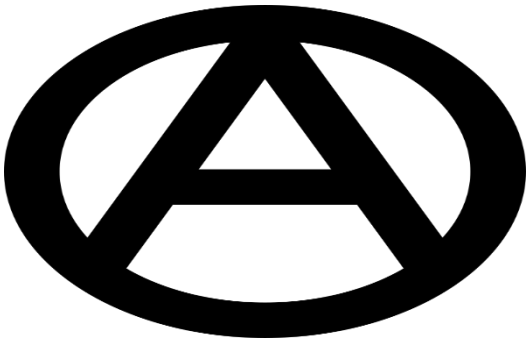

إنّ هذا الرمز متكوّن من حرفين، الأول O وهو أول حرف لكلمة "نظام" (Order) وبداخله A وهو أول حرف كذلك من مفردة الأناركية (Anarchy)[78].

يُقصد بالمفردة ذات الأصول اللاتينية (Anarchy) لا حاكم ولا سلطة، وقد استلهم منها بيير جوزيف برودون فكره الفلسفي وطرحه السياسي، إذ اعتبر أنّ النظام يتحقق دون سلطة، وهنا يُصبح وجود السلطة السياسية المتمثلة في كيان الدولة عبئاً على التقدم والاستقرار البشريْن.

انطلاقاً ممّا وقع ذكره، نتبيّن أن مجموعات الألتراس، ليست كما يصفها البعض مجرّد "شرذمة من رعاع" الذين لا همّ لهم سوى بث العنف، بل هي قواعد حركة اجتماعية-كما سبق وذكرنا- لها ظاهرياً تقاطعات مع الأيدولوجية الأناركية أو اللاسلطوية، فهم لا يعترفون بالنظام المتمثل في الدولة ولا بأجهزة السلطة القمعية المرتبطة بها كجهاز البوليس.

---

78 ويكيبيديا: اللاسلطوية [En ligne]

من زاوية أخرى، نستطيع أنّ نستشف هذه النزعة نحو "التحرر" من خلال المحامل الفنية التي يُنتجونها على غرار الأغاني، والتي تكون مكثّفة ومفخّخة برسائل نقدية موجهة للسلطة، حاثين بذلك الجماهير -بطريقة ضمنية- على كسر حاجز الخوف.

تنقسم هذه الأغاني إلى صنفين، الأول يُسمى الأنترو "intro" أي الأغاني الخاصة بالمجموعة والتي تتغنى بالأعمال التي يقوم بها الأعضاء وتُشيد بحبهم لناديهم، أمّا الصنف الثاني فمتعلق بالأغاني المخصصة للفريق. وقد كانوا يسّجلونها-أي هذه الألبومات- في السابق على أقراص مدمجة، تُسوّق وتُوظّف عائداتها فيما بعد في صناعة "الدخلات" أو شراء الشماريخ. لكن بعد الطفرة التكنولوجية وغزو مواقع التواصل الاجتماعي لحياة الأفراد، قامت هذه المجموعات بتحميل هذه الأغاني على الـ"youtube".

هذه الأغاني التي تُنادي بالحرية والتي تنقد السلطة لم تقترن باللحظة الثورية 14 جانفي 2011، بل تعود إلى تاريخ أقدم من ذلك بكثير، فمثلاً سنة 2004 وتحديداً من مدارج الـ"كورفا سود" مع مجموعة "سوبرا سود" تعالت الأصوات المرددة لمقتطف من أغنية يقول"اذا السلطة والحكومة حكمت بأحكامها .. مالا قلي الحرية وين مكانها"[79]،كما رُفعت عديد الشعارات المناهضة للسلطة من مدارج كلّ من الـ"كورفا سود" والـ"كورفا نور" التي أدرجوها في أغانيهم، ونخصّ بالذكر هنا تلك الأغاني التي وقع ضمّها فيما بعد في ألبوم "manifesto" الذي أصدرته مجموعة محبّة للنادي الإفريقي والملقّبة بالـ"وينرز" سنة 2008.

هدرتو علينا منا فينا قلت علينا زيدين قلتو هذوما هلكوا لكورة و عملتو مشكل كبير (...)

حبيتونا"marionnette " "marchandise " في لبلاد

و تحبو جمهور "naïf " يغني كان على تيتروات

[79] عبد سلام المرخي ,الألتراس في تونس شرارة للفوضى أم للثورة,
[En ligne] https://www.ida2at.com/ultras-in-tunisia-a-spark-of-chaos-or-revolutionary/ (27 Mars 2019)

Jamaisننساو دربي ال huis clos مساج ياسر claireو جمهور هو الي

يحكم عندو سلطة في هال لبلاد ’ منحبش la comité نبيع و نشري في جمعيا

عمري لا نعيش عبيد نضحك و نقول حالة عادية

L’independeza[80]عندي بدات معاه الحرية

Controcalciomoderno[81]

Jamaisنبيع القضية جمعيات نكرو فينا قالو حلو لgroupet

صحافة تصفق على الحرية في هال لبلاد

تحللهم باب جهنم و العاصمةjamais... en colèreتكونو ذلتونا و الا وقفتو لخدمة

!راكم زدتو قويتونا و ل mentalité موجودة حتى ب cache col نباشي مساجاتي Affiché

حكاية صعيبة على مخك من غير كتركز يا جبري خاتر مخاخكم limité و على هذا نقمتوا علينا خاتر

عيشتكم dépasséو على هذا حقدتو علينا

Casa blanca Algérie مل قاهرة ل tripoli وصلنا لهم الحضارة و غرمناهم بال liberté و أحنا بلادنا نكرو فينا و من les stades interdits و مزال مزال مقاومة avanty tifosi[82]...

---

[80] استقلال
[81] ضد كرة القدم الحديثة
[82] المشجعين إلى الأمام

دور أقرا في حيوط العاصمة يا جبري ACAB ... الحرية مش مزية بلي نعيشوها لكورة ولات قضية عملتو لعار يا لKavéya...[83]

هذه الأغنية تناولت عديد القضايا، فعرّجت على ما هو اجتماعي واقتصادي، لكنّها جعلت على رأسها ما هو سياسي، فقد ندّدت بالسياسة القمعية للبوليس الّذي جنّدته السلطة للقضاء على ظاهرة الألتراس باعتبارها تضمّ مجموعات لم تتكوّن من أجل التشجيع فقط، بل لتكون أيضاً صوتاً رافضاً للقمع والاستبداد ومناديا بالحرية، ويظهر هذا جلياً في المقتطف القائل"**عمري منعيش عبيد نضحك و نقول حالة عادية l'indepndenza عندي بدات معاه الحرية** "

لم تنقد كلمات هذه الأغنية العنف المادي للسلطة والمتمثل في جهاز البوليس، بل قامت بتعرية الهيمنة الناعمة أو الرمزية، والتي أشار لها غرامشي حين اعتبر أنّ "الدولة هي مجموع الأنشطة العملية والنظرية التي من خلالها لا تقوم الطبقة الحاكمة بتبرير هيمنتها والحفاظ عليها فقط، ولكنها تنجح في الحصول على الإجماع الفعلي من المحكومين[84]" وقد ذهب بيار بورديو أيضاً إلى اعتبار أنّ السلطة تمارس عنفها الرمزي من خلال إعادة إنتاج نفس التمثلات عبر عديد المؤسسات الاجتماعية مثل المدرسة، من جهته قال ميشال فوكو"أعتقد بأنّ ممارسة السلطة السياسية تتمّ عبر عدد آخر من المؤسسات التي تتظاهر بأنّها لا تمتلك شيئاً مشتركاً مع السلطة السياسية وباستقلاليتها عن الدولة، غير أنّها ليست كذلك... يعلم المرء بأنّ الجامعة، وبصورة عامة كلّ الأنظمة التعليمية التي تبدو ببساطة وكأنها تنشر المعرفة، في الحقيقة صُنعت للمحافظة على طبقة اجتماعية معينة في موضع قوة"[85]، ومن هنا نستطيع أن نعلم درجة إدراك هذه المجموعات لتوظيف النظام القائم لمؤسسات كالإعلام والتي سخّرتها بُغية التعتيم وتشتيت الأنظار عن القضايا

[83]Manifesto - testament Club Africain [En ligne] https://www.youtube.com/watch?v=Ni3_Fi66zsY (02 Avril 2019)

[84] Antonio Gramsci- Cahiers de prison-nrf Gallimard- Bibliothèque de Philosophie- traduit de l'italien par F. Bouillot et G. Granel- avant-propos- notices et notes de Robert -Paris 1990- Cahier 15 p.120.

[85] خطر الجامعات (ومهمة المثقف الحقيقية تجاهها) عند ميشيل فوكو
(En ligne] https://www.youtube.com/watch?v=Q7cg5sZAigQ (04 Avril 2019]

الأساسية التي تهمّ الشعب، وقد اعتمدت في نقدها على أسلوب التهكم وتوظيف المفارقات المضحكة لبيان تبعيتها للسلطة، ولم تكتفِ هذه الأغنية بنقد آليات اشتغال هذه المؤسسات فقط، بل عملت أيضاً على إيضاح معالم صراعها معها، وبيّنت أنّها عاجزة على سبر أغوار عقلية الألتراس أو تفكيكها، فديناميكية تطوّر المجموعات فاقت الوتيرة التي تشتغل بها هذه المؤسسات، وهذا ما دفعها إلى اعتبار هذه الظاهرة "أنوميا" اجتماعية.ويمكننا أن نستشف هذا الصراع أيضا من خلال تكرار لفظة "المقاومة" والتي تمّ اعتماد ترجمتها في أكثر من لغة. ولم يقتصر توظيفها في المدارج أو الأغاني فقط بل خرجوا بها إلى الفضاء العام، ونذكر على سبيل المثال تاغات الـ"ACAB" والتي تعني (All cops are bastares) أو 1312 وهي إشارة إلى موضع الحروف في اللغة اللاتينية A/1 وC/3 و A/1وB/2، وقد غزت جدران الشوارع كتحدٍ مباشر للسلطة التي يعتبرونها قمعية.

أمّا أغنية "testament " فقد أتت على ذكر أهم قواعد حركة الألتراس والمتمثلة في رفض القمع والدفاع عن الحرية ورفض فكرة النظام والدولة بشكل عام، إضافة إلى رفض رسملة الرياضة والاستراتيجيات المعتمدة من قبل الجمعيات الرياضية التي تسعى إلى تحويل كرة القدم من رياضة إلى شركات رأسمالية.

الملفت للانتباه أيضاً عند متابعة أغاني هذه المجموعات قبل 17 ديسمبر 2010، هو احتواء بعضها على إشارات تُنبئ باندلاع ثورة، فمثلا في سنة 2008 تمّ إصدار أغنية تحوي هذا المقطع" **solidaireكينحاربو ولاد الق... الي ظلمونا و كي تسألنا نجاوبوا all bastardo[86] يا الحكومة Révolution قريبة يالي تحبو تحكمونا jamaisيجيكم نهار تقدروا فيه تحلونا بل flamme بالي تحبوا نديروا[87]Resistanza**..."[88].

---

[86]أو غاد

[87]المقاومة

[88]Manifesto - una storia Club Africain [En ligne] https://www.youtube.com/watch?v=hWv6HaiHZlc (01 Avril 2019)

أمّا في 8 أفريل 2010 وتحديداً خلال المباراة الّتي جمعت الترجي الرياضي التونسي بنظيره نادي حمام الأنف، نشبت مواجهات بين جماهير الترجي وقوات البوليس، وقد انقطع خلالها التيّار الكهربائي على الملعب، ممّا أجبر حكم المباراة على إيقاف المباراة مدة 13 دقيقة، وقد أكّدت جماهير الترجي بعد هذه الواقعة عن مقتل رجليْ أمن، وقد وثّقتها بأغنية " 8 avril 2010 dans l'histoire Révolution espérantiste " **" 8 أفريل2010 شفت بعينك يا لبوليس درنا ال[89]guirra زوز موتى منكم و منغير فخرا ضوء طفيتو و ما قدرتوا تغدونا ... Revolution شبان العاصمة انتفاضة [90]vogliamolibeta"[91]**

نحن هنا أمام مشهد مزدوج يُراوح بين تصوريْن يخضعان لمبدأ التأثير والتأثّر، الأوّل يُعبّر عن كون قوات البوليس هي الجدار المتقدم الذي يُوظفه النظام للحفاظ على كيانه، وبمواجهته بالعنف المضاد هم يُوجهون رسالة تحدٍ للسلطة، ويفرضون وجودهم التاريخي أمام قوة ترغب -حسب اعتقادهم- في وأدهم، أمّا الثاني فمتعلق بتدمير صورة "الغول" الذي يُمثله جهاز البوليس، فهذا الكيان المرعب الذي لطالما بثّ حضوره هلعاً في أذهان الناس، ما هو في نهاية الأمر سوى قوة زائلة بزوال خوف الآخر منها.

ما يمكننا أن نخلص إليه بعد هذا التحليل، أنّه كلّما ارتفع منسوب قمع الحريات وتسلط النظام اشتدت وتيرة مقاومة الألتراس له بشتى الوسائل. وبذلك فهي قد ساهمت من موقعها بشكل ملموس وجلي في تشكيل حركة اجتماعية رافضة للنظام الاستبدادي ومنادية بالحرية، مسخّرة في ذلك إستراتيجية فعل لم تعهدها السلطة، قوامها أشكال احتجاجية جديدة تستمد فرادتها من قدرتها على الجمع بين المحمل الفني والأفكار التحررية.

---

[89] الحرب

[90] نريد الحرية

[91] 8 Avril 2010 dans l'Histoire-Révolution Espérantiste
[En ligne] https://www.youtube.com/watch?v=4SvPx1QRWdc&t=59s (29 Mars 2019)

III. الألتراس كفاعل احتجاجي بعد 14 جانفي 2011:

"و عملنا لعلينا بعثنا لشرطة مساج Révolution قريبمسماعتوش كلام ال virage" [92]

انطلاقاً ممّا سبق ذكره من جهة ومن هذه الجملة من جهة ثانية نتبين إلمام جماعات الألتراس بالسياقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي سبقت 14 من جانفي 2011،كما فيه إشارة ضمنية أيضاً إلى الموقع الذي شغلته خلال تلك الحقبة، إذ كانتبمثابة الفاعل الذي ساهم في التسريع في الصيرورة الثورية التي أطاحت بنظام قمعي سواءً من جانب مجموعات الترجي الرياضي التونسي أو من مجموعات النادي الإفريقي، وهذا ما يعكس على نحو من الأنحاء وعياً وإدراكاً للدور الذي اضطلعت به وبمدى تأثير فعلها الاحتجاجي في نزع الرهبة من قلوب الناس والمساهمة في تشكيل التمثل الجمعي حول القضايا الرئيسية والمتمثلة في الوضع الاجتماعي والاقتصادي المتردي وتفشي الفساد وقيام الحكم على القمع والاستبداد. لكن رغم كلّ ما سلف ذكره إلاّ أنها لم تُشارك فعلياً في سيرورة 17 ديسمبر2010- 14 جانفي 2011ولم تستخدم أسماءها، بل شارك أعضاؤها بوصفهم مواطنين سئموا الاستبداد السياسي والواقع المتردي.

غير أنّه في سياق يُحاكي على نحو من الأنحاء ما وقع في تونس، أُسند لقب "الألتراس حماة الثورة" لألتراس أهلاوي نظراً لحضورهم الفعّال في ميدان التحرير، واحتلالهم الصفوف الأولى فى مواجهة قوات الأمن، ودورهم المباشر والمؤثر فى "موقعة الجمل" التي حصلت فى 2 فيفري 2011"[93].

---

[92]Communiqué Curva Nord- Club Africain Mouvement 4 Octobre
[En ligne] https://www.youtube.com/watch?v=yatBCR2_PMQ (29 Mars 2019)

[93]مايكل عادل,أسرار الالتراس من ثورة يناير الى مذبح استاد بورسعيد كتاب جديد لياسر ثابت ’اليوم السابع
[En ligne] https://www.youm7.com/story/2013/3/17

بعد 14 جانفي 2011، ووفق جملة من المعطيات وقع إغلاق المدارج، وهذا ما نجم عنه انتقال مجموعات الألتراس من الملاعب إلى الشوارع، فعجّت الجدران بالغرافيتي والتاغات، والتي ساهمت على نحو ما في تأسيس ظاهرة جديدة تُدعى الـ"zoning".فهذه المجموعات اتّجهت نحو الأحياء، وسعت إلى تثبيت وجودها فيها واعتبرتها منطقة نفوذ تحت اسم "secteur"، لكن عادة ما تتشارك مجموعات عديدة نفس المنطقة، فمثلا - وإثر ما استخلصناه من الملاحظة البسيطة-تتقاسم كل من مجموعة "الزاباتيستا اسبرنزا" و "النورث فندالز" شارع الساحل الذي يتواجد بمنطقة منفلوري بتونس العاصمة، مع العلم أنّه توجد منطقة للألتراس مكشخين تبعد أقل من 200 متر على هذا الشارع. إنّ الانتشار في هذه المناطق يحمل في طيّاته أبعاداً رمزية مُكثّفة، فهو شبيه بالحركة التي يقوم بها الأناركيون والمتمثلة في "Occupy"، وكأنّهم بهذه الخطوة يُعيدون الفضاء العام إلى أصحابه الأصليين أي الجماهير ويؤكدون على أحقيتهم في تشكيل الفضاء المديني.

انطلاقاً ممّا وقع التطرّق إليه ونظراً إلى عدم وجود تعريف دقيق لمفهوم الـ "zoning"، سنحاول ضمن هذه الورقة طرح مفهوم إجرائي له والمتمثل في كونه "إستراتيجية فعل يعتمدها أفراد هدفهم افتكاك الفضاء العمومي وبسط نفوذهم عليه، وهذا ما يُحيل على عدم اعتراف بشرعية وجود السلطة".

لقد اختار الجيل الثالث من الألتراس في تونس إستراتيجية جديدة لإيصال رسائل ضمنية إلى السلطة مفادها أنّهم باقون على عدائهم لها إذ لم ينطلِ عليهم -على حسب تصورهم- زعمها أنّها -أي السلطة- ضامنة للحرية ومكرسة لها. كما بيّنوا أيضاً أنّ لهم القدرة على تطوير آلياتهم الاحتجاجية بما يتناسب مع السياقات الجديدة.

تجدر الإشارة أيضاً إلى أنّ التعابير الاحتجاجية لهذه المجموعات ألهمت بعض أشكال الفعل الاحتجاجي. ونذكر على سبيل المثال حملة "مانيش مسامح" -وهي حركة

احتجاجية رافضة لقانون "لا دستوري يكرس الإفلات من العقاب ويطمس الحقيقة والعدالة[94]."- والتي وظفت ألحاناً معتمدةً الطبل على طريقة الفيراج، كما استوحت كذلك منها الشماريخ واجتياح جدران الشوارع بالتاغات[18] من أجل مزيد التعبئة والحشد.

في العام الماضي رفعت هذه المجموعات شعار "المقاومة مستمرة" في وجه قوات البوليس ومن خلفها السلطة، وقامت بمقاطعة المدارج، ويعود سبب ذلك إلى أحداث مباراة الترجي الرياضي التونسي والنجم الرياضي الساحلي التي أقيمت في الخامس عشر من فيفري 2018 والتي شهدت اشتباكات بين مشجعي الترجي والأمن، ما أدى إلى اعتقال العديد من أعضاء الألتراس من مختلف المجموعات. وقد ساهمت هذه الحادثة في تقريب المجموعات من بعضها البعض وتوحيد الصفوف، فقد رُفعت العديد من الشعارات المنددة بأعمال العنف والتي أسموها قمع الأمن لحرية التعبير وغيرها من المصطلحات التي تمّ تداولها خاصة عبر وسائل التواصل الاجتماعي بعد مقاطعتهم للمدرجات وذلك كشكل احتجاجي غير معهود، وهو ضمنياً انتصار لعقلية الألتراس. ومن أهم الشعارات التي تمّ رفعها "الحرية للجمهور"[95] و"[96]Liberta per les ultras " و"الكورة للجمهور" لتطوّر بعد ذلك وتصبح " liberta per la curva" [97] وغيرها من الشعارات الدالة على المقاومة، والتي خطّوها على الجدران ووظفوها في أغانيهم وأثّثوا بها صفحاتهم على مواقع التواصل الاجتماعي، كصفحة الـ"زاباتيستا اسبرنزا" التي تنشر بمعدل ثلاثة غرافتي في الأسبوع. ونستشف من هذه النقطة الأخيرة توظيف هذه المجموعات للطفرة التكنولوجية من أجل توضيح مطالبها ونقد قمع السلطة، وهذا ما يؤكد محاكاتها لتطوّر العصر.

---

[94] خميس بن بريك ,مانيش مسامح صرخة شباب تونس ضد الفساد , الجزيرة
[En ligne] https://www.aljazeera.net/news/reportsandinterviews/2017/5/14
[95] غرافيتي لمجموعة الزاباتيستا اسبرنزا ,أريانة ,تونس
[96] الحرية للجمهور
[97] الحرية للمنعرج

كما تجدر الإشارة أيضاً إلى ما وقع ليلة 08 أفريل بوصفه أهم حدث في سلسلة المقاطعات، فقد اقتحم الـ"ألتراس مكشخين"ملعب المنزه ولهذا الأمر رمزية مكثفة في تاريخ جماهير الترجي الرياضي التونسي. وتوضّح هذه الصورة ما قام به أعضاء "الألتراس مكشخين".

عنوان الصورة: 8 Avril 2010-2018

AuguriBastardo ! Ultras Liberi !

[98]

الصورة أعلاه تُشير إلى ما وقع في تلك الليلة، وما يمكننا استخلاصه من هذا الاحتلال الجلي أن الملاعب ملك للجماهير مذكرين بأنّهم لا يعترفون بالدولة كجهاز يفرض النظام، وتحيل الجملة المكتوبة على اللافتة على كونهم صامدين في مواجهة قمع السلطة، هذا دون أن نغفل على كون الـ"كراكاج" الذي أنار المكان يُعطي انطباعا صريحاً على كون المتلقي بصدد مشاهدة مباراة. والجدير بالذكر أيضاً رمزية اختيار هذا التاريخ بالذات والّذي يعود بنا إلى واقعة 8 أفريل 2010 وهذا ما يعنى توجيههم لرسالة مشفرة للسلطة.

بناء على هذا، نخلص إلى أنّ مجموعات الألتراس تؤكد أنّ لا شيء تغيّر منذ تلك الحادثة، فلئن أُسقط رأس النظام فإنّ تعامل أجهزة البوليس ظلت كما هي، فالقمع يبقى قمعاً حتى وإن حاول مواراة نفسه خلف وهم الحرية.

لم تكن حادثة 15 فيفري 2018 وحدها ما جعلت هذه المجموعات تُوحّد الصفوف لمقاومة القمع البوليسي، ففي نفس السنة وإثر مقتل أحد أعضاء "الفاندالز" المدعو "عمر

[98]Ultras L'Emkachkhines 2002 [En ligne] https://www.facebook.com/UltrasLemkachkhines2002 8/04/2018 (21 Mars 2019)

العبيدي"، صارت هذه المجموعات على اختلافها جسداً موحّداً في مواجهة السلطة الاستبدادية حسب تعبيرهم.

"كل العالم سمع بمقتل الشهيد التونسي- الشاب عمر العبيدي بعد مطاردة الأمن التونسي له من ملعب رادس إلى أن وصل به الأمر لأمره بتعلم السباحة في واد غارق. غرق عمر العبيدي وغرقت معه كل مكونات القضية رغم وجود أدلة دامغة من حارس الملعب تؤكد ملاحقة الأمن لعمر العبيدي وأمره بالنزول للواد للسباحة"[99] وقد رُفع بعد موته هاشتاغ "#تعلم_عوم" وذلك تنديدا بما فعله الأمن خاصة وأنّه المتهم الرئيسي في مقتله.

إثر هذه الحادثة تكاتفت جهود مجموعات الألتراس المشجعة للأندية التونسية عامة ولنوادي العاصمة خاصة -أي الترجي والإفريقي- وذلك كنوع من التضامن بين المجموعات، والذي يُعدّ قيمة معيارية قائمة على الجانب الأخلاقي في المجتمع ويسعى الأفراد إلى بلوغها، وهذا ما يساعد على بناء تفاعلات مشحونة بمعان رمزية، إذ أنّ الإنسان مدرك لمثل هذه التفاعلات فهي غير مسقطة ولها أهدافها.

لعلّ الهدف المرجو من هذا التضامن هو ترسيخ للفعل الاحتجاجي العابر للتصنيف والولاء للفريق ومدرك حق الإدراك أنّ عدوّهم وعدو الشعب واحد، ألا وهو النظام القائم.

مرت سنة على مقتل عمر العبيدي دون محاسبة المتهمين رغم التعرف عليهم من قبل الشهود "ويذكر أن الشاب، توفي يوم 31 مارس الماضي غرقا في وادي مليان بالقرب من الملعب الأولمبي برادس، بعد أن تابع مباراة لكرة القدم بين النادي الإفريقي وأولمبيك مدنين.وقد وجهت هيئة الدفاع الاتهامات للفرقة الأمنية التي تعهدت بالأبحاث الأولى بمحاولة قبر الملف وتمسّكت بإظهار حقيقة موت منوبها مؤكدة أنّ لديها ما يكفي من الأدلة التي تثبت الواقعة." [100]

---

[99] غريسة أيمن ,عمر العبيدي..شهيد الرياضة بتونس,مدونات الجزيرة
[En ligne] https://blogs.aljazeera.net/blogs/2018/4/10

[100] ايمان بن عزيزة , قضية الضحية عمر العبيدي مشجع النادي الافريقي تقرير الطب الشرعي يؤكد وجود آثار عنف: الشروق

وفي الذكرى الأولى لمقتله 2019/04/31جابت المسيرات العديد من المناطق رافعين شعار "إن شاء لله في الجنة يا عمر"، وقد قامت مجموعة الـ"نورث فندلز" بمسيرة من المقبرة التي دفن فيها إلى منزله، وشارك فيها العديد من أعضاء الألتراس من مختلف المجموعات والفرق، وذلك تنديدا بما اعتبروه تباطؤ/تخاذل السلطات في الحسم في القضية، وقد كان على رأس هذه المسيرة والد الضحية عمر، ولعلّ الملفت للانتباه هنا جعل هذه الجماعات لوالده يبدو شبيها بالـ"كابو"[23] الذي يقود المجموعات ويترأسها حاملاً في يده "flamme " وخلفه باقي المشاركين يحملون لافتات، كما تمّ إنزال"دخلة" غطت منزل الضحية. وفي هذا حركة رمزية تُبيّن قيمة الفرد وأهميته في هذه المجموعات، عكس السلطة التي تُعامل شعبها -وفق تصورهم- على أساس كونهم رعاعاً.

في هذه المسيرة الحاشدة رُفعت شعارات مطالبة بتحقيق العدالة، وكأنّ في ذلك رسالة صريحة للسلطة مفادها أنّهم بوحدتهم وعقلية الألتراس التي تجمعهم سيحققون العدالة وسيحاربون القمع/الظلم البوليسي الذي يريد التستر على المجرمين.

انطلاقاً من زاوية نظر أخرى للموضوع، نذكر أنّه ومنذ سنوات، كَثُرَ الحديث عن العنف في الملاعب، وتمّ اعتباره ظاهرة يمكن تقسيمها إلى نوعين، الأول بين المجموعات والثاني بين الألتراس وجهاز البوليس.

سنوجّه الأنظار في هذه الورقة البحثية إلى النوع الثاني من العنف، وسننطلق من مظاهر هذا العنف الذي وقع رصده من خلال تقنية الملاحظة، فقد وظّفوا فيه استخدام الشماريخ والكراسي وما يقع تحطيمه في المدرجات أو المراحيض، ويتمّ استعمالها كأسلحة

[En ligne] www.alchourouk.com/article/22 Mars 2019

في وجه أعوان الأمن، ولكن الملفت للانتباه هو عدم خلوّ أي مباراة في السنوات الأخيرة - التي تكون بحضور الجماهير- من هذا العنف.

إنّ الانتماء إلى مجموعة من مجموعات الألتراس يُعتبر في جوهره حصول الفرد على هوية مكتسبة واعية وليس أمراً اعتباطياً، فأن يتمّ انتساب أحدهم إلى إحدى المجموعات فهو بمثابة تحقيق لاعتراف بهوية اجتماعية وتمكينه من اندماج اجتماعي، وهذا المكسب يجعلهم يُحاربون كلّ ما يعتبرونه مهدّداً أو مخالفاً لمعتقداتهم وطرقهم في التشجيع.

إنّنا هنا إزاء مسألة إشكالية تطرح قضية العنف الهوياتي، الذي يجعل هؤلاء الأفراد في صراع مباشر مع جهاز البوليس، وبالتالي فإنّ العنف في هذه الحالة ليس منشوداً لذاته، وإنما هو بمثابة ردة فعل حتمية ضدّ كلّ ما يعتبرونه تهديداً لكيانهم الاجتماعي، ويقول ميد في هذا الغرض " إذا زاد الضغط عن الحد الممكن، فإن الفرد سيخترق هذه الحدود، وسيعبر عن نفسه بطريقة عنيفة غالباً، وعندها تسيطر الذات " على وضع الذات المتأثرة "[101].

عادةً ما توصم الأفعال الاحتجاجية لمجموعات الألتراس بكونها سلوكاً عنيفاً همجياً لا غاية وراءه سوى إحداث الفوضى، غير أنّ ما خلصنا إليه سواءً من خلال الدراسات التي اطلعنا عليها أو ما اكتشفناه من خلال الملاحظة والمقابلات، أنّه راجع إلى عقيدة مشتركة يتمّ تبنيها صلب المجموعة، الغاية منها الحفاظ على وحدة المجموعة وهيكلها الداخلي والخارجي. وهنا يمكن الرجوع إلى المحاكاة الاجتماعية، فالفرد يقوم بالدخول في مواجهات سواءً كانت مع الأمن أو مع المجموعات الأخرى لا عن طريق الإدراك، بل تتأتى من التقليد والمحاكاة وهو ما اعتبرهGabriel Tarde العدوى التي يمكن أن يصل الفرد من خلالها إلى الجنون.

---

[101]جورج هابر ميد ، التفاعلية الرمزية
[En ligne] https://www.bsociology.com/2016/11/blog-post_17.html (05 Avril 2019)

ختاماً، نجد أنّ مجموعات الألتراس وإنّ تراءى ظاهرياً عدم اعترافها بشرعية السلطة القائمة ككيان يعتبر نفسه حافظاً للنظام، وابتعادها عن التجاذبات السياسية وعدم دعمها لأيّ تيّار سياسي كما أجمع أغلبهم، فإن هذا الموقف في عمقه توجّه سياسي حتّى وإن كان لا واعياً رافض لعدم المساواة الاجتماعية والاقتصادية والضيم السياسي والتضييق على الحريات بشكل عام طامح إلى إحداث تغيير.

IV. التوليف:

إنّ الفعل الاحتجاجي باعتباره شكلاً من أشكال الفعل الجماعي ليس مساراً عفوياً أو اعتباطياً، يندلع بشكل ذاتي بل هو جملة من الظروف والسياقات والعوامل التي تخضع إلى مبدأ التأثير والتأثر.

إذ توجد دوافع نفسية للانخراط في الفعل الاحتجاجي، والتي لا ترتبط بالضرورة ولا في جميع الأحوال بما هو مادي نفعي، بل كذلك بما هو رمزي أو كما سبق وربطه أكسل هانث بقيمة الاعتراف.

كما أنّ الملاحظ أيضاً اعتماد الألتراس على تنظيم صارم، وهو ما يضعنا أمام مفارقة هامة، فهذه المجموعات بتوظيفها في بعض المحطات للفكر الأناركي هم يُثبتون أنّهم ليسوا ضدّ النظام كنسق بل كسلطة ودولة، إذ أنّ لهم جملة من الضوابط التي يحتكمون إليها، والتي جعلوها تتماشى على نحو ما مع المعايير الاجتماعية في الواقع التونسي- منحرفين بذلك عن القواعد والأعراف العالمية لهذه المجموعات.

لقد أنتجت هذه المجموعات الهوية المفقودة للشباب الذي تمّ إقصاؤه اجتماعياً وتُرك في الهامش، وهذا ما أكّده المبحوثون أثناء إجراء المقابلات.

أمّا أساليب الاحتجاج فقد اختلفت باختلاف أجيال الألتراس، فقد تبيّنا جرأة الجيلين الأول والثاني في مواجهة المنظومة السابقة، والذين نادوا بالحرية ونددوا بالقمع وتنبؤوا بسقوطه وقيام الثورة. أمّا الجيل الثالث فقد تشكّل ما بعد 14 جانفي وكما سبق وأشرنا أنّه واصل بطرق حديثة ورمزية مواجهة ما اعتبره استمرار دولة الاستبداد وتأكيدا على سعيه من أجل تحقيق أهداف الثورة..

ختاماً تطرقنا في هذه الورقة إلى قيمة التضامن التي تجسدت في مقولة "أنا وأخي ضد أبناء عمي وأنا وأبناء عمي ضد الغرباء" ومن هذا المنطلق، يمكننا فهم التضامن القائم بين مجموعات والذي يعكسمستويات مختلفة ودوائر تأخذ بالاتساع حسب السياق، وهو ما يُترجم انصهار الذات -على اختلاف بيئتها الاجتماعية ومساراتها الحياتية- في روح جماعية، تعتمد على استراتيجيات دفاعية عن هذه الهوية الجمعية. فـ"أيّا تكن نوعية الأفراد الذين يشكلونه وأيّا يكن نمط حياتهم متشابه أو مختلف وكذلك اهتماماتهم ومزاجهم وذكائهم فإن مجرد تحولهم إلى جمهور يزودهم بنوع من الروح الجماعية، وهذه الروح تجعلهم يحسون ويفكرون ويتحركون بطريقة مختلفة تماما عن الطريقة التي كان سيحس بها ويفكر ويتحرك كل فرد منهم لو كان معزولا"[102].

الخاتمة:

لقد رصدنا في هذه الورقة فاعلاً مختلفاً وجديداً على الساحة الاحتجاجية، له أشكاله وتعابيره الاحتجاجية الخاصة به، محاولاً لفت الأنظار إلى زاوية أخرى للواقع الاجتماعي.

إنّ قدوم هذا الفاعل أضاف إلى الحركة الاجتماعية التي تنشد مجتمعاً آخر قوامه العدالة الاجتماعية ورفض الاستبداد والجور الذي عانى منه الجسد الاجتماعي لقرون، وقد كان جزءاً لا يتجزأ من هذه الفسيفساء الاحتجاجية التي تتفاعل مكوناتها فيما بينها لتحقيق ما تصبو إليه، وقد لاحظنا كيف أثّر وجود هذه المجموعات ولو نسبياً في الأشكال التعبيرية

[102]لوبون،غوستاف,ترجمة، صالح هاشم ، سيكولوجيا الجماهير,دار ساقي ,ص56

لفاعلين آخرين، لكن هذا لا يعني تماهيه المطلق معها، فأسباب وجوده لا تقتصر فقط على ما تقاطع فيه معهم، بل هي أشسع بكثير، فهو يدعو إلى مجتمع يُنظم نفسه ذاتيا وباستقلالية مطلقة -وهو ما يُذكرنا بالديمقراطية المباشرة لروسو وبكومونات باريس- وهنا يرى أنّ الدولة ككيان لا معنى لها.

أسامة سليم

المدونون والتغيير الافتراضي.

النشأة، السياق، الأهداف

الملخص:

تتميز الثورات بثوّارها، والحركات الاجتماعية بفاعليها، وسنحاول في هذه الورقة البحثية معالجة فئة تحتل مشهد الحركات الاجتماعية، وهم المدونون. من خلال ما قاموا به من توثيق لانتهاكات النظام وفضحه، ومعارضة سياسة الحجب والصنصرة والمراقبة قبل الثورة، أو من خلال معارضة التشريعات الجائرة بعد الثورة. الانطلاق من الفاعلين الجدد باعتبارهم مدونين ينشطون في فضاء افتراضي –مواقع التواصل الاجتماعي – ومدى تأثيرهم في الواقع اليوميهذا التناقض الذي ينطلق في تخوم مسلّمات باعتبار المدوّنين فاعلين ومؤثرين، من خلال آليات تواصل هي الأكثر تطوّرًا وانتشارًا في تاريخ البشرية. أن يكون المدوّنون فاعلين في مسار سياسي أو مجرى تاريخي في سياق تطوّرات اجتماعية واكبوها. أين هم ثوّار الأمس، هل تمّ استبدال صور الثوّار والمحتجين والمتمرّدين يصدحون بأعلى أصواتهم في المظاهرات والمسيرات بأقنعة وصور افتراضية تخفي وراءها مؤثرين في المسار الثوري والحركات الاجتماعية من خلال "تدويناتهم".

Abstract

Revolutions are characterized by its rebels, and social movements by its agents, and we will try in this paper to address the bloggers as a class that are in the spotlight of social movements, through their documentation and scandalization of the crimes and violations committed by the regime, their opposition to the policy of censorship before the revolution, or through their opposition to unfair legislation after the revolution. Starting from the idea that they are the new actors as in the virtual space - social networking sites - and from their impact on the daily reality, the paradox of being at one a blogger and influencer emanates from the most developed

and widespread communication mechanisms in the history of mankind. Bloggers are active in a political and historical course in the context of social developments that they have witnessed. Where are the revolutionaries of yesterday? Have the images of revolutionaries, protesters who speak with loud voices in demonstrations and rallies been replaced by masks and virtual images that hide the influential revolutionaries and social movements through their "blogging"?

"هل تونس جمهورية أم مملكة أم حديقة حيوانات أم سجن؟"

زهير اليحياوي

تحاول هذه الورقة البحثيّة معالجة إشكالية موغلة في الحداثة، وهي الانطلاق من الفاعلين الجدد باعتبارهم مدونين ينشطون في فضاء افتراضي –مواقع التواصل الاجتماعي – ومدى تأثيرهم في الواقع اليوميهذا التناقض الذي ينطلق في تخوم مسلّمات باعتبار المدوّنين فاعلين ومؤثرين، من خلال آليات تواصل هي الأكثر تطوّرًا وانتشارًا في تاريخ البشرية. أن يكون المدوّنون فاعلين في مسار سياسي أو مجرى تاريخي في سياق تطوّرات اجتماعية واكبوها.

أين هم ثوّار الأمس، هل تمّ استبدال صور الثوّار والمحتجين والمتمرّدين يصدحون بأعلى أصواتهم في المظاهرات والمسيرات إلى أقنعة وصور افتراضية تخفي وراءها مؤثرين في المسار الثوري والحركات الاجتماعي من خلال "تدويناتهم".

بتاريخ أكتوبر سنة 2017، كان قد مرّ على الثورة البلشفية قرن، وقد وقع اعتبارها من قبل المؤرخين – باختلاف خلفياتهم الأيديولوجية - أعظم ثورة في العصر الحديث، ومنذ ذلك التاريخ إلى حدود كتابة هذه الأسطر برزت أمم وضمرت أخرى، تلاشت حدود بين دول ونشبت عداءات بين أخرى، وتغيّر ثوّار الأمس، صورة سارتر وسيمون دي بوفوار في ماي 1968، المعتصمون في انتفاضة الأقصى، ثورة شيوعيي الأهوار في جنوب العراق، الفيتناميون وهم يشرعون صدورهم لرصاص الإمبرياليين، ومسيرات من برلين الغربية إلى نظيرتها الشرقية من أجل التوحيد. أواصر الالتقاء بين هذه الصور والحركات هي الحشود البشرية والشعارات وصخب الشوارع، وبمقارنة بسيطة مع تحركات القرن الواحد والعشرين، نجد أنفسنا أمام ضروب شتى من التمايز والتعارض، أصبح التجييش الشعبي من خلال تغريدات على تويتر، أو فيديوهات قصيرة لمدونين.

إذا كان التاريخ الإنساني رائعًا للغاية، فذلك تحديدًا لأنه بالأساس موضع التّحولات التاريخية على حدّ عبارة الكاتب الفرنسي "جيل كيبال"، وباعتبار أنه موضوع التّحولات التاريخية، فهذا الاستيعاب الإبيستمولوجي ينطلق من ظرفية آنية، هي قرن العولمة وإلغاء الحدود، نحو عالم يكون قرية افتراضية كما تروج العولمة لنفسها، وما لا يتيح مجالًا للغرابة، أن يطلق على الثورة التونسية، ثورة وسائل التواصل الاجتماعي، وفي نسخة أكثر ابتذال وقصور فكري بثورة 2.0، باعتبار العلاقة العضوية بين الثورة ووسائل التواصل الاجتماعي، هذا الترابط الأنطولوجي الذي يقيم جوهره على الأنترنات، وجد أبطاله مدونين، استبدلوا بنادق الأمس بحواسيب اليوم، واستبدلوا المناشير بتدوينات افتراضية، يذهب البعض إلى اعتبار انّ هذا النوع من الثورة هو عصيان وهمي، تنتهي حدوده عند انقطاع شبكة الأنترنات، والواقع أنّهذاالنّوعمنالتّلاعبلايعودإلىالأمس : فالبعضقالإنّ إضراباتسنة 1995فيفرنساكانتممكنةبفضلالفاكس،وأنّ حركةماي 1968 كانتبفضلالترنزستور،وأنّالثّورةالفرنسيّة كانتبفضلالصّحافة،إلخ . كمالوأنّهميحاولونتأسيستفكيرنا السّياسيّعلىنظريّةمارشالماكلوهان كما عبّر جيل كيبال gilles kepel، فيما يذهب آخرون إلى صيرورة تاريخية، تنتج ظروفا موضوعية لتأطير حركة اجتماعية عن طريق آليّات سائدة، وهي ما يجعل الحركات الاجتماعية في تجددّ دائم كما يذهب إلى ذلك تشارلز تيلي.

فكيف نتمثل الحركات الاجتماعية اليوم؟

وأي دور ومهمة يقوم بها المدونون في هذا السياق؟

هل استطاع المدونون حجز مكان لهم كفاعلين مؤثرين في خارطة الفاعلين الجدد؟

أي جدلية تقوم بين الحركات الاجتماعية والفضاء الافتراضي؟

التدوين والمدونون، ضرب إبداعي ثوري.

تذهب حياة عمامو، ومن ورائها هشام جعيّط، إلى أن إقرار عمر بن عبد العزيز التدوين في بداية خلافته مثل نقطة جوهرية في صيرورة التأريخ، وتجاوز المقاربة الشفوية نحو مقاربة تكون مكتوبة وما بات يعرف الآن بالمخطوطات، هذه المخطوطات حفظت تاريخ أمة بأسرها. يتشابه المدونون بحركة التدوين، لا من ناحية التقارب اللغوي كما نجده في لسان العرب لابن منظور، وإنما باعتبار أنّ لكلّ منهما خصوصيته الثقافية والسياسية، وتبعات هذا التدوين قلبت نظامًا بأسره وخلخلت أنظمة عربية.

سنحاول من خلال بحثنا الموسوم بعنوان "المدونون على مواقع التواصل الاجتماعي" التطرق إلى مدى تأثير وأهمية هذه الفئة لا على مواقع التواصل الاجتماعي فقط، وإنما انعكاس تصوّراتهم في الحراك الشعبي 17 ديسمبر/14 جانفي؟ هل المدونون التونسيون حركة أفقية أم يافطة لمجموعة من الناشطين والمعارضين يجمعهم هدف هو الثورة ووسيلة هي التدوين؟ أي راهنية تفضي إلى تأسيسها حركة المدونين؟ وهدفنا الأول والأخير في هذه الدراسة، هو فتح النقاش حول أفق احتجاجي يتجاوز الحركات الكلاسيكية نحو راهنية أخرى أفضت إلى إسقاط أنظمة تسلطية.

تطرح قضية الحركات الاجتماعية وآليات الاحتجاج الجديدة مبحثًا مهمّا لا بد من التعامل معه على أسس نقدية ومقاربات حديثة، ورغم أنّ دور المدونين على وسائل التواصل الاجتماعي حديث العهد - باعتبار أنه يعود إلى تاريخ نشأة شبكات التواصل الاجتماعي والأنترنت وتعميمها – إلا أن إرهاصات دورهم وتبعاته كانت محوريّة سواء في الثورة التونسية أو المصرية، الأمر الذي حدا لاعتبار العديد من متابعي الثورة من نقاد ومحللين سياسيين بأنها ثورات رقمية.

ولأجل فهم أوضح لحركة المدونين، سنسعى من خلال هذا البحث إلى تناول فعالية نهار على عمار[103] التي قام بها العديد من المدونين التونسيين[104] ردًا على سياسة الحجب التي كان يقوم بها النظام السابق أو ما يعرف بعمّار 404[105]. دور المدونين في التجييش خلال الثورة التونسية، ودورهم في الراهن السياسي الآن. هل يمكننا اعتبار المدونين فاعلين جدد، أم أنهم فاعلون سابقون للثورة التونسية وتغيرت وسائل نضالهم بتغيّر الظروف الموضوعية.

[103]نهار على عمار: هي فعالية ضد رقابة الإنترنت شارك فيها عديد المدونين التونسيين من بينهم لينا بن مهني وفاطمة الرياحي وياسين العياري.

[104]سنتناول في بحثنا هذا الجيل الأول من المدونين والذين يمكن اعتبارهم مؤسسيين في المدونات التونسية ضد الرقابة والصنصرة وسياسات الحجب

[105]عبارة رائجة في الوسط التونسي، وهي ترمز الى شخصية كانت بارزة ضمن منظومة الشرطة الفنية وكانت مكلفة بغلق وحجب الصفحات والمنتديات التي تنقد النظام، وقد كانت مساهمة في حجب موقع يوتيوب، مواقع إباحية وغيرها من المواقع.

106

في معنى الحركة الاجتماعية:

يعتبر مفهوم الحركة الاجتماعية من أهم المفاهيم القديمة والتي تختزل في طيّاتها تصورات وتمثلات عن النضال والصراع والتنازع والاحتجاجات. ويعتبر كتاب تشارليز تيلي[107]

[106]تثمينا منه للمشروع، وتقديرًا للمساهمة، فقد خصّنا z بحقوق نشر الرسوم الكاريكاتورية الموجودة هنا بشكل مجاني. والصور المرفقة بالدراسة، هي من قبله.

[107]تشارليز تلي، من أهم المنظرين في سوسيولوجيا الحركات الاحتجاجية.

الحركات الاجتماعية[108] من أهم الكتب التي قاربت مفهوم الحركة الاجتماعية، حيث يقرّ قائلًا: " لقد عادت كلمة "حركة" لتطرح نفسها بقوة على واقعنا الاجتماعي بصور وأداءات تبعث الأمل، وأحيانًا بتحميلات زائدة على ما تجسده من واقع، بل وأحيانا أخرى بتصورات مغلوطة مصدرها الاستسهال والتحمس في إطلاق المصطلحات. وقد تم كل ذلك دون قدر كاف من التحليلات والكتابات سواء السياسية أو الاجتماعية "[109].

إن صياغة مفهوم الحركة الاجتماعية باعتباره مفهومًا إشكاليا لا يخضع إلى مأزق نظري فقط، وإنما على صعيد التطبيق أيضًا. اختلفت تاريخيا الحركات الاجتماعية باختلاف السياقات التاريخية والظروف التي ساهمت في بلورتها ونشأتها. وأمام تعطش حقيقي لحركة اجتماعية ناقدة وهادفة تطرح تطلّعات ومشروعا، أردت الإسهام في تناول المدونين التونسيين[110] والإحاطة بتجربتهم والتي تحمل خلفها العديد من الأسئلة، من بينها الأفق الاجتماعي لهذه الحركة، أي توظيف أيديولوجي تستعمله، وأي أثر وتبعات لهذه الحركة.

الفاعلون، من هم؟ أي تمثّل للفعل؟

إن الطبيعة تأبى الفراغ، هكذا وضّح أرسطو من خلال سياق فلسفي – ابستمولوجي معتبرًا أن الطبيعة تملأ كل ما حولها، ولو انطلقنا من هذا المأثور كمسلمّة ضمنية، حول ضرورة بروز / نشأة / ظهور الفاعلين في إطار وجود دولة قامعة، مفهوم الفاعل في مقاربته الفلسفية يأتي في تصوّره كفاعل (سلطة) وفاعل (معارضة)، " وحتى نخرج من هذه الخلط «المفاهيمي»، نحدّد مضمون مفهوم الفاعل السياسيّ الآن وهنا، بممارسة السلطة

[108]ظهرت الحركات الاجتماعية في الغرب في القرن الثامن عشر، ومنذ هذا الحين أضحت الحركات الاجتماعية الوسيلة الشعبية لممارسة السياسة في جميع أنحاء العالم .يقدم كتاب "الحركات الاجتماعية 1768- 2004" نظرة شاملة على الحركات الاجتماعية في التاريخ بقصد الوقوف على أصل ممارسات وترابطات الحركات الاجتماعية المعاصرة من أجل المقرطة، وكذلك لمحاولة التنبؤ بالاحتمالات المستقبلية للحركات الاجتماعية . ويعرض الكتاب كذلك للتغييرات المستمرة في الحركات الاجتماعية على مستوى العالم، كتأثيرات التكنولوجيا الحديثة والعولمة، مركزا على احتمالات ومدى كون تلك التأثيرات "حديثة"، كما يعرض أيضا لنشأة وتطور الحركات الاجتماعية التي نعرفها الآن، وأسباب فقدان أي من الحركات الاجتماعية لتأثيرها.
كما يطرح الكتاب تساؤلات جوهرية ذات صلة مثل: "كيف تتحقق الديمقراطية على نحو حقيقي؟ "وأخيرا يقدم الكتاب نظرة على علاقة الحركة من أجل التحديد، والمواطنة، ورأس المال وما إذا كان للحركات الاجتماعية تأثير حقيقي في الدول الاستبدادية .

[109]تيلي، تشارلز: الحركات الاجتماعية 1768 – 2004؛ ترجمة موسى وهبة، مصر – المشروع القومي للترجمة، 2005. ص 59.
[110]سنتناول مدونة debatunisie المشهورة بالرسومات والكاريكاتورهات.

وبممارسة مقاومة السلطة، أو بكليهما معاً. ولنقُلْ بدايةً إنَّ الفاعل السياسيّ يتجسد في ممارسة السلطة/المقاومة في آنٍ كممارسةٍ للقوّة، باعتبار أنَّ السلطة/المقاومة منتشرة ومبثوثة في كلّ مكان وزمان عبر النسيج الاجتماعيّ والسيرورة التاريخيّة، وليست مُركزة في مكانٍ محدّد أو زمانٍ محدّد.

ومثل هذا التحديد يتناقض مع مسلماتنا السائدة عن السُلطة والفاعل السياسيّ؛ مسلماتنا التي تُسلِّم بأمرين اثنين في هذا الصدد على الأقل: الأول هو التسليم بثنائية حاكم/محكوم؛ فيها الحاكم هو الفاعل والمحكوم هو المنفعل. أمّا الثاني فهو التسلّيم بمرْكزة السلطة في «الأشياء الكبيرة»، من عيار الدولة والرئيس والحزب والطبقة.. إلخ، والسخرية من فاعلين «صغار» ومنثورين يقاومون السلطة ومركَزَتَها."[111]

إن الحاجة الملحّة للحرية في ظلّ وضع يتّسم بالقمع والانغلاق دعت إلى بروز فاعلين جدد على الساحة النضالية بتونس، متجاوزين بذلك الصورة النمطيّة لتنظيمات المعارضة الكلاسيكية التقليدية من ائتلافات وجبهات وهيئات، هذه التنظيمات التي أثبتت عجزها وعدم جدارتها الثورية في مجابهة النظام القمعي وذلك نتيجة عجز تنظيماتها عن المواصلة في النضال لعدّة اعتبارات، من بينها غياب مراجعة نقديّة لسردياتها وأفكارها وتكلّس هيكلتها وعدم قدرتها على مجارات النظام من خلال صياغة تصوّر بديل له، هذا العجز في التجددّ والذي أفرز شكلا جديدًا من الفاعلين هم المدونون. عن الفاعلين الجدد يقول الكاتب المغربي هشام بن عبد الله علوي[112] :

"الفاعلون التقليديون للتغيير . مناضلون نقابيون أو سياسيون، طلبة . يبدون أضعف من أي وقت. أما الفاعلون الجدد . أقليات جهوية أو لغوية، صحفيون، مثقفون مستقلون .

[111] غرز الدين، شوكت؛ عن الفاعل السياسي الآن وهنا، مجموعة الجمهورية لدراسات الثورة السورية، 6 ماي 2016، اطلعت عليه بتاريخ 24 – 04 – 2019.
https://www.aljumhuriya.net/ar/34923

[112] هشام علوي، كاتب وناشط مغربي، وينتمي إلى العائلة الحاكمة، من أبرز الداعين إلى تجاوز التنظيمات الكلاسيكية في المعارضة وترك المجال للتعبيرات السياسية الشبابية.

فيكافحون بصعوبة ليتوحدوا وليفكوا قبضة سياسة متسلطة ترسخت منذ مدة طويلة" لموند ديبلوماتيك أبريل 2008.

إن تبلور مفهوم الفاعلين، باعتباره مفهوما يتجدد بتجددّ صورة الفاعلين، فالمدونون في تونس، ونتيجة المسار والمجهود الذي قاموا به في تغطية الأحداث الاحتجاجية وفضح انتهاكات النظام وتوثيق الحركات النضالية ونشرها في العالم أجمع، جعلهم يتجاوزون بذلك المجال المحلي نحو إشعاع دولي، يتجاوز صداه ما كانت تقوم به العديد من المنصات والوسائل الأخرى كصحيفة الموقف[113] وصحيفة الطريق الجديد[114]وصحيفة مواطنون[115] أو موقع نواة[116]. هذا السياق الذي توجّب فيه بروز آلية احتجاجية تتخطى الجدران والحدود والرقابة، فبرز المدونون استجابة لهذا الوضع.

من الشارع إلى الأنترنت؟ من الأنترنت إلى الشارع؟ أو كيف أصبحت الاحتجاجات في عصر التكنولوجيا.

شهد العالم عشرات الاحتجاجات والإضرابات التي خلدها التاريخ البشري، وقد برزت بعض الساحات والميادين كأيقونة لهذه الاحتجاجات. وأثر تعميم الأنترنت وبروز وسائل التواصل الاجتماعي كالفايسبوك والتويتر واليوتيوب في تسهيل هذه الاحتجاجات، وأصبح تناقل المعلومة أسهل كثيرًا، "وهو ما يدعم تسميتها بثورة عصر ما بعد الحداثة أي عصر

---

[113]الموقف: صحيفة أسبوعية تونسية ناطقة بلسان الحزب الديمقراطي التقدمي، أدارها أحمد نجيب الشابي ويتولى رئاسة تحريرها رشيد خشانة. صدر عددها الأول في 12 ماي/أيار .1984 وكانت آنذاك جريدة أسبوعية ثم أصبحت تصدر كمجلة منذ 18 أكتوبر/تشرين الأول1990 ، لتعود من جديد إلى جريدة سياسية أسبوعية.

[114]الطريق الجديد: هي الصحيفة التي أصدرها الشيوعيون التونسيون بعد السماح لهم بالعودة إلى النشاط في جويلية/تموز .1981 وقد صدر عددها الأول بتاريخ 3 أكتوبر/تشرين الأول .1981ثم أصبحت لسان حال حركة التجديد وهي التسمية الجديدة التي اتخذها الحزب الشيوعي التونسي منذ أفريل/نيسان.1993 تعطلت عدة مرات خلال الثمانينات، أولاها بين أكتوبر 1983 وأفريل/نيسان .1984 وصدر منها حتى جوان/حزيران1988 274عددا. تعرضت في العديد من المرات إلى المصادرة من طرف السلطات الحكومية، من بينها ما حصل في فترة الانتخابات الرئاسية والتشريعية سنة 2009 ، كما تعرض مدير الصحيفة إلى عملية استجواب على إثر مقال بـ"الطريق الجديد" بتهمة "نشر أخبار زائفة

[115]مواطنون: هي صحيفة شهرية تونسية لسان حال التكتل الديمقراطي من أجل العمل والحريات .وقد صدر عددها الأول في جانفي .2007 يديرها مصطفى بن جعفر ويتولى رئاسة تحريرها عادل الثابتي.

[116]نواة هي موقع إخباري تشاركي مستقلّ، عرف بمعارضته للنظام التونسي، وقد كان الموقع محجوبًا في تونس إلى حدود 13 جانفي 2011، تاريخ إصدار أمر بإلغاء حجب المواقع التي كانت محظورة مثل يوتيوب وغيرها من المواقع الإخبارية ومواقع التواصل الاجتماعي

العلاقات الاجتماعية الجديدة الانسيابية، والمرنة، والأفقية، المشحونة بالمشاعر، والآنية، والانفعالات، والتي لم تخضع لصرامة العقلانية المتحكمة في السلوك أو البيروقراطيات الضابطّة للمجتمع بما في ذلك بيروقراطيات الأحزاب السياسية والمنظمات النقابية نفسها إلى جانب بيروقراطية الدولة.[117] لعبت مواقع التواصل الاجتماعي خلال الربيع العربي دورًا مهمًا في تعزيز موجات المظاهرات والاحتجاجات في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بين عامي 2010 و2012. لا يزال موضوع مواقع التواصل وتأثيره على الربيع العربي محطّ جدل كبير حيث يرى البعض أنها كانت ذات تأثير كبير فيما يرى آخرون العكس بدليل وجود عدد من المُفارقات مثلَ قلّة الاحتجاجات في دولة البحرين والتي يتصلُ 88% من سكانها بالأنترنت (إحصاءات عام 2011) فيما نمت تلك الاحتجاجات في بلدان أخرى ضعيفة نسبيًا من ناحية انتشار النت مثل اليمن وليبيا[118]. وباعتبار أن هذه الوسائل كانت الوسيط بين الفاعلين (المدونين) والمتقبلين (الشعب) فقد أثرت هذه الوسائل التي يمكن اعتبارها فتحا ثوريا في مسار الحراك الاحتجاجي (17 ديسمبر 2010 – 14 جانفي 2011) متيحا الفرصة للمعلومة للتأثير والانتشار دون قيود ولا رقابة، فالأنترنت مثلت المجال الذي نشأ داخله نموذج جديد للمجال العمومي اهتزت فيه التراتبية الكلاسيكية القائمة على النخبة (العالمة والفاعلة) والجمهور (السلبي والمتلقي). فالنماذج التواصلية الجديدة ليست منفصلة عن تحوّلات مجتمعية وسياسية وثقافية تعكس أزمة الديمقراطية التمثلية القائمة على تلاعب النخب، ومراكز القوى الاقتصادية، وآليات الدعاية والتسويق بالحقل السياسي، والقدرة على تسييجه، في مقابل الاهتمام المتزايد لدى الفعالين الجدد بكسر الطوق حول هذا الحقل ومساءلة الأنماط التقليدية للمشاركة

[117] حنين، ماهر: مجتمع المقاومة؛ ما بعد الإسلاموية ، ما بعد البورقيبية ، ما بعد الماركسية. كلمات عابرة – تونس، 2019 ص131.

118 Stepanova ،Ekaterina (May 2011). "The Role of Information Communication Technologies in the "Arab Spring"" (PDF). pircenter.org/. اطلع عليه بتاريخ أفريل 2019-04-22.

السياسية، وآليات الشفافية والمحاسبة، ووقف الفساد، وشروط الاندماج الاجتماعي، والعيش المشترك[119]

هذه الآلية السلمية التي برزت في الثورات العربية عموما، وفي الثورة التونسية خصوصًا، لم تأتِ في سياق اعتباطي أو وليدة لحظة ما، بل كانت نتاج سيرورة نضالية، جعلت من المجتمع عبارة عن تكتل سوسيولوجي رقمي على حد تعبير الباحثة بشرى جميل الرواي[120] أو بعبارة أدق " مجتمع افتراضي " وهذا التغير الذي اقتضته الظروف الموضوعية والذاتية على حدّ السواء، رسم تصوّراً مغايرا لآليات الاحتجاج المعتادة، من إضرابات واعتصامات، ورسم كذلك تغيّرًا جذريًا في البنى الفوقية، وذلك من خلال تغيّر تمثّلات النضال عن طريق البيروقراطيات وطرق اشتغالها، متجاوزًا بذلك تقاليد المناشير واليافطات والشارات الحمراء، ليشكل وجها آخر للنضال كان الحظّ الأوفر فيه للشباب وبرز فيه العنصر النسائي، ويذهب المؤرخ المغربي إبراهيم القادري بوتشيش إلى التأكيد على هذه النقلة النوعية إذ يرى أنه " ثمة تغيّر آخر حدث في ثوابت الذهنية السياسية والبنية العمرية تحت تأثير مواقع التواصل الاجتماعي: فانتفاضات الربيع العربي لم تعد بفضل التقنيات الجديدة المستحدثة تتمّ في العالم الواقعي التقليدي، بل أصبحت تُدار من العالم الافتراضي، قبل أن تتحوّل إلى فضاء الواقع، وهو ما وسّع من مساحة المشاركة السياسية. وبعد أن كانت الأحزاب السياسية العربية وزعماؤها التقليديون في الغالب من فئة الكهول أو الطاعنين في السن، أصبح الشباب و"عمال المعرفة" خلال ثورات الربيع العربي يتولّون قيادة معركة التغيير عن طريق استخدام مواقع التواصل الاجتماعي بكل حرفية ومهارة، ما غيّر من "الثوابت" العمرية، وأبرز فاعلاً جديداً في المجال السياسي على مستوى البنية

[119] الحمامي، الصادق، الميديا الجديدة : الإبستمولوجيا والإشكاليات والسّياقات – المنشورات الجامعية بجامعة منوبة – تونس 2012 . ص ص 73 – 74.

[120] الراوي، بشرى جميل: دور مواقع التواصل الاجتماعي في التغيير الاجتماعي / مدخل نظري، دورية الباحث الإعلامي، العدد 17، سنة 2012.

العمرية، وهي فئة الشباب، خاصة شباب البطالة المتعلمة، الحاملة شهادات عليا، والتي كان ينظر إليها بمنظار الوصاية. "[121]

المدونون، النشاة، السياق، الأهداف

من العالم الافتراضي، وجد المدونون الأرضية الملائمة للعصيان والتحريض والاحتجاج والمعارضة، خصوصًا وأن الحركات الاحتجاجية التي كانت تمارس في السابق، يواجهها النظام بالقمع والعنف والاعتقالات. فقد مثل الفضاء الافتراضي آلية أكثر أمنا واستقلالية لممارسة الاحتجاج، فالتفاعل بين المدونين والمجتمع من جهة، والمدونين فيما بينهم من جهة أخرى، أضحى بشكل أكثر سلاسة، الأمر الذي جعل من مقولة أنّ "المعلوماتية" تغير على نحو جوهري وتؤثر بقوة في العلاقات والمجتمعات صحيحة.، وإلى ذلك ساهمت مواقع التواصل كما يلاحظ "قتلوني"[122] في كسر حاجز الخوف، وتشكيل التفاعل بين الشعوب، وكشف العيوب والأخطاء التي وقعت فيها الأنظمة السياسية وتوثيقها بالصور الثابتة والمتحركة، وتحولت إلى مصدر لوسائل الإعلام الكبرى والفضائيات " [123] وما استعمال المواقع الاجتماعية، كأداة للنضال السلمي، إلا لاستغلالها بهدف الاستقطاب وتوجيه الرأي العام وإبراز الحقيقة التي تحجبها الوسائل الرسمية. في هذا الصدد يؤكد الصادق الحمامي على أن " موقع الفايسبوك لم يصمم ليكون منصة للتفاعل الثوري ولكنه يعكس البيئة السياسية لمستخدميه فإذا كانت تتميز بسياق يقوم على الاستقطاب الأيديولوجي والتنافر لن يقوم الفايسبوك بتغييرها. " [124] وخلق مساحة افتراضية آمنة،

---

[121]بوتشيش، إبراهيم القادري، أثر شبكات التواصل الاجتماعي في تغيير السلوك والعقليات: الربيع العربي نموذجاً، محاضرة ألقيت ضمن فعاليات المؤتمر الثاني و الأربعين للجمعية الدولية للتاريخ الاجتماعي، تحت عنوان " تغيرات الاتصال الاجتماعي في الزمان والمكان" مونتريال – كندا. ضمن ضفّة ثالثة.

[122]مصعب حسام الدين قتلوني، ثورات الفيسبوك، مستقبل وسائل التواصل الاجتماعي في التغيير، بيروت، شركة المطبوعات، الطبعة الأولى 2014، 256 صفحة

[123]الزبيدي، فاطمة: ثورات الـ"فيسبوك"، مستقبل وسائل التواصل الاجتماعي في التغيير، (مراجعة نقدية) مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، 25 – 03 – 2014. اطلعت عليه بتاريخ 23 – 04 – 2019.
http://v.ht/hahdhf

[124]الحمامي، الصادق، صمّم الفايسبوك ليبتلع البشرية، مجلة ميم، 24 – 09 – 2017. اطلعت عليه بتاريخ 23 – 04 – 2019.

تنشط فيها مختلف الفئات السياسية والاجتماعية بمختلف مشاربها وطبقتها، جعل من هذه الوسيلة أشبه بالفسيفساء، الأمر هذا يحيلنا إلى مسألة الاتصال السياسي في المجال العربي وتحديدا لدور الفايسبوك في السياق الثوري وخاصة في مصر وتونس، الذي يتميز بالاستقطاب الأيديولوجي والتنافر السياسي. وقد شجع الفايسبوك في الكثير من الأحيان على الاستقطاب مما جعل الناس يعيشون في عزلة عن بعضهم البعض ولا يتفاعلون إلا مع أمثالهم، وهو ما خلق تماثلا في المجال العمومي فعوض أن يكون مجالا للتفاعل، أصبح مجالا للانغلاق وبروز ما يعرف بـ"الفقاعات الأيديولوجية". ولكن هذا لا يعني أنه لا يتيح أشكالا من التعبئة الاجتماعية والتفاعل السياسي[125].

لقد مثّل شعار المدوّنين اليافطة المثلى في تصوّرهم، حيث رفعوا شعار Je blogue pour la liberté d'expression كتعبيرة ثورية ونضالية ضد سياسة النظام الرسمية، وفي هذا الصدد يذهب ماهر حنين، إلى أن "فتح فضاء فايسبوك منذ 2006 شكل فرصة لتوفير أداة فعالة لتعبئة الرأي العام وصناعته. وفي هذا الإطار يستعرض أيمن الرزقي تطوّر هذا الاتجاه المتنامي للفاعل الافتراضي الجديد قبل الثورة من خلال المدوّنات و "البلوغوسفار" والمعركة التي كانت تخوضها المواقع الإخبارية المستقلة كنواة و تونزين وتونس نيوز والملاحقات التي كانت تستهدف المدوّنين. وقد شكل الفقيد زهير اليحياوي بالنسبة لهؤلاء الشباب رمزا سياسيا مقاوما من أجل فكّ الحصار على الفضاء الافتراضي وتحدي الحصار ومناكفة الاستبداد "[126]

---

http://v.ht/bGkzs

[125] الصادق الحمامي: صمم الفايسبوك ليبتلع البشرية، مجلة ميم، 24 – 09 – 2017
http://v.ht/bGkzs

[126] حنين، ماهر؛ مجتمع المقاومة، كلمات عابرة، ص 132

السنة	2003	2004	2005	2006	2007	2008	2009	2010	2011	2012	2013	2014
النسبة	6.49%	8.53%	9.66%	12.99%	17.10%	27.53%	34.07%	36.80%	39.10%	41.44%	43.80%	46.16%

Committed to connecting the world

قد يرى البعض أنّ تعميم استعمال الأنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي في تونس أدى إلى بروز المدونين، ولا ننكر دور الأنترنت في بروز المدونين وفاعليتهم في تعميم الحقيقة. ولكن ليس الأنترنت فقط، كما نرى في المرفق أعلاه، كان المدونون مواكبين للعديد من الاحتجاجات، ابتداء من القمة العالمية لمجتمع المعلومات في نوفمبر 2005[127] والتي وقع معارضتها من قبل العديد من الناشطين والفاعلين لقبول الحكومة التونسية ممثلين عن الكيان الصهيوني، هذا الاحتجاج يتزامن مع نسبة نفاذ للأنترنت من قبل المستخدمين في حدود 9.66[128] %. أي ما يمثل عشر الشعب التونسي، وهذا ما يفند الرأي الذي يرى في تعميم الفايسبوك والأنترنت باعتباره الدور المركزي لنشأة المدونين، ولكنّ أيضا الفراغ الذي خلقته عقود طويلة من العمل السلطوي المبرمج الهادف إلى تغييب السياسة في المجتمع وإقصاء أهلها، ثم ضعف الأحزاب المعارضة التي أنهكها القمع الشديد والاضطهاد، وأغلقت دونها نوافذ التفاعل مع الناس، عطفاً على ما تعانيه من أمراض ذاتية، كغياب روح المبادرة لديها، وتشتت إيقاع عملها الجمعي جراء حضور الحسابات

[127] بعض جماعات المجتمع المدني أعربت عن رفضها انعقاد مرحلة 2005 من القمة العالمية حول مجتمع المعلومات في تونس، باعتبارها بلدًا به انتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان. وجدت بعثة تقصي حقائق لتونس في يناير / كانون الثاني 2005 عبر مجموعة مراقبة تونس، وهو ائتلاف من أربعة عشر عضوًا في التداول الأممي لحرية التعبير، أسبابًا جدية للقلق بخصوص الحالة الجارية لحرية التعبير والحريات المدنية في البلاد، ومن ضمنها القيود الفظة على حرية الصحافة والإعلام والنشر والإنترنت.

نشر الائتلاف تقريرا من ستين صفحة يوصي بخطوات تحتاج الحكومة التونسية لأخذها لوضع البلد على مستوى المقاييس الدولية لحقوق الإنسان. في لقاء اللجنة التحضيرية الثالثة بجنيف في سبتمبر / أيلول 2005، أطلقت مجموعة مراقبة تونس تحديثا للتقرير والذي لم يجد أي تحسنات في موقف حقوق الإنسان.

[128] الإحصائية مأخوذة من الجدول المرفق أعلاه.

الأنانية والمصالح الضيقة، كل ذلك وفر فسحة كبيرة لتقدم هذه القطاعات المحرومة والنشطة من المجتمع، كي تتقدم، بالأصالة عن نفسها وبالنيابة عن الجموع لنقد الواقع البائس الذي تعيشه والاعتراض عليه، مبدية حماسة كبيرة للتغيير وحساسية مرهفة للدفاع عن حقوقها ومصالحها[129].

إن جمود الأحزاب، وتعاملها مع الراهن الآني بسرديات وأدبيات بائدة، انقضى على تاريخ صياغتها وبلورتها عشرات السنين، بالإضافة إلى التصورات النظرية التي كانت الأحزاب تسقطها على الراهن الآني، أدى إلى بروز ثقافة اتصالية جديدة قادها المدونون التونسيون

[129] Akram al-Bunni, Après la Tunisie et l'Egypte : Est-ce le rôle des partis politiques a diminué?, lieux communis , 09 -02 -2011/ .2019 – 04 – 23 اطلعت عليه بتاريخ
http://v.ht/TmwU

وعلى رأسهم لينا بن مهني، ولقد ولّدت ثقافةً جديدة غيّرت أنماط سلوك النضال السياسي والاجتماعي من أجل الحرية ومقاومة الاستبداد، فقد صار نشطاء هذه المواقع يتبنّون سياسة التغيير السلمي، أو ما يعرف بالتغيير الناعم، كإستراتيجية لإزاحة الأنظمة الديكتاتورية، بديلاً عن نظريات العنف المتمثل في الانقلابات العسكرية، والعنف الثوري الدموي المستوحى من النظريات اللينينية - الماركسية، وهي النظريات التي هيمنت على فكر وتوجهات أحزاب اليسار، والشارع العربي خلال العقود الأخيرة في معظم الدول العربية. فالمؤرخ لا يمكن أن يغفل أن التجمعات المليونية نحتت شعاراً سلمياً جديداً تعكسه عبارة "سلمية سلمية"، وكانت تتخللها استعراضات فنية وموسيقية ومشاهد فلكلورية، بل حتى احتفالات الخطوبة والزواج والحب... ولعلّ المنحى الذي نحته بعض ثورات الربيع العربي نحو العنف، هو خارج تماماً عن طبيعة وروح الربيع العربي والأصوات المناضلة في منصات التواصل الاجتماعي، ولأيادي الثورات المضادة فيها نصيب وازن[130].

في هذا الصدد، رأينا استضافة[131]Zللحديث معه حول هواجسه، خصوصا وأنه كانمن أبرز المدونينإشعاعا في تونس، وهو يدون في مدونته Debatunisie، يمثل Z أحد أهم أصوات المدونين في تونس، وذلك لأنه ينطلق من الصورة بما هي تعبيرة حسية للتعبير عن الواقع وانتقاده بسخرية، هذا التصور والذي يتجاوز فعل المحاكاة، جعل مدونته من أكثر المدونات متابعة في تونس.

Debatunisie مدونة تونسية، أنشأها - Z - [132]، عرفت هذه المدونة بكونها الاستثناء، حيث لم تكن التقارير والتوثيق هدفها الأساسي، على الرغم من أنها تشترك مع المدونات الأخرى في انتقاد النظام والعائلة الحاكمة ومظاهر الفساد والقمع والمحسوبية والصنصرة. نتحدث مع الرسام z مؤسس المدونة، والذي كان

[130]بوتشيش، إبراهيم القادري، أثر شبكات التواصل الاجتماعي في تغيير السلوك والعقليات: الربيع العربي نموذجاً، محاضرة ألقيت ضمن فعاليات المؤتمر الثاني و الأربعين للجمعية الدولية للتاريخ الاجتماعي، تحت عنوان " تغيرات الاتصال الاجتماعي في الزمان والمكان" مونتريال – كندا. ضمن ضفّة ثالثة.

[131] أجريت هذه المقابلة مع z بتاريخ 28 – 04 – 2019، وقد وافق عليها بكل رحابة صدر، فله مني وافر الشكر على تفاعله على مقترحنا، وقد خصّنا z بالعديد من الصور المرفقة في هذه الدراسة، متخليًا عن حقوق الملكية.

[132]z هو اسم قلمي ومستعار لفنان كاريكاتور تونسي، وهو مؤسس مدونة denatunisie

ينشر نصوصًا مرفوقة بصور كاريكاتور منذ سنة 2007. هذه المدونة والتي نشأت في سياق معارضة ونقد المشاريع الضخمة التي كانت تنفذها شركة سما دبي، في ضفاف البحيرة، وقد اختار – Z - رسم النعام الوردي كشعار لمدونته، وذلك لأن المشروع المزمع إنجازه كان يهدد النعام الموجود هناك. في حواره الذي خصّه بنا، يتحدث عن البدايات، كيف باشر في الكتابة ونشر التحاليل باللغة الفرنسية، "لقد كان الهاجس الأساسي الذي انطلقت منه المدونة هو الاهتمام بالشأن العام، وخصوصًا تزامنا مع انطلاق مشروع سما دبي، لقد كنت مهندسًا معماريًا، وعلى دراية بهذا المشروع وتبعاته وكيف كان يهدد البيئة" يقول Z مواصلا الحديث، بالإضافة إلى مشروع سما دبي، كان الجو العام وغياب حركية سياسية بوجوه شبابية ونسائية دافعا إضافيا للانضمام إلى المدونين في معركتهم ضدّ النظام، لم أكن أنتمي إلى أيّ حزب سياسي حينها، برزت فكرة الصور والكاريكاتور المرافقة للنص وذلك لأن التعاطي مع الصور كان أفضل من النصوص من جهة، ومن جهة أخرى، كان الفايسبوك يمثل فضاء إضافيا يمكن أن يقع تعاطي الكاريكاتور فيه بشكل أفضل. حيث أن الصورة هي التي تمثل الانطباع الأولي للمتلقي وتحفزه على متابعة قراءة النص. هذا الخيار يأتي في سياق غياب مصورين حرفيين وكاريكاتيريين يشتغلون على الصورة، حيث أن بن علي قضى على أي تصور جمالي معادٍ له وأفلسه[133]، إضافة إلى احتقار مثل هذه المهن/ الهواية في المخيال الشعبي، الأمر الذي جعل من ثقافة الصورة في تونس ثقافة استهلاكية. لا نجد صورًا سوى كيافطة لإشهار أو ترويج لمسحوق تجميل، أضحت الرسوم صناعة استهلاكية. وواصلتُ الرسوم، أصبحت مدونتي تجذب العديد من المتابعين، ولا بد من التأكيد هنا على أمر مهم هنا، كانت مدونتي في البداية ضمن منتدى Tnblog وهو فضاء يضم جميع المدونين التونسيين، باللغة العربية والفرنسية، الأمر الذي جعل جمهورها مقتصرًا على فئة

[133] لم يكن z رسام الكاريكاتير الوحيد في تونس، ولكنه كان رسام الكاريكاتير المعارض الوحيد، وقد نبهنا إلى وجود رسامين مهمين للغاية في الحقبة البورقيبية وكانوا ينشرون أعمالهم في الصحف المعارضة، من بينهم لطفي بن ساسي والشاذلي بالخامسة

محدودة بعينها، هي المدونون التونسيون، لتنفتح فيما بعد على فئات مختلفة.
وفي سنة 2008 أصبحت معروفا لانتقادي لبن علي وعائلة الطرابلسية. كانت حينها المدونة فاطمة أرابيكا[134] قد نقلت اثنين من رسوم الكاريكاتور التي أقوم بها لتعيد صياغتها إلى اللغة العربية وتنشرها في مدونتها، مما أدى إلى اعتقالها سنة 2009، إذ ظن النظام حينها أنها هي - Z –. أدركت حينها أنني أصبحت أمثل إزعاجا للنظام، مما جعلني أحيط عملي بسرية أكثر، لم أخبر أحدا بأنني كنت المشرف على المدونة، سواء قبل الثورة أو بعدها، ليس خوفا من النظام فقط، ولكن لأنه خيار شخصي.

[134]فاطمة الرياحي، هي مدونة ومسرحية تونسية، كانت تنشط في مدونتها أرابيكا.

واصلت على نفس النسق، حتى بعد الثورة، لعدة اعتبارات من بينها أنني كنت أحب الصور والكاريكاتور، كنت أشتغل على نقد النظام والسلطة بكل شغف، وبسقوط نظام بن علي، كان جزء من السلطة قد سقط، لكن ليست كل السلطة، كان هناك حينها الباجي قائد السبسي الذي كان من رموز النظام السابق، وانتهكات من

السلطة، ومن الإعلام نفسه، انتقد وأصور رسوما حول قناة نسمة، الحوار التونسي، النهضة، السبسي، ورجال الإعلام شفيق جراية، كمال لطيف، مروان مبروك. بقي الشأن العام حاضرًا بقوة في أعمالي من خلال الواقع المعيش. وبدمقرطة استعمال الأنترنت، أصبحت ثقافة التدوين جزءا من الفسيفساء الاجتماعية والسياسية في المشهد التونسي، كثير من التونسيين أعجب بما كنا / كنت أقوم به، ولعل أهم ميزة كانت في المدونين أنهم لم يكونوا منخرطين في الأحزاب السياسية.كان تصوّرنا للأحزاب حينها على أنه يمثل عائقا أمام استكمال مشروعنا النقدي والتحرري، وأن الأحزاب مهما كانت أهدافها ستعيقنا عن إتمام مشروعنا. لا أنكر أنني كنت متأدلجًا في مرحلة ما مثل سائر المدونين، لكن كان تعاطينا مع الوضع بكل موضوعية. الأمر الذي جعل جمهوري جمهورا محايدًا كذلك. لم يكن جمهوري من المنخرطين في أحزاب المعارضة حينها. ورغم كل ذلك فكل مدون يعبر عن فكرة خاصة به، فكرة يصوغها من داخل أعماقه، فكرة يتمثلها بكل حرية، من أجل تصوّر للحرية والإنسانية والعدالة الاجتماعية، ولكن فكل فكرة عموما تمثل فئة سياسية/ اجتماعية/ أيديولوجية. ففي النهاية، أنا أعبر عن مقصودي ومقصود غير.

يتبين لنا من خلال هذه المقابلة العميقة مع -Z– التصور والهدف والسياق الذي برز فيه كمدوّن تونسي، إن الشأن العام كان الهاجس الأساسي والمحرك والدافع الذي حدا به إلى إنشاء مدونته، إن الأسباب والدوافع الذاتية والموضوعية والتي تتغير بتغير الحالات والسياقات تجعلنا إزاء تجارب ثرية ومختلفة للمدونين التونسيين، ولكن الهدف رغم ذلك واحد، تقويض النظام التونسي السلطوي وكنسه وإرساء دينامكية نقدية معارضة للنظام، تقوم على أسس ومنطلقات فنية وثقافية، فأغلب المدونين التونسيين من أصحاب الشهائد العليا وتكونوا في أرقى الجامعات التونسية، وهم من أوساط شعبية عمومًا. هؤلاء

الناشطون في سياق افتراضي، تفطنوا إلى ضرورة نقل الصراع ضد النظام إلى فضاء يجيدون إدارته، وهو الأنترنت عن طريق المدونات والمنتديات. لقد طال الفضاء الافتراضي انقلاب للوظائف والمعاني ذلك أنّ الانقلاب الذي حصل هو أن الفضاء العمومي التواصلي الافتراضي أدّى إلى انشقاق سيبرنيتيقي هام وخطير إذ بدل التواصل لفك النزاعات ظهر ضرب آخر من التواصل بصلب النظام القائم ويدعو للثورة عليه. إننا هنا إزاء فضاء مضاد[135] ، فضاء تواصلي عام بفضل التطور التكنولوجي للإعلام وبذلك لم يعد الفضاء الحواري نخبويا يتم في المقاهي وفي الجامعات بل أصبح منفتحا على كل من له الإمكانيات في استعمال الآليات التكنولوجية كالأنترنت[136]

لقد شهدت الأنترنت إقبالا منذ سنة 1999، حيث وجد فيها الشباب والمعارضون منفذا على العالم وفضاء موازيا يمكن أن يمارسوا فيه مواطنتهم بحرّيّة. لكنّ السلطة التي فوجئت بهذا الاجتياح غير المنتظر، قامت بتطوير أدواتها القانونية والمادّيّة لاحتواء الشبكة العنكبوتيّة في شباك مصادرتها ورقابتها. فبعثت جهازا أمنيّا مختصّا في المعلوماتيّة "يسهر" على "الأمن الفكريّ" للتونسيّين. إذ تعدّ تونس من أوائل دول المنطقة في إرساء قوانين تعتبر من أكثر القوانين المنظّمة للأنترنت ردعيّة وقسوة. هذه القوانين لا تعتبر رديئة في ذاتها، ولكنها تشترك في منح صلاحيّات واسعة جدّا وسلطات غير محدودة للإدارة العموميّة مع تضييق هامش الدفاع المتروك للمواطن.[137]

في تقرير حول واقع الأنترنت في تونس، أكدّ التقرير أن النظام التونسي قد تفطّن جيدا إلى خطورة الأنترنت على مؤسسات حكمه، باعتباره فضاء يُلجأُ إليه فأصبحت سياسة

---

[135] العبارة لنانسي فرايزر

[136] الرياحي، نعيمة، الفضاء العمومي والثورات، المجلة التونسية للدراسات الفلسفية، عدد مزدوج، 43، 44، خريف/ شتاء، 2016/ 2017

[137] تقرير حول واقع الانترنت في تونس، تقرير من إعداد مرصد حرية الصحافة والنشر والإبداع بتونس، موقع نواة. 08 – 01 – 2010، اطلع عليه بتاريخ 23 – 04 - 2019.
http://v.ht/GKuug

الحجب والمصادرة سائدة وبصفة ممنهجة عن طريق الوكالة الفنية للاتصلات[138] ليصبح الفضاء الافتراضي فضاء مقاومة وصراع بين النظام والمعارضة، ورغم أن مشاركة المعارضة السياسية كانت محدودة على الفضاء الافتراضي إلا أن ذلك لم يمنع النظام من مراقبة الأنترنت واحتكاره من قبل شركة اتصالات تونس. إن هوس النظام بمراقبة أي نفس معارض من جمعيات ونقابات وهيئات غير حكومية، حدا بها إلى إخضاع الفضاءات العمومية للأنترنت للمراقبة publinet فتخضع بدورها إلى رقابة مشدّدة وإلى كراس شروط مجحفة. فمسيّر الفضاء "يلتزم بالسهر على أن يكون محتوى الصفحات المشاهدة من قبل الحريف مطابقا للمعايير المرخّص فيها من قبل الوكالة التونسية للأنترنت، كما أنه مطالب "بالمراقبة عن بعد لمحتوى البريد الالكتروني لحرفائه[139]." وفي سياق تبرير هذا القمع والصنصرة والحجب، صرّح أسامة رمضاني[140]، أنّ " أغلبية المواقع المحجوبة هى مواقع مجهولة الهوية تهدف إلى تحطيم وتشويه السمعة الشخصية للأفراد وتتضمن تهديدات صادرة من منظمات إرهابية.. والحجب يأتي من رغبة الحكومة في حماية الشعب من الحض على الشر."[141]

ورغم هذا الحجب، إلا أن وتيرة فضح النظام وكشف انتهاكاته ازدادت وتيرتها، وقد لعب المدونون الحلقة الأقوى في هذا التوثيق. أصبح مدى حضور الناشطين في الأنترنت معيارًا لمدى فاعليتهم وإثبات وجودهم وتدعيم حضورهم، ولئن كان هذا الحضور ضئيلًا نسبيًا أمام عدد المشتركين والمنخرطين في الأنترنت، إلا أنهم نجحوا في تنظيم العديد من الفعاليات والتظاهرات. ورغم أن مفهوم التدوين والمدونين تم تجاوزه بعد انفتاح

---

[138] كانت مهمة هذه الهيئة حجب المواقع الإباحية ومواقع التي تبث الفيديوهات كيوتيوب، ومواقع الأحزاب والمدونات، وكانت تلقب بعمار 404 من قبل المعارضين.

[139] تسريب:نجيب الضاوي المدير العام الجديد للمصالح الفنية يتحدث عن "عمّار 404"، نواة. 05 – 12 – 2015، اطلعت عليه بتاريخ؛ 25 – 04 – 2019

http://v.ht/2SeXS

[140] أسامة رمضانى، المدير العام لوكالة الاتصالات الخارجية التونسية

[141] تعليق أمام لجنة حقوقية دولية حول قيام السلطات بحجب المواقع الإخبارية والحقوقية فى تونس

الفايسبوك وتويتر على نشر التغريدات والمواقف وبعض التحاليل. عادة تعامل الكتابات والتغريدات من هذا النوع على أن تأثيرها يظهر في عدد "الإعجابات" ولكن هذا المقياس ضعيف وربما كانت التعليقات علامة أكثر مصداقية. في التعليقات نقاش وتبادل وتفاعل مما يغير من طبيعة العلاقة بين صاحب الموقف ومن يتفاعل معه. ثمة مفهوم المؤثر influencer وذلك عن طريق الأنستاغرام مثلا.

وجب التأكيد في النهاية، أن الانترنت والمدونين كان لهم حضور جزئي في السياق الثوري بزخمه، ولا يمكن حجب مختلف النضالات الأخرى والفاعلين الآخرين، ولكن لست مع التصور السودوي الذي يرى بكل دغمائية أنّ الضمور الفكري والأيديولوجي للثورة بغياب أفق أيديولوجي يرافقها، جعل من المقاربة الماركسية هي الأكثر حضورا في تأويل الثورة، وتغييب الأنترنت والمدونين والناشطين والفاعلين الجدد، إن هذا الرأي الحاضر بقوة لا يقل سذاجة عن الرأي الآخر الذي يرى فيها ثورة رقمية متناسيًا نضالات المثقفين والنقابيين والناشطين السياسيين خلال عقود.

ولكن، في جميع الأحوال فهم لا يقومون إلا بأن يسقطوا على الشّعوب المنتفضة نقائصنا السياسية، قصورنا عن التفكير في التطوّرات السياسية. ويبدو أنّ ضمورنا الفكريّ، المشبع بعقود ثلاثة من البلاغة "المعادية للكليانيّة" والليبرالية، قد جعلنا عاجزين عن التّشكيك في أطر هذا التفكير "الضعيف" الذي يتكيّف مع الواقع دون أن يسعى حقّا إلى فهمه فما بالك برفضه. من وجهة النظر هذه، تمثّل البلاغة عن "ثورة الفايسبوك" – أو، الأسوأ أيضًا عن "ثورة 2.0 " – التعبير الأكثر سطحية والأكثر إثارة للسّخرية عن هذا الضعف الفكريّ. يتمّ اعتباطيا فصل مجال من التّكنولوجيا ("الشبكات الاجتماعية" الالكترونية) عن بقية الواقع الاجتماعيّ ويتمّ تحويله إلى محرك سرّي يقرّر إرادة الناس السياسية. إن الجوانب الأكثر تخطيطية للمتخيّل المحبّ للتكنولوجيا تنتصب بمثابة "الأنطولوجيا" للاجتماعي والسياسيّ التي تعتقد أنها قادرة على استبدال المسألة السياسية بهذه المسيحية الماديّة

الجديدة. [142] يتعلّق الأمر، بطبيعة الحال، بغوغائية تُستخدم لتجنب المسألة السياسية تخصيصا بأن تسمح بتقليم حركات الانتفاضات على التكنولوجيا الغربيّة. والواقع أنّ هذا النوع من التلاعب لا يعود إلى الأمس : فالبعض قال إنّ إضرابات سنة 1995 في فرنسا كانت ممكنة بفضل الفاكس، وأن حركة ماي 1968 في فرنسا كانت بفضل التّرانزستور، وأنّ الثورة الفرنسية كانت بفضل الصحافة، إلخ. كما لو أنّهم يحاولون تأسيس تفكيرنا السياسيّ على نظرية مارشال ماك لوهان.[143]

خاتمة:

لقد لعبت مواقع التواصل الاجتماعي خلالالربيع العربي دورًا مهمًا في تعزيز موجات المظاهرات والاحتجاجات في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بين عامي 2010 و2012. لا يزال موضوع مواقع التواصل وتأثيره على الربيع العربي محطّ جدل كبير حيث يرى البعض أنها كانت ذات تأثير كبير فيما يرى آخرون العكس بدليل وجود عدد من المُفارقات مثلَ قلّة الاحتجاجات في دولة البحرين والتي يتصلُ 88% من سكانها بالأنترنت (إحصاءات عام 2011) فيما نمت تلك الاحتجاجات في بلدان أخرى ضعيفة نسبيًا من ناحية انتشار النت مثل اليمن وليبيا. ولا يمكن التغاضي أبدا عن دور المدونين سواء في الفترة الممتدة بين 2005 – 2010، أو خلال المسار الثوري 17 ديسمبر / 14 جانفي . أو من ما بعد الثورة إلى حدود كتابة هذه الأسطر. ولا يمكن تعاطي مسار المدونين من خلال ورقة بحثية واحدة،

[142] Kippel, gilles, Les soulèvements arabes face au vide occidental, l'exempe tunisien : introduction générale, lieuxcommuns, mardi 24 -05 -2011.

https://collectiflieuxcommuns.fr/?490-les-soulevements-arabes-face-au

[143] جيل كيبال: الانتفاضات العربية في مواجهة الفراغ الغربي: المثال التونسي، ترجمة منتصر الحملي، منارات، الملحق الثقافي لجريدة الشعب، أكتوبر 2017.

ورغم صعوبة المهمة وغياب دراسات جادّة حولهم، إلا أن ما قام به الفقيد زهير اليحياوي سيظلّ شمعة تضيء درب المتعطشين إلى الحرية والعدالة الاجتماعية والديمقراطية، وقد نسج على منواله العديد من المدونين والناشطين. إضافة إلى الحركية التي اتسم بها المدونون، فقد كانت تمثل الوجه الشبابي والنسوي للمعارضة التونسية، من خلال ما قاموا به.

سفيان جاب الله

أستاذ علم اجتماع مُتعاقد بكليّة الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس

" مانيش مسامح، فاش نستناو، باستا"

مُقاربة سوسيولوجية للحملات الشبابية في تونس

مُلخَّص

في تشخيص لما صار بين 17 ديسمبر 2010 و 14 جانفي 2011 . سيرورة ما حدث وما يحدث نحو صيرورة تنتظر الحدوث، في أشكال الاحتجاج الجديدة و الفاعلين الجُدد القُدامى ، في الفرق بين مفهوم الحملة والحركة، في الأفقيّة واحتكار الشباب لإبداع نضاليّ فريد وفي بحث عن رسم ملامح وضعيّة تتسمَّ بالسيولة والتغيّر والغموض. في كلّ هذه العناوين،وأحداث وتواريخ وأفكار ومفاهيم أخرى، تبحث هذه الورقة عن استقراء سوسيولوجي يفتح باب الحوار حول واقع ينتظر الكتابة عنه، كتابة تتجاوز الماقبليّات لتنطلق من مراوحة بين تفسير تجارب الفاعلين وفهم المعاني التّي يعطونها لأفعالهم من جهة ، والنظريّات السوسيولوجيّة المعاصرة من جهة أخرى، لتصلَ إلى إجابات لا ننتهي بعدها من طرح الأسئلة.

Abstract

In the diagnosis of whatb had happened between December 17th, 2010 and January 14th,2011, the process of what has occurred and whatis happening towards what is expected to take place.

In the new forms of protests and both old and new actors.

In the difference between the concepts of campaign and movement.

In the horizontality and young people's monopoly in creating a unique way of struggle.

In the search for a situation characterized by fluidity, change and ambiguity.

In all these titles, events, dates, ideas and other concepts, this paper explores a sociological induction that opens the door to a dialogue about a reality waiting to be written about, a writing that goes

beyond the apriorism to start from an alternation/entrenchment between interpreting the experiences of the actors and understanding the meanings which they give to their actions on the one hand, and the contemporary sociological theories on the other hand , to reach answers ending with questions.

"في الثورة، كما في الرواية، أصعب جزء فيها هو كتابة النهاية "

"آلكسيس دي توكفيل"

تونس 17 ديسمبر 2010 / 14 جانفي 2011 :حرقُ البوعزيزي لنفسه، احتراقه ومآلات تلك النّار، فرار "بن عْلِي"وصولا لانتخاب المجلس التأسيسي، حكم الترويكا ثمّ الحوار الوطني وما بعده.. عنوان ثمّ عناوين ..سيرورات وصيرورات .. حركة وحركات.. ديناميكيّة فريدة،وتشكلّ معقّد لمسارات تقاطعت كنتيجة لواقع جيو-سياسي دولي، خارطة لموازين قوى داخليّة، لتقاطُعِ مُعقّدٍ لتحالفات، صراعات، مشاريع ومصالح فرديّة وجماعيّة.

انقسمت تونس بعد هروب "بن علي" إلى دربيْنِ : دربٌ فيه سيرورة حركة اجتماعيّة،باختلاف تركيبة فاعليها وأشكال فعلها ، تنشدُ-أو كانَت تَنشُدُ- أن تَصِيرَ ثورة[144]. ودرب آخر فيه اشتغلت ميكانيزمات ردّ الفعل ثمّ الفعل فإعادة الإنتاج لمنظومة ما قبل 14 جانفي 2011.

لا "الثوّار"،كفسيفساء يوحّدها إطار مفقود، افتكّوا الحكم. ولا "الحاكِم"،كَكلٍّ مُتجاوز لمجموع أجزائه، دخل إلى السجن. كأنّنا أمام تعادل سلبيّ أفرز، في ما أفرز، حلاًّ وسطا يتماشى مع ميزان القوى الذّي لا يسمح بِمُنْتصرٍ في الحرب.

نتج عن ذلك ،بعد المجلس التأسيسي وهيئة الحقيقة والكرامة والانتخابات التي تَلَتْ الحوار الوطني، ما سُميَّ بمسار الانتقال الديمقراطي والعدالة الانتقالية. مسار جعل من يؤوّلون الواقع من خلال «Framing/تأطير[145]»"الثورة" يقفون عن ممارسة«سياسة

[144]فهي ليست ثورة، ولا نذهب هنا إلى نفي صفة الثورة عما حدث إلى تحليل معمّقٍ للنظريات المفسّرة لماهيّة الثورة، بل فقط من تشخيص أوليّ لكونِ 17 ديسمبر /14 جانفي كانت عنوانًا لثوّارٍ،على الأقلّ على مستوى سيرورة فعلهم الجماعي، دون ثورة ضدّ نظامٍ أُسقِطَ لكنّهُ لم يسقُط لأنّ سقوط رؤوسه لم يسقط سيطرته على مناطق النفوذ داخل أجهزة الدولة.

[145]في توضيح لمفهوم مركزي : التأطير/Framing

مفهوم التأطير Framingفي علم الاجتماع بدأ انطلاقا من مفهوم الإطار (cadre/ frame) كما استعمله "غوفمان"، وهو ما يمكن أن نفهمه كمخطط نعتمده في تأويل الواقع أو بالأساس كاستعارة سينيماتوغرافية لتقنية التأطير، حين يتعامل المخرج مع الكاميرا أثناء إخراجه أو تصويره لواقع ما من زاوية نظر بعينها محددة وبخيال مخصوص. إنّ الإطار بالنسبة إلى الأفراد في المجتمع هو مجموعة

الحلـم[146]» للمـرور لـ«سياسـة صراع[147]»تنوّعـت فيهـا التكتيكـات والاسـتراتيجيات و"البراكسيس" ليتحوّلوا من مربّع الفعل،الذّي توّفره سيرورة الفعل الجماعي الذّي ينشد الصيرورة الثوريّة، إلى مربّع ردّ الفعل بعد إفراز مسار الانتقال الديمقراطي لقواعد جديدة للفعل داخل الحقل الاحتجاجي بجعل الحركة الاجتماعية 17 ديسمبر 14/2010جانفي 2011 مُجبرة على النظر من خلال الـ Framing/التأطير الجديد لبُنية فرص التغيير السياسية الممكنة ألا وهو إطار الديمقراطية التمثيليّة (representative democracy)الذّي يحصر الفعل الجماعي في الاحتجاج الذي لا ينشد تغييرا راديكاليّا لأنّه يخشى،بعد انخراطه في منظومة الديمقراطية التمثيليّة، من كلّ اتّهام له بأنّه غير ديمقراطي ومُطالب بإسقاط النظام بقوّة غير قوّة الصندوق.وتحوَّل الحركة الاجتماعية إلى شتات حركات احتجاجية بعد انسحاب (أفراد ومنظمات)من يهمّهم فقط مطلب "الحريّة " الذّي تحقّق بالنسبة لهم بتحقّق حريّة الفعل السياسي، وبقاء الناشدين لمطلب "شغل وعدالة اجتماعيّة" والتّي ظلّت شعارات تنشد،في سيرورة الحركة، تحقّقا يفتقد للمنطلقات الأولى التّي كوّنتها ما بين 17 ديسمبر 2010 و 14 جانفي 2011.

فهذه السيرورة، أي سيرورة الحركة الاجتماعيّة، نحو صيرورة منشودة ؛ أي "الثورة" تُقابلها سيرورة المنظومة المُهيمنة قُبيْلَ وبُعَيْد 14 جانفي 2011 ، سيرورة إنقاذها لذاتها وإعادة إنتاج أشكال هيمنة متلائمة مع الواقع الذي أفرزه هروب "بن علي" نحو صيرورة تنشد عودة الدولة لسُلطة منظومة الأقليّة التي تحتكر السلطة بمختلف أنواع مراكمتها وإنتاجها/ وإعادة إنتاجها؛ رمزيّة، اقتصادية ، ثقافية واجتماعيّة.

مخططات تمكنهم من تأطير وتحديد تأويل تسمية أو تصنيف وضعيات يعيشونها طوال حياتهم داخل نسق كلي يجمعهم مع العالم الاجتماعي. فالأطر بهذا الفهم، تمكن الفرد من منح الأحداث والفعاليات والوضعيات معنى ووَسمها بدلالات حسب تأطير معين لما يدركه ويعيشه و يواجهه، كما تمكنه بالتالي من تنظيم تجاربه و توجيه أفعاله. وبذلك تؤوّل "أطر الفعل الجماعي" وتُبسِّط العالم/الواقع الخارج عن الأفراد والمحيط بهم في وضعية ما، عبر تكثيف مختلف تجلياته في إطار واضح ومحدد، لكن بطريقة تحشد المنخرطين/المنتمين أو من بإمكانهم الانتماء، أو من يحتمل أنهم مشاريع منخرطين لنيل المساندة من قبل الأنصار ولجم الأعداء وتعجيزهم.

[146]سياسة فعل جماعي تقوم على ممارسة سياسيّة عمليّة غير مستندة على تنظيم و تكتيك و إستراتيجيا و تكتفي بتأطير تُكثَّفُ فيه مقاربة مثالية حماسيّة تحلم بتغيير جذري للواقع

[147]سياسة فعل جماعي تقوم على ممارسة سياسيّة عمليّة للصراع مع السلطة مستندة على تنظيم وتكتيك و إستراتيجيا تنطلق من تأطير تُكثَّفُ فيه مقاربة براغماتيّة للواقع ولفرص التغيير

ما بين السيرورَتين نشأت علاقة تبعيّة متبادلة عنوانها مسارٌ انتقالي يجمع ثوارا دون ثورة وسلطة "سقَطَتْ" دون سجن أو محاكمة. مسارٌ ناتج عن تعادل سلبي بين ضدّين متناقضين لم ينتهِ أحدهما بنَفي الآخر/علاقة "تشكُلّ" أشبه بشبكة عنكبوتٍ فيها علاقة تقاطع معقّدة بين الحقول والفاعلين أفرادا ومجموعات ومؤسسات.

هي، بالأساس، علاقة تَشكلٍّ أنتجت نسيجًا جديدا لعلاقات تبعيّة/ترابط متبادلة بين أعداء وضعت لهُمْ، أي علاقة التشكّل الجديدة، قواعد جديدة للصراع داخل الحقول السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

في هذا السياق،سياق القواعد الجديد للصراع ولأشكال الفعل الجماعي، تتنزّل مُقاربتنا للحملات الشبابيّة. إذ نعتبر أنَّ كلاّ من حملات مثل "مانيش مسامح"، التي انطلقت ضد مشروع قانون المصالحة ودامت لسنوات كردة فعل استبقت تمريره، وحملة "فاش نستناو" التي برزت أيضا كردة فعل بعد تمرير قانون المالية لسنة2018، ثم حملة "باسطا-يزيكم " (شتاء 2019)التّي انتهت في بدايتها، ليست مجرد حملات ضغط أو مناصرة أو معارضة لقوانين، بل هي على مستوى ذواتها المؤسسة ونواتها الصلبة وشعاراتها وتأطيراتها التأويلية للواقع، قلاع متقدمة ومتحركة لحركة اجتماعية تقاوم أفولها منذ بداية مسار الانتقال الديمقراطي والذي جعل المنتفضين منذ 17 ديسمبر 2010 لا يفتكون السلطة في مستوى أولٌ ثمّ يخسرون سياسيّا نقاط متتالية في لعبة التغيير الاجتماعي وذلك لصالح أعداء جدد وقدامى.

الحركة الاجتماعية التي عرفت شرارتها الأولى بحرق الشاب محمد البوعزيزي نفسه، لم تعرف مخرجا ثوريا بقلب نظام الحكم وتغييره جذريا بإيصال الثائرين عليه إلى السلطة، بل حُصِرَت في مسار تغيير انتقالي فرضته عليها موازين القوى وخصوصية السياق المحلي والإقليمي والدولي.

فما الذي حدث للذوات الثائرة داخل حركة لم تنته بثورة؟[148]

لقد تفرقوا في تجارب تنظيمية مختلفة وفي مسارات فعل نضالي فردية وجماعية، في محطات مُتباينة إلى أن ظهرت الحملات التي تدعو لجمع الشتات وممارسة الفعل الجماعي ضد النظام القائم و"براكسيسه"، عبر فعل أفقي، في إطار ردّ الفعل/المقاومة، وهذا ما أُطلِق عليه عنوان "الحملات الأفقية".

فما الذي نعنيه بمفهوم 17 ديسمبر2010 -14 جانفي 2011كحركة اجتماعيّة؟ ما هي نتيجة استقرائنا[149] النظري والإمبيريقي لمفهوم "الحملة"؟ أيّ «بورتْريه» جماعي يمكن نحتُه سوسيولوجيّا لـ"فاعلي" الحملات؟ وأيّ "دياكرونيا" لهذه الأشكال من الفعل الجماعي وصولا لحملة "باستا"التّي بموتها في المهد، أضافت لكلّ باحث في سوسيولوجيا الفعل الجماعي سطورا تنتظر إسالة الحبر،وفي محاولة للإجابة عن سؤالَيْ "لماذا وكيف " ينخرط الشباب في هذه الحملات؟؟

البحث الميداني نارٌ نوقدها من كلّ خَشَبْ !

"أوليفْي دي صردان"

قارَبنا هذا الشكل من الفعل الجماعي(الحملة)عبر بحث مُحفّز/مُساعد على الاكتشاف (Recherche heuristique).والمقاربة "الأوريستيكيّة" هي منهجيّة بحث ذات طابع فينومينولوجي تقوم على مبدأ أنّنا لا نستطيع بناء معرفة حول ظاهرة ما إلاّ انطلاقا من

[148]سُفيان جاب الله، الحملات الشبابيّة في تونس، في "سوسيولوجيا الاحتجاج والتنظّم". منظمة راج 2018

[149]سنتبّع مقاربة إمبيريقيّة-استقرائيّة Empirico-inductive وذلك بالانطلاق من أسئلة بحث دون فرضيّات تسعى لإثبات إطار نظريّ، نظرا لكون موضوع البحث (الحملات الشبابية في تونس) موضوعا جديدا سياقيّا ولم يُدرس من قبل(أو لم يُدرس بالشكل الكافي كمّا وكيفا)، وذلك بالمرور من تحليل ما هو خاصّ واستثنائي للوصول إلى استنتاجات معرفية أعمّ وأشمل.

الفئات التحليليّة التّي نصوغها ونكوّنها كأفراد حيث تفترض أن يكون الباحث قد عاش تجربة شديدة العلاقة بالظاهرة المدروسة والأمر ذاته بالنسبة للمبحوثين في ما بعد[150].

مثال: أن أعيش تجربة الفعل الجماعي داخل حملة ثمّ أقوم ببحث حولها وباستجواب فاعلين خاضوا معي أو مثلِي نفس التجربة .

وذلك باعتماد تعدديّة منهجيّة[151] تنشد جمع أكبر كمٍّ نوعيّ ممكن من المعطيات حول مجال بحث محدود ومخصوص لأنّنا ننطلقُ في منهجيّة هذا العمل من المقاربة التّي صاغتها "ناتالي هينيك[152]" حيثُ لا يوجد منهجٌ في حدّ ذاته أفضل من مناهج أخرى، بل إنّ نجاعة أيّ منهج تُقاس بمدى أقلمته/تطويعه مع ما هو مُستهدفٌ من قِبل الباحث وبحثه.وما هو مُستهدفٌ في كلّ بحث إمبيريقي (empirique) هو الإشكاليّة. وبالتّالي فالمنهج يتحدّد حسب ما تتطلّبه الإشكاليّة وما خلَصتْ له أسئلتها البحثيّة، وذلك في موازاة بين السعي للتفسير بطرح سؤال "لماذا"(الأسباب) والبحث عن الفهم بطرح سؤال "كيف"(المعنى الذي يعطيه الفاعل لفعله) للتمكّن من فكّ شيفرات موضوع بحث معقّد ومتعدّد الأبعاد والعوامل.[153]

وبالتّالي اعتماد تقنيات متنوّعة كالمقابلة نصف-الموجّهة واستمارة الاستبيان وتحليل الخطاب في مُقاربة حملة "فاش نستنّاوْ"، كذلك باعتماد تقنية الملاحظة دون مشاركة ومقابلات نصف موجهة في مقاربة حملة "بَاسْتا" وباعتماد تقنية الملاحظة بالمشاركة في حملة مانيش-مسامح، لكن ليس باعتباري باحثًا فقط، بل باعتباري فاعلا منخرطا في الحملة حاملا لقبّعة الباحث الذي ينشط في ذلك الحيز من الفعل الجماعي مع بقيّة

---

[150]P.Paillé. « Recherche Heuristique » Mucchieli et collaborateurs, Dictionnaires des méthodes qualitatives en sciences humaines. éditions Armand Colin, 2019, pp 217-218

[151]Jean-Pierre Olivier de Sardan, « La politique du terrain », Enquête [En ligne], 1 | 1995, mis en ligne le 10 juillet 2013, consulté le 22 avril 2019.URL :http://journals.openedition.org/enquete/263
152Heinich, N. (2006). Objets, problématiques, terrains, méthodes : pour un pluralisme méthodique. Sociologie de l'Art, opus 9 & 10(2), 9-27. doi:10.3917/soart.009.0009.

[153]كما يذهب لذلك إدغار موران في تجاوزه،في انطلاقه من براديغم التعقيد (la pensée complexe) ، للتضاد بين الفرد والمجتمع أو كذلك نوربارت إلياس في مفهومه التشكُّل(La configuration)

الفاعلين مع اعتبار البحث الإتنوغرافي ثمّ التحليل السوسيولوجي انخراطا موضوعيّا لذات الفاعل الباحث في الحملة.

هكذا نُجيب عن أسئلة بحثنا بمُراوحة تحليليّةٍ بين ما هو نظريّ،بمقاربة إمبيريقيّة-استقرائيّة، وميدانيّة لنُحاول أن نصلَ لاستنتاجات قد تساهم في إثراء المعرفة السوسيولوجية حول ظاهرةٍ لا نعلم عنها ما يكفي لرفع هالة الغموض عنها من جهة، والخروج من "الدوكسا" التّي تسجن الباحث في أسرِ الماقبليات والفرضيات المثبتة دون بحث وتجريب من جهة أخرى.

I. في مفهوم الحركة الاجتماعية 17 ديسمبر2010 / 14 جانفي2011 :

حسب الباحث السوسيولوجي الفرنسي. المتخصّص في مُقاربة الحركات الاجتماعيّة"إريك نوفُو" لا يمكن ترسيم مفهوم واحد للحركة الاجتماعيّة لأنّ ذلك سيوجّه الباحث بماقبليّات ستتجاوزها الحركة لأنّها متغيّرة دائما حسب السياق الجيو-بوليتكي والثقافي والاقتصادي والاجتماعي وحسب حالة تشكّل العلاقات بين السلطة و الفاعلين المتعرّضين للهيمنة وبنية الفرص السياسيّة المتوفّرة. كما يذهب "ميلوشي" إلى اعتبار الحركة الاجتماعيّة نموذجا تكوينيا تحليليّا تجريديا وليست واقعا إمبيريقيا نفسر. من خلاله الفعل الجماعي كما يخبرنا عنه البحث الميداني.[154]

لذلك ننحو منهجيّا إلى بحث استقرائي انطلقنا فيه من ما هو ميداني إمبيريقي للتوجه في ما بعد لآخر المقاربات المعاصرة لتثبيت مفهوم يتماشى مع ما يمكن تسميته بحركة اجتماعية في تونس.

[154]Didier Le Saout, « Les théories des mouvements sociaux.Structures, actions et organisations : les analyses de la protestation en perspective », Insaniyat / إنسانيات, 8 | 1999, 145-163.

وبالتّالي، انطلاقا من تشخيصنا لما وقع بين 17 ديسمبر 2010 و 14 جانفي 2011 في فهم لا يُلغي أنّ هذه الفترة امتداد لأحداث الحوض المنجمي 2008 وبداية لسيرورة تَلَتْ هروب "بن علي"، نعتبر أنّ هذه الفترة كانت عنوانًا لحركة اجتماعيّة كشكل من أشكال الفعل الجماعي اشترك فيها مجموعة من الفاعلين جماعات وأفراد، ككُلٍّ متجاوز لتنوعّه الطبقي والفئوي، على تشخيص مشترك للواقع انتهى بتحديد وجود مشكل، المتسبب فيه أي الخصم والحلول والمطالب في تأطير /Framing يُكثّف من وجود قيم مشتركة تَجَلَّتْ في شعارات "الشعب يريد إسقاط النظام - شغل حريّة عدالة اجتماعيّة كرامة وطنيّة - بن علي Dégage..." شعارات توحّد تأويل الفاعلين لما يواجهونه وأين وكيف ولماذا، وكلّ ذلك في سيرورة تنشد صيرورة ألا وهي "الثورة".

إنّ عدم تحقّق الصيرورة الثوريّة لا يلغي عنها صفة الحركة الاجتماعيّة ولا نجاحها في تحقيق نوعيٍّ لكمٍّ من المطالب، (ونجاح أو فشل الحركة مربوط بتأويل الفاعل لتجربته فيها /بذاتيّة الباحث أو الفاعل أو الباحث-الفاعل أحيانا)، في سيرورة لم تنته بعد في تحقيق جزئي لمطالبها وذلك بتحولّها، (وذلك بِتغيّر أُطر/Frame تأويل فاعلين مهيمنين داخلها)، إلى حركة تفعل داخل مؤسسات النظام وخارجها بعد أن كانت قائمة على فاعلين مقصيّين من المنظومة قبل 14 جانفي 2011 صاروا بعد ذلك التاريخ،أو جزء مهمّ منهم، داخلها (المجتمع السياسي (الأحزاب)-البرلمان-الهيئات الدستورية-أجهزة الدولة)يمارسون فعلا جماعيّا مختلفا في أسلوبه لكنّه ينشد التغيير وإن كان هذا التغيير من الداخل مختلفا عن التغيير في الشارع.فالأهميّة الإستراتيجية للحركة الاجتماعيّة لا تُختزلُ فقط في ما تحقّقه من مطالب بل بالأساس في أفقها والصيرورة المنشودة من سيرورتها.

إذ على عكس الأحزاب السياسية التي لها أهداف تخصّها ولها تقاطعات ومصالح تحتكم إليها، فإن الحركات الاجتماعية تُمارس من خلال فعلها الاحتجاجي -مهما كان الشكل الذي أخذه- ما يُعرف بالـ"الميتا-سياسي" (Métapolitique)، فأهدافها لا تقتصر على مساءلة

الحكومة فقط في المسائل السياسية بل إنها تسعى إلى فرض تغيير أعمق يلمس جميع أوجه الحياة الاجتماعية وأولوياتها (التشغيل/ العدالة الاجتماعيّة-السيادة...).[155]

II. في محاولة نحت استقرائي لمفهوم الحملة:

نظريًّا، بالنسبة إلى "تشارلز تيلي" و"سيدنيتارو"، فإنّ الحملة هي مجهود عام جماعي دائم ومنظم يُعَنون ويوجّه مطالب جماعية لسلطات معينة ومراكز نفوذ وقوة داخل المجتمع في إطار الحركة الاجتماعية(Compagne du mouvement social)[156]. وتميل الحملات في المطلق، استنادا إلى فهارس ومراجع في أساليب الصراع السياسي، إلى جمع الإمضاءات والإعلان عن ملتقى شعبي ثمّ توقيع عريضة والدعوة إلى وقفات احتجاجية أو اجتماعات عامّة، بينما يعتبر الباحثان أن المظاهرات هي أكثر تمظهرات الصراع تطورا. وانطلاقا من هذه الأسس نتبيّن أن الحملة تجمع ثلاثة مكونات أساسية:

أولا، أولئك الذين يلتقون ويشكلون المطالب.

ثانيا، الذين تُرفع لهم هذه المطالب (الخصم).

ثالثا، جمهور معين يوجه إليه خطاب حامل للمطالب التي تهمه.

وهكذا، فإن التقاء مجموعة من المناضلين على تأويل معين للواقع والعمل بجهد ليلا نهارا، سيجعلهم يجمعون من حولهم الأنصار سواء في المظاهرات والوقفات أو في الالتزام حركيا على مستوى الممارسة التي تطرحها الحملة، مما يمكنها من الدوام والتواصل.

الحملة هي ذلك البراكسيس، حسب مصطلح غرامشي، أي الممارسة السياسية العملية لمجموعة من المهام التي يضعها مناضلون من أجل مطالب ما، في سياق معين، وبالاتفاق

[155]تشارلز تيلي- الحركات الاجتماعية 1768/2004- - ترجمة ربيع وهبة- المجلس الأعلى للثقافة-2005- القاهرة، ص 33

[156](Tilly et Tarrow ,Politique du conflit, , « 2009 » pp199.Ed : Sciences po. Paris)

حـول المنطلقـات والغايـات والأسـاليب ،والتواضـع عـلى حـدود زمنيـة ومكانيـة وتنظيميـة تحدد تمظهرات الصراع في محطة ما من سيرورة الحركة الاجتماعية.[157]

استقرائيا، في مراوحة منهجية ما بين النظري ونتائج البحث الميداني واستخلاصاً لأعمال سابقة، نستنتج المفهوم التالي للحملة:

"الحملة هي شكل من أشكال الفعل الجماعي الذي يمكن أن يكون في إطار سيرورة حركة اجتماعيّة.وهي، في السياق التونسي. منذ 14 جانفي 2011، حملة شبابيّة[158]،(في استبياننا و بحثنـا عـن معـدّل أعمـار فاعليهـا)، مندرجـة في نسـقِ بحـث فـاعلين منتمـين لشـتات المشتركين في تأطير/Framing "الشغل الحرية العدالة الاجتماعية والكرامة الوطنية " عن تفعيـل سـيرورة الحركـة الاجتماعيـة 17 ديسـمبر 2010 -14 جـانفي 2011 نحـو صـيرورة ثوريّة أو الإبقاء على مشروع هذه الصيرورة ممكنا بمقاومة سعي النظام لإعادة إنتاج نفسه .فهي شكل من أشكال البِنية/البنى النائمة (Abeyance structure)[159]. ومفهوم البِنية النائمـة هنـا نعـني بـه قـدرة الحركـة الاجتماعيّة،في سـيرورتها، عـلى الحفـاظ عـلى وجودهـا والديمومـة في الـزمن وسـط واقـع معـادٍ لهـا لا تتـوفّر فيـه بنيـة فـرص سياسـيّة تمكّنهـا مـن المواجهة فتلعب دور التمهيد للانتقال من فترة تحشيد نوعي للفعل الجماعي إلى أخرى عند توفّر الشروط الموضوعية والسياق المُناسبين.

فالحملة هي ذلك الحيّز التنظيمِي الأفقي المؤقت-أي أنها منطقة فعل تطفو فجأة في زمن مؤقت للصراع مع السلطة-الحيّز المحدد باشتغال إطار تأويلي مشترك لوضعية ما من قبل أفراد يعتبرونها وضعية "مشكلة" فيجتمعون في سياق معين لتحديد المشكل، طبيعته، المتسـبب فيه/الخصـم، الحـلّ والتكتيـك وإسـتراتيجية في المواجهـة/ في الفعـل الجمـاعي، وذلك في شكل تنظيمي شبكيٍّ أفقي يجمع ذوات مؤسسة مختلفة (متحزبة وغير متحزبة

[157] سُفيان جاب الله، الحملات الشبابيّة في تونس، في "سوسيولوجيا الاحتجاج والتنظّم". صفحات 40-41 .منظمة راج 2018

[158] سنُفسّرُ لمَ هي شبابيّة في العنصر الموالي

[159] Johsua, Florence. « Abeyance structure », Olivier Fillieule éd., Dictionnaire des mouvements sociaux. Presses de Sciences Po, 2009, pp. 17-23.

ومن كل الفئات) وينتشر بشكل جذموري[160] لا مركزي ولا هرمي، فتصبح الأطر التأويلية للحملة قابلة للتبني والمرور للممارسة من قبل أي فرد يتبناها، في أي مكان دون ارتباط تنظيمي مركزي عمودي بالحملة وذلك استنادا إلى برنامج عمل محدد بمهام على قاعدة أهداف محددة بتكتيكات واضحة. فهي حملة حينية سياقية مؤقتة،[161] (Ad hoc)تنتهي بانتهاء أسباب وجودها "

أ-كيفية خلق القرار داخل حملة أفقيّة[162]

إنّ القيادة في الحملة جماعية،. فهي ،في نموذج "مانيش مسامح"، ليست حملة تطلقها منظمات الفعل الجماعي بل أفراد يبادرون بشكل أفقي، على عكس "فاش نستناو" التّي أطلقها أفراد متحزبون.

الحملة شكل من أشكال التنظم المؤقت يُمارَس فيها الفعل الجماعي على مستوى القيادة وتؤخَذ فيها القرارات أفقيا. في هذا السياق يجيبني أحد المستجوبين **" الفكرة هي التي تقود وليس الفرد".** ينطلق هذا الجواب من إطار تأويلي للفعل الجماعي باعتبار أن الأفقية ردة فعل (بالنسبة إلى الشباب غير المتحزب) على ممارسة الديمقراطية بشكل عمودي مركزي فيه تسلط وتفرد في اتخاذ القرارات. تأويل يعتبر أن الأنا يجب أن ينصهر في أنا متعددة الذوات، لا في سلطة الأنا الجمعي. بمعنى، وكما يقول نفس المستجوب **"إذا كنا في اجتماع من اجتماعات الحملة ثمانية أفراد، فإن الفكرة هي تاسعتنا".** ينتج ذلك عن تفاعل الاقتراحات والخواطر والأفكار والتمثلات داخل الأطر التأويلية المختلفة وبذل

[160]مقابل النظام التراتبي الذي يفترضه مفهوم التشجير، حيث يُنظر إلى الشجرة باعتبارها جذرا وفروعا، جذعا وأغصانا، ماضيا ومستقبلا، ضد مفاهيم التكوين والنموّ والتاريخ والتطوّر، ومقابل الشجرة التي تشكل محورا تنتظم حوله الأشياء في دوائر، وتعيّن نظاماً من النقاط والأوضاع فتفرض منظومة تراتبية، وانتقالا لأوامر تصدر عن مركز وتعمل وفق ذاكرة استرجاعية تؤطر الممكن، ضد كل ذلك، يقوم مفهوم الجذمور الذي يعيّن عالما ترتد فيه حقيقة الأشياء إلى علائق وبنيات لا تحيل إلى حدودها المكوّنة، فتضعنا أمام شتات، أمام ترابط ظرفي لا يخضع لمبدأ قارّ. فالفكرة،فكرة الحملة مثلاً، هي لحاملها لا لباعثها فقط، و تتحوّل إلى فعل حيث تجد الظروف الملائمة دون علاقة عضويّة بمركز انبعاث الفكرة

[161] Ad Hoc : créée dans un but bien déterminé. Elle cesse d'exister dès que l'objectif pour lequel elle a été créée est atteint.

[162]سُفيان جاب الله، الحملات الشبابيّة في تونس، في "سوسيولوجيا الاحتجاج و التنظّم"..منظمة راج ، 2018، ص 60

مجهود جماعي لتوحيدها في تأطير تأويلي موحّد على مستوى الأفكار المستخلصة. فالفكرة النهائية هي فكرة الجميع وليست فكرة حصرية لأحد منهم، هي ناتجة عن جهد جماعي وإبداع المجموعة.

ب-كيف يتم ذلك؟

يتم توزيع المهامّ حسب الوقائع، أي أن كل واقعة تفرض اختيار الفرد الأقدر على المواجهة خاصة على مستوى الظهور الإعلامي، فلا وجود لناطق رسمي دائم. وهذا ما يعرف بـ "vote sans candidats " إذ لا يترشح أحد للقيام بمهمة، فالمجموعة هي التي تقترح وتتناقش لتنتهي بتوكيل مهمة لأحد العناصر. ولا تُتخذ القرارات بالاستناد إلى الأغلبية في صورة وجود اعتراض، بل عبر الحرص على النقاش كي لا يبقى أيّ عنصر.معترضا أو غير موافق. فإمّا أن يتم إقناعه أو أن يقنع هو الأغلبية. فهو بذلك جهد يتمثل في خلق جماعي للفكرة والقرار وخطة العمل.[163]

ج-أي مصير للحملات أم أي مصير للفاعلين داخلها؟

يذهب "تشارلز تيلي" و"سيدني تارُو" إلى ضرورة توضيح الفرق بين ما يُسمّيانه " La base du mouvement social " أي قاعدة الحركة الاجتماعية وهي مجموعة منظمات و فاعلي الفعل الجماعي ذوي رأسمال رمزي علائقي قيمي مشترك، و" La campagne du mouvement social" أي الحملة التّي تنتجها الحركة الاجتماعية وهي النضال المحدّد بمدّة ضدّ السُلطة القائمة باسم فئة مُهيمن عليها[164]. فالحملة ليست منظمة فعل جماعي

---

[163] المرجع السابق

164 (Tilly et Tarrow ,Politique du conflit, , « 2009 » pp197.Ed : Sciences po. Paris)

بل هي فعل جماعي تمارسه منظمة/منظمات وفاعلين. وبالتّالي فالحملة كحيّز تنظيميٍّ مؤقّت لا ينجرّ عنها إنتاج منظّمة في شكل حزب أو حركة إيديولوجيّة بقدر ما هي أرضيّة خصبة لجعل شتات من الفاعلين المتحزبين وغير المتحزبين يمارسون الفعل الجماعي في إطار أفقي محدّد في الزمان والمكان خدمة لسيرورة الحركة الاجتماعية من جهة، وتكوينا مستمرّا لقدرة الفاعلين ،المشتركين طبقيا/فئويا/فكريا وبالأساس على مستوى تأطير/ Framing الواقع،على خوص سياسة الصراع ضدّ عدوٍّ إستراتيجي مشترك للحركة.

د-لمَ هي شبابيّة وما معنى أن تكون كذل

ك؟

165

أن تكون شابا فذلك يعني أنّك كفردٍ ينظر إليه دوما على كونه سيرورة في انتظار صيرورة، زمن اجتماعي يسبق سنّ الاستقرار والثبات أو في مقاربة أخرى مجالا اجتماعيا هشًّا[166]، مشروعا ينتظر التحقّق. مشروع أب، مشروع مُنتج، إلخ... فالناشط السياسي في الحزب هو مشروع فاعل حزبي لا يصل لمراكز اتخاذ القرار ولا يرتقي،في هرميته، إلى مركزيته

165 ©NOUREDDINE AHMED
166 RENÉ, J. (1993). La jeunesse en mutation. D'un temps social à un espace social précaire. Sociologie et sociétés, 25(1), 153–171. https://doi.org/10.7202/001628ar

الديمقراطية التي يحتكرها المؤسسون والمموّلون الذين هم الأكثر استقرار على المستوى المهني الأكثر مراكمة للرأسمال الرمزي "النضاليّة"، للرأسمال الثقافي "الإيديولوجيا والشهائد" وبالأساس للرأسمال الاقتصادي . وكلّ هذه "الرساميل" لمراكمتها تتطلب، في مجتمعنا، سنًّا تتجاوز الأربعين عام.

لذلك تُنفّر الأحزاب، كمنظّمات فعل جماعي، الشباب وخاصّة أولئك الذين عايشوا 17 ديسمبر 2010 / 14 جانفي 2011 باعتبارهم يعتبرون كونهم فاعلين قياديين مؤثرّين في التحركات الاحتجاجية في الشارع (قيادة مظاهرات واعتصامات) وفي المقابل هم مجرّد ديكور أو ملء للفراغ بما يناسب داخل الأحزاب.

بالتّالي فالحملة كانت إبداعا شبابيا لشكل جديد من أشكال الفعل الجماعي يسمح لهم بالفعل والمبادرة والقيادة وتجديد فهرس الصراع باعتماد شعارات تتماشى مع ثقافة الأولتراس مثلا وأغاني الراب وحتّى إدراج نعوت بمعجم يُعتبر "بذيئا"، وبالأساس يسمح لهم بجعل إطار/Frame التغيير الجذري يُهيمن على ممارستهم العمليّة لما هو سياسي في تناقض مع جيل لا يرى تغييرا راديكاليا بقدر ما يبحث عن تحسين شروط الهيمنة. والحملة،بنفس المنطق، تُنفِّرُ من ليسوا في سنّ الشباب لكونها، في خصوصيتها التونسيّة ما بعد 14 جانفي 2011، في منطلقات فعلها في خطابها وأسلوبها لا تتماشى مع التطبّع السائد لدى القوى المحافظة الكلاسيكيّة وسط الحقل الاحتجاجي، تطبّع لا يتنظّم أُفقيًّا في حيّز تنظيمي مؤقّتٍ لا هرميّة فيه ولا أغلبية تهيمن على أقليّة من جهة ومن جهة أخرى خطاب، على مستوى الشعارات خصوصا،لا ينهل من نفس "البيوغرافيا" [167] والمخيال والتنشئة ولا يخجل من أن يصمَ الخصم بكلام يعتبر بالنسبة للمحافظ بذيئا أو غير ملتزمٍ كشعار "هذي مش دولة هذي ضيعة محروس" أو "حكومة طحّانة" [168]وكذلك توظيف

[167] بيوغرافيا: هي كلمة غير عربية تأتي من الإغريقية: βιογραφία عن طريق اللاتينية: biographia) هي دليل قراءة السير الذاتية مع حساب زمني للتعليم والخبرات والمعارف العلمية والعملية والمراكز التي تحققت لصاحب السيرة

[168]لمزيد من التفسير لهذه الفكرة أُنظر سُفيان جاب الله، الحملات الشبابيّة في تونس؛ "السيستام طحّان"، في "سوسيولوجيا الاحتجاج والتنظّم، ..منظمة راج 2018، ص 57

أغاني وأهازيج "الأولتراس" وتقنيات/أدوات تشجيعهم مثل "الطنبور والفلام" وارتداء أقنعة "أنونيموس".

وانطلاقا ممّا سبق توضيحه ، فإنّ كلاً من "مانيش مسامح" و"فاش نستناو" و"باسْتَا"، هي حملات يمكن توصيفها بكونها مظاهر مختلفة لسيرورة واحدة، ألا وهي سيرورة الحركة الاجتماعية التي انطلقت بعد إحراق محمد البوعزيزي نفسه، سيرورة تتراوح فيها المحطات النضالية بين مد وجزر، بين الفعل وردة الفعل حسب تغير السياقات، وبالتالي حسب موازين القوى. محطات أثبتت أن إطار "المسار الثوري" كإطار تأويلي للواقع يرى الحركة مستمرة رغم ضعف الفعل الجماعي، فيحاول إحياءه في محطات مختلفة. هذا التأطير -أي تأويل الواقع انطلاقًا من إطار "السيرورة الثوريّة"-يحشد ذواتا متعددة نجدهم في حملة "مانيش مسامح" ثمّ "فاش نستناو" مرورا بحملة "باستا" . هذه الذوات المؤسسة للحملات والمؤثرة فيها شاركت -أو أغلب مؤسسيها- في الفعل الجماعي الذي نادى بإسقاط النظام منذ 17 ديسمبر2010، هذا ما جعلنا نبحث عن محاولة رسم "بورتريه" لهذا الفاعل اللاكلاسيكي وذلك حسب ما تمكّنَا من استقرائه من خلال البحث الميداني الذّي شمل الحملات الثلاث.

III. « بورتْريه» جماعي لفاعلي الحملات

هذا "نموذج" تقريبي تكثيفي غير اختزالي لسمات وخصائص وملامح الفاعل المؤثر والمحدّد[169] في الحملات الثلاث، قمنا ببنائه باعتماد تعدديّة منهجية بتنويع تقنيات جمع المعطيات منذ 2015 حتّى 2019 باعتماد تقنية الملاحظة الكميّة،الملاحظة بالمشاركة وكذلك باستمارات استبيان (أي ما يُطلق عليه كُوشوي مصطلح l'observiaire أي القدرة على مطابقة شبكة ملاحظات كميّة مع استمارة استبيان ذات مداخل

[169] حددنا أنه فاعل مؤثر بدوره في المظاهرات ومختلف التحركات، مدى حضوره الاجتماعات ونشاطه الفايسبوكي إلخ

متعدّدة[170])مكّنتنا من رسم خارجيّ لما سمّيناه،على الطريقة الصحفيّة، بـ«بورتْريه» الناشط المـــــؤثّرفي "مـــــانيش-مســـــامح/فاش-نســـــتنّاو-باســـــتا-يـــــزّيكم".[171]

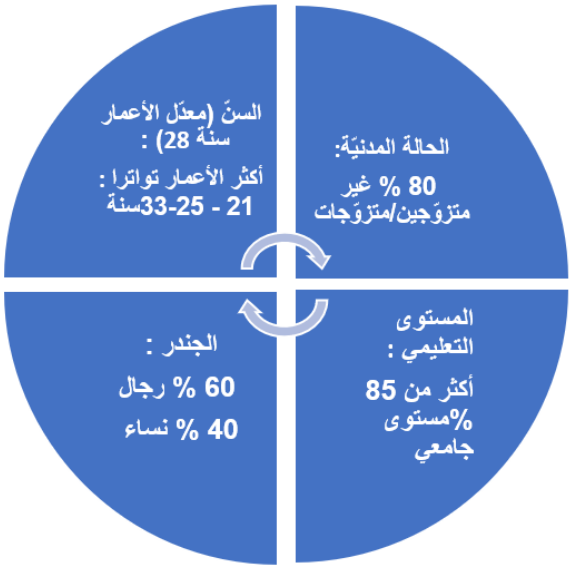

[170]Calvignac, C. (2015). À leur sac défendant, ou l'équipement des passant·e·s comme révélateur des rapports sociaux de sexe. Cahiers du Genre, 59(2), 173-194. doi:10.3917/cdge.059.0173.

171ملاحظة : 60 بالمائة من الفاعلين المُستجوبِين الذين كوّنوا قاعدة البيانات لهذا " البورتْريه" شاركوا في الحملات الثلاث.

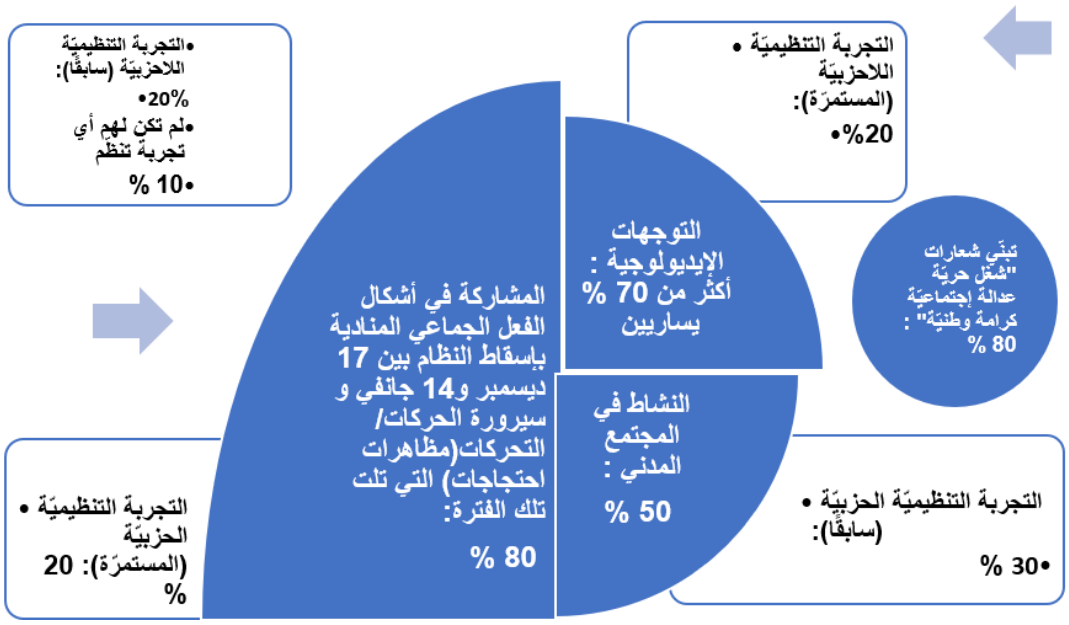

IV. -باستا : انتحار في المهد:أيّ درس يمكن استخلاصه من حملة "بَاسْتَا"؟ :

172

"باسْـتا" بالإيطاليّـة أو "يَكْـفِي" بالعربيّـة هي حملـة أطلقتهـا مجموعـة مـن الناشـطين السياسيين (متحزبين وغير متحزبين) كمبادرة لحشد فعل جماعي مطلبه إسقاط الحكومة وتحريك جزء كبير من الفئات الاجتماعية المتضررة (سياسيا ثقافيا وبالأخص اقتصاديا واجتماعيا) لتعلن أنّها اكتفت من كلّ الضرر الذّي تعرّضت له جرّاء منظومة المسار الانتقالي.

وأصل العبارة،"باسْتا"، لحركة "زاباتيستا" بالمكسيك « ¡Ya bastaj! » ورُفِعَت كشِعار للدعوة لتغيير سياسة الصراع الكلاسيكية (التحزب والانتخابات) وعدم نجاعتها في تحقيق تغيير لصالح المُهَيمنِ عليهم، أو كأنّ لسان الباعثين لمشروع الحملة (ثلاثة أفراد اختاروا اسم الحملة التقيتهم قبل إعلانهم عنها) يؤولون الواقع قائلين:

[172]©Inconnu

"كَفانا من سياسة الصراع ولنعُد إلى سياسة الحُلم. لِنَحلُم بالصيرورة تتحقّق دون الخضوع لسياسة صراع في إطار سيرورة تُملِي علينا ردّ الفعل لا الفعل. "

إذ يحدثُ أن تُصبح سياسة الصراع من أجل تحقيق الشعارات المركزية لحركة "17 ديسمبر/ 14 جانفي" قائمة على حقّ النفاذ إلى مجتمع الاستهلاك، لا الثورة على نظام اللاعدالة المؤسّس له.

فلم تعد الثورة "صيرورة" منشودة لسيرورة ما بعد 14 جانفي 2011، بل صار النفاذ لمجتمع الاستهلاك -عبر ما هو إصلاح مقنّن للمنظومة- صيرورة جديدة للسائرين في درب فعل جماعي عوّض مطلب إسقاط النظام بمطلب إصلاحه وجعله يمنح الفاعلين-ومن ينوبونهم - مكانا داخل مصفوفة (Matrice) الـ IN (الداخل)بعد أن ملّوا من كونهم Outsiders (خارجيّين) أبديِّينْ وذلك بعد تغيّر الوضعية الاجتماعية المهنية لطيفٍ كبير من مُناضلي اليسار بالأساس بعد تخرّجهم من الجامعة وكذلك بعد عفو تشريعي عام وتعويضات للمفروزين أمنيا بتوظيف في قطاع عمومي أو باستثمار رؤوس أموال رمزيّة علائقيّة أدخلتهم سوق المجتمع المدني. فصار من كانوا خارج سوق العمل داخله، وتغيّر وعيهم الفئوي والطبقي، وبالتّالي أثّر ذلك على أيّ صيرورة ينشدونها للصراع مع النظام من تغيير راديكالي عنيف إلى إصلاح سلميّ من داخل مؤسسات المنظومة القائمة.

يحدُثُ أيضاً أن "تنتحل" الدولة، (حسب تعبير أحدِ المُستجوبين)، صفة الديموقراطية والحرية والعدالة بفضل مسار انتقالي طهّرها من وصمة الاستبداد. مسار انتقالي أعطى لـ"النظام الحاكم" شرعية انتخابية تُبيح حظر الثورة وغضّ البصر عن مطالب العدالة الاجتماعية.

ففي عهد بورقيبة وبن علي قايض "النظام " المجتمع على حريته مقابل الأمن ودعم الطبقة المتوسطة وكفالة الفقراء، وذلك عبر وضع أسس دولة رعاية اجتماعية. أما الآن وبما أنّ التغيير لا يتمّ إلاّ عبر صندوق الاقتراع، والذي لا يفوز فيه سوى من يستأثر بالمال

والإعلام، فالسلطة لن تخدم إلا مصالح من أنتجها في مأمن تام من أي تغيير ثوري صار حدوثه فرضية تتماهى مع الخيال.

فتأطير/Framing "الحُلم" الذّي يُقارِبُ الواقع انطلاقا من أنّه يجب العودة لممارسة سياسة الحُلم التّي هيمَنتْ على السنة الأولى التّي تَلَتْ سُقوط "بن علي" أي، كما سمّاها "حكيم بايْ"، سياسة تتغذّى على الحلم و التمرّد على التكتيك والحسابات العقلانية في ممارسة الفعل الجماعي الذي ينشد تغييرا جذريا.سياسةٍ تعود للخيال، خيال لم تُصادره سيرورة الأحداث.

هؤلاء الفاعلون، في بعثهم لحملة "باستا" أرادوا العودة لمربّع 14 جانفي 2011 أي لحظة الـ chaos/الفوضى التي تلت تَرنُّحْ النظام، حيث مارسوا سياسة الحلم لا سياسة الصراع .حيث كان الشباب، الذي انخرط في الفعل الجماعي، لحظة الانسحاب التكتيكي للنظام بعد أن قدَّم قربانه للفعل الجماعي (القربان بن علي والحاشية)، وسط الحركة يمارس الحلم كإطار يؤوّل به الواقع، فقد كان بين واقع موصوم بالإقصاء والظلم واللاّعدالة وبين حلم ينشدون فيه الحرية والعدالة والكرامة.

إنّه تأطير وُصِمَ في ما بعد بأنّه ممارسة مثالية رومنسية افتقدت المرور للفعل المُنظّم تحت سياسة صراع تلتقف سلطة كانت مرمية في الشارع وتنتظر من له القدرة على قنصها. فهم لم يمارسوا سياسة الصراع واكتفوا بالحُلم لأن الحركة كانت مفتقدة لتنظيم جاهز، وإلى ميزان قوى في صالحه وسياق جيو-سياسي أيضا، وكانت مفتقدة لفهرس ممارسة عملية "براكسيس" يأخذ الصراع من جانبه الاحتجاجي المطلبي إلى ضفة التحقق عبر برنامج مهام واستراتيجيا وتنظيم للفعل الجماعي بغاية الوصول إلى النظام بعد إسقاطه، وذلك لغياب تنظيم قادر على ذلك.

لكن ما يفتقدونه اليوم هو تلك القدرة على الحلم التّي ضعُفَت بعد هيمنة سياسة صراع تقوم على مُقاربة براغماتية للواقع، للتنظم و للانخراط في سيرورة الفعل الجماعي الذّي لم

يعُد ينشد صيرورة ثوريّة بل إصلاحا لمنظومة العدالة الانتقاليّة. صاروا يفتقدون لممارسة تنطلق من Framing "الثورة "قائم على تأويل راديكالي للواقع بالسعي لتغييره جذريا.وكأنّهم يريدون العودة بالزَمنِ لمرحلة ما أسْموه بـ "الزخم الثوري" حيث كانوا يبدعون ويخلقون ويتخيّلون الفعل الجماعي كفعل ينشد التغيير الجذري.

أ-ثُوَّارٌ دون ثورة !

إن كان الباحث "آصف بيات" يتحدّث في مقولته "ثورة دون ثوّار"، عن غياب صياغةٌ فكرية لرؤيةٍ ثورية -أيًّا كان الشكل الذي ربما اتَّخذته-في ما حدث في "الربيع العربي" حيث لم تكن هناك رؤى بديلة للمؤسَّسات والعلاقات الاقتصادية الجارية في ظلِّ الأنظمة القائمة[173] فكانت ثورة في شروط حدوثها، لا ثورة في وجود فعل و فاعلين ثوريّين. فإنّنا في هذا المستوى من التحليل نتحدّث عن ثُوَّارٌ دون ثورة ! فوجود فاعلين برؤى "ثورية" بديلة للواقع والمنظومة القائمة في إطار مشروع تغيير جذري في سياقٍ كلّ ما فيه يُوحي لهم بتوفرِّ كلّ الشروط لاندلاع ثورة لكن دون حدوثها، جعل هؤلاء الفاعلين دون مكانٍ وزمان يمارسون الخيال دون القدرة على تحويله لفعل جماعي.أو، كما ذهب إلى ذلك "جون هولوواي" في كتابه "Change the world withouttaking power"[174]، إنّ الثورة ليست افتكاك السُلطة لإلغائها بل هي محاولة جعلها تتحلّلُ وتنهار لكن دون افتكاكها.فربّما هُم في نسق مماثل،عن وعي أو دون وعي، يبحثون عن جعل السُلطة تتعفّن بتراكم تناقضاتها لا لافتكاكها بل لبناء نظام على أنقاضها. فتصيرُ الثورة ديمومة معارك جزئيّة وكليّة، مختلفة ومتباينة في ديمومة فعل فردي وجماعي تجعل السُلطة تموت ببطء. ثورة لا تتطلّب ثورة !

ب-قانون "الثورة تأتي في الشتاء" !

173هبة خليل، حوار مع آصف بيات، موقع "مدى"،(2018) الرابط : http://v.ht/mGMJ

[174]John Holloway « Changer le monde sans prendre le pouvoir », éd. Syllepse-Lux, 2007"

إن كانت "مانيش مسامح" ردّ فعل على مشروع قانون المصالحة، و"فاش نستَنّاوْ" ردّ فعل على قانون الماليّة 2018، فعلى أيّ قانون ردّت حملة "بَاسْتا" الفعل؟

هكذا سألنا الفاعلين الرئيسيين في الحملة و هكذا اشتركوا في الإجابة:

« كلّ الظروف مُواتية !إنّه الشتاء؛ تعوّدنا أن يثور الشعب في الشتاء، في تلك الفترة شعرنا أنّ التاريخ قابل لإعادة نفسه ..إنّه جانفي شهر الثوّار !»

تكرّر هذه الإجابات حول اعتبار فصل الشتاء[175] برمزيّته التاريخيّة،رمزية 17 ديسمبر 2010 /14 جانفي 2011 وانتفاضات قبل هذه التواريخ، وبطقسه الذي يؤثر على المناخ النفسي. للمتعرضين للظلم والهيمنة فصلا منتجا للفعل الجماعي ، جعلنا نفكّكها في إطار تحليل نقديّ لدلالات ومعاني هذا الخطاب.

فهل أنّ فصل الشتاء بتكرّر وانتظام حدوث أحداث احتجاجية كلّ سنة فيه صار خاضعًا لقانون "ثورة تأتي كلّ شتاء"كما تخضع الطبيعة لقوانينها؟ هل صار الفاعلون يؤمنون أنّ ظواهر المجتمع كما ظواهر الطبيعة حتميّة الحدوث عبر علاقة سبب-نتيجة أي أنّ توفرّ شروط معيّنة يُحتّم حدوث حدث معيّن وأنّ الاحتجاج خارج عن إرادة الأفراد ويأتي إليهم كواقع ينتجه لا علاقة لذواتهم به؟ ؟

بالتّالي حملة باستا وكأنّها -وكأنّ"باعثيها"- من أنصار مقاربة وضعيّة تحديديّة تفسيريّة سببيّة للظواهر الاجتماعية يعتبرون أنّه توجد قوانين يخضع لها المجتمع وباكتشافهم لها يمكنهم إنتاج حركة احتجاجية أو حركة اجتماعية تصير ثورة فقط بتشخيص للواقع يعتبر الهشاشة الاقتصاديّة بغلاء الأسعار والبطالة وخاصّة قدوم الشتاء مع ضعف النظام هي أسباب ستُنتج (علاقة سبب-نتيجة أو مثير-استجابة) تحرّكا للجموع لإسقاط النظام.

هذه الحملة لم تقم على اقتناص فرصة سياسيّة والتعامل معها حسب حجمها كما فعلت حملة "مانيش مسامح" و"فاش نستناو" بسقف مطالب مرتبط بالمدى الذي تتيحه

[175] هو فصل،و شهر ديسمبر بالتحديد، العطل المدرسية و الجامعية.

الفرصة الـتّي قـدّمها الخصـم بـل قامـت عـلى اعتبـار وجـود منـاخ ملائـم لحشـد الأفـراد للاحتجـاج الـذي لا سـقف لمطالبـه. كمـا أنّها،حسـب الملاحظـات الإتنوغرافيّـة ومقابلـة نصف-موجّهة مع مؤسّسها، بدأت بمحاصصة حزبيّة في تركيبتها ذلك ما أنتج صراعات على قيادتها والتحدثّ باسمها قبل حتّى نزولها للشارع.

٧. "دياكرونيا الحملات" :

أ-في تشكلّ معقدٍّ لكيان الحملات :

في تحاليل الجيو-سياسة، دراسة "الدياكرونيا" هي تحليل التطوّرات التّي تطرأ على وضعيّة، ثقافة، مجال أو مجموعة عبر الزمن وذلك على أمد قصير أو متوسط أو طويل. فأيّ تطوّرات يمكن مُقاربتها على مستوى الحملات منذ "مانيش مسامح" (2015) وصولا إلى "باستا (2019)"؟

تطوّر إنتاج الفاعلين للحملة كشكل فعل جماعي بتطورّ مسار الانتقال الديمقراطي وخاصّة التشكلّ المعقّد لعلاقات السلطة بعد انتخابات 2014، فلم تعد الحملة مجرّد شكل احتجاجي أبدعه فاعلون في سياق معيّن بل تحوّل إلى تكتيك في إطار إستراتيجيا لإعادة إحياء المسار "الثوري" بالسعي للحدّ من تقهقر قوى اليسار عموما والبحث عن خطّ دفاع يسمح بعكس الهجوم حين يتوفّر السياق المناسب.

بمعنى أنّ الحملة كممارسة أفقيّة في تنظيم الفعل الجماعي هي "براكسيس" أو ممارسة عملية للفعل الجماعي لذوات متحزبة وغير متحزبة تؤمن باستكمال مسار ثوري لحركة اجتماعية حاصرها المسار الانتقالي. بمعنى أن الأفقية ليست تنظما أفقيا بقدر ما هي إستراتيجية لتجميع وإعادة حشد الفعل الجماعي بتأطير تأويلي للواقع يعتبر الحركة الاجتماعية في أفول، فالمركزية الديمقراطية كتنظيم عمودي لأغلب التنظيمات المتحدثة باسمها (خاصة اليسارية) عاجزة عن تحريك الشارع، وبالتالي تمارس الأفقية كتكتيك

مرحلي يجمع الذوات والمجموعات والتنظيمات التي تعبر عن ضرورة استكمال المسار الثوري للحركة الاجتماعية 17 ديسمبر/ 14 جانفي، والمتناقضة بسبب صراعات إيديولوجية أو على مستوى التكتيك والإستراتيجيا، وذلك لرد الفعل في ظل حالة من الجزر يشهدها الفعل الجماعي.[176]

يمكن القول أنّ حملات "مانيش مسامح -فاش نستنّاو-باسْتَا" هي حملات أُفقية شبابية يساريّة تجمع بين شباب متحزب وغير متحزب، ينتمون للطبقة الوسطى، شاركوا منذ 17 ديسمبر 2010 وصولا لـ 14 جانفي 2011 أو انطلاقا من مرحلة ما بعد هذا التاريخ في سيرورة للحركة الاجتماعية 17 ديسمبر- 14 جانفي، متبنين لشعاراتها المركزية "شغل حرية عدالة اجتماعيّة كرامة وطنية" .

لكنّهم مُنقسمون/انقسموا لتوجّهين رئيسيّين: الأولّ فيه من ينشدون الصيرورة الثوريّة بإسقاط فعليٍّ للنظام وبذلك ينخرطون في إسقاط مشاريع إعادة إنتاجه لمنظومة ما قبل 14 جانفي 2011 بقانون المصالحة و قانون الماليّة وتوجهاته السياسية ومختلف خطواته تشريعية كانت أو تنفيذية يرَوْن فيها تهديدا لمُكتسباتِ ما مضى. في سيرورة الحركة، وما ينشدون صيرورته. والثاني ينطلق من تأطير براغماتي للواقع باعتبار أنّ التغيير لن يحدث إلاّ من داخل مسار الانتقال الديمقراطي-العدالة الانتقاليّة (ارتباط اسم حملة مانيش مسامح بهيئة الحقيقة والكرامة) وبتحسين شروط الهيمنة وذلك بدخول لعبة الديمقراطية التمثيليّة تحت طيف اليسار (ارتباط حملة فاش نستناو بحزب العمّال).

ب-ليسوا ثوّرًا إنّهم رجال مطافئ !

هكذا يصمُ أحد المُستجوبين[177]، من أنصار التأطير Framing الثوري، التوجّه الذي اختار صيرورة الديمقراطية التمثيلية التي أنقذت، حسب رأيه، النظام السابق وأعادت إنتاجه انطلاقا من المجلس الأعلى لتحقيق أهداف الثورة والمجلس التأسيسي.

---

[176]سُفيان جاب الله، الحملات الشبابيّة في تونس، في "سوسيولوجيا الاحتجاج والتنظّم". منظمة راج 2018

[177]ناشط في حملة "باسْتا"

هم، في تأويله للواقع، رجال مطافئ يخرجون لإخماد نار الثورة في كلّ شكل من أشكال الفعل الجماعي خاصّة في الحملات، حيث يرفضون المرور للعنف مع البوليس ويهادنون الإسلاميين لكسب ودّهم البرلماني تارة أو لحسابات سياسيّة تارة أخرى.

وفي ملاحظات إتنوغرافيّة أسوقها في هذا الإطار لوقفة احتجاجيّة لحملة باستا انتهت بمظاهرة شارك فيها العشرات، حرص فيها ناشطون يساريون كانوا متحزّبين سابقا على منع المتظاهرين من التوجه لوزارة الداخلية وخاصّة عدم الاصطدام بالعازل البشري البوليسي. ممّا سبّب سوء تفاهم بين أفراد الحملة.

وما يمكن فهمه في هذه الحادثة بربطها بعديد الملاحظات السابقة وجود كمّ نوعي من الناشطين المغادرين لتنظيمات يسارية سابقة، (يتراوح سنّهم بين 30 و 36 سنة وشارك أغلبهم في النضال السياسي السرّي في عهد "بن علي") ، يبحثون عن موطئ قدم داخل أشكال الفعل الجماعي الجديدة التّي توفّر لهم كشباب فرصة عمل سياسي على عكس الأحزاب التّي هجروها إمّا قسريا أو إراديا لكن بتصوّر مختلف للحملة كشكل من أشكال الفعل الجماعي على المستوى التكتيكي (طرق تنظيم الاحتجاج وممارسة الأفقية)والإستراتيجي (الهدف من الحملة وماهيّتها) وباستبطان دائم لتطبّع سياسي موروث من النشاط في حقل سياسي تهيمن عليه الديمقراطية المركزية والهرميّة والعلاقات العموديّة ممّا جعلهم يجدون إشكالا حقيقيّا في النشاط داخل حيّز تنظمّي أفقي لا قيادة فيه ولا "ماكينة" صراعات على الشاكلة الحزبيّة تُشغّله.

VI. كيف ولماذا: كيف تُبعثُ/تنبعث الحملة كفعل جماعي ولماذا؟

أن نفهم لماذا (الأسباب) وكيف (منطقيات ومعاني الفعل الذاتية وكيفياته) ننخرط في فعل جماعي، بالتحديد الحملات، فذلك يتطلب دراسات علمية معمقة. لكن ما نبحث عن مقاربته في هذه السطور هو بحث في إحدى زوايا النظر الممكن من خلالها تحليل هذا الانخراط.

بالتّالي ننطلق من سؤال إشكالي:هل يمكن حشد الناس إذا أراد البعض ذلك أو اعتقد أن الأوان قد حان؟ هل يمكن، فقط بتوفر الشروط الموضوعية للفقر والتهميش والبطالة وغلاء الأسعار، نزول الناس للشارع أفواجا أفواجا لإحياء رميم الحركة الاجتماعيّة ناشدين صيرورتها الثورية ؟؟

تذهب أشد المقاربات السوسيولوجية الأميركية براغماتيةً (المقاربة البنائية التأطيرية لدافيد سنو) إلى أنّ الشروط الموضوعية (اقتصادية واجتماعية) لـ"اللاعدالة" التي توجد في وضعية ما، لا تكفي لحشد الجموع من أجل فعل جماعي ضد هذه الوضعية. فمن أجل أن يحدث المرور النوعي من وضع "قابل للتحريك" إلى "متحرك"، أو من قابل للانخراط إلى منخرط، يجب على الأفراد المعنيين بخلق الفعل الجماعي أن يتفقوا ويجتمعوا أساساً على ثلاثة محددات جوهرية، وهي: وجود مشكل وتحديد المسؤولين عنه؛ تحديد الآليات والوسائل الناجعة والضرورية للفعل ومواجهة الجهة التي تسبب/تمثل المشكل؛ ثم الإيمان/الاعتقاد بالقدرة على الفعل وضرورة الفعل، وإمكانية التغيير والانتصار.

بالتالي، إنّ الوعي بكيفية اشتغال منظومة الضَيم بمختلف أشكاله، بما هو تنشئة متفردة، باعتباره نتاجاً لتجارب وجودية تنحت مواقف نقدية ومسارات تتحقق فيها ذوات مختلفة عن أغلبية المجتمع الخاضع للمعايير السائدة، ليس أكثر الأشياء توزيعاً عادلاً بين الأفراد، بل أكثرها نُدرة[178].

إذ يذهب ''أولسن'' إلى تفسير عدم الانخراط في الفعل الجماعي بالنسبة للمعنيين به مباشرة (مثال الاحتجاج على: واقع الهشاشة الاقتصادية بالنسبة للطبقات المتوسطة والفقيرة؛ التمييز السلبي في التنمية ضد الجهات الداخلية؛ بطالة أصحاب الشهادات العليا)، بأنهم يقومون بحساب نفعي لمدى الربح/الضرر الناجم عن المشاركة في الاحتجاج من عدمه، وكيفية ذلك.

[178]سفيان جاب الله، نضال الحقوق الاقتصادية والاجتماعية، موقع المراسل (2018) الرابط:http://v.ht/BxNX

[179]

كأنّ الاحتجاج « فرض كفاية[180] » ، إذا قام به البعض، سقط وجوبه عن البعض الآخر. فإذا كان الفرد المتضرر من البطالة متأكداً من أنه إذا ما نجح الفعل الجماعي من دون مشاركته، سيمكنه من الانتفاع بثمار نضالات الأقلية المتنظمة سياسياً في صراعها مع الحكومة، وأنه سيكون في مأمن من الصراع مع البوليس، ومتمتعاً بوقته، فإنه في كل الحالات سيكون مقبلاً على الربح ومنسحباً من الهزيمة. فرد "فرداني" ينتظر الآخرين للقيام بالفعل الجماعي ويقتسم معهم الربح ويضمن سلامته من الضرر.

فالفرد المتضرر من نمط الإنتاج الاقتصادي ومنوال التنمية في تونس، وأمام الصراع الذي تخوضه أقليات تنظيمية، إنْ لم يكن حاملاً لتجربة/لوعي سياسي يمثّل إطاراً تأويلياً للواقع بالنسبة له (كما هو الحال بالنسبة للمتحزبين أو ناشطي المجتمع المدني)، فلن ينخرط في النضال من أجل الحقوق الاقتصادية والاجتماعية، وذلك بسبب قيامه بعملية حسابية للمجهود الذي سيبذله في مقابل الربح الذي سيأتي، به أو من دونه، في حال الانتصار، وبالتالي سيتفادى جهداً ضائعاً أو ضرراً من الصراع مع السلطة.

[179]©HediaBaraket. « Tunisie : Parole de « révolu lucides ».in Nawat.org

[180][180]سفيان جاب الله، نضال الحقوق الاقتصادية والاجتماعية، موقع المراسل (2018) الرابط:http://v.ht/BxNX

إن كان الواقع المتسّم بالإقصاء واللاعدالة لا ينتج، في علاقة ميكانيكيّة بافلويّة (مثير-استجابة) وسببيّة (سبب-نتيجة)، فعلا جماعيًّا محتجا ومطالبا بتغيير هذا الواقع في إجابة عن تساؤل تفسيري عكسي. "لماذا لا تحتجّ الأغلبيّة ضد منظومة تهيمن عليها". فكيف يمكننا، بنفس هذه المقاربة، أن نفهم انخراط الأقليّة، وفي موضوع هذه الدراسة، أن نفهم انخراط الشباب الفاعلين في الحملات في فعل جماعي في واقع تستقيل فيه الأغلبيّة ؟

انطلاقا من «البورتْريه » الذّي رسمناه للفاعل في الحملة ثمّ بجعل معطياته الكميّة تتقاطع مع المعطيات الكيفيّة التّي أنتجتها مقابلات نصف موجّهة وملاحظة بالمشاركة، يمكننا محاولة فهم انخراط هذا الفاعل دون غيره في فعل جماعي مماثل. إذ يشترك هذا الفاعل مع مئات الآلاف من الشباب التونسي في معايشته لمرحلة 17ديسمبر 2010 / 14 جانفي 2011[181]أي مع نفس "الكوهورت"[182] أي مجموعة الأفراد الذي عايشوا معًا حدثا معيّنا في فترة محدّدة، والسيرورة التّي تلتها في سنٍّ تتراوح ما بين 18 و23 سنة". يشتركون في عدّة متغيّرات كالمهن (طلبة أو عاطلون عن العمل أو موظفون جدد في القطاع العام أو الخاص) والمستوى الدراسي (التعليم الجامعي) والانتماء لطبقة متوسّطة والعزوبيّة . لكن هذا الاشتراك في الواقع الموضوعي لم ينتج نفس المسارات حيث لم ينخرط إلا مئات الشباب في الحملات كردّة فعل على هذا الواقع. لذلك، وفي تأويل متواصل لنفس البورتريه، نجد أنّ فاعلي الحملات يختلفون عن باقي المُنتمينَ لنفس "الكُوهورت" في بيوغرافيا التقائهم، في محطات مختلفة من حياتهم، بخطابات إيديولوجية لمنظمات فعل جماعي مختلفة (مثال : الاتحاد العام لطلبة تونس : الأطراف الإيديولوجيّة (شيوعيين وقوميين) المهيمنة داخله) ولقابليّتهم المخصوصة لهذا النمط من الخطاب في سياقات معيّنة.

[181]Université de Sherbrooke, Québec, Canada. « Perspective monde » [En ligne] http://v.ht/XDlG (consulté le 23/04/2019).

[182] https://www.psychologies.com/Dico-Psycho/Effet-de-cohorte

هُنا نتحدّث عن تفاعل مختلف العوامل المتدخّلة (الذاتيّة والموضوعيّة) وذلك ما ذهب إليه كلّ من "إسحاق توماس" و"توماس وفلوريان زْنانيَاكِي" في مُؤلّفهم الشهير "المُزارع البولوني". حيث أكّدوا على أنّه في إطار وجود تفاعل دائم ومُتواصل بين الفرد ومُحيطه لا يُمكن الجزم بأنّ الفرد هو نِتاج للوسط الذّي ينشأ فيه ولا أنّه هو المُنتج لهذا الوسط، بل بالأحرى المُحيط يُنتج الفرد الذّي ينتجه بدوره. فالفرد نِتاج لقدرهِ ومُنتجُ له.فالأفراد (وهنا نتحدّث عن الذين لهم نفس الخصائص بانتمائهم لنفس الوسط الاجتماعي ومُعايشتهم لنفس الوضعية السياسيّة الاقتصادية والاجتماعيّة)، ومواصلة لهذا الاستقراء،يفعلون ويردّون الفعل بطُرق مختلفة حسب تمثّلاتهم للوضعيّة التّي يعيشونها.هذا ما يُسمّيه "إسحاق تُوماس" "تعريف الوضعيّة" وما يُطلق عليه "مِرتون" مصطلح "نظريّة ثوماس" حيث ينبني مفهوم قائم على اعتبار أنّ التمثّل الّذي نصوغه حول وضعيّة ما يُساهمُ في تكوين هذه الوضعيّة[183].

بالتّالي نخلص إلى أنّ الواقع ليس هو من يحدّدُ انخراطنا من عدمه **بل علاقتنا بهذا الواقع** بما هي علاقات استبطان متعدّدة حسب سيرورات تنشئة مختلفة تجعل نفس الواقع الذي يعيشه آلاف الأفراد لا يخضِعُهُم جميعا لنفس المصائر والملاذات وينتج ردود فعل مختلفة.

خاتمة :

في ختام هذه الورقة، ونتاجا لسيرورة الاستقراء المنهجي، ما بين النظري والإمبيريقي، لسيرورة الحركة الاجتماعيّة 17 ديسمبر 2010 / 14 جانفي 2011 نحو صيرورة ثوريّة منشودة بتحقيق مطالبها الإستراتيجيّة المركزيّة ألا وهي "الشغل-الحريّة- العدالة الاجتماعيّة-السيادة الوطنية"، نتخلّص لكونِ الحملات الشبابيّة، بتنظُّمها الأُفقي

[183]Weinberg, A. (2000). Le paysan polonais, itinéraire d'un migrant. Sciences Humaines, 108(8), 34-34.https://www-cairn-info-s.sargasses.biblio.msh-paris.fr/magazine-sciences-humaines-2000-8-page-34.htm.

الجـذموري المؤقَّـتْ، تكتيـك مـرحليّ ينـدرج في إطـار اسـتراتيجيا ردّ الفعـل ضـدّ اشـتغال ميكانيزمات إعادة إنتاج "سيستام" ما قبل جانفي 2011 من جهة، ونفور من جسد سياسي ديمقراطي تقدمّي "يساري" أمرضته المركزية الديمقراطيّة والهرمية والعموديّة والاحتكار واللاديمقراطيّة في تسيير فعله الجماعي من جهة أُخرى. وذلك في سياق يشهد شتات منظمات الفعل الجماعي المكوّنة لقاعدة هذه الحركة وكذلك لفاعليها المؤثرين وعدم قدرتهم على تكوين قوّة سياسيّة جامعة يُمكنها تحقيق مطالبها في ظلّ المسار المُتشكّل منذ حوار 2014[184] وحتّى قبل ذلك التّاريخ.

وبالتّالي فآفاق التشبيك بين شتات الفاعلين أفرادا ومنظمات وتجارب من أجل صيرورةٍ تنتقـل بمختلـف أشـكال الفعـل الجمـاعي مـن النضـال إلى التحقُّـق كـأُفقٍ لهـذه القراءة/الاستقراء، هي آفاق تُقرأُ في سياق تطوّرها وفي سيرورة تشكلٍّ معقّد، في سياق مخصوص، لعلاقات ترابط متبادل بين جهود ومساعٍ ومصالح فرديّة وجماعيّة غير متجاوزة لمجموعها بل ناتجة عنه. فالصيرورة ليست خارجة عن إرادة الفاعلين بل هي نتيجة سيرورة أفعالهم.فـ « نُضجُ» الحركات الاحتجاجية، أو بالأحرى نُضج أشكال الفعل الجماعي باختلاف أشكالها وتعدّد وتنوعّ وتغيّر فاعليها، رَهينُ قدرتها على المُراوحة بين سياسَتَيْ الحلم والصراع. الحلم باعتباره يمنح الأمل في ظلّ واقع الديستوبيا[185]، باعتبار أنّ الأمل، الحلم، الخيال، انتظار التحقّق والسعي إليه هي مكوّنات "اليوتوبيا" [186]التّي من دونها لا وجود لأيّ مشروع سياسي. والصراع باعتباره تكتيكا واستراتيجيا في إطار ممارسة عمليّة بمنطلقات وأساليب وغايات، مُراوحة قادرة، في تصوّرنا، على جعل الصيرورة الثوريّة المنشودة ممكنة التحقّق في حال الاتّعاظ من تجارب سابقة وراهنة داخليًّا وخارجيّا لعلّ أبرزها تجربة السترات الصفراء في فرنسا والتّي أثبتت موت الفاعل الكلاسيكي المُعرّف

[184]الحوار الوطني الذّي بعثته المنظّمات الأربع "الاتحاد العام التونسي للشغل-منظّمة الأعراف-الرابطة التونسيّة للدفاع عن حقوق الإنسان و هيئة المحامين" و الذّي نقل الحكم من النهضة إلى حكومة تكنوقراط قبل انتخابات 2014.

[185]و هي بالضد من ملامح اليوتوبيا حيث الشرور والخبث وتفاقم الفساد وشيوع الكآبة إضافة إلى انتشار الفقر والعوز والقحط والمظالم الجمّة وكل ما هو قاتم ومكدّر

[186]كلمة يوتوبيا "Utopie" هي كلمة لاتينية "تحيل على مجتمع سياسي ذي نظام مثالي، أو على أرض أو وطن خيالي، ويكون هذا التصور مثاليا ونهائيا

بـالألف واللام(التعريـف الإيـديولوجي والحـزبي والنقـابي) ووِلادة فـاعلين جُـدد مجهـولين قـادمين من بين الحشـود التّي اعْتُبِرت أغلبيّة صامتة غير واعية ولا قـدرة لها على خـوض غمـار الفعـل الجمـاعي لأنّ لا مـاضي نضـالي لهـم ولا منطلقـات إيديولوجيـة. فـاعلون جُـدد يختلفون في أساليبهم (الأُفقيّة والجذموريّة) وغاياتهم من حيث تبنّيهم لمطالب مُلغّمة ما أن يُضغط عليها،بالرفض أو القبول، حتّى تنفجر منتجة واقعا مغايرا لما كان سائدًا.فاعلِينَ، كفَاعلي الحركات الاجتماعيّة الجديدة، قادرينَ على التغيير.

مالك زغدودي - باحث ماجستير في الفلسفة

الاحتجاج الفني، استقراء في تجربة كتيبة المهرجين الناشطين باعتبارهم أحدالفاعلين الجدد.

ملخّص

حاولنا في هذه الدراسة استقراء هذا الفاعل الجديد، الذي أدخل معطيات وآليات جديدة، أدخلت على فهرس الاحتجاج والفعل الجماعي في تونس. وانطلقنا في هذه المحاولة الاستقرائية بجملة من الأسئلة التالية :

كيف ظهرت كتيبة المهِرجين الناشطين داخل الحقل الاحتجاجي في تونس ؟

لما ظهر هذا النوع الاحتجاجي الجديد؟

وكيف تؤول كتيبة المهرجِين الناشطين نفسها داخل الفعل الاحتجاجي؟ (بمعنى هل هي تعتبر نفسها فاعلا أساسيا، أم مجرد فاعل ثانوي يساعد على حشد المتظاهرين لا أكثر؟)

وأخيرا ماهو أفق هذه المجموعة الاحتجاجية (التى تبنت نوعها الخاص، وهو الاحتجاج الفني) .

Abstract

In this study, we tried to extrapolate/explore /examine this new actor, which introduced new data and mechanisms in which also was included in the catalog of protest and collective action in Tunisia .

We started in this inductive/empirical attempt on a number of the following questions:

How did the brigade of activist clowns appear active in the protest field in Tunisia?

Why did this new type of protest emerged? And how does the activist clowns' brigade interpret its involvement in the act of protest? (In other words, does it consider itself an essential actor, or merely a secondary actor who helps to rally the demonstrators only ?)

Finally, what is the future of this protest group (which adopted its own kind, the artistic protest**).**

ينبغي أن نكفّ عن إرهاب الكلمة. ليوتار

كلنا وسطاء، مترجمون .جاك دريدا

مشهد وصفي لأحد المهرجين في مظاهرة 9 أفريل 2012:

فرد، بلباس مُهرج، يركضُ عكس اتجاه حشود المتظاهرين الهاربة من رجال البوليس، بل بالعكس إنهُ يتجه نحوهم (يا لها من جرأة!)، بملابسه الملونة وأنفه الأحمر البارز، وقبعته الخضراء الضخمة، وهو يركض نحو رجال الشرطة. ذُهِل أفراد البوليس (أعتقدُ أنهم يخافون من الألوان). هذه أول مرة يجدُ البوليس نفسه، في مواجهة مُهرج. وعلاوة على ملابسه الغريبة، كان يحمل مُبيد حشرات في يده، ويرشهُ نحوهم مع حركات ساخرة يقوم بها ومشاكسة مستمرة، لقد أصابهم الذهول التام، غرابة مرسومة على وجوههم، كأن لسان حالهم يقول: لم نفهم شيئا. لقد تهشمت هيبتُهم، لقد صودر منهم كل العنف الرمزي. الرجال ضِخام الحجم، بملابسهم السوداء لم يعرفوا حتى التعامل مع المُهرج، إنه يسخر منهم ويستفزُهم، لقد كان بعضهم يضحك (هل داخل رجل البوليس أيضا طفل صغير؟). كم كان المشهد سُرياليا أن تُبخ بمُبيد حشرات كأنك حشرة كبيرة، وتضحك ولا تعرفُ حتى كيف ترد الفعل (السلطة عاجزة، السلطة نكتة مضحكة) .كل تلك السّتُر البشرية من رجال الأمن، والحواجز الحديدية لم تتمكن من ضبط ومراقبة أو معاقبة مُهرج على ما قام به من فعل شديد الجرأة بالعبارة الفُوكووية[187] لم يتمكن كل هذا العدد الكبير والكم الهائل من الرجال والحواجز، من السيطرة وضبط الفضاء العُمومي .لقد كسر المهرج حاجز الخوف، وهشم صورة البُوليس القوي والمُتغطرس، الذي لا يهزم. وحرر الفضاء العُمومي من هيمنة السلطة، إنه يسرق المجال ويجعل السلطة عاجزة لا تحرك ساكنا.

[187] ميشيل فوكو، المراقبة والمعاقبة، ويفحص الكاتب الآلية الاجتماعية والنظريات وراء الاختلاف الرهيب بين نظم العقاب في العصر االحديث ويفسر أنواع السلطة وطريقة المراقبة والأنماط السلوكية وطرق العقاب وأنواعه.

ذلك المُهرج فكك أساليب التحكم للسلطة، وجعل منطق القوة عاجزا أمام فعل الاحتجاج الساخر والضاحِك بوعي نقدي. لقد انتصرت الدهشة والألوان، على الخوف والنظام، وحرر الجسدُ المتخفي وراء مكياج المُهرج نفسهِ من قبضة السلطة، وشهدنا نوعا جديدا من الأشكال الاحتجاجية، وفاعلا مبتكرا في الحقل الاحتجاجي .كنت حاضرا/ مشاركا ، كنت حاضرا على أول هزيمة، برفع العلم الأبيض لرجل الشرطة المتسلط المتجبر، كنت شاهدا على بوليس يرشُ بمبيد حشري ويبتسم !! .

لقد كانت السلطة تحت وطأة السخرية لأول مرة.

تجربة هالة ظاهرة ما، تعني استثمارها مع إمكانية إعادة النظرة "فالتير بنيامين"

الاحتجاج الفني، في سياق الثورة، الانتفاضة أو المسار الثوري" كلها أسماء وعناوين مختلفة، لنفس الحالة التي لم يكن ما قبلها، كما بعدها. نحن هنا نبحثُ بين الألوان في الوجوه المبتكرة التي لن تفهمها من النظرة الأولى، إنها وافد جديد على الحقل الاحتجاجي، وفعل لم يدوّن سابقا في فهرس آليات الاحتجاج.

ربما ذلك المهرج الذي نزل إلى الشارع في مظاهرة 9 أفريل الشهيرة من سنة 2012 لم يكن منتظما داخل إطار حزبي أو جمعياتي، أو منخرطا في كتيبة المهرجين الناشطين " Brigades des clowns activistes"، لكنه بصورة أو بأخرى عبّر عن ولادة فاعل احتجاجي جديد سيخلق في أفق ليس بعيدا جدا زمنيا فاعلا منظّما يسمّي نفسه كتيبة المهرجين الناشطين. وهنا من خلال كوني باحثا مشاركا واكبتُ في البداية تأسيس هذه الكتيبة الفنية من زاوية ملاحظ/ مشارك، في محاولة لاستقراء تجربة هذه المجموعة (كتيبة المهرجين الناشطين) سأتطرق إلى جملة من الأسئلة محاولا تقديم مقاربة استقرائية للمجموعة، وهنا يمكن أن أطرح الأسئلة التالية:

تنويه: سنعتمد في بحثنا على تقنية الملاحظة بالمشاركة، وسنقوم بوصف بعض العروض الاحتجاجية التي شاركت فيها مجموعة المهرجين الناشطين (المجموعة في

فترة ولادة ونشأة، لذلك سيكون البحث محاولة استقرائية في واقع المجموعة وأفقها في هذا الحقل الاحتجاجي بصفتها فاعلا جديدا).

كيف ظهرت كتيبة المهرجين الناشطين داخل الفضاء الاحتجاجي؟

لماذا ظهرت كتيبة المهرجين الناشطين؟ (ما هي دواعي ظهورها؟)

كيف تؤوّل كتيبة المهرجين (أعضاؤها) نفسها داخل الحقل الاحتجاجي؟ :- هل تعتبر نفسها مجرد فاعل، مهمته الحشد ومعاضدة المظاهرات التي يخرجون فيها مع الحشود؟

-أم أنها تعتبر نفسها فاعلا رئيسيا يقوم بخلق حراك دون تقديم المعاضدة والحشد لمظاهرات يؤثثها فاعلون آخرون أقدم منهم في الحقل الاحتجاجي، ولهم فعل مدوّن سلفا في فهرس الاحتجاجات؟

ما هو الأفق الذي تضعه هذه الكتيبة أمامها، من زاوية أنها تملك آلية احتجاج مبتكرة، هل ستحتكرها أم أنها ستعمّم فعل الاحتجاج الفنّي؟

1-ظروف النشأة: من داخل مساحة الحرّية والأفقية للحملات الشبابية

في العادة، تنطلق الحملات أو الحركات وحتى الأحزاب الكلاسيكية والمنظمات ببيانات أو ما يصطلح على تسميته بمانيفيستو إعلان أو ولادة حركة سياسية أو فنية أو غيرها ... ، فمثلا "مارسال دوشان" (1887-1968) حين أراد كسر المدرسية في الفنّ وتحريره من كلّ أحكام سكولاستيكية، أرسل عمله "المِبْوَلة" موقَّعا، وهنا نقل اهتمام المتفرج صوب التأويل، وأصبح كلّ فنّان يملك شرعية الإبداع دون أيّ حكم من روّاد مدرسة ما. وهنا نقول أنه أطلق رصاصة على المعايير الجمالية القديمة. إنها ولادة فن جديد، وهنا كتيبة المهرجين الناشطين سارت على خُطى التجارب الفنية في انحرافها أو تجديدها بشكل

استثنائي عن ولادتها، فكان: تاريخ أوّل مظاهرة لحملة "فاش نستنّاو" (سنأتي على تفسير مفهوم الحملة فيما بعد) إعلانا عن ميلاد مجموعة من المهرجين، هذا الفاعل الجديد بألوانه الزاهية وصمته الظاهر والصاخب داخل المظاهرات التي لا تكفّ أحيانا عن الصّراخ، لكنه كان بارزا بطريقته الخاصة. إنّ صراخ الألوان يسمع القلوب ربّما ويجذب أعين المارّة أكثر من الأصوات التي قد ترهق الأذن في ضجيج المدينة وتتعب المسامع دون أيّ تأثير ربّما.

مثال: انبثاق الوجه الضاحك من بين كلّ تلك الوجوه الغاضبة، رغم أنّه يقاسمهم نفس مطالب المظاهرة، إنه احتجاج مُبتكَر وسخرية هادفة ومحاولة لتلوين سواد الشارع واستفزاز غلاظة السلطة ووضع أجهزة ضبطها وهيمنتها ومراقبتها للأجساد تحت وطأة السخرية الهادفة أو الكوميديا السوداء، كأن لسان حال كتيبة المهرجين يقول: "إنكم مثيرون للسخرية"، وهذه العبارة قد أستقرئها وأقوم بتأويلها وترجمتها بالمثل التونسي الشهير: **"كُثْر الهمّ يضحّك"**.

أي أنّ الفعل الاحتجاجي والطريقة مبتكرة وغير مدونة سلفا في فهرس الاحتجاجات، فحتى أشكال الاحتجاج الفني المألوفة من غرافيتي وراب وحتى الموسيقى الملتزمة، لم تشارك بشكل منظم في المظاهرات ولم تقم باستفزاز رجال البوليس بشكل مباشر ووضعهم تحت طائلة السخرية ومشاكستهم، حتى أن بعضهم كان يضحك ويتجنب المهرجين ويهرب منهم، وهو المكلف بمراقبة الشارع وبسط النظام فيه. (ربما داخل البوليس أيضا طفل صغير يحبّ المهرجين)

كانت هذه أوّل إعلان عن ميلاد كتيبة المهرجين الناشطين ذات الوجوه المبتكرة التي لم يألفها البوليس، ولا المشاركون في المظاهرة، وطريقة الاحتجاج الجديدة عبر التعبير الفني الصامت وما قد يقرُب من مسرح الشارع أو مسرح الحوار، لكن دون أن ينبس ببنت شفة، إنه الصمت الرهيب المحتجّ، نحاربكم بصمتنا، بألواننا، بضحكاتنا، بذكريات طفولتنا مع

المهرج، لن تسرقوا البسمة منّا، ربّما وجود المهرّج يذكّرنا بطفولتنا، ويبعث فينا إصرارا على النضال من أجل مستقبل أطفال اليوم (حوار بين متظاهرين حاولت نقله بأمانة)

إذن كانت ذكرى 14 جانفي 2018 هي نقطة الانطلاق الأولى لكتيبة المهرجين الناشطين في الشارع الرئيسي للعاصمة التونسية الحبيب بورقيبة، إعلانا مضمون الوصول عن فاعل احتجاجي جديد يستعمل آليات فنية مبتكرة، قام بتهشيم هالة السلطة وجعل رجال البوليس عاجزين عن ممارسة العنف الرمزي المعتاد ضد أي فرد يقترب منهم محتجا بأي طريقة كانت، فلم يكن منهم إلا السكوت أو الابتسام، أو الهروب.. لنعلم جميعا أن المهرج يحتج بصمت ولا يتكلم، يعبر جسمانيا. فهل يتعلم البوليس المسرح والتعبير الجسماني، أو الرقص ليتمكن من التحاور مع المهرجين؟ (حاولتُ مساعدة رجال الشرطة على إيجاد طريقة تواصل، لأني مواطن صالح)

إذن فهم (كتيبة المهرجين الناشطين) بفعلهم هذا، خلقوا فعل احتجاجي لا وجود له في فهرس الفعل الجماعي في تونس على الأقلّ (وجود مجموعة من المهرجين المحتجين في فرنسا وبلجيكيا على سبيل المثال...).

ويعرّف **تشارلز تيلي وسيدنيتارو**[188]فهرس الفعل الجماعي على أنه تجمع لتمثلات الصراع في فهرس من العادات ترسخت عبر مدة من الزمن في الصراع مع السلطة، وتتغير هذه الفهارس حسب الزمان والمكان وثنائية الذات الفاعلة وموضوع فعلها. والمتعارف عليه أن الذين ينتجون / يبعثون / يبتكرون فعلا جماعيا وممارسات وأفعال احتجاجية، لكن داخل حدود فهرس من الممارسات التي تم اعتمادها سابقا، مثال: المظاهرات والوقفات الاحتجاجية، الاعتصامات، توقيع العرائض... إلخ [189]

[188](1929-2008)دكتور في علم الاجتماع، أستاذ في جامعات ديلاوير، وهارفرد، وتورونتو، وميتشيغان وكولومبيا. وهو عضو في الأكاديمية الوطنية للعلوم، والجمعية الأميركية للفلسفة، والأكاديمية الأميركية للفنون والعلوم وله عدد من الكتب المهمة والمرجعية المهتمة بالحركات الاجتماعية.

[189]Charles Tilly et Sidney Tarrow. Politique du conflit, 2009. Pp 39. Ed Sciences Po les presses. Paris. ضمن، جابالله، فسيان، الحملات الشبابية في تونس "حملة فاش نستناو" نموذجًا ص42 ، في مؤلف جماعي، في سوسيولوجيا الاحتجاج والتنظم لدى الشباب التونسي، طبع تحت اشراف منظمة "راج" تونس.

وهنا، نؤكد أن كتيبة المهرجين الناشطين هي فاعل جديد، بأساليب جديدة وطريقة إعلان مبتكرة تحمل طرافة الصورة وحدّيّة الرسالة الاحتجاجية نحو السلطة، أكثر ما يخيف الأنظمة هو أن تتحوّل إلى مجال النكتة والتندّر، ولنا في من أزعج السلطة في كل مكان وُجد فيه قمع وديكتاتورية الكثير من الكتاب والمسرحيين الذين وضعوا هذه السلطة تحت سياط سخريتهم. إذن اكتشفت السلطة في ذكرى ثورة 14 جانفي 2018 أنّ هناك كتيبة من المهرجين تضعها مجالاً للسخرية وللاّجدية الهادفة لنقد من هم غير جدّيين في قراراتهم حسب بيانات لحملة "فاش نستناو" وزعها المهرجون في تلك المظاهرة. وقد قال جلال عامر[190] مقولته الشهيرة "الحكام العرب اكتشفوا أن بلادهم فيها بترول في الثلاثينات من القرن الماضي، ثم اكتشفوا أن بلادهم فيها شعوب الأسبوع الماضي فقط". وهنا نحن أمام سلطة في تونس تكتشف أنّ قراراتها ونظامها مضحك للشعب أكثر من المهرجين، وأن المهرج ذاته خرج ليحتجّ، إنها ضيعة محروس [191] وليست دولة كما كانت تصرخ حناجر المتظاهرين في حملة "فاش نستناو"، احتجاجا على ما آلت له الأمور في البلاد من عبثية مضحكة.

2-أسباب ظهور كتيبة المهرجين الناشطين: آليات احتجاج مبتكَرة

تنويه: قمت بالمشاركة في عدد من المظاهرات الاحتجاجية رفقة الكتيبة، ولاحظت من خلال الأسئلة نصف الموجهة [192]لأفرادها حول سبب اختيارهم هذا الشكل

[190] (1952-2012) كاتب وصحفي مصري عُرف بأسلوبه الساخر في نقد النظام المصري وكافة الأنظمة العربية الدكتاتورية.

[191] سلسلة متلفزة تونسية قدمت قصصا للأطفال راجعها منصف بن مراد وعبد العزيز صميدة، وقد حققت السلسلة نجاحا باهرا زهي راسخة في ذاكرة أجيال أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات.

[192] أمثلة على الأسئلة نصف الموجهة:
لماذا اخترتم هذا النمط الجديد من الاحتجاج؟
هل تعتقدون أنّ هذا الشكل المبتكر من الاحتجاج قادر على إبلاغ مطالبكم وتصوراتكم للعدد الأكبر من المتظاهرين وللمواطنين عموما؟
لماذا اخترتم شخصية المهرّج على وجه التحديد؟
هل هناك أسباب ما جعلتكم تنتمون لهذه الكتيبة؟

الاحتجاجي (تحافظ الكتيبة على سرّيّة أعضائها وتنصّ قوانينهم الداخلية على عدم الظهور الإعلامي)

تجدر الإشارة في بداية هذا العنصر إلى التذكير بأنّ أول ظهور لكتيبة المهرجين الناشطين كان في حملة "فاش نستناو" [193] وهي حملة شبابية لا يمكن تعريفها انطلاقا من التصورات القديمة والكلاسيكية للتنظيمات السياسية السابقة، ونظرا للتصورات المتباينة للتنظيم السياسي من وجهة نظر الفاعلين فإنها تطرح إشكاليات تتعلق بالتعريف العلمي الدقيق لمفهوم الحملة، لذلك سنقوم بمقارنة عملية التنظم واتخاذ القرار والمسؤولية داخل الحملة مع الأحزاب الكلاسيكية أو المنظمات النقابية الأخرى، فتقوم الأخيرة على تراتبية واضحة وتقسيم محدّد ومنظم للمهام مع تفريق لمستويات العمل.

ولنا في تونس عديد الأمثلة عن هذه التنظيمات السياسية والنقابية الكلاسيكية، ولكون عدد من شباب ما بعد الثورة أو التحول السياسي والاجتماعي الذي شهدته تونس، لم يعد يجد نفسه داخل هذه التنظيمات من زاوية طريقة تسييرها واتخاذ القرار فيها، وحتى طرق النضال والاحتجاج التي عفّ عليها الزمن حسب تعبيرهم، لذلك تتكون الحملة من عدد من الشباب الذي خاض تجارب سياسية أو نقابية وآخر لم يخض أي تجربة من ذلك القبيل، لكنهم جميعا يجتمعون حول جملة من المطالب ويتخذون القرارات بطريقة أفقية عبر التصويت [194].

-التنظم الأفقي والحرية النسبية في اتخاذ القرار: تتيح للفنان مكانا للتعبير عن ذاته داخل هذا الحقل (الاحتجاجي)

[193] وهي حملة شبابية بدأت بالاحتجاج ضد قانون المالية التونسي لسنة 2017-2018 ، ثم توسعت المظاهرات والمطالب في عدد من المدن والأحياء التونسية، وقد حضر ممثلو هذه الحملة في أكثر من منبر إعلامي معبرين عن جملة من المطالب، ومن أهمها مراجعة القانون والحفاظ على الشركة العمومية من الخوصصة حسب تصورهم.

[194] يمكن الإحالة على أعمال عالم الاجتماع الفرنسي Olivier Fillieule المتخصص في سوسيولوجيا الالتزام والفعل الجماعي، انظر على سبيل المثال مقاله تحت عنوان: <Propositions pour une analyse processuelle de l'engagement individuel. Post scriptum> Revue française de science politique 2001/ 1 (vol. 51), pp 199-215

نرصد آليات التجديد داخل هذه الحملة من خلال تجديد الشعارات التي تُرفع في المظاهرات، فقد وُجدت مساحة لعبارات ساخرة مثل "هذي مش دولة هذي ضيعة محروس" وهي إحالة على السخرية من النظام، وكلمات أخرى تحمل نوعا من البذاءة مثل "سيستام يا طحّان" وأُدخلت آلات جديدة مثل "الطمبور" الذي تستعمله عادة فرق الألتراس، أو "الفلامات" (شماريخ وألعاب نارية تستعمل عادة في الملاعب)، وهذا التجديد في الآليات والشعارات والمساحة الشبابية التي جمعت في أغلبها جيل ما بعد الثورة له تصوراته ومقارباته حول المظاهرات، خلق مساحة من الحرية جعلت إمكانية خلق فعل احتجاجي فنّي يتمتع باستقلاليته التنظيمية حتى عن الحملة ذاتها ممكنا، وهذه من ميزات طريقة التسيير الأفقي، وهنا على وجه الدقة يمكن أن نفهم كيفية خلق كتيبة المهرجين الناشطين. عاد المبدع بشكل مهرّج كأنه عودة للفنان إلى الفضاء العمومي الذي حُرم من التعبير عن رأيه داخله في زمن الدكتاتورية (من خلال كوني ملاحظ مشارك Observateur-Participant أحيطكم علما بخلفية بعض أعضاء كتيبة المهرجين الفنية: مسرح- رسم- اختصاصات فنية أخرى...).

وقد كتبت إحدى المهتمات بالمجال الإبداعي وما يتعرض له من رقابة: "في عهد الدكتاتورية في تونس كانت توجد رقابة صارمة على المبدع وعلى الشارع، إذ يذكر أحدد خطّاطي الجدران الذي يعرّف بـ "السيد" أنه بعد إعداد لوحة حائطية مخطوطة في بلدة بالجنوب التونسي سنة 2009، جاءت الشرطة لتتأكد أنه لم يذكر بن علي ولم يستعمل أي خطاب سياسي" [195].

إذن هناك جملة من الاستعدادات المشتركة بين أفراد هذه المجموعة أو الكتيبة جعلتهم أولا ينخرطون داخل نفس الحملة (فاش نستناو)، ويختارون طريقة التسيير الأفقي والانتخاب في كيفية اتخاذ القرار، وينضمون إلى مسيرة طرق الاحتجاج فيها جديدة ولم

[195] مقتبس من كتاب مشترك لمجموعة من الباحثين بعنوان "في سوسيولوجيا الاحتجاج والتنظم لدى الشباب التونسي، بحث بعنوان "الحركة الاحتجاجية الفنية كأفق تفكير: فن الشارع: الهامش يثور على المؤسسة؟ موت الأب أم ميلاد أب جديد؟ (دراسة سوسيوثقافية في مضامين فن الشارع لدى الشباب) للباحث أمين الحسيني، ص 127. طبع تحت إشراف منظمة "راج" تونس.

تسجّل في فهرس الفعل الجماعي سابقا، ومن خلال جملة ملكات أو "الهابيتوس" بعبارة "بيار بورديو" الفنية المشتركة كانوا ميّالين لتأسيس كتيبة المهرجين الناشطين، خاصة وأن أحدهم (فرد من الكتيبة له تجربة ودراية بتجارب مماثلة في فرنسا وبلجيكيا). ونظرا لهذه العوامل والمقاربات المشتركة لعدد من المسائل، نعتمد على التحليل وقراءة "بيار بورديو" حول الرأسمال الثقافي ومفهوم "الهابيتوس". وعلى هذا النحو إن الرأسمال الثقافي هو مصطلح سوسيولوجي بلوره بورديو[196] وأضافه إلى مصطلحات الرأسمال المادي والرأسمال الاجتماعي والرأسمال الاقتصادي ويعني به مجموع المنابت والمصادر الثقافية التي يستقي منها الفرد وتتوزع الى العادات والتقاليد والأعراف والسرديات والأساطير والرمز والدين والفنون .كما يفيد جملة المؤهلات الفكرية التي ينتجها المحيط الأسري والنظام التربوي وتشكل إحدى أدوات التحكم والتوجيه والتأثير في الفرد ويتم مراكمتها عبر مدة من الزمن وتمريرها من شخص الى آخر عن طريق المحاكاة والمشاركة والتقليد.

ويمكن كذلك نقلها من جيل الى آخر عبر آلية إعادة الإنتاج واحترام النفوذ.، وبناء على ذلك إن الرأسمال الثقافي يحصل عليه المرء بعد مراكمة للتجارب المتنوعة ومثابرة في العمل ويعطيه نوعا من الامتيازات في المجتمع. ويتوزع الرأسمال الثقافي إلى ثلاثة عناصر هي شكل متجسد في "الهابيتوس الثقافي": وتكمن وظيفته في جعل الإنسان كائنا اجتماعيا ومشاركا في الفضاء العام، وشكلا مموضعا في مستوى ثان يتكون من منافع ثقافية وخيرات رمزية مثل الكتب والآثار الفنية والأدوات الرقمية وتتمثل مهمتها في تخزين وحفظ العناصر الثقافية(هنا يمثل الهابيتوس الثقافي للمجموعة جملة المعارف المسرحية والجمالية التي يمتلكها أعضاؤها والتجارب التي شهدها أو عاشها بعضهم مع مجموعات أخرى من المهرجين المحتجين).

وشكل مؤسساتي في مقام ثالث ويتمثل في العناوين المدرسية والمتاحف والمكتبات ودور الثقافة والمسرح والسينما وتتمثل مهمته في عرضه للمنتوجات الثقافية للفرجة والتقبل

[196]بيار بورديو1930-2002 عالم اجتماع فرنسي، أحد الفاعلين الأساسيين بالحياة الثقافية والفكرية بفرنسا، وأحد أبرز المراجع العالمية في علم الاجتماع المعاصر.

والتداول والتوزيـع والاستعراض والاستهلاك. هنا تحديدا تقطع كتيبة المُهرجين مع هذه الوظيفة، للتحول إلى وظيفة جديدة للاحتجاج وبالتالي القطع مع هذه المؤسسات التي هي عبارة عن سوق للعرض الثقافي. هكذا يقوم "بيير بورديو" بتعريف الطبقة الاجتماعية وتمايزها (distinction)عن غيرها وفق حجم وبنية الرأسمال الثقافي الذي تمتلكه، وبالتالي هناك طبقة اجتماعية تكون قادرة على امتلاك نظرية مجردة بينما تحوز طبقات شعبية أخرى على منتوجات معينة ومعطيات تجريبية لا تدوم بل تنقضي بمجرد استهلاكها من قبل المتلقين .وهنا على وجه التحديد قامت كتيبة المهرجين الناشطين بخلق تمايز داخل التمايز (داخل هذه الحملة ذات الآليات الجديدة في الحقل الاحتجاجي التي تعتبر متمايزة عن التنظيمات الكلاسيكية) من خلال ابتكارها لفعل احتجاجي فني جديد كفاعل جديد لهُ خصوصياته. [197]

فكيف تؤول كتيبة المهرجين الملتزمين نفسها؟ وهل تعتبر نفسها مجرد حاشد ومعاضد للمظاهرات؟ أم خالق رئيسي للفعل الاحتجاجي وليس فقط مجرد أكسيسوار مكمل.

3-السلطة تحت وطأة السخرية: المهرّج فاعل جديد أكثر جرأة

تنويه: لكلّ عضو في كتيبة المهرجين الناشطين تأويله الذاتي والشخصي حول فعله الاحتجاجي وسبب وجوده داخل هذه الكتيبة، كما أن للكتيبة سببا جماعيا لوجودها في هذا السياق الاحتجاجي قد عبرت عنه في عروضها، وسنذكر أمثلة من هذه العروض وبعض القوانين الداخلية التي تحكم علاقة المهرجين والناشطين من خلال منهجية الملاحظة والمشاركة (Observation participative) وأسئلة نصف موجهة[198]

---

[197] Pierre Bourdieu, Choses dites, Paris, Les Éditions de Minuit, coll. « Le sens commun », 1987,

[198] أمثلة على الأسئلة:
كيف تؤول وجودك داخل مجموعة المهرجين الناشطين؟
كيف تتصوّر تفاعل المحيط الاحتجاجي مع هذه الكتيبة؟
لماذا اخترت شخصية المهرج للاحتجاج؟
ما هي أهم التفاعلات التي عشتها داخل المظاهرات وأثناء العروض في الشارع؟

لأفراد الكتيبة، كما سأقوم بوصف إثنوغرافي (Description Ethnographique)لأفراد الكتيبة والعروض الفنية/ الاحتجاجية.

ملاحظة: قد يتعرض الباحث الذي يعتمد على الوصف الإثنوغرافي إلى نقد من حيث أن المنهج له عيوب، خاصة أن الباحث يكون وافدا على تلك البيئة وغير ملمّ بها بشكل تام، ومهما حاول فهو في نهاية الأمر عنصر دخيل وخارج على تلك الثقافة، وهذا عكس بحثنا الذي يقوم على باحث شارك وفكّر ونفّذ مع المجموعة تقريبا كلّ العروض.

دخول فاعل جديد للحقل الاحتجاجي وهو المهرج، الذي يمزج بين الفعل الفني والفعل الاحتجاجي ليصبح فنانا محتجا عن طريق عروض فنية أشبه بمسرح الشارع في مرات، وبعروض متحركة بين رجال البوليس والسواتر الحديدية في مرات أخرى، فعلى ماذا يعتمد من آليات فنية في هذه العروض، وأين تأويله لمدى تأثير أفعاله؟

في البداية علينا ذكر أهم القوانين أو الميثاق الأخلاقي الذي تعتمده الكتيبة في تأويلها الجمعي المتفق عليه بين كلّ أفراده:

السخرية من كل أشكال الضبط والرقابة والهيمنة،المهرجون المُلتزمون:

- مجموعة احتجاج فني.

- تستعمل كل الآليات التعبيرية الصامتة (احتجاج صامت).

-لا تعلن عن أسماء أفرادها.

- تتبنى الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وتعتبرهُ الحد الأدنى لمساندة أي تحرك أو تظاهرة يشاركُ فيها أفراد المجموعة عن طريق السخرية الهادفة لوضع السلطة أمام أسئلة وإشكاليات، بالاحتجاج الصامت والصاخِب بكل أنواع التعابير التي تمثلُها المهرج.

-المجموعة تساند كل حركات المقاومة الوطنية: من باب حق الشعوب في تقرير المصير، ضد قوى الهيمنة والاستعمار بكافة أشكاله وتدافع على كافة أشكال الحرية الفردية، كما

تناضل ضد أشكال التمييز سواء القانونية أو الاجتماعية والثقافية وتعمل على فضحِها والتشهير بها.

-المجموعة تعاضدُ وتتبنى النضال البيئي "الايكُولوجي" وتعتبرُ أنها جزء من حركات النضال البيئي الكونية، ذو الخلفيات والمُنطلقات الفنية في العالم .

-تناضل إلى جانب الجمعيات من أجل المساواة التامة والفعلية بين الجنسين، وتعاضِد جهد الحركة النسوية الوطنية في هذا النضال.

-تعتبرُ المجموعة أن وجودها مرتبط بالنضال الاجتماعي أساسا، من خلال فعلها الفني الثقافي، وتعمل على معاضدة ودعم كل جهد احتجاجي جاد وتتبنى مطالب الثورة الرئيسية، شغل، حرية، كرامة وطنية وعدالة اجتماعية.

-كتيبة المهرجين الناشطين لا تحتكر آليات الاحتجاج الفني، هدفها مشاركة المعرفة والآليات النضالية الفنية، مع مجموعات أخرى من كافة جهات البلاد، لأن الثقافة لا تكون مركزية ولا تقتصر على العاصمة وهو ما تناضل من أجله هذه المجموعة: ضد كل ثقافة رسمية نمطية وممركزة .

-تسعى كتيبة المهرجين الناشطين إلى خلق ثقافة إبداعية جديدة

- من أجل سخرية هادفة وابتسامة تسقط كل أشكال الظلم والقمع والحرمان التي تمارس ضد الشعب من تفقير وتجويع وقتل للنظام الصحي وخوصصة للتعليم العمومي وحرمان الأجيال القادمة من حقها في بيئة نظيفة

-فلنواجههُم بالسخرية، لنناضل بوجوه سعيدة. ناضلوا بفرح! (كارل ماركس) [199]

[199]كارل ماركس، 1818-1883فيلسوف ألماني، سياسي، ومنظّر اجتماعي. قام بتأليف العديد من المؤلفات إلا أن نظريته المتعلقة بالرأسمالية وتعارضها مع مبدأ أجور العمال هو ما أكسبه شهرة عالمية.
شكل وقدم مع صديقه فردريك إنگلز ما يدعى اليوم بالاشتراكية العلمية.، ويعتبر من أحد الشخصيات المفكرة الأكثر تأثيرا على مر العصور.

ومن خلال الأسئلة نصف الموجهة والحضور والمشاركة في عدد من العروض الاحتجاجية لكتيبة المهرجين الناشطين يمكن أن أستقرأ وأترجم صمتهم وهم من اختاروا اللاّكلام في عروضهم، وعدم الكشف عن هويتهم التأويل التالي:

إنهم يعملون على تونسة الفكرة، مع اعتماد معايير فنية خاصة للعرض فيختلف مثلا المكياج واللباس باختلاف العرض أو موضوع المظاهرة، لكن تقريبا نفس الملابس المضحكة والملونة والفضفاضة، والمكياج الذي يحمل رموزا تتناول موضوع العرض مثال دولارات على وجه أمير خليجي أو لحية لتجسيد شخصية إرهابي، أو مسدس مائي لتفسير حركة عنيفة. ويكون المكياج موضوعا بطريقة هاوية في أغلب الأحيان(عدم الاستعانة بمحترف، من قوانين الكتيبة) . المهرج شخصية ساخرة ومضحكة لكن ملتصقة بالهموم، ولكنها أيضا موجعة ومستفزة، السخرية دائما تستفزُ السلطة.

-المهرج المحتج فكرة بنت الواقع الذي نبتت فيه حيث تفسر القضية بشكل سلس ومشحون، خارج سياق الرداءة والعتمة واللاألوان والحزن والمظاهرات وضرب البوليس ذي البدلة السوداء . إنها تصنع أملا وسط العنف الذي يغزو الشارع

-تنقد العنف والأسلحة عبر استعمالها استعمالا هزليا، مثال: مسدسات مائية، وأضواء توجهها لمشاكسة الحاضرين أو رجال الأمن.

- جملة المعايير الفنية والتقنية: يستعمل أعضاء كتيبة المهرجين الناشطين الكاريكاتير لتضخيم الهموم، لدرجة هزلية تحرك الأسئلة عبر تكبير الحركة وملامح الشخصية، بشكل مفرط أو التصغير فيه بشكل حاد، مثال: تتفيه العنف، لنقده ودق ناقوس خطر لأننا ربما تعودنا عليه من كثرة أحداث العنف التي شهدناها.

-بعض الجوانب الفنية للعروض المحتجة: الاعتماد على الارتجال عبر إعادة أشكال الواقع والتي نستلهم منها سيناريوهات العرض ويتحرك خلالها الفكر الإبداعي لأعضاء الكتيبة كآلية جديدة للاحتجاج.

-يكون السيناريو مفتوحا للمهرج للارتجال وسط العرض وتشريك العناصر المحيطة، يمكن لرجل البوليس أن يكون فجأة ممثلا (موقف يجرد من كل أشكال العنف التي كان يحتكرها.) كما أن فضاء العرض مختلف، مثلا: الساحات العامة أو حتى اقتحام فضاءات ممنوعة، دون تكسير أو تدمير أي شيء ولم يحدث هذا إلى ساعة كتابة هذا البحث .تعرية الواقع والوجع، صحيح أن وجهنا مغطاة بالمكياج لكننا نعري وجعنا اليومي. (إحدى الجمل الراسخة في ذاكرتي من حوار مشترك بين أفراد المجموعة).

الأحكام الجمالية والخيارات الأخلاقية تحدث كتجارب وجهًا لوجه. - سوزان ستيوارت-[200]

تختلف الأحكام الجمالية والمقاربات وزوايا النظر للفعل نفسه، من أفراد كتيبة المهرجين الناشطين، وكلّ له زاوية نظره، ولكن هناك جملة من النقاط المشتركة المتفق عليها، وسأحاول تقديم بعض من الإجابات التي قدمها أعضاء الكتيبة عن سبب اختيارهم الانخراط فيها:

تختلف إجابة كل فرد عن الآخر في سبب اختيار شخصية المهرج فمنهم مثلا:

-من يخاف رجال الأمن، ولكونه يتحول إلى مُهرج فهذا يمكنه من التعبير عن رأيه، ويتجنب بطش رجال البوليس، بل يشاكسهم دون أدنى خوف.

-ومن الأسباب الأخرى أيضا أن الوجه المبتكر للمهرج يخرج الناشط الشبابي من جلبابه السياسي أو الثقافي وقيوده الجندرية، لأن المهرج شخصية عابرة للتعريف الجندري فيمكن دون الرجوع إلى جنسك أن تلعب دور مهرج ذكر أو أنثى.

-الخجل ينتفي حين تختبئ وراء المكياج، المهرج يحررني من رقابة الأعين والأسئلة الكثيرة، أنا أخرج من المواطنة صاحب بطاقة التعريف الوطنية (فلانة الفلانية) إلى الفنانة

[200] سوزان ستيوارت Susan Stiwart شاعرة وناقدة أمريكية ولدت سنة 1952، من أبزر كتبها ، الشعر ومصير الحواس، لها اهتمامات بالمقاربات الجمالية، وكتبت خاصة قصيدة النثر ولها أطروحات نقدية عديدة.

المحتجة والمهرجة المشاكسة، فشكرا للمكياج، هذا أيضا أحد الآراء التي اجتمع عليها أكثر من فرد في المجموعة.

السخرية هي البهار الرئيسي في هذا الطبق الفني المحتج:

حتى الدعوات التي تقدمها المجموعة لحضور عرُوضها تكون بشاكلةِ السركازم[201]Sarcasm.

أمثلة على استعمال السخرية في العروض والدعوات إليها: مثال عن دعوتين لعرضين مختلفين.

الدعوة الأولى: "تدعوكم مجموعة المهرجين الناشطين إلى حفل استقبال سعادة سمو ولي العهد السعودي محمد بن سلمان أطال الله عمره وأبقاه فوق رؤوسنا ونعمة لنا، وذلك على الساعة الرابعة أمام المسرح البلدي. "

وقد أخذ هذا العرض صدى إعلاميا واسعا وكتبت حولهبعض الجرائد العالمية ووكالات الأبناء لأنه تناول عددا من المواضيع العالمية على غرار اغتيال الصحفي جمال الخشقجي والحرب على اليمن.

الدعوة الثانية: "دعوة رسمية للمساعدة في القيام بحملة تطوعية، من أجل جمع الأوراق الرسمية الملقاة أمام وزارة الداخلية. "

وهو عرض للاحتجاج على تصريح أحد قيادات حركة النهضة حول قضية حيازة أحد العناصر الإرهابية لوثائق رسمية، وشارك رواد وسائط التواصل الاجتماعي بشكل كبير هذا المنشور نظرا لطرافة الدعوة، فغالبا ما تجد السخرية قبولا منقطع النظير لدى التونسيين.

[201]ساركازم: تُقرأ في المعاجم على أنها التهكم اللاذع أو السخرية المريرة الجارحة التي قد تصل إلى جرح الشعور.. من هنا فالكلمة تنصرف إلى جانبين: أولهما جانب السُخرية بمعنى إظهار المفارقة وانقلاب الأوضاع والتدليل على خطأ أو تهافت الخصم - المقصود أو الظاهرة - الهدف، في حين ينصرف الجانب الآخر للكلمة إلى الإمعان في هذا الهجوم إلى حد التجريح..

اعتمدت المجموعة بشكل كبير على تجديد رسائل السخرية، كي لا تسقط في الابتذال وتخلق التمايز عن رسائل السخرية المتداولة، ولذلك لاقت ترحابا كثيرا ظهر في حملات المشاركة الكبيرة لهذه الدعوات على مواقع التواصل الاجتماعي

وتعتمد العروض أيضا على الكاريكاتير وتكبير الأحداث وحركات المُهرجين بشكل ساخر، أو تصغير الحركات التي اعتاد الجمهور أن تكون فعلا صادما كفعل العنف مثلا والهدف هو قدح الأسئلة وإعادة التفكير في جملة من الأحداث التي عاشتها تونس بعد 14 جانفي 2011 فأصبحت أحداث القتل والإرهاب في فترات زمنية ما أشبه بأحداث عادية.

مثال على عرض تتخلله محاولة وصف إثنوغرافية لعرض حول الحريات الفردية:

لو وضع عنوان لعرض مجموعة المُهرجين: لكان " تونس تجمعنا"، هيئات مختلفة وملابس ملوّنة، تعكس اختلاف الأفراد داخل المجتمع سواء على مستوى المظهر أو التفكير أو الدين أو الحالة الاجتماعية، وأنوف حمراء متشابهة قد تحيل إلى أنّنا قد نختلف في نقاط عدّة ولكنّنا نشترك في الإنسانية، ذلك الفضاء الذي يجمع المختلفين معًا على قاعدة التعايش والتسامح. (الأنف الأحمر هو نقطة الالتقاء الدائم ودلالة مميزة للمهرجين) ".وفي العرض إحالة إلى واقع الحريات الفردية في تونس، من الحريات الجنسية والفكرية وغيرها في مجتمع يتمسّك بثوابت بليت لكنّه يأبى إلا أن يجدّدها، مجتمع مازال ينصّب نفسه وصيًّا على الأجساد والعقول.

هو عرض لم تتجاوز مدّته ربع الساعة ولكنّه كان حمّال رسائل، إذ كشف بحركات بسيطة سطوة المجتمع الذي يمارس سلطة رقابية على الفرد ويصادر حقّه في أن يكون مختلفًا.

ومما لا شكّ فيه أن الإهانة والتنكيل سيكونان نتيجة حتمية لممارستك لقناعاتك وعدم رجوعك عن حرياتك الفردية، ولكن العرض المسرحي يفضي إلى كون مواجهة الممارسات القمعية مواجهة رجل واحد هي التي ستنهيها وتقطع دابرها. ورؤية المهرجين الملتزمين لواقع الحريات الفردية، تنتهي بالتغلّب على من ينصّب نفسه رقيبًا على الآخر لتُرفع راية

تونس وتضلّل كل المختلفين .هذا المثال من مقال[202] لصحفية حاضرة في العرض(تعمدت اعتماد وصفها، ليكون الوصف أكثر تجرُدا وموضوعية بحكم مشاركتي في العرض).

4-كتيبة المهرجين الناشطين، أفق الفعل الاحتجاجي وتعميم آلياتهم (الفن الاحتجاجي) إلى أين؟

"إن الفلسفة بتدقيق كبير هي الحقل المعرفي القائم على إبداع المفاهيم". جيل دولوز[203]

لقد طرح الفيلسوف الفرنسي "جيل دولوز" (1925 . 1992) سؤال "ما هو العمل الإبداعي، وما هي الفلسفة؟" في محاضرة له -بعنوان: ما هو العمل الإبداعي؟- ألقاها عام 1987. وقد جعل "دولوز" مِن مُحاضرته قاموسًا لأبجدية العمل الإبداعي وعلى أي أساس يستطيع شخصٌ ما أن يقول نعم أنا لدي فكرة.

وبما أنّ الفعل الاحتجاجي الفني لكتيبة المهرجين الناشطين هو عمل إبداعي مبتكر داخل فهرس العمل الجماعي في تونس، وفكرة أثبتت في جانب ما أن هناك دائما طرقا جديدة ومتجددة للخروج من السيطرة والهيمنة ومحاولة ضبط الشعوب، فحتى السلطة حين تجدد آلياتها اعتمادا على فهارس النضال الاجتماعي القديمة (مظاهرات، عرائض، وقفات احتجاجية...) فهي لا تجد في كراريسها حول كيفية القمع والضبط آلية يمكن بها ضبط وقمع مهرّج، فإنه من المضحك أن تفكّر في اعتقال أو تعنيف مهرج محتج.

كيف ذلك؟

[202]مقال للصحفية التونسية يسرى الشيخاوي تحت عنوان: "يوم جاؤوا لاعتقالي، الإنسانية في مواجهة كل الوسوم، في موقع "إيلترا صوت تونس"

[203]"جيل دولوز"/"فليكس غتاري" "ما هي الفلسفة؟" ترجمة مركز الإنماء القومي بيروت طبعة 1997

آلة الكاميرا مثلا للشرطة الفنية لا يمكن أن ترصد وتتعرف على وجه الدقة على ملامح المهرج، إنه فرد ضمن كتيبة وكفى، لا يمكن أن تسجل عليه هوية بالمعنى القانوني، (إن هويته فنية احتجاجية). إنهم محتجون يملكون آليات نضالية مبتكرة تعيد إمكانية النضال بفرح على حد عبارة كارل ماركس، وتعيد البسمة الغائبة والمسروقة من شفاه التونسيين حسب رأيهم، غنهم ساخرون بمقتضى غايات قابلة للتأويل والتعبير الذي يضع السلطة تحت وطأة الأسئلة التي تحملها مسؤوليتها.

أنتَ تناضل ضمن إمكانياتك التعبيرية، أنت تحاول ترجمة عرض صامت ولا تعلن عن هويتك، لأن الكتيبة غير معلنة الهوية، إذن أنت تترجم داخل حدود الممكن، وهذا الممكن من آليات نضالية يمكن أن يعمم هذا الشكل الاحتجاجي بعيدا عن المركز وتونس العاصمة منتقدا الثقافة الرسمية التي تمركز كل شيء في المدينة، بل قد تسجن الثقافة أيضا داخل مدينة (على حد عبارة أحد المهرجين الناشطين).

إذن إن أفق كتيبة المهرجين الناشطين هو تمرير الآليات الاحتجاجية والتعبيرات الفنية الرافضة والمحتجة لكون سبب وجود الكتيبة الأساسي هو الاحتجاج والنقد وإقلاق السلطة حيث وجدت، إنهم لا يحتملون فيل السلطة الضخم الجاثم على أجساد المواطنين.

"حيثما وجد الظلم وجدنا"، هو أحد الشعارات المركزية لكتيبة المهرجين الناشطين، ولأن الظلم في كل مكان، على الكتيبة أن تتواجد في كل مكان داخل الجمهورية التونسية.

جئت لهذا العالم لكي أحتج. ماكسيم غوركي [204]

فتعميم الاحتجاج هو ترجمة لتصورات المجموعة حول سبب وجودها لتنقل ما اكتسبته من معارف فنية وتجربة ميدانية إلى باقي الجهات ومن يرون في أنفسهم داخل هذا التصور

[204] مكسيم غوركي من أهم الكتّاب الروس. مؤسس الطريقة الأدبية الواقعية الاشتراكية وناشط سياسي، ترشح لجائزة نوبل للأدب خمس مرات.

وهذه التعبيرة الاحتجاجية، إن ترجمة ما نؤمن به هي ما يحتفظ لنا باستمرارية الفكرة وتطورها، هذا ما استنتجته من الملاحظة / المشاركة مع كتيبة المهرجين الناشطين.

علي الكنيس
باحث في العلوم السياسية ناشط سياسي عضو مؤسس
بالحملة الوطنية لدعم جمنة

جِمْنَة: الصراع حول الأرض، الدولة في مواجهة المجتمع المحلي

ملخّص

تتناول هذه الورقة مسار الحركة الاحتجاجية التي شهدتها "جمنة" بالجنوب الغربي التونسي منذ 2011 في استعادة لقضية هنشيرِالْمْعَمَّرْ/ستيل، كأساس للصراع بين الدولة والمجتمع المحلي حول ملكية الأرض واستغلالها ونمط الاستفادة من مداخيل هذه الواحة. فبينما تدافع الدولة منذ الاستقلال على أحقيتها في التصرف في هنشيرِالْمْعَمَّرْ/ستيل باعتباره ملك للدولة سواء بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر من خلال تسوغيه للخواص. تؤكد الحركة الاحتجاجية المحلية التي تطورت لتمثل حركة اجتماعية محلية على أحقية الجمنيّين في أرضهم التي انتزعها منهم الاستعمار الفرنسي، وواصلت الدولة الاستحواذ عليها. اعتبرت ثورة جانفي 2011 الفرصة التاريخية التي تمكن متساكنو جمنة من خلالها من التنظم محليا واستعادة التصرف في واحة النخيل والاستفادة ممّا توفره من مردود اقتصادي لفائدة المصلحة العامة بإرساء أسلوب تسييري تشاركي جماعي يسائل السياسات الاقتصادية العمومية..

Abstract

This article examines the process of protest movement that took place in Jemna in the south-west of Tunisia since 2011, restoring the case of Stil farm (Hensheer Al-Muammar) as a basis of the conflict between the state and the local community over land ownership, exploitation and utilization of the revenues of this oasis. While the state has been defending its right to manage Hensheer Al-Muammar/Stil as a state property, either directly or indirectly, since independence. The local protest movement, which evolved to represent a local social movement, affirms the right of the Jemnian people in their land, which was seized by French colonialism and

continued to be acquired by the state. The Revolution of January 2011 is considered the historic opportunity which enabled the inhabitants of the region to be organized locally and restore the property of the palm oasis and benefit from the financial returns for public interest by establishing a collective participatory approach that questions public economic policies.

"التحرر الحقيقي ليس بالثورة فقط بل بالتحرر من إرث المستعمِر"

فرانز فانون

شهدت البلاد التونسية بعد مغادرة الرئيس السابق بن علي عدة اقتحامات للضيعات الفلاحية الدولية التي يتسوغها مستثمرون خواص (شركات الإحياء والتنمية الفلاحية والفنيون والمهندسون الفلاحيون)، وقد اختلفت الأرقام حول مساحة الأراضي التي تم استهدافها. فبينما تشير بعض الدراسات إلى أنّ المساحة الجملية للضيعات التي تم استهدافها بلغت حوالي 1000 هكتار،[205] شملت 100 مستغلة فلاحية[206]، أكدت تصريحات مسؤولي وزارة أملاك الدولة والشؤون العقارية سنة 2012 أنه تم استرجاع حوالي 30 ألف هكتار من العقارات الدولية التي تسوغها الخواص[207] لتخضع لرقابة السلطات العمومية بإرجاعها لإشراف ديوان الأراضي الدولية للتحقيق في مدى احترام المستثمرين لكراس الشروط الخاصة باستغلال العقارات الدولية الفلاحية.

في 12 جانفي 2011، في جمنة تلك البلدة الواقعة بالجنوب الغربي التونسي، (معتمدية قبلي الجنوبية، ولاية قبلي) التي يبلغ عدد سكانها 7194 ساكنا[208]، تعرض هنشير[209]اِلْمْعَمَّرْ/ستيل لعملية اقتحام من قبل المتساكنين الذين طالبوا باسترجاعه من الدولة التي فوّتت فيه لصالح مستثمرين خواص. تطورت الحركة الاحتجاجية في جمنة على أساس مطلب استرجاع هنشير اِلْمْعَمَّرْ/ستيل ونُفذت عدة تحركات احتجاجية في إطار التمسك باسترداد هذه الضيعة الفلاحية. وتمكن المتساكنون من تشكيل إدارة مؤقتة لهذه الضيعة انبثقت عن اللجنة المحلية لحماية الثورة ودعمها، باعتبارها شكل تنظّم محلّي

[205]GANA Alia, « Aux origines rurales et agricoles de la Révolution tunisienne », Maghreb - Machrek 2013/1 (N° 215),p 65.

[206]ELLOUMI Mohamed, «Les terres domaniales en Tunisie», Études rurales, 192 | 2013, p12, URL : http://etudesrurales.revues.org/9888 [consulté le 26 janvier 2017]

[207]ELLOUMI, op.cit, p13 d'après Le Maghreb numéro de 30 avril 2012.

[208]قبلي من خلال التعداد العام للسكان و السكنى لسنة 2017، الرابط: https://bit.ly/2uyOYYo [معاينة 2018/09/10]

[209]هنشير: كلمة في اللهجة العامية في تونس تطلق على المزرعة، الضيعة الفلاحية، غابة الأشجار المثمرة مع اختلاف نوع الفلاحة أو الزراعات أو الغراسات .

ومواطني برز عشية هروب الرئيس التونسي بن علي في المناطق التي عاشت على وقع الاحتجاجات ما بين ديسمبر 2010 وجانفي 2011.

يجد هذا النصّ مكانه ضمن كراس المنتدى التونسي للحقوق الاجتماعية والاقتصادية حول أشكال الفعل الجديدة والفاعلين الجدد، باعتبار الحركة الاحتجاجية التي شهدتها جمنة حول قضية هنشير المعمر/ستيل فاعلا قديما وأحد أشكال الفعل الجديد ضمن السياق الثوري وما بعد الثوري في تونس.

إن تطور مقاربات المكان في التنظيم الاجتماعي منذ نظرية "أنتوني غيذنز" حول "الصياغة البنائية

«la théorie de la structuration» التي تبني مفهوم الموقع وتعرفه بأنه الموضع المادي المرتبط بالتفاعلات النموذجية التي تجعل من الكيانات المجتمعية أنساقا اجتماعية"[210]، يؤكد على أن الفضاء المكاني يمثل من جهة إطارا للممارسات الاجتماعية، ولكنه من جهة أخرى أداة لهيكلة الممارسات الاجتماعية. ويربط "غيدنز" انبثاق الممارسة الاجتماعية بتركز مجموعة من الأفراد في مكان محدد واشتراكهم في جملة من التصورات والتمثلات والعادات اليومية الحياتية على مستوى المكان مما يساهم في تحديد السلوكات الاجتماعية والتوجهات الثقافية ويحافظ على استمرارية المشترك المجالي ليكون دافعا نحو التعبئة.[211]

في سياق آخر يطرح " كارل شميث" تصورا نقديا لقضية المشروعية والشرعية منطلقا من مراجعة الديمقراطية البرلمانية. إذ يعتبر أنّ ارتباط مسألة المشروعية بالشرعية من خلال اعتبار أنّ كل ما تتخذه الأغلبية يكتسب مشروعية من خلال تطابق القواعد القانونية الشكلية. يؤكد "شميث" في قضية المشروعية على الإشكالية الأخلاقية عند التمييز بين

[210] مارشال (جوردون) (تحرير) موسوعة علم الاجتماع،.المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة الطبعة الثانية 2007، ص 686.

[211] HMED Choukri, Espace géographique et mouvements sociaux, In Fillieule Olivier et al., Dictionnaire des mouvements sociaux, Presses de Sciences Po (P.F.N.S.P.) « Références », 2009, p 221.

الشرعي القانوني المطابق للقواعد الإجرائية وبين المشروعية أي احترام العدل، ويرى أن المنطق البرلماني الليبرالي صاغ شروطا من أجل إزاحة المشروعية من خلال الشرعية.[212]

يهتمّ هذا البحث بالمجتمع المحلي من جهة علاقة الشبكات الاجتماعية المحلية، التي تحرك المجتمع وخاصة مدى ارتباط شبكة العلاقات هذه بالمحلي؛ أي دراسة مميزات المحلي مجتمعيا[213] وعلاقة المحلي بالسياسات الوطنية، وموقع المحلي في الحركات الاجتماعية التي تطالب بالعدالة الاجتماعية باعتبار المحلي حقلا اجتماعيا يعبّر عن "حالة صراع القوى بين الفاعلين"[214]

ويرتبط التركيز على الحركات الاجتماعية باعتبارها موضوعا رئيسيا للتحليل السوسيولوجي[215] بعالم الاجتماع الفرنسي "آلان توران"، الذي استخدم مفهوم "الفاعل الاجتماعي" معتبرا الحركات الاجتماعية فاعلا اجتماعيا. إذ لا تمثلالحركات الاجتماعية مجرّد ردود أفعال تجاه الوضعية الاجتماعية. بل إنها نتيجة للصراعات، يعبّر من خلالها الفاعلون عن ذواتهم وتبيّن قدرة الفاعلين الاجتماعيين على الوعي بذواتهم وتنظيم علاقاتهم وتمثل هويتهم من خلال الصراعات التي ينخرطون فيها.[216]

يأتي موضوع البحث ضمن سياق سياسي ما بعد ثوري في تونس تميز باستمرار التحركات الاجتماعية، مما يستدعي قراءة تعيد فهم سياق هذه الاحتجاجات التي تدفع إلى إعادة

---

[212]SAPIR Jacques, (II) Légalité, légitimité et les apories de Carl Schmitt, billet publié sur le carnet Russeurope URL: http://russeurope.hypotheses.org/765. (Consulté le 01/03/2017).
Selon SCHMITT Carl, Légalité, Légitimité, p 50-51, traduit de l'allemand par W. Gueydan de Roussel, Librairie générale de Droit et Jurisprudence, Paris, 1936. Edition allemande, 1932.

[213]سكوت (جون) (تحرير)، علم الاجتماع المفاهيم الأساسية، ترجمة محمد عثمان. الشبكة العربية للأبحاث بيروت الطبعة الأولى 2009.ص 159 الجماعة/commuinty.

[214]بورديو (بيار)، عن الدولة دروس في الكوليج دو فرانس (1989-1992)، ترجمة نصير مروة. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات بيروت الطبعة الأولى 2016، ص 18-19.

[215]TOURAINE Alain, « Les mouvements sociaux : objet particulier ou problème central de l'analyse sociologique? ». Revue française de sociologie, volume 25-numero1, 1984 , p19. Adresse URL : http://www.persee.fr/docAsPDF/rfsoc_0035-2969_1984_num_25_1_3765.pdf (Consulté 22/07/2017)

[216] TOURAINE Alain, Le retour de l'acteur, Paris, Fayard 1984.Collection : Mouvement, no 3.P 107. [Document électronique] sur Les classiques des sciences sociales Adresse URL : http://classiques.uqac.ca/contemporains/touraine_alain/retour_de_acteur/retour_de_acteur.pdf (consulté 22/07/2017)

النظر في المسألة الاقتصادية بعد الثورة وهي المسألة التي وقع تغييبها على حساب المسألة السياسية نظرا للتركيز على الانتقال الديمقراطي كمسار سياسي يحظى بالأولوية. وهو ما يطرح عدّة تساؤلات حول مسار الانتقال الديمقراطي[217] ومسألة المشروعية السياسية خاصة مع عدم وقوع تغييرات هامة في السياسات الاقتصادية في الفترة التي مرّت فيها البلاد بتحديات أمنية وسياسة. لكن ذلك لا يمكن أن يحجب تحديًّا على مستوى أساسي من الأهمية وهو تحدّي تحقيق العدالة الاجتماعية وإشكالية التفاوت بين الجهات والفئات مع استمرار نفس منوال التنمية الاقتصادية. وقد تطرقت بعض الدراسات ما بعد الثورة لدور الحركة النقابية والمجتمع المدني في مقاربة مسألة العدالة الاجتماعية والتفاوت الاقتصادي والجهوي، لكنّنا في هذا البحث أمام فاعلين مختلفين. تمثل قضية هنشير اِلْمْعَمَّرْ/ستيل جمنة إحدى الحالات التي تعبّر عن المسار التاريخي للتهميش الاقتصادي والإقصاء السياسي الذي كرسته السياسات العمومية منذ الاستقلال، حيث استطاع المجتمع المحلي في جمنة من خلال الذاكرة المرويّة المحافظة على روايتهِ حول قضية افتكاك هنشير اِلْمْعَمَّرْ/ستيل. وتمكنت الحركة الاحتجاجية منذ 2011 من استعادة الذاكرة الجمعيّة[218] الكامنة التي ساهمت في تشكل حركة اجتماعية محلية على أساس المشروعية التاريخية لقضية هنشير اِلْمْعَمَّرْ/ستيل.

استفدت في صياغة هذا النصّ من بعض المادة الأولية لبحث الماجستير في العلوم السياسية.[219] توخّيت المنهج الكيفي الذي يتيح دراسة مسارات الفاعلين ومسار الحركة الاحتجاجية وتطوراتها، كما يتيح دراسة تمثلات الفاعلين للمسار السياسي. ولأن موضوع الدراسة يتطلب بحثًا ميدانيا لفهم مسارات الحركة الاحتجاجية وتطوراتها، فقد اعتمدت

---

[217]أثارت قضية هنشير جمنة التساؤل حول علاقة المسألة الديمقراطية بإشكاليات المسألة الفلاحية، أنظر مثلاً:
KRICHEN Aziz, L'affaire de Jemna. Question paysanne et révolution démocratique, La Presse 31 octobre 2016.

[218]من الدراسات التي تناولت علاقة الحركة الاحتجاجية بالذاكرة الجمعيّة في سياق آخر، سوكاح (زهير)، الحركة الاجتماعية والذاكرة الجمعية: حراك الحسيمة المغربية نموذجا، إضافات/العددان 43-44، صيف-خريف 2018. ص81-102.

[219]الكنيس (علي)، مذكرة ماجستير بحثي في العلوم السياسية بعنوان الحركات الاجتماعية في تونس. مثال: هنشير اِلْمْعَمَّرْ/ستيل جمنة. تمت مناقشتها في شهر فيفري 2019، بكلية الحقوق والعلوم السياسية بتونس(جامعة تونس المنار). وهي بصدد الإعداد للنشر.

المقابلات المفتوحة/المعمقة ذات الأسئلة غير المقننة التي تمت ما بين جويلية وسبتمبر 2017 مع كل من أعضاء هيئة جمعية حماية واحات جمنة (عدد منهم أعضاء بالرابطة المحلية لحماية الثورة ودعمها سابقا) وبعض الناشطين المحليين لدورهم المهم منذ جانفي 2011 في قضية هنشير المعمر/ستيل. كما قمت تحليل محتوى الوثائق التي تمكنا من الحصول عليها، إضافة إلى المشارَكَة والملاحظة المشَارِكة في مسار موضوع الدراسة. وإذ أنجز هذا البحث أنطلق من صفتين مزدوجتين، صفة الباحث وصفة الناشط، بصفتي أحد مؤسسي الحملة الوطنية لدعم جمنة وهي حملة تضامنية تأسست دعما لتجربة جمنة، مما أتاح بناء علاقات مع الفاعلين في هذه القضية/موضوع البحث وهو ما يقدم أفضلية في إنجاز البحث. ولكنه يحتّم إنجاز العمل البحثي وفق القواعد العلمية من أجل إنتاج معرفة علمية ملتزمة بما هي توجه معرفي متزامن مع الالتزام، في إطار استثمار المعرفة من أجل يكون الإنتاج العملي ملتزمًا مع تمتعه بالشرعية العلمية باعتبار أن المعرفة لا تكتسب إلاّ في إطار العمل العلمي الخاضع لقواعد المجتمع العلمي.[220] كما أن ذلك مكنني من التدخل الإيجابي في موضوع البحث، عبر العمل على إيجاد موقف بحثي يمكن فى إطاره أن تدرك الحركة الاجتماعية طبيعة الصراع الذي تخوضه. وتقوم مقاربة التدخل الاجتماعي[221]«L'intervention sociologique» التي قدمها "آلان تورين" على الدخول فى علاقة مع الحركات الاجتماعية والمساهمة في تنظيم مناضليهاوتشجيعهم أثناء أدائهم لأدوارهم النضالية والمشاركة في شرح السياق التاريخي للحركة وللعناصر النشطة فيهاوالمشاركة في التحليل الذاتي لموقف المناضلين في الحركة الاجتماعية[222].

[220]BOURDIEU Pierre, Pour un savoir engagé, (février 2002) Adresse URL: https://bit.ly/2oWDTzs(consulté 15/08/2017)

[221]TOURAINE Alain, La voix et le regard Paris, Seuil 1978.Collection : sociologie permanente, no 1. Deuxième partie : l'intervention sociologique, p181-189. [Document électronique] sur Les classiques des sciences sociales (consulté 22/07/2017) Adresse URL :http://classiques.uqac.ca/contemporains/touraine_alain/voix_et_regard/la_voix_et_le_regard.pdf

[222]Ibid., p197-202.

1) من المَطلبيّة إلى الافتكاك ...تشكل حركة اجتماعية محلية

مثّل هنشير اِلْمْعَمَّرْ/ستيل التي سوغه نظام بن علي لمستثمرين خواص بالنسبة لمتساكني جمنة رمزا للفساد والاستبداد، إذ اعتبرت الضيعة مثالا للاستبداد الاقتصادي والهيمنة الخاصّة[223]، خاصة أن تسويغ الأراضي الفلاحية الدولية كما يستعرض تقرير اللجنة الوطنية لتقصي الحقائق حول الرشوة والفساد 2011 يتمّ بإشراف مباشر من قبل الرئيس المخلوع ويمرّ عبر المحاباة بمنح تلك الضيعات للمقربين من السلطة دون سواهم[224].

لم ينتهِ مسار الأحداث في جمنة باسترجاع الدولة لضيعة هنشير اِلْمْعَمَّرْ/ستيل، إنما تطورت الأوضاع لمطالبة المتساكنين بالتمسك بالأرض وعدم التفريط فيها واعتبار "استردادها مساهمة في القضاء على البطالة"[225]. وتشكلت هيئة تسييريّة للهنشير انبثقت عن الاجتماعات الشعبية التي تعقدها الرابطة المحلية لحماية الثورة ودعمها بجمنة التي تولت إدارة الهنشير منذ تشكلها[226]، من خلال جمع التبرعات من قبل المواطنين[227] إضافة لتبرعات أخرى.[228] كما استطاعت الهيئة التسييريّة اقتراض مبلغ مالي من تجار تمور من الجهة ومن الجمعيات المائية[229] إضافة للعمل التطوعي بالهنشير وتوفير لقاح النخيل.

---

[223]المقابلة مع الطاهر الطاهري رئيس جمعية حماية واحات جمنة، جويلية 2017

[224]تقرير اللجنة الوطنية لتقصي الحقائق حول الرشوة والفساد 2011، الملحق (الوثائق من 90 A إلى 100 A). نذكر أيضا وثيقة أخرى تحصلنا عليها وهي "مراسلة من السيدين عبد الله مبروك بن عامر وخليفة القذافي الكاروس إلى سيادة المحترم وزير الفلاحة حفظه الله ورعاه حول الرغبة في استثمار ضيعتين فلاحيتين دوليتين الطرفاية بمعتمدية دوز والصالحية بمعتمدية قبلي"، بتاريخ 2001/05/03، وأكدا في هذه الرسالة دعمهما "لبرامج الدولة وسياستها الرشيدة ورهانات التغيير" وعملهما الدائم "بالهياكل التجمعية"، وفي خاتمتها تنويه بـ"سياسة العهد الجديد التي أرسى دعائمها سيادة الرئيس زين العابدين بن علي حفظه الله ورعاه"، مجموعة وثائق، مصدر سابق.

[225]وثيقة: مراسلة إلى السيد عميد ثكنة قبلي بتاريخ 2011/02/21. مجموعة وثائق، مصدر سابق.

[226]المقابلة مع صالح عبد الجواد، عضو الهيئة التسييرية لهنشير المعمر بالرابطة المحلية لحماية الثورة و دعمها بجمنة سابقا وعضو الهيئة المديرة لجمعية حماية واحات جمنة حاليا، جويلية 2017.

[227]تم جمع تبرعات من متساكني جمنة، المقابلة مع طارق الرحموني سبتمبر2017 شاب وناشط شارك في فعاليات واحتجاجات مختلفة مرتبطة بقضية هنشير المعمر/ستيل وسبق أن تطوع في عملية استصلاح وتهيئة الهنشير وكمستخلص حسابات بالهنشير من 2011 إلى غاية 2015.

[228]تبرع "بيار كليمان" أستاذ إبستيمولوجيا التعليم مدير أطروحة محمد كشكار أصيل جمنة المقيم بالعاصمة، أورده محمد كشكار في، كشكار (محمد)، جمنة و فخ العولمة، شركة المطبعة الثقافية ، تونس 2016، ص 98.

[229]المقابلة مع الطاهر الطاهري، جويلية 2017.

يأتي استهداف الأراضي الفلاحية التي تسوغها الخواص كردّة فعل تجاه الخيارات السياسية لنظام بن علي ويحمل استشعارا للتهميش الاقتصادي الذي تعرض له صغار الفلاحين وبقية المتساكنين في القرى والأرياف في تونس.[230] إذ ساهم التهميش الاقتصادي، الإقصاء السياسي والتدمير البيئي واستغلال مقدّرات المناطق الريفية في العالم العربي بشكل عام في مراكمة الفقر وغياب الاستقرار الغذائي وتكثيف صعوبة الولوج للموارد وإمكانيات المشاركة في اتخاذ القرار، مما أذكى الاحتجاجات في المناطق الريفية في مواجهة سياسات التفقير والإقصاء المرتبطة بسياسة السوق الحرة التي تفضّل النخب السياسية والاقتصادية المؤثرة على متساكني الريف وصغار الفلاحين عموما.

بداية من 2012، مع تقنين العمل السياسي وحلّ لجنة حماية الثورة بجمنة تأسست جمعية حماية واحات جمنة[231]، التي تم الاتفاق على إحداثها. وضمت تركيبة متكونة من عشرة أشخاص. إذ تم اختيار كل من "الطاهر الطاهري" (رئيس)، "عبد المجيد الحاج حمد" (نائب رئيس)، "صالح عبد الجواد" (كاتب عام)، و"علي حمزة" (أمين مال). إضافة لعضوية كل من "بلقاسم الشايب"، "أحمد كشكار"، "إبراهيم الخليل"، "علية عبد السلام"، "عنتر الرحموني"، و"حسين عبد القادر". وجميعهم أعضاء باللجنة المحلية لدعم وحماية الثورة، كما تمت إضافة "منصور الشايب" للهيئة التسييرية للضيعة باقتراح من أحد أعضاء لجنة حماية الثورة.[232]

جاء تأسيس الجمعية كإطار لتسيير الضيعة والحوار مع السلطة، إلى أن اقترح وزير الفلاحة محمد بن سالم إبّان حكومة الترويكا[233] تأسيس شركة إحياء وتنمية فلاحية التي يخولها القانون كراء عقار فلاحي دولي من الدولة باعتبارها الحل القانوني الممكن حسب الوزير.

---

[230]GANA, op.cit p 65

[231]الرائد الرسمي عدد 34- 20 مارس 2012، إعلانات قانونية و شرعية و عدلية الصفحة 1763.

[232]المقابلة مع علية عبد السلام عضو الهيئة التسييرية لهنشير المعمر، الرابطة المحلية لحماية الثورة ودعمها بجمنة سابقا وجمعية حماية واحات جمنة حاليا، جويلية 2017. المقابلة مع إبراهيم الخليل، عضو الهيئة التسيرية لهنشير المعمر، الرابطة المحلية لحماية الثورة ودعمها بجمنة سابقا وجمعية حماية واحات جمنة حاليا، سبتمبر 2017.

[233]الترويكا: اختصار للإتلاف الحزبي الحاكم المتكون من ثلاثة أحزاب آنذاك و هي حركة النهضة، حزب المؤتمر من أجل الجمهورية وحزب التكتل من أجل العمل و الحريات.

واختير ستة و عشرون شخصا من قبل ثلاثة أعضاء من الهيئة المديرة لجمعية حماية واحات جمنة كلفوا بذلك، بناءً على مقترح وزير الفلاحة في تلك الفترة، وتمّ إبلاغ المتساكنين بتأسيس الشركة. أما اختيار الأشخاص فاقتصر على ثلاثة أعضاء من الجمعية كلفوا بذلك. رفض المتساكنون الشركة خوفا من أن تصبح الضيعة محلّ منفعة خاصة لقائمة الستة والعشرين مع أن التوجه كان أن يقوم كل شخص من الذين وقع اختيارهم ببيع سهمه وتعهدوا بذلك كتابيا؛ أي بعدم التوريث وبيع أسهمهم وتوزيعها فيما بعد على مائة شخص. وانعقد اجتماع عام مع المتساكنين لتوضيح هذه المسألة بحضور خبير محاسب ومحامي الجمعية، لم يقتنع المتساكنون فوقع حلّ الشركة[234]. وواصلت الجمعية تسيير الهنشير منذ 2012.

ضمت جمعية حماية واحات جمنة مجموعة من الأشخاص من توجهات فكرية مختلفة. ومن مميزات هذه المجموعة ضمّها لأشخاص أصحاب تجربة سياسية ونقابية، رغم اختلاف خلفيتهم السياسية؛ بينهم القومي، اليساري، الإسلامي والنقابي وآخرين لا يتمتعون بتجربة سياسية سابقة. وتعود الأصول الاجتماعية لهذه المجموعة بشكل عام للشرائح الدنيا للطبقة الوسطى سواء من موظفي القطاع العام ومن ذوي التحصيل العلمي الجامعي (سبعة أشخاص من أعضاء الهيئة المديرة للجمعية من قطاع التعليم سواء المباشرين أو المتقاعدين ومن المتقاعدين والمباشرين بالوظيفة العمومية) ومن صغار الفلاحين من ذوي التكوين العلمي المتواضع الذي يمارسون النشاط الفلاحي كنشاط رئيسي (ثلاثة من أعضاء الهيئة المديرة للجمعية)، وهو ما يؤهلهم جميعا للاضطلاع بدور قيادي في مجتمع محلي يعطي أهمية للعلاقات الاجتماعية. إذ ساهم الرافد الاجتماعي المحلي من خلال الاستفادة من تنوع الانتماءات الاجتماعية والعائلية من أجل تحقيق تماسك اجتماعي وتضامن أساسه المصلحة العامة المحلية. ويبرز ضمن هذه المجموعة الحضور المهمّ

[234]المقابلة مع بلقاسم الشايب، و علي حمزة، سبتمبر 2017، عضوين الهيئة التسييرية لهنشير المعمر، الرابطة المحلية لحماية الثورة ودعمها بجمنة سابقا وجمعية حماية واحات جمنة حاليا بتاريخ. تصفية شركة، الرائد الرسمي للجمهورية التونسية، 3 ديسمبر 2013، عدد145.

لرئيس جمعية حماية واحات جمنة الطاهر الطاهري الذي يمثل تواجده عنصرًا جامعًا في جمنة فرغم الاختلاف الذي يمكن أن يحصل معه في أيّ مسألة في جمنة سواء داخل جمعية حماية واحات جمنة أو خارج الجمعية، فإنّ موقفه يحظى باحترام وتقدير من قبل الجميع داخل جمنة.[235] تمثّل رمزية الطاهر الطاهري تعبيرا عن شخصية تحظى بإجماع في جمنة، وتنبع هذه الرمزية من رأس المال الاجتماعي[236] الذي يمثله من خلال شبكة علاقات محلية وجهوية واسعة وانتمائه لبلدة جمنة باعتبارها حيّزًا جغرافيًّا واجتماعيا يعطي أهمية للعلاقات الاجتماعية المحلية. كما يتميّز بكونه صاحب تجربة نقابية مهمة على المستوى الجهوي باعتباره أحد روّاد العمل النقابي بولاية قبلي بقطاع التعليم.

إذن، فالحركة الاحتجاجية التي شهدتها جمنة يمكن أن تجد صداها في تعريف "تشارليز تيلي" للحركة الاجتماعية باعتبارها سلسلة من الأداء المتواصل والمعارضات والحملات التي يقوم بها الأشخاص العاديون لرفع مجموعة من المطالب[237]. لكن مع التطور الذي شهدته بتبلور حركة اجتماعية فإن مقاربة "آلان توران" تبدو أكثر قربا للتعبيرعن ما شهدته جمنة. وتتميز الحركة الاجتماعية في تصور "توران" بثلاثة عناصر وهي هوية الحركة الاجتماعية وتعريفها، المواجهة أو التعارض تجاه ما تستهدفه، وشمولية الحركة الاجتماعية باعتبار أنّ كل حركة اجتماعية تدافع عن مبادئ وأهداف محلّ اتفاق بين الأفراد الفاعلين في الحركة الاجتماعية. في جمنة نجد أننا أمام حركة اجتماعية تضع لنفسها هوية سياسية محلية تواجه السياسات الاقتصادية الفلاحية التي أنتجها الاستعمار وكرستها الدولة الوطنية، وذلك بمشاركة واسعة من المتساكنين لتمثّل الحركة الاجتماعية المحلية التي شهدتها جمنة تعبيرًا عن وعي جماعي عام. إن التصور الذي قدمه "توران" يجد عمقه في فهم سوسيولوجيا الحركات الاجتماعية في العالم غير الغربي وغير الأوروبي أي خارج النموذج الغربي المُهيمن، حيث تمثّل الحداثة التعبير الأيديولوجي لهيمنة الشمال

---

[235] المقابلة مع بلقاسم الشايب، سبق ذكره.
[236] شوفالييه (ستيفان) وشوفيري (كريستيان)، معجم بورديو.دمشقالناية للدراسات و النشر و التوزيع 2013. ص 164.
[237] تِلّي (تشارليز)، الحركات الاجتماعية 1768-2004، القاهرة المجلس الأعلى للثقافة 2005. ص 44.

على الجنوب، إذ أن الصراع الأساسي في الجنوب يتمحور حول التحرر الوطني[238]، وهو الصراع الذي عبرت عنه المواجهة التي خاضتها جمنة في مواجهة السياسات الاستعمارية التي أعادت الدولة الوطنية تكريسها بالاستيلاء على مقدرات المتساكنين في الفترة الأولى التي تلت الاستقلال ومنحها فيما بعد للمستثمرين الخواص في إطار التوجهات الاقتصادية النيوليبرالية التي انخرطت فيها الدولة.

مرت قضية هنشير اِلْمْعَمَّرْ/ستيل من بروز حركة احتجاجية في 2011 لتتطور فيما بعد نحو تشكل حركة اجتماعية. وقد ارتبطت هذه الحركة الاحتجاجية منذ بداياتها بإطارها المحلي وهو الإطار الذي مكنها من التطور نحو حركة اجتماعية محلية، أي أن بدايتها كحركة احتجاج محلي أو حركة احتجاجية محلية لتنحو منحى حركة اجتماعية محلية فيما بعد. إذ خلقت قضية هنشير اِلْمْعَمَّرْ/ستيل التفافا مجتمعيا محليا حولها ارتبط بتمتعها بمشروعية تاريخية لدى متساكني جمنة. وتجاوزت المستوى المحلي لتأخذ بعدا وطنيا لتجمع حولها مساندة ودعمًا خاصة من قبل فاعلين متمايزين عن الفاعلين التقليديين من خلال اتساع مساندتهم وأخذها شكلا تنظيميا مفتوحا.

2) مساندو جمنة... فاعلون سياسيون واجتماعيون غير تقلديين:

تباينت مواقف الفاعلين السياسيين والاجتماعيين حسب حجم الفاعلين وتموقعهم السياسي، (الحكم أو المعارضة) وبرزت هذه المواقف من قضية هنشير اِلْمْعَمَّرْ/ستيل من خلال تفاعل جمعية حماية واحات جمنة مع المحيط السياسي والاجتماعي. لكنها تكثفت خاصة مع بتة موسم أكتوبر 2016، مع تصاعد التوتر في ملف جمنة خاصة مع كتابة الدولة لأملاك الدولة والشؤون العقارية. إذ تعددت الأطراف التي عبرت عن موقفها من ما شهده هنشير اِلْمْعَمَّرْ/ستيل منذ 2011، ومثّل موعد بتة 2016 التاريخ الذي توجّه فيه

[238] TOURAINE, op, cite. P 65-66.

النظر لتجربة جمعية حماية واحات جمنة وإلى بلدة جمنة، من قبل الأحزاب السياسية والمنظمات الحقوقية والنقابية كفاعلين سياسيين واجتماعيين تقليدين، وتراوحت مواقفهم من قضية هنشير اِلْمْعَمَّرْ/ستيل بين رفض القبول بها (الحزب الأغلبي في التحالف الحكومي آنذاك)، الدعم المبدئي (عدد من أحزاب المعارضة وعدد من الجمعيات)، الدعم المتحفّظ المعلن أحيانا (عدد من أحزاب التحالف الحكومي وأحزاب المعارضة) وغير المعلن أحيانا أخرى (الاتحاد العام التونسي للشغل والرابطة التونسية لحقوق الإنسان). أما الفاعلون السياسيون والاجتماعيون غير التقليديين فعبّر موقفهم عن دعم لجمعية حماية واحات جمنة واعتبار تجربتها في تسيير هنشير اِلْمْعَمَّرْ/ستيل أحد المكاسب التي تحققت بعد الثورة.

لقيت قضية هنشير اِلْمْعَمَّرْ/ستيل اهتماما ومساندة من قبل ناشطين بحركات اجتماعية وأصيلي جمنة بتونس العاصمة. وتميز هذا الاهتمام والدعم بكونه تأتى من فاعلين سياسيين من خارج دائرة الفاعلين السياسيين التقليديين، أي الأحزاب السياسية والمنظمات الحقوقية والنقابية. وتميّز هذا الدعم بتجاوزه أشكال الدعم الرسمية ليأخذ مسار الانخراط الميداني في إسناد جمعية حماية واحات جمنة. لذلك يتجه التركيز على تناول مثال على الحملة الوطنية لدعم جمنة باعتبارها فاعلا سياسيا غير تقليدي.

في تونس العاصمة وفي إطار الصدى الذي أخذته قضية هنشير اِلْمْعَمَّرْ/ستيل بداية من شهر سبتمبر 2016. بدأ يتشكل إطار لمساندة تجربة جمعية حماية واحات بالعاصمة. إذ مثلت "مجموعة دعم تجربة واحات جمنة" بتونس التي ستتخذ اسم الحملة الوطنية لدعم جمنة[239] فيما بعد من خلال التقاء عديد الأفراد من مشارب وتجارب سياسية ومختلفة وأفراد لم يسبق أن خاضوا تجربة سياسية. اجتمع هؤلاء الأفراد على دعم قضية جمنة واعتبارها محطة نضالية جامعة. بدأت فكرة الحملة في البداية إثر موقف كاتب

[239]نعتمد على تقنية الملاحظة المشاركة في هذه الفقرة.

الدولةلأملاك الدولة والشؤون العقارية مبروك كورشيد[240] إذ التقى مجموعة من الناشطين وعدد من أصيلي جمنة القاطنين بالعاصمة سواء من الطلبة أو من المستقرين بالعاصمة منذ سنوات وذلك لتباحث كيفية مساندة قضية جمنة بشكل عام وذلك بتاريخ 22 سبتمبر 2016.[241] وتتالت اللقاءات ومع تواتر الأخبار عن إمكانية منع كتابة الدولة لأملاك الدولة للشؤون العقارية للبتّة التي دعت لها جمعية حماية واحات جمنة، قرر أعضاء حملة الدعم تنظيم قافلة مساندة لجمعية حماية واحات جمنة ولقرية جمنة في موعد البتة. ومثلت القافلة التي اتجهت من تونس العاصمة نحو جمنة يومي 8 و 9 أكتوبر 2016 التحرك الميداني التأسيسي للقافلة التي كانت مفتوحة أمام الصحافيين والمواطنين، فبالإضافة لحافلتين وفرتهما لجنة تنظيم القافلة بمعلوم مشاركة محدد يغطي تكاليف التنقل شارك عدد من المواطنين في القافلة من خلال مرافقتهم للقافلة بسياراتهم الشخصية. بعد هذه القافلة تمّ التفكير في كيفية مواصلة مساندة جمعية حماية واحات جمنة واتفق أعضاء الحملة على تطوير عمل حملة دعم جمنة لتتخذ الحملة مسمى الحملة الوطنية لدعم جمنة واختيار شعار للحملة ووسم فايسبوكي/"hashtag" ("سيب جمنة، المصلحة العامة قبل الربح الخاص"). والعمل على تنظيم عديد الأنشطة والتحركات الداعمة، ويمكن تقسيم هذه الفعاليات إلى صنفين؛ فعاليات ذات طابع احتجاجي ومساند وفعاليات توعوية فكرية وإعلامية إضافة لاجتماعات دورية للحملة لمتابعة تطورات ملف القضية. شملت الفعاليات الاحتجاجية بداية وقفة احتجاجية نظمتها الحملة أمام مقر وزارة الدولة و الشؤون العقارية يوم 20 أكتوبر 2016 وذلك "للتعبير عن رفض الحملة للهرسلة واستغلال النفوذ اللذيْن يمارسهما كاتب الدولة "مبروك كورشيد" ضدّ جمنة وتجربتها"[242]، وحملة لجمع التوقيعات على عريضة مساندة لجمعية

[240]بلاغ صادر عن كتابة الدولة لأملاك الدولة والشؤون العقارية تحذّر بخصوص واحات جمنة بتاريخ 1 سبتمبر 2016، مصدر سابق.

[241]محضر جلسة الاجتماع الأول لمجموعة دعم تجربة واحات جمنة بتونس في 2016/09/22، أرشيف شخصي.

[242]وقفة احتجاجية أمام وزارة أملاك الدولة والشؤون العقارية (صفحة الحدث على الفايسبوك للحملة الوطنية لدعم جمنة)، الرابط: https://bit.ly/2G2I2YR [معاينة 2018/08/18]، و وقفة احتجاجية مساندة لجمنة، فيديو من إنتاج موقع نواة بتاريخ 20 أكتوبر 2016، الرابط: https://bit.ly/2Uwo9DH [معاينة 2018/08/18].

حماية واحات جمنة[243]. أما الفعاليات ذات الطابع التوعوي والإعلامي والفكري فقد شملت المشاركة مع جمعية حماية واحات جمنة في تنظيم ندوة صحفية عقدت بتونس العاصمة يوم 14 أكتوبر 2016 تضمنت دعوة "لكافّة وسائل الإعلام المهتمّة بالتعرّف على حيثيّات قضيّة هنشير جمنة"[244]، وتنظيم ندوة فكرية تحت عنوان "إشكالية الأراضي الدولية جمنة، نموذجا" وذلك يوم 22 أكتوبر 2016 بتونس العاصمة[245]. وتنظيم تظاهرة توعوية شملت تذوقا رمزيا لدقلة جمنة بشارع الحبيب بورقيبة بتونس العاصمة وإمضاء عريضة المساندة، والتواصل مع المواطنين وذلك يوم 5 نوفمبر 2016[246]. كما شارك أعضاء من الحملة الوطنية لدعم جمنة في لقاء مغلق بالعاصمة نظمه المنتدى التونسي للحقوق الاجتماعية والاقتصادية بتاريخ 4 ماي 2017[247] لمناقشة مقترح وزارة الفلاحة بحضور "نوال جبّاس" المكلفة بالاقتصاد الاجتماعي والتضامني بوزارة الفلاحة. إضافة لذلك شارك أعضاء من الحملة الوطنية لدعم جمنة في اجتماع شعبي عام بجمنة مخصص لمناقشة الحلول المقترحة من قبل الحكومة لقضية جمنة، كما شارك عضوان من الحملة الوطنية لدعم جمنة في لقاءين، الأول مع وزير الفلاحة رفقة عضوين من هيئة جمعية حماية واحات جمنة بتاريخ 4 أفريل 2017 خصص لمناقشة مقترح وزارة الفلاحة، والاجتماع الثاني مع مدير مكتب هيكلة الأراضي الدولية بوزارة الفلاحة بتاريخ 15 أفريل 2017 لعرض مقترح وزارة الفلاحة وتوضيحه. كما شارك أعضاء من الحملة الوطنية لدعم جمنة في اليوم الدراسي الذي نظمته جمعية حماية واحات جمنة بدار الشباب بجمنة

---

[243]صور عريضة مساندة لجمعية حماية واحات جمنة، منشور على صفحة الفايسبوك للحملة الوطنية لدعم جمنة، الرابط: http://cut-urls.com/IJWct5 [معاينة 2018/08/18]

[244]بلاغ إعلامي جمعية حماية واحات جمنة تردّ على المغالطات في ندوة صحفية، منشور على صفحة الفايسبوك للحملة الوطنية لدعم جمنة، https://bit.ly/2Z29vCH [معاينة 2018/08/18]، و "جمعية واحات جمنة: متمسكون بالتجربة و نطالبكم بالتدقيق في مصاريفنا"، فيديو من إنتاج موقع نواة بتاريخ 15 أكتوبر 2016، الرابط: https://bit.ly/2D5bhJH [معاينة 2018/08/18].

[245]الفيديو المسجلّ للنقل المباشر للمداخلات للندوة الفكرية التي نظمتها الحملة الوطنيّة لدعم جمنة وجمعية 1864- الجامعة الشعبية محمد علي الحامي، مصدر سابق.

[246]صفحة الفايسبوك للحملة الوطنية لدعم جمنة ."صور من فعاليات التظاهرة التحسيسية التي نظمتها الحملة الوطنية لدعم جمنة اليوم اليوم السبت 5 نوفمبر 2016 من الساعة 15 الى الساعة 17 بشارع الحبيب بورقيبة للتعريف بالقضية كما تم توزيع دقلة جمنة على المواطنين لتذوقها -تذوقا نضاليا- مرفوقة بنصّ توعوي يفسّر مختلف جوانب التجربة والإمضاء على عريضة المساندة"،الرابط:https://bit.ly/2U7fGS4 [معاينة 2018/08/18].

[247]محادثة هاتفية مع رمضان بن عمر المكلف بالإعلام بالمنتدى التونسي للحقوق الاجتماعية و الاقتصادية بتاريخ 2018/10/04.

بتاريخ 16 أفريل 2017، لمناقشة المقترحات الحكومية في ملف هنشير اِلْمْعَمَّرْ/ستيلبحضور كفاءات علمية وخبراء في المجال الاقتصادي والفلاحي.

مثلت الحملة الوطنية لدعم جمنة إطارًا تنظيميًّا غير تقليديّ باعتبارها تجمعًا لمجموعة من الناشطين من تجارب مختلفة، فمنهم من سبق أن خاض تجربة سياسية حزبية ومنهم من اقتصر نشاطه على العمل الجمعياتي دون أن تكون له تجربة سياسية حزبية، إضافة إلى أنّ عددا من أعضاء الحملة كان انضمامهم للحملة من منطلق انتماء جغرافي أيّ أصيلي جمنة المستقرين بالعاصمة. أما على مستوى التحصيل العلمي لأعضاء الحملة فإنّ معظمهم من أصحاب التكوين الجامعي، أما المستوى الاجتماعي فقد تميّز بكون أغلبيتهم من الطبقة الوسطى. رغم اختلاف الانتماءات والتجارب اجتمع أعضاء الحملة على مساندة تجربة جمعية حماية واحات جمنة وتمكنت الحملة من ربط علاقة وثيقة مع جمعية حماية واحات جمنة وتداول معطيات وتطورات قضية هنشير اِلْمْعَمَّرْ/ستيل. كما ساهمت الحملة ميدانيًّا من خلال التحركات التي نفذتها في دعم جمعية حماية واحات جمنة والتعريف بقضية جمنة خاصة في تونس العاصمة، وتمكنت من توفير الإسناد التفاوضي لجمعية واحات جمنة خاصة من خلال مشاركتها في لقاءات مهمة مع المسئولين الحكوميين، مما جعل التواصل في البداية ممكنا والدعم متاحا فيما بعد، لانفتاح جمعية حماية واحات جمنة على محيطها الاجتماعي والسياسي و ترحيبها بمختلف الملاحظات التي تلقتها من مختلف الفاعلين[248] وخاصة الحملة الوطنية لدعم جمنة.

إن شكل التنظم "الحملة" يعبّر عن إشكالية في المرحلة السياسية الانتقالية في تونس إذ لم تعد الأحزاب السياسية إطار تنظيميًّا قادرًا على الاستقطاب والتأطير خاصة بالنسبة للفئات الشبابية. إن هذا التحدي الذي طرح على مستوى تنظيم التحركات الاحتجاجية جعل شكل "الحملة" -بما هي إطار مفتوح ويختلف حتى عن الجمعيات التي تتطلب

[248] في إطار انفتاح جمعية حماية واحات جمنة توصلت بتاريخ إلى اتفاق مع منظمة أنا يقظ حول إتاحة تقاريرها المالية. أنظر: التوصل إلى اتفاق بين منظمة أنا يقظ وجمعية حماية واحات جمنة، الرابط: https://bit.ly/2Ipifwv[معاينة 2018/09/27]

تأسيسا قانونيا والتزاما غير محدد المدة- ميزة للتنظّم السياسي والاجتماعي في المرحلة الانتقالية.

3) جمنة حركة اجتماعية تدافع عن ذاكرة محلية وتستعيدها: من الاستعمار إلى ما بعد الاستعمار العمق التاريخي لقضية أرض جمنة

من خلال المقابلات مع الفاعلين الاجتماعيين في قضية هنشير اِلْمْعَمَّرْ/ستيل ومن خلال الاطلاع على المراسلات والبلاغات التي وجهتها في البداية الرابطة المحلية لحماية الثورة ودعمها بجمنة نلحظ تأكيدا على الأحقية التاريخية لمتساكني جمنة في هنشير اِلْمْعَمَّرْ/ستيل، ورفض اعتبار تصرفهم في جانفي 2011 عملية استيلاء.[249] بل تأكيدًا على أنّ ما وقع كان استردادا لحقٍّ بفعل الثورة لأرض افتكها المستعمر الفرنسي.[250]

وبالعودة للمصادر التاريخية، ومنها ما ينقله "محمد ضيف الله"[251] و"عميرة عليّة الصغيّر"[252] عن "بيار مورو"[253] ، نجد أن ضيعة واد المالح (هنشير المعمر)، كانت قد منحت سنة 1922 لمعمر فرنسي يدعى « Merillon » كقطعة أرض تقع جنوبي قبلي على بعد اثني عشر كيلومترا، وتبلغ مساحتها خمسمائة هكتار، وتكونت لتسييرها الشركة التجارية الفلاحية للجنوب التونسي (S.C.A.S.T) وق شيد المعمّر المذكور برجا على أرض

---

[249] إلى كافة أهالي جمنة (بلاغ)، مجموعة وثائق. مصدر سابق.

[250] شكاية إلى والي قبلي. مراسلة من الرابطة الشعبية المحلية لحماية الثورة و دعمها بجمنة إلى السيد وزير الداخلية (تم توجيه نفس المراسلة للسيد وزير الفلاحة و السيد وزير أملاك الدولة و السيد وزير الدفاع، مبيّن ذلك بهامش المراسلة)، أربعة مراسلات من اللجنة المحلية لحماية الثورة ودعمها إلى السيد وزير أملاك الدولة، مراسلة من لجنة حماية الثورة بجمنة إلى السيد وزير الفلاحة. مجموعة وثائق، مصدر سابق.

[251] ضيف الله(محمد)، نوافذ على تاريخ نفزاوة. المغاربية للطباعة، 2008 تونس

[252] علية الصغيّر (عميرة)، نفزاوة زمن الاستعمار وجدليّة الخضوع والمقاومة (1956-1881) ص 206. في الشريف (فيصل) (تنسيق وجمع)، الجنوب التونسي من الاحتلال إلى الاستقلال 1881-1956، الندوة الدولية الثانية عشرة المنعقدة بتونس أيام 6 و 7 و 8 ماي 2004، سلسلة تاريخ الحركة الوطنية، عدد 12، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، تونس 2005.

[253] MOREAU Pierre, Des lacs de sel aux chaos de sable, le pays des Nefzaouas. IBLA , Tunis 1947, p139-140.

الهنشير (مازال قائما إلى الآن) الذي كان في نوفمبر 1942 مسكنا مدير الضيعة « M. Maus de Rolley » وعائلته[254].

في جمنة تنقل الروايات الشفوية أنّ الاستعمار الفرنسي افتكّ "أرض الأجداد واعتقل عددا من متاسكني جمنة (الجمنيّين) من بينهم أفراد من عائلتي "الحاج عمر" والقلالي"، و "محمد بن حنين" الذي تم إيقافه لمدة 22 يوما لاعتراضه على افتكاك الأرض التي أقيم عليها هنشير اِلْمْعَمَّرْ (ستيل فيما بعد)[255]، كما ينقل أيضا رئيس جمعية حماية واحات جمنة أنه تمّ تسخير أجدادهم للعمل بالهنشير بالقوة في فترة الاستعمار. يذكر أحد متاسكني جمنة وهو "عبد الحميد النّوري" أن جدّيه الاثنين "الغنّوشي وعليّة" اشتغلا في الهنشير قبل الاستقلال ولاحقًا إثر تأميمه سنة 1962، ويضيف أنّ استرجاع الهنشير يمثّل مطلبًا جماعيًا للأجداد الذين كانوا يعملون تحت ضغط المستعمر قبل التأميم وكأنه معسكر.[256]

بعد نهاية الاستعمار وإعلان الجلاء الزراعي في 12 ماي 1964[257] تشير الراويات المحلية إلى أن عددا من متساكني جمنة سعوا لاسترجاع أرض هنشير اِلْمْعَمَّرْ.[258] وهو ما تدعمه الوثائق التي تحصلت عليها في إطار هذا البحث. إذ سعى عدد من متساكني جمنة

[254]COMMANDANT AUDOUIN-DUBREUIL Louis, La guerre de Tunisie (Novembre 1942-Mai 1943)Paris Payot 1945. Collection de Mémoires, études et documents pour servir à l'histoire de la guerre. p121-122.

الصفحتان 121 و 122، مجموعة وثائق، مصدر سابق.

[255]المقابلة مع الطاهر الطاهري، سبتمبر2017.

[256]المقابلة مع الطاهر الطاهري، نفس المصدر.

[257]قانون عدد 5 لسنة 1964 مؤرخ أول محرم 1384 (12 ماي 1964) يتعلق بملكية الأراضي الفلاحية في تونس، الرائد الرسمي للجمهورية التونسية الصادر في 12 ماي 1964، ص 656.

[258]المقابلات التي أجريتها مع أعضاء هيئة الجمعية جويلية و سبتمبر 2017، المقابلة مع إبراهيم الخمار، ناشط و شاب من جمنة شارك في فعاليات و الاحتجاجات مختلفة مرتبطة حول قضية هنشير المعمر/ستيل، ومتابع لتطوراتها سبتمبر 2017. المقابلة مع رياض بن علي ناشط بجمنة مشارك في أغلب التحركات مهمته الإعلان عن الاجتماعات العامة التي تعقد بساحة راس العين ومواكب للتطورات التي شهدتها قضية هنشير اِلْمْعَمَّرْ/ستيل جويلية 2017. المقابلة مع سفيان طارق شاب وناشط من جمنة شارك في الفعاليات والاحتجاجات المختلفة المرتبطة بقضية هنشير المعمر/ستيل شارك خاصة في التوثيق الإعلامي ودعم تجربة جمنة كمدون، جويلية 2017. المقابلة مع "زياد الخليل" و"بوبكر بن عثمان"، عاملان بإدارة الهنشير، سبتمبر2017. ومحادثة جماعية مع 7 من عملة الهنشير بنفس التاريخ.

لتأسيس تعاضدية، الأمر الذي يوثقه مطلبان موجهان للسلطات المركزية.[259] تقدم المراسلتان طلبًا في الترخيص باسترجاع الضيعة الفلاحية (هنشير اِلْمْعَمَّرْ) التي كانت على ملكية شركة "سكاست" ووقع تحويلها لأملاك الدولة في إطار تطبيق قانون 12 ماي 1964، مع الاستعداد لتركيز تعاضدية فلاحية بالضيعة.[260] إضافة لذلكتؤكد هذه الفترة التاريخية -كما تذكر الروايات التي ينقلها الجمنيّون وتؤكدها الوثائق التي يحتفظ بها عدد من متاسكني جمنة وقامت بتجميعها جمعية حماية واحات جمنة-، أن "أحمد بن للونة" والي قابس آنذاك (قبلي وقتها معتمدية ترجع بالنظر إداريا لولاية قابس) اقترح على متساكني جمنة الاكتتاب ماليا لشراء واحة هنشير اِلْمْعَمَّرْ أي النخيل وليس الأرض باعتبار أنه من المعلوم أن الأرض ملك للجمنييّن وافتكّها منهم الاستعمار.[261] لكن تلك المبالغ المالية التي جمعت وقع تحويلها واعتبارها مساهمات ببعض المشاريع والتعاضديات والشركات التي تشرف عليها الدولة بالجهة.[262] مما جعل النظر للجلاء الزراعي[263] في جمنة باعتباره "استعمارا فلاحيا ثانيا".[264]

---

[259]مطلب موجه من السيد "محمد صالح البديوي" الرئيس المدير العام للشركة المدنية بنفزاوة إلى السيد كاتب الدولة للفلاحة بتاريخ 27 أكتوبر 1964، ومطلب موجه من "محمد صالح البديوي"، "محمد المكي"، "حفيظ الجمني"، العجمي العابد"، "عبد الحميد القلالي" و"علي بن محمد" و"محمد النحالي"- هيئة الشركة المدنية بنفزاوة –سكاست- إلى وكيل كاتب الدولة للفلاحة بتاريخ 14 فيفري 1964، مجموعة وثائق، مصدر سابق.

[260]"نظرا إلى أن الشركة المذكورة المسماة سكاست وقع تحولها لأملاك الدولة التونسية تطبيقا لقانون رقم 5-64 الصادر في 12 ماي 1964، نلتمس منكم الترخيص بإرجاع الضيعة لفائدة الشركاء السابقين على نسبة مناباتهم وموافقتنا على إبدالها بتعاضدية فلاحية لإسداء الخدمات." مطلب موجه من هيئة الشركة المدنية بنفزاوة –سكاست- إلى وكيل كاتب الدولة للفلاحة بتاريخ 14 فيفري 1964، مجموعة وثائق، مصدر سابق.

[261]المقابلة مع الطاهر الطاهري، جويلية 2017.

[262]تسع وثائق (بين سنتي 1960 و 1968)، تتمثل في بيان مساهمات مالية بتعاضديات وإحالات لمبالغ مالية باسم متاسكنين من جمنة مساهمات بشركات من معلوم مشاركتهم في الشركة المدنية سكاكست، مجموعة وثائق، مصدر سابق.

[263]يشير عبد المجيد بلهادي في مقال له في الذكرى الخمسين للجلاء الزراعي أنّ الجلاء الزراعي تمّ على مراحل إذ أن استعادة الدولة للعقارات الفلاحية التي كانت تحت سيطرة الأجانب وخاصة الفرنسيين بدأ منذ 1960 من خلال إمضاء بروتوكول بين الحكومتين الفرنسية والتونسية وقع بمقتضاه شراء 100 ألف هكتار، أنظر: بلهادي (عبد المجيد)، "الجلاء الزراعي في تونس: قانون 12 ماي 1964 وأوجه تطبيقه"، ص 321. المجلة التاريخية المغاربية، السنة الثانية والأربعين العدد 157 فيفري/شباط 2015. و بالعودة للبروتكول الفرنسي-التونسي لـ 13 أكتوبر 1960 نجد أنّ عملية إعادة الشراء كما يسمّيها هذا البروتوكول تمّت بمقابل مبلغ مليون دينار تدفعه الحكومة التونسية للحكومة الفرنسية حسب الفصل 4 منه، إضافة لبروتكول تكميلي مؤرخ في 3 مارس 1963 تمّ بمقتضاه إعادة شراء 50 ألف هكتار بمقابل مبلغ 500 ألف دينار حسب الفصل 8 منه. أنظر:

HUBERTM Thierry, « La cession à la Tunisie des terres des agriculteurs français protocoles franco-tunisiens des 13 octobre1960 et 2 mars 1963 ». In Annuaire français de droit international, volume 9, 1963. p 948, 952. doi : 10.3406/afdi.1963.1066(consulté11/08/2017)

أما قانون 12 ماي 1964 فمساحة الأراضي التي استهدفها حسب القائمة التي أوردها عبد المجيد بلهادي تبلغ حوالي 75.277 هكتار، بلهادي، مرجع سابق. ص 325.

لمزيد التوسع حول استرجاع الأراضي الفلاحية من المعمّرين يمكن العودة لـ:

بداية من أوائل السبعينات مع التراجع عن سياسة التعاضد تمّت إحالة أرض هنشير اِلْمْعَمَّرْ لشركة ستيل. لكن هذه المسألة مثلت موضع نظر المحكمة العقارية بقبلي بمناسبة نظرها في طلب تسجيل جزء من أرض هنشير اِلْمْعَمَّر/ستيل سنة 2004 كعقار دولي، رفضت المحكمة مطلب التسجيل إذ اعتبرت أنّ محضر مجلس التصرف في الأراضي الاشتراكية ومحضر مجلس الوصاية الجهوي لم يتضمنا تفويتًا إنما مثّلا تفويضًا لمجلس التصرف لإبرام عقد البيع لديوان الأراضي الدولية. فالعقد الموعود بإبرامه لم يبرم بين رئيس مجلس التصرف وديوان الأراضي الدولية مما يجعل التفويت لم يحصل قانونا.[265] وقد أقرّ محضر مفاوضات مجلس التصرف لمجموعة منطقة جمنة[266] إحالة القطعة المعروفة باسم "شط المساعيد" والداخلة في تراب مجموعة جمنة لفائدة ديوان الأراضي الدولية لإحيائها مقابل ثمن رمزي قدره دينار واحد على شرط التزام الديوان بالتضامن مع الشركة التونسية لصناعة الحليب (ستيل) بالأموال اللازمة لتحقيق التمويل الذاتي وبترجيع العوض الذي سيمنح من صندوق التنمية الفلاحية لمجلس التصرف بناء على طلبه من أجل القيام بالتنقيب عن الماء لفائدة مجموعة منطقة جمنة. وهو ما يعني مقايضة الأرض التي وقع إحالتها بالتنقيب عن المياه لجهة جمنة وهي منطقة صحراوية يمثل النشاط الفلاحي المتمثل في غراسات النخيل النشاط الرئيسي فيها خاصة في تلك الفترة، وأمام الكلفة المرتفعة لعملية التنقيب فإنّه تم استغلال حاجة الجهة للمياه للفلاحة بتمرير مسألة إحالة أرض هنشير اِلْمْعَمَّر لشركة ستيل، مقابل حرمان المتساكنين من الأرض التي سبق أن افتكّها منهم المُستعمِر الذي ارتبطت باسمه ومقايضتهم بمنح الماء مقابل التخلّي عن الأرض. إضافة إلى أنّ عملية التنقيب التي يذكرها محضر مجلس التصرف والتي تمّت

BENKHALIIFA Riadh, La récupération des terres agricoles coloniales en Tunisie (1951-1964), Mémoire de DEA, soutenu à la Faculté des Sciences Humaines et Sociales de Tunis, le 18 novembre 2002.

[264] المقابلة الأولى مع الطاهر الطاهري جويلية 2017.

[265] نسخة من ردّ المحكمة العقارية فرع قبلي على مطلب التسجيل عدد م ع : 9852، (حكم/بتاريخ 2004/02/11)، مجموعة وثائق، مصدر سابق.

[266] محضر مفاوضات مجلس التصرف. مجموعة وثائق، مصدر سابق.

بالفعل تمّ خلاصها على أقساط من قبل جمعية برزين المائية باستثناء القسطين الأخيرين الذين تمّ إعفاء الجمعية المائية من خلاصهما وذلك سنة 1987 في أول فترة حكم نظام زين العابدين بن علي.[267]

بدأ من ذلك التاريخ استغلال شركة ستيل للهنشير وهو ما سيستمرّ إلى غاية 2002، ليرتبط اسم ستيل في جمنة بهذا الهنشير. وحول فترة ستيل يشير متساكنو جمنة في مراسلة موجهة لوزير أملاك الدولة بتاريخ 5 مارس 2011[268] أنّه "لم يكن أفضل من تصرف المعمّرين". ومن التساؤلات التي تطرح حول طبيعة هذه الشركة كما يشير رئيس جمعية حماية واحات جمنة في المقابلة معه،[269] أنّها ضمّت بمجلس إدارتها منذ تأسيسها شخصيات سياسية تربط بينها علاقات عائلية من بينها الوزير الأول "محمد المزالي" وابنه "مختار مزالي"، والوزير "حسان بلخوجة". والشركة التونسية لصناعة الحليب المعروفة اختصارا بستيل، شركة شبه عمومية تكونت بمقتضى عقد يوم 9 نوفمبر 1960 ومسجل في 13 ماي 1961.[270] تقلّد "حسان بلخوجة" وزير الفلاحة في تلك الفترة منصب أول مدير عام لهذه الشركة. كما تولى "فريد مختار" بدوره منصب مدير عام شركة ستيل هو ابن أخت "حسان بلخوجة" وشقيق "فتحية المختار" زوجة "محمد المزالي" وانتقلت إدارة الشركة لفترة قصيرة لـ"مختار المزالي" وانتهت مع إقالة والده من منصبه كوزير أول.

استمر استغلال شركة ستيل لهنشير اِلْمْعَمَّر لمدة ثلاثين سنة، من سنة 1972 إلى غاية سنة 2002، ويذكر عدد من متساكني جمنة اشتغال آبائهم وأجدادهم بالهنشير في فترة الشركة من بينهم "عبد الجواد محمد الحاج حمد" والد "عبد المجيد الحاج حمد" نائب رئيس جمعية حماية واحات جمنة[271]، جدّيْ "عبد الحميد النوري" "الغنوشي" و "عليّه"[272]، كما ذكرت "الحاجة مريم زوجة الغنوشي" أنّ زوجها عمل بهنشير اِلْمْعَمَّر منذ

---

[267] المقابلة مع الطاهر الطاهري، جويلية 2017

[268] مجموعة وثائق، مصدر سابق.

[269] المقابلة مع الطاهر الطاهري، جويلية 2017.

[270] السباعي (فوزي)، ملاحظات حول تجربة شركة "ستيل" (1961-2002)، مداخلة مقدمة ضمن يوم دراسي نظم مخبر LERIC بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس حول تجربة جمعية حماية واحات جمنة، غير منشورة.

[271] المقابلة مع عبد المجيد الحاج حمد، جويلية 2017.

[272] المقابلة مع الطاهر الطاهري، جويلية 2017 نقلا عن عبد الحميد النوري.

الاستعمار الفرنسي وما بعده وبأجر زهيد[273]. ويذكر "عبد المجيد الحاج حمد" أنّه عاش جزءًا من طفولته بالهنشير، إذ كان العملة يقيمون بأكواخٍ على تخوم الواحة. ويحتفظ عدد من متساكني جمنة بوصولات خلاص العمال آنذاك جمعتها جمعية حماية واحات جمنة.[274] مع نهاية مرحلة ستيل بالهنشير والتفويت فيه لمستثمرين خواص في 2002، وجه بعض متساكني جمنة مراسلة يبدون فيها اعتراضهم على عملية التفويت للخواص لوالي قبلي.[275] وفي ردّ والي قبلي على الاعتراض في التفويت في هنشير اِلْمْعَمَّر/ستيل للمستثمرين[276] اعتبر بأن لا حقّ لهم ولا لغيرهم في الاعتراض على عملية التفويت وأنّ الأرض ملك للدولة قامت بإحيائها شركة ستيل. بذلك تمّت عملية كراء الهنشير للمستثمرين الخواص الذين سيستمرون في استغلال الهنشير إلى غاية جانفي 2011، التاريخ الذي اندلعت فيه الثورة وشهدت فيه جمنة حركة احتجاجية أدت لاسترجاع هنشير اِلْمْعَمَّر/ستيل.

إن تتبع هذا المسار التاريخي في جمنة يكشف الارتباط بين اندلاع الثورة والأوضاع الفلاحية والتفاوت الترابي/الاجتماعي واللامساواة الاجتماعية/المكانية والعلاقة المباشرة بين السياسات الاقتصادية والاجتماعية والانتفاضات العربية[277] والوضعية الكارثية للفلاحة منذ التحرر من الاستعمار المباشر. إذ مثّل تفتيت الريف وارتفاع البطالة والفقر أحد الأسباب التي أدت للانتفاضات كضغوط داخلية إضافة للضغوط الخارجية، مما أدّى إلى عدم رضا عميق وردود فعل توجت بانفجار أتاحته الثورات العربية ارتبطت بحالة انفصال بين الشعب والدولة، والشعب والأرض والشعب والغذاء.[278] بينما تركّز تحليلات أخرى برزت بعد الثورة على دور الفاعلين الشباب من المدونين والإعلام الجديد وتوصيف الثورة

---

[273]"شهادة جمنية حية حول هنشير المعمر، الرابط: https://bit.ly/2FFFO2F[معاينة 26 أكتوبر 2016]

[274]وصولات خلاص جمعتها جمعية حماية واحات جمنة لسنة 1983، مجموعة وثائق، مصدر سابق.

[275]المقابلة مع الطاهر الطاهري، جويلية 2017. و المقابلة مع عبد المجيد الحاج حمد، جويلية 2017 .

[276]إجابة على عريضة موجهة من والي (قبلي بتاريخ 7 ماي 2001) عن طريق معتمد قبلي الجنوبية إلى المواطن عبد الجواد بن محمد الحاج حمد و من معه، مجموعة وثائق، مصدر سابق.

[277]GANA, op.cit, p 57-58.

[278]زريق (رامي) وغوف (آن) ، الخبز وزيت الزيتون: الأسس الزراعية للانتفاضات العربية، ص 113، في جرجس فواز (تحرير) الشرق الأوسط الجديد الاحتجاج والثورة والفوضى في الوطن العربي. بيروت مركز دراسات الوحدة العربية 2016.

على أنّها ثورة وسائل التواصل الاجتماعي والفايسبوك خاصة[279]. وفي تونس فإنّ نمط التنمية المتبع تاريخيا ضحّى بالريف (الفلاحة) لصالح المدينة خاصة منذ السبعينات[280]. إذ تميزت سياسة الدولة بدعم كبار الفلاحين واستثناء صغار الفلاحين من الدعم والقروض الفلاحية، التي تمنح لكبار الفلاحين.[281] وهو ما تواصل مع الثمانينات واستمر في العقدين الأخيرين منذ انطلاق سياسات الإصلاح الهيكلي والاتجاه نحو خوصصة أوسع ودعم التوجه نحو الأنشطة الاقتصادية الموجهة للتصدير.[282]

إذ شهدت تونس كما الدول المغاربية المغرب والجزائر في الثلاثين سنة الأخيرة تحولاً رئيسيا يتمثل في طموح متزايد للبرجوازيات المغاربية المحلية الناشئة في إطار السياسات الليبرالية في التوسع في المجال الفلاحي. إذ سعى رأس المال الخاص المحلي غير الفلاحي للتوسع في الأراضي الفلاحية بتوظيف فائض رؤوس الأموال في الفلاحة لاستعادة تقليد مغاربي ارتبط بسيطرة المدن عقاريا على الأرياف و كمحاكاة حالمة للدور الذي لعبته البرجوازية الأوروبية تاريخيا في القرن التاسع عشر. فهذه التحولات السياسية التي شرعت فيها الدول المغاربية خاصة مع سياسة الخوصصة منذ سنوات الثمانينات خاصة فضلت الدور الاقتصادي لهذه الطبقة بما مكن البرجوزيات المغاربية المدينية/الحضرية من تعزيز تحكمها الاقتصادي بالاستفادة من الإصلاحات الاقتصادية الليبرالية وتمدّد رأس المال الخاص غير الفلاحي للقطاع الفلاحي والاستفادة من سياسة تعبئة المخزون العقاري الوطني في منطق السوق مما فاقم تفقير الأرياف وهجر الفلاحة[283]. وفي الحالة التونسية تعمقت التناقضات والتفاوتات الجهوية[284]، بتطور البلاد خلال العقود الثلاثة الأخيرة نحو

---

[279]AYARI Michaël Béchir, « Non, les révolutions tunisiennes et égyptienne ne sont pas des« révolutions 2.0 », Mouvements 2011/2 (n° 66), p. 59-61. Adresse URL : DOI 10.3917/mouv.066.0056 (consulté 17/11/2017).

[280]الهرماسي(عبد الباقي)، الدولة و المجتمع في المغرب العربي. بيروتمركز دراسات الوحدة العربية 1999 الطبعة الثالثة. ص 67.

[281]الهرماسي، المرجع نفسه، ص 70.

[282]GANA,op. cit, p 58.

[283] BESSAOUD Omar, «La question foncier au Maghreb :la longue marche vers la privatisation», p 39. Les cahier du CREAD n° 103-2013, p 17-44. Adresse URL : https://www.asjp.cerist.dz/en/downArticle/22/29/103/2031(consulté 23/12/2017)

[284]GANA, op. cit, p 59, d'après BELHADI Amor, « Littoralisation et mondialisation. L'état des lieux et les enjeux ». Revue Tunisienne de Géographie, n° 30, 1996. P 9-52. Et BELHADI Amor, «Les disparités spatiales en Tunisie : Etat de lieux et enjeux» Revue Méditerranée, n°1-2, 1999. 63-72, Et

تعمق تفاوت شمال-جنوب الذي برز منذ الاستقلال[285] وتركّز تفاوتات أخرى أهمها شرق_غرب، مع استمرار تفاوت ساحل- داخل وتواصل وضعية الجنوب باعتباره أقل استفادة من النمو الاقتصادي[286].

4) اقتصاد الحركة الاجتماعية: أسلوب تسيير تشاركي، ونمط اقتصادي محلي بديل

منذ 2011 مع الاعتصام بالهنشير وبداية الاضطلاع بمهام إدارته من خلال لجنة حماية الثورة ثم جمعية حماية واحات جمنةترسخ في جمنة تقليد في اتخاذ القرار من خلال عقد اجتماع شعبي عام بساحة العين كان موضوع هذه الاجتماعات في البداية المستجدات في قضية هنشير اِلْمْعَمَّرْ/ستيل ومناقشة الخيارات المطروحة في مختلف مراحل هذه التحركات الاحتجاجية. وبذلك ترسخ هذا الأسلوب في مناقشة المستجدات وبشكل دوري. وتتمّ دعوة جميع المتساكنين للاجتماع الشعبي العام بساحة العين لمناقشة الأولويات

MIOSSEC Jean-Marie, « Tunisie, métropolisation, mondialisation : efficience renforcée de l'axe orienta »l. Cahiers de la Méditerranée, volume 64 2002, p.143-191. Et DAOUD Abdelkarim, « La révolution tunisienne de janvier 2011 : une lecture par les déséquilibres du territoire», Echogéo [En ligne], Sur le Vif, mis en ligne le 23 septembre 2011, (consulté 21/10/2017) Adresse URL : http://echogeo.revues.org/12612 ; DOI : 10.4000/echogeo.12612

حول التفاوت بين الجهات الداخلية و الساحلية و الشمال و الجنوب، و دور سياسات التمييز في تطور الحركة الاحتجاجية منذ جانفي وديسمبر 2010-2011، يمكن العودة أيضا للدراسات التالية:

BELHADI Amor, « L'inégal développement régional en Tunisie : Accumulation spatiale et littorisation ». Cahiers de laMéditerranée, n°49, 1, 1994. La Tunisie, une dynamique de mutation. p. 133-156. Adresse URL : doi : 10.3406/camed.1994.1129(consulté 26/01/2018). ELLOUMI Mohamed et al., « Politiques et stratégies des éleveurs dans le gouvernorat de Sidi Bouzid (Tunisie centrale)», Afrique contemporaine 2006/3 (n° 219), p. 63-79. URL : DOI 10.3917/afco.219.0063 (consulté 21/01/2017). FAUTRAS Mathilde, « Injustices foncières, contestations et mobilisations collectives dans les espaces ruraux de Sidi Bouzid (Tunisie) : aux racines de la \ révolution? justice spatiale - spatial justice », Université Paris Ouest Nanterre La Défense, UMR LAVUE 7218, Laboratoire Mosaiques, 2015, Droit au village, 7, [Document électronique] Adresse URL : http://www.jssj.org/article/injusticesfoncieres-contestations-et-mobilisations-collectives-dans-les-espaces-ruraux-de-sidi-bouzidtunisie-aux-racines-de-la-revolution/ (consulté 21/09/2017).Et HIBOU Béatrice, « La formation asymétrique de l'État en Tunisie. Les territoires de l'injustice ». In IRENE Bono et al, L'État d'injustice au Maghreb. Maroc et Tunisie. Paris Karthala et Centre de recherches internationales 2015.

[285]GANA, op. cit, p 59, d'après BELHADI, « Les disparités spatiales en Tunisie ...» op. cit.

[286]GANA, op. cit, p 59.

والمشاريع المزمع إنجازها. وفي أكتوبر 2016 أضحت الاجتماعات تناقش تطورات مصير هنشير اِلْمْعَمَّرْ/ستيل مع صدور بلاغ كاتب الدولة لأملاك الدولة والشؤون العقارية الذي دعا فيه لإيقاف إنجاز البتة.[287] يمثل الاجتماع الشعبي العام الذي تتمّ الدعوة له بشكل عمومي من خلال بلاغات تعلق بواجهات المحلات والمقاهي والإعلان عن موعد الاجتماع ببوق وسيارة تخصص لذلك تجوب الطرق الرئيسية بالبلدة.[288] وكنت قد شاركت مع أعضاء من الحملة الوطنية لدعم جمنة في أحد هذه الاجتماعات الذي كان مخصصا لمناقشة الحلول المقترحة من قبل كتابة أملاك الدولة والشؤون العقارية ووزارة الفلاحة. بدأ ذلك الاجتماع بعرض موجز قدمه "الطاهر الطاهري" رئيس جمعية حماية واحات جمنة، ثم فتح المجال للمداخلات لمختلف الحاضرين بمن فيهم أعضاء الجمعية، المواطنين، وأعضاء الحملة الوطنية لدعم جمنة. وإضافة للاجتماعات الشعبية، تعقد الجمعية اجتماعات دورية مخصصة لمتابعة متطلبات العمل بالهنشير، واجتماعات للهيئة المديرة للجمعية تناقش الحلول والمقترحات التي تتوصل لها خاصة منذ بتة أكتوبر 2016، ويدعى لهذه الاجتماعات بمجرد بلوغ معطى جديد أو مقترح ويناقش أعضاء الهيئة المقترح أو المستجدّ وفي صورة عدم الاتفاق فيما بينهم يتم ترك المجال للتوسع والنقاش ومزيد الاطلاع وتتمّ الدعوة لاجتماع شعبي عام جديد يتداول المسألة المطروحة للنقاش وما تتوصل له الأغلبية في الاجتماع الشعبي العام تقرّه الهيئة المديرة للجمعية في اجتماعها الموالي.[289] لذلك تمثّل هذه الاجتماعات أداة تسيير ذاتي تشاركي لمتطلبات العناية بهنشير اِلْمْعَمَّرْ/ستيل الاعتيادية ولحاجيات البلدة من مقترحات مشاريع ومتابعتها وتداول المقترحات والحلول واتخاذ قرار في شأنها.

[287] بلاغ صادر عن كتابة الدولة لأملاك الدولة والشؤون العقارية تحذّر بخصوص واحات جمنة بتاريخ 1 سبتمبر 2016. رابط:https://bit.ly/2HL9JIO [معاينة بتاريخ 2017/07/29]

[288] المقابلة مع رياض بن علي، جويلية 2017، يذكر أنه يتولى هذه المهمة و في حالة عدم إمكانية توفر سيارة للغرض يستعمل دراجته النارية لإعلام بموعد الاجتماع.

[289] المقابلة مع صالح عبد الجواد، سبتمبر 2017.

رغم مميزات هذا النموذج المحلي الذي تمثله تجربة جمنة فإنّه تطرح بعض المسائل التي تعتبر مدخلا لتطوير الممارسة الحالية للاستفادة من التجربة التي انطلقت منذ 2011. ولتلافي النقائص كمسألة المشاركة المباشرة للمرأة في اتخاذ القرار مما يستدعي الالتفات لذلك. ولئن كانت هذه المسألة ترتبط بخصوصية المجتمع المحلي في جمنة فإنّ مسألة مشاركة المرأة في التسيير واتخاذ القرار[290] تستدعي تدعيمها بشكل مؤسساتي من خلال مبادرة الجمعية بذلك لكون واقع المجتمع المحلي يتضمن مشاركة واضحة للمرأة في المجال العام. كما طرحت مسألة تجديد جزء من هيكلة الجمعية والدفع بتشبيب أعضاء الهيئة المديرة[291] وهي مسألة تؤكد جمعية حماية واحات جمنة أنّها مطروحة في المرحلة القادمة مبيّنة أنّ الظروف التي مرّت بها قضية هنشير اِلْمْعَمَّرْ/ستيل منذ بتّة أكتوبر 2016 جعلت الشروع في ذلك مؤجّلاً.[292]

ما يميّز تجربة جمنة كنموذج في سياق مجتمع محلي استطاع بناء تمثّل لقضية مشروعية الحق في الأرض (هنشير اِلْمْعَمَّرْ/ستيل) في ظلّ ظروف اقتصادية تدفع نحو الخوصصة مما يعبّر عن فساد الخيارات السياسية التي يعتبرها المتساكنون تخدم المصلحة الخاصة على حساب المصلحة العامة. فالاستثمار الخاص بالنسبة لهم يحرم الدولة والبلدة في نفس الوقت من الموارد في ظلّ تخلي الدولة وانكماش دورها الاجتماعي وانسحابها الاقتصادي.

---

[290]من التجارب التي تقدم مثالا على المشاركة النسائية في صياغة نمط اقتصادي بديل نجد تجربة عاملات معمل النسيج بالشابة بولاية المهدية، يمكن مراجعة المقال التالي:

BEN HAMADI Monia, Résister et produire : La lutte des ouvrières de Mamotex, URL: https://goo.gl/iYsOxm[consulté 17/11/2017]

من الأمثلة على ذلك أيضا في مصر تعاونية "العونة" التي تديرها مجموعة من النساء بقرية العونة بمحافظة أسيوط بالصعيد المصري منذ سنة 2015 وتمكنت هذه التعاونية من خلق فرص عمل أخرى للنساء.كما ساعدت جمعية "بادر لتنمية الصعيد" بالعونة، النساء بهذه القرية في الالتحاق بتكوين في تخصصات مختلفة منها الخياطة، صناعة المرطبات...الخ وتكوين آخر في تسيير المشاريع. كما أسست مجموعة من النساء إلى جانب المديرة التنفيذية للجمعية، تعاونية "دبس الرمان" (عصير الرمان) وساهمت هذه الجمعية في استقطاب 20 امرأة مساهمة كل منهنّ ألف جنيه مصري، ممّا مكنهنّ من عضوية مجلس إدارة التعاونية (5 من 7 أعضاء مجلس الإدارة).

راجع : عزت (منى)، أول تعاونية نسائية في الصعيد، موقع أصوات مصرية، أغسطس ،2016، الرابط: (معاينة بتاريخ 2017/11/17) https://is.gd/xkfVjI .

[291]المقابلة مع "علية عبد السلام"، سبتمبر 2017.

[292]المقابلة مع "الطاهر الطاهري"، سبتمبر 2017. المقابلة "عبد المجيد الحاج حمد"، سبتمبر 2017.

تقدم جمنة تجربة في سياق ما بعد ثوري نموذج اقتصاد محلي بل يتجاوز ذلك ليكون "منوالاً تنمويًّا جديدا"[293] يقوم على عنصرين أسياسيين، توفير مواطن شغل واستغلال الموارد وتعميمها لفائدة المصلحة العامة. يشتغل حاليا بالهنشير 130 عاملا من بينهم ثلاثة عملة مكلفين بالشؤون الإدارية المالية وخمسة نظّار، وتطرح هنا مسألة تدني أجورهم، فهي وإن كانت تتجاوز الحد الأدنى للأجور في القطاع الفلاحي[294] فإنها تبقى متدنية مقارنة بالأوضاع الاقتصادية والظروف المعيشية، كما أن موقع العمال الحالي في تسيير الهنشير وعملية اتخاذ القرار يندرج في إطار التقسيم الكلاسيكي للعمل في ارتباط بمفهوم الأجير والمؤجّر، مما يجعل من المهمّ إعادة صياغة العلاقات الشغليّة وإدراجها ضمن مفهوم العمل التشاركي وفق تقسيم عادل للعمل يراعي الاختصاصات والمهارات المكتسبة معًا قصد تأمين استمرارية التجربة وتمكين العمال من خبرات تتيح لهم ترسيخ مبدأ التسيير الذاتي. وهو ما يعتبره أعضاء الهيئة المديرة جمعية حماية واحات جمنة يصطدم مع العقلية السائدة لكون العامل الفلاحي يكتفي بمهمّته كعامل فقط ولا يقبل أن يكون مشاركًا في عملية التسيير بشكل يجعله مشاركا في اتخاذ القرار. إن هذه الإشكالية ترتبط بالواقع الاجتماعي والإرث الثقافي لغياب وعي بوجود دور للعمال في اتخاذ القرار، وهو ما يتطلب مبادرة من قبل جمعية حماية واحات جمنة لتكوين العمال حتى تتاح لهم فرصة اكتساب المهارات بما يعزز الأسلوب التشاركي ويحمي المكتسبات التي تحققت.

قامت هذه التجربة من خلال جمعية حماية واحات جمنة بالتدخل في المجال الاجتماعي والاقتصادي أمام ما تعتبره تراجعا للدولة عن أداء دورها التنموي بتوفير الحاجيات الأساسية على مستوى البنية التحتية كالتعليم والصحة والخدمات التي تحتاجها البلدة، وتجاوزت المستوى المحلي بالإشعاع على بقية بلدات ولاية قبلي. قامت جمعية حماية واحات جمنة بعديد المنجزات سواء في المجال الرياضي بإحداث أول

---

[293] المقابلة مع "عبد المجيد الحاج حمد"، سبق ذكره.

[294] التطور الشهري للأجر الأدنى الفلاحي المضمون، المعهد الوطني للإحصاء. الرابط https://bit.ly/2X0zzfx: [معاينة بتاريخ 2017/11/17]

ملعب حيّ معشّب، وأول قاعة رياضية مغطاة بالمعهد الثانوي بجمنة. في المجال الصحي وفرت جمعية حماية واحات جمنة سيارة إسعاف مجهزة وخصصتها لجمعية القاصرين ذهنيا التي تقوم بكراء هذه السيارة للمواطنين وتستفيد من ذلك في تعزيز نشاطها إضافة لمساهمة جمعية حماية واحات جمنة في تحسين مركز جمعية القاصرين ذهنيا والمساهمة أيضا في تحسين مستوصف جمنة والتبرّع لشراء آلة كشف عن سرطان الثدي بالمستشفى الجهوي بقبلي.

في المجال التعليمي والتربوي موّلت الجمعية بناء قاعات بالمدرستين الابتدائيتين بجمنة ودورة صحية وقاعة معلمين ومشرب بمدرسة واحدة، ودعمت أيضا إنشاء مركز التكوين الفلاحي بجمنة. أما في المجال الثقافي فقد وزعت الجمعية تبرعات على مختلف الجمعيات والمهرجانات الثقافية بقرى نفزاوة (ولاية قبلي). ودعمت ماديًّا أيضا فرعي الرابطة التونسية لحقوق الإنسان واتحاد المرأة بقبلي، كما موّلت استكمال أشغال بناء مركز الحماية المدنية بمعتمدية سوق الأحد، واقتنت جهاز حاسوب وآلة طابعة ومكيف لمركز الحرس الوطني بجمنة. وفي المجال الخدماتي يعتبر مشروع السوق البلدي المغطّى الذّي ستعود مداخيله للبلدية، أحد أهم المشاريع الاقتصاديّة التي تكفلت بها جمعية حماية واحات جمنة الذي سيسهل الحركة الاقتصادية بجمنة لكونه سيستغل كسوق بلدي دوري وسوق تمور موسمي وهو حاجة ملحّة لمنطقة يمثّل إنتاج التمور والتجارة فيها العمود الفقري لاقتصادها المحلي. إضافة إلى تجهيز وتحسين مسجدي البلدة وتهيئة سور وبوابة للمقبرة بجمنة وتوفير منح للطلبة من ذوي العائلات المستحقة وأضاحي عيد الأضحى إلى غاية موسم 2015 أي قبل التضييق الذي سلطته كتابة الدولة لأملاك الدولة والشؤون العقارية في موسم 2016.

إن التجربة التي تقدمها جمعية حماية واحات جمنة كحركة اجتماعية محلية، تأتي في سياق تاريخي تطورت فيه الحركة الاجتماعية و برز فاعلون جدد في سياق مابعد ثوري في تونس، مما يعيد طرح السؤال حول طبيعة النظام السياسي النيولبيرالي والمتجه نحو توسيع الخوصصة الاقتصادية لكن بصيغ مختلفة عن الأحزاب السياسية والنقابات

والمجتمع المدني الحقوقي كفاعلين تقليديين، وبالتركيز حول المسائل المرتبطة بقضايا الحياة اليومية والنضال حولها مثل الشغل والتنمية المحلية و بتركيز أقل على ما هو سياسي في الفعل الاجتماعي.[295] إذ أنّ أعضاء الهيئة المديرة لجمعية حماية واحات جمنة يؤكدون أن التجربة أصبحت واضحة بعد عامين باعتبارها تجربة اقتصاد اجتماعي تضامني.[296] لكن بعض الأطراف لا ترضيها التجربة لأن مفاصل الدولة تحت تحكم رأس المال الذي لا يقبل التخلّي عن امتيازاته تلك.[297] وراتباط الخيارات السياسية والاقتصادية بتوصيات وبرامج صندوق النقد الدولي مما يؤكد على استمرارية الصراع في مواجهة فرض الإملاءات الأجنبية المرتبطة بنموذج الاقتصاد النيوليبرالي، مما يطرح أهمية فهم الحركة الاحتجاجية التي تشهدها مجتمعاتنا منذ 2011 بما يتجاوز تحقيق سياسات اجتماعية جديدة إلى مساءلة موقع الدول العربية من النظام الاقتصادي العالمي وسبل تحررها من الخضوع للنيوليبرالية الاقتصادية.[298]

إن شكل التصرف الذي تقدمه "حالة جمنة" يلخصه عضو الهيئة المديرة للجمعية "علية عبد السلام" [299]حسب ما ينقله عن المتساكنين بشكل عام في ثلاثة عناصر، وحدة الأرض أي رفض أي صيغة لتقسيم الهنشير، المساهمة لجميع الجمنيّين أي أن التسيير للجميع

---

[295]هارفي (ديفيد)، النيوليبرالية بوصفها تدميرا خلاقا، مركز نماء للبحوث والدراسات، أوراق مترجمة. ص24. الرابط: https://drive.google.com/file/d/0B_azBC_1KJD2dGxOdFZvc3owTkU/view [معاينة بتاريخ 2018/08/26]
المقال الأصلي:
HARVEY David, « Neoliberalism as Creative Destruction »,The Annals of the American Academy of Political and Social Science,Vol. 610, NAFTA and Beyond: Alternative Perspectives in the Study of Global Trade and Development (Mar., 2007), pp. 22-44. Adresse HTML : https://is.cuni.cz/studium/predmety/index.php?do=download&did=85806&kod=JMMZ108(consulté 17/11/2017)

[296] Au propos l'économie sociale et solidaire en Tunisie : AL-IDRISSI Sarra, Peut-on parler d'un mouvement de l'économie sociale et solidaire en Tunisie, Lien : (consulté17/11/2017) https://forumess2017.sciencesconf.org/data/pages/EL_IDRISSI_TR2.pdf Et LAIBI Wassim, Dynamique d'Economie Sociale et Solidaire enTunisie: Acteurs, Enjeux, Paradoxes et Perspectives de Construction,Mémoire de fin d'études, 2015. FSEG Tunis.

[297] المقابلة مع علي حمزة، مصدر سابق.

[298]AMINE Samir, C'est un mouvement qui va durer des mois et des années. Entretien réalisé par Hassane Zerrouky. (consulté 17/11/2017) Adresse URL : https://www.humanite.fr/31_07_2011-samir-amin-%C2%ABc%E2%80%99est-un-mouvement-qui-va-durer-des-mois-et-des-ann%C3%A9es%C2%BB-477187

[299]مداخلة علية عبد السلام في اليوم الدراسي الذي انتظم بدار الشباب بجمنة ناقش المقترحات المقدمة من طرف الدولة حول هنشير اِلْمُعَمَّرْ/ستيل بتاريخ 2017/04/17، و المقابلة الثانية مع علية عبد السلام سبتمبر 2017.

عن طريق الجمعية، الانتفاع لجميع الجمنيّين أي لا سبيل لتقسيم الأرباح بأن يحافظ على ضخّ الأرباح للمصلحة العامة.

أثارت هذه التجربة خاصة منذ 2016 مع إشعاعها على المستوى الوطني مطالب مرتبطة بموضوع الاستغلال الجماعي للأرض والاستفادة الجماعية من عوائدها في شكل مطالب مختلفة. ففي ولاية صفاقس نادى متساكنو من منطقة "الشعّال" بمعتمدية "بئر علي بن خليفة" أثناء تنظيمهم لوقفة احتجاجية تنديدا بغياب وسائل النقل والمؤسسات الصحية وتدهور البنية التحتية، واعتبروا أنّه رغم ما تجنيه الدولة من عائدات تقدر بملايين الدينارات بفضل عشرات الآلاف من أشجار الزياتين والأشجار المثمرة فإنها لم تدرج أي برنامج تنموي لفائدة المتساكنين. وهدّد المحتجون بإعادة تجربة جمنة باستغلال الأراضي التابعة للدولة بمنطقتهم (هنشير الشَعَّالْ).[300]

قدمت جمعية حماية واحات جمنة أسلوبا تسييريا تشاركيا وأرست نمطا اقتصاديا محليا تنمويًّا في إطار مُسَاءَلة للسياسات الاقتصادية العمومية، مع تواصل الجدل حول مصير الهنشير بين مطالبة الحكومة باسترجاعه واعتبار ما قام به المتساكنون وجمعية حماية واحات جمنة عملية استيلاء على أراضي دولية، واقتراح السلطة في مرحلة متقدمة لحلول قانونية لم تستطع إنهاء الجدل الذي أثارته قضية هنشير اِلْمْعَمَّرْ/ستيل.

مكنت تجربة جمنة من خلال الاستغلال الجماعي الذي يؤمن المصلحة العامة على المستوى المحلي من خلق إطار من الشفافية بشكل مواطني من خلال مراقبة مختلف المنجزات، إذ يتمكن المتساكنون من معاينة تطور المشاريع المنجزة والتماس آثارها في حياتهم. إنّ ما يؤكد عليه أعضاء الهيئة المديرة لجمعية حماية واحات جمنة هو أن

[300] صفاقس: أهالي منطقة الشعّال يهددون بإعادة تجربة جمنة، إذاعة الديوان أ ف م، الرابط: https://bit.ly/2Z5zDfJ [معاينة 2017/08/19]

المسألة في جمنة لا تتعلق فقط بالمكاسب التي لا يمكن التخلّي عنها إنما يتجاوز ذلك إلى رسالة يقدّمها متاسكنو جمنة وهي أن تجربتهم هي إحدى محطات الثورة وتأكيد على أن نجاح الثورة ممكن.

خاتمة:

منذ 2011 خاض متاسكنو جمنة عبر اللجنة المحلية لدعم الثورة وحمايتها بجمنة ثمّ جمعية حماية واحات جمنة صراعًا في مواجهة نمط الاستثمار الخاص الذي باعتباره خيارًا اقتصاديا دافعت عنه الدولة في مجال التصرف في الأراضي الفلاحية في إطار تمشٍّ يدعم الخوصصة ويقدّمها على أنها البديل للاستثمار العمومي المباشر. إذ مثلت ثورة 17 ديسمبر اللحظة التاريخية التي أعادت طرح هذا المطلب التاريخي الذي تحقق بتبلور تجربة تسيير ذاتي وجماعي تشاركي أتاح استفادة المنطقة من عائدات الضيعة الفلاحية مما خلق نمطًا اقتصاديا محليا بديلا يسائل السياسات الاقتصادية الرسمية سواء تعلق بالاستثمار العمومي البيروقراطي المركزي أو بالاستثمار الخاص الليبرالي مع تسارع التفويت في الأراضي الدولية للخواص مقابل حرمان أغلبية المتساكنين من الانتفاع من عوائدها الاقتصادية. بذلك أثارت تجربة جمعية حماية واحات جمنة مواقف الفاعلين السياسين في مرحلة سياسية انتقالية طرحت فيها سياسات الدولة وتوجهاتها الاقتصادية للمراجعة من قبل فاعلين اجتماعيين تقليديين (الأحزاب السياسية، النقابات، المجتمع المدني الحقوقي) ومن قبل فاعلين سياسيين واجتماعيين غير تقليديين (الحملات المرتكزة في نشاطها على قضية محددة، الحركات الاجتماعية عموما).

تمثّل الحركات الاجتماعية في تونس بعد الثورة فاعلاً جديدًا مهمّا يصارع المنظومة القانونية والسياسية القديمة. ففي حالة جمنة، ساهمت الحركة الاحتجاجية التي انطلقت منذ 2011 وتطورت لتشكل حركة اجتماعية محلية في طرح مراجعة المنظومة القانونية وذلك بمناسبة النقاش حول الحلّ القانوني لقضية هنشير

اِلْمْعَمَّرْ/ستيل، إذ طرحت جمعية حماية واحات جمنة ضرورة إيجاد صيغة قانونية جديدة تجسّم أسلوب التسيير والنمط الاقتصادي الذي تقدمه وتدافع عنه، مما أثار التفكير في سنّ قانون جديد وهو قانون الاقتصاد الاجتماعي والتضامني الذي قدّم كمبادرة تشريعية من قبل الاتحاد العام التونسي للشغل الذي سلمّ للحكومة منذ 30 نوفمبر 2016[301] أي بعد شهرين من تاريخ بتة 9 أكتوبر 2016 التي أثارت حفيظة وزارة أملاك الدولة والشؤون العقارية وأطلقت إثرها مسارًا قضائيًّا واتهمت فيه جمعية حماية واحات جمنة بالاستيلاء على أراضي دولية ومنذ تاريخ البتة أخذت قضية هنشير اِلْمْعَمَّرْ/ستيل صدى على المستوى الوطني بعد أن تعاملت الحكومات السابقة بصمتٍ مع ما شهدته جمنة منذ 2011. إذا أضحت الحركات الاجتماعية فاعلاً سياسيا مهمّا على مستوى المطالبة بتغيير القوانين. وبينما تدعو جمعية حماية واحات جمنة لتغيير القانون القديم لعدم انسجامه مع مقومات تجربة الجمعية التشاركية والتضامنية (قانون الوحدات التعاضدية للإنتاج الفلاحي) الذي اقترحته وزارة الفلاحة كحلّ قانوني إلى حين إصدار قانون الاقتصاد الاجتماعي والتضامني يأتي التوجه التشريعي الحكومي في صياغة القوانين (حالة قانون الاقتصاد الاجتماعي والتضامني) ليقدم تأطيرًا قانونيًّا شكليًّا دون طرح مراجعة السياسية الاقتصادية التي تقف خلف إرادة السلطة السياسية.

[301] منسقته مشروع قانون الاقتصاد الاجتماعي والتضامني يلقى تأييد الحكومة، الرابط: https://bit.ly/2GAyHYA [معاينة 2018/09/24]

سميحة الحامدي
دكتورة في العلوم الاجتماعية باحثة بوحدة البحث: الدولة والثقافة وتحولات المجتمع

اعتصام الكامور بالجنوب التونسي: مواطنون عاديون يحرجون الديمقراطية التمثيلية

ملخص

إن ما يعيشه المجتمع التونسي مثل غيره من المجتمعات من تغيرات عميقة منذ سنوات، أثارت اهتمام الباحثين في مختلف المجالات. وفي هذا الإطار تتنزل هذه الورقة البحثية التي حاولنا من خلالها دراسة الحركة الاجتماعية بالكامور التي انطلقت في أفريل من سنة 2017. إن ما ميز هذه الحركة أنها انطلقت من مواطنين عاديين جعلتنا نعيد النظر في مفهوم الثورة والحركات الاجتماعية. فالتغيير لم يعد حكرا على النخبة المثقفة ولا على الأحزاب الكبرى وقادتها والثورة يمكن أن تكون "الآن وهنا" وقابلة للتجسيم من قبل مواطنين عاديين عبر ممارساتهم اليومية. قد يحيلنا هذا إلى "موت السياسي" و"موت الإيديولوجي" واحراج الديمقراطية التمثيلية بفعل بروز أشكال جديدة من الفعل السياسي تتمظهر في المجتمعات المعاصرة تعبر عن أسلوب جديد من الديمقراطية الاحتجاجية. وقد جسدت الحركة الاجتماعية بالكامور هذه التغيرات التي مست علاقة الفاعلين بما هو سياسي وعكست هندسة جديدة للفضاء العام نسج خيوطها المهمشون عبر إعادة تملكهم للفضاء وافتكاك المواقع..

تنتمي هذه الحركة الاجتماعية في اعتقادنا إلى جيل جديد من الحركات الاجتماعية جمعت بين ما هو اقتصادي وما هو ثقافي وما هو ذاتي، بين ما هو جهوي محلي وما هو وطني وما هو كوني. فقد تغذت هذه الحركة الاجتماعية من شعور الفاعلين بالإقصاء وحاجتهم إلى توزيع عادل للثروة وإلى حق في الاعتراف والكرامة بوصفهم ذوات حاملين لحقوق اقتصادية وكونيةتنتمي هذه الحركة الاجتماعية في اعتقادنا إلى جيل جديد من الحركات الاجتماعية جمعت بين ما هو اقتصادي وما هو ثقافي وما هو ذاتي، بين ما هو جهوي محلي وما هو وطني وما هو كوني. فقد تغذت هذه الحركة الاجتماعية من شعور الفاعلين بالإقصاء وحاجتهم إلى توزيع عادل للثروة وإلى حق في الاعتراف والكرامة بوصفهم ذوات حاملين لحقوق اقتصادية وكونيةتنتمي هذه الحركة الاجتماعية في اعتقادنا إلى جيل جديد من الحركات الاجتماعية جمعت بين ما هو اقتصادي وما هو ثقافي وما هو ذاتي، بين ما هو جهوي محلي وما هو وطني وما هو كوني. فقد تغذت هذه الحركة الاجتماعية من شعور الفاعلين بالإقصاء وحاجتهم إلى توزيع عادل للثروة وإلى حق في الاعتراف والكرامة بوصفهم ذوات حاملين لحقوق اقتصادية وكونية

Abstract

The paper seeks to study the social movement of El-Kamur (south of Tunisia) which began in April 2017. What distinguishes this movement is its having been initiated by ordinary

citizens, which led us to reconsider not only the concept of revolution, but also the social movements. Seemingly, the change is no longer exclusively brought about by the intellectual elite; nor is it the effect of large political parties and their leadership. Actually, the revolution can become “now and here”, likely to be given shape by ordinary citizens through their everyday practices. Such an observation may evoke the “death of the political” and the “death of the ideological” and then the failure of representative democracy, under the emergence of new forms of political activism that show up in contemporary societies, in order to express a new style of protest democracy. And the social movement of El-Kamur represented this type of changes which targeted the relation of the activists with what is political and reflected a novel architecture of the public space whose lines were drawn by the marginalized through their re-appropriation of such a space and their taking hold of positional sites.

We believe that this social movement belongs to a new generation of its kind; one that combined the economic with the cultural and the personal, also the regional and the local with the national and the universal. In actual fact, this social movement was nourished with the activists’ feeling of exclusion and their need for a fair distribution of resources and for recognition and dignity, as people entitled to economic and universal rights.

« La révolution n'est concevable que si nous partons de l'hypothèse qu'être révolutionnaire relève de l'ordinaire, du très habituel, que nous sommes tous révolutionnaires bien que de manières très contradictoires, fétichisées, réprimées[302].»

مقدمة

من المثير للانتباه أن المجتمع التونسي الذي عرف سنة 2011 ثورة رفع خلالها شعار "شغل وحرية وكرامة وطنية" وأنهت حكم الديكتاتورية ما زال يعيش إلى اليوم على وقع حركات اجتماعية ما انفكت تتعدد بتعدد فاعليها وأشكالها النضالية المعبرة عن رفضها للواقع الاجتماعي والاقتصادي القائم. وهو ما يثير الباحثين في مختلف الاختصاصات ويدفعهم إلى تناول هذه الحركات بالدراسة والتحليل. وفي هذا السياق مثل مجال الحركات الاجتماعية في المجتمع التونسي محور اهتمامنا في مختلف البحوث السوسيولوجية التي اهتممنا بها[303]. وفي نفس هذا السياق تندرج هذه الورقة التي سنحاول من خلالها فهم وتحليل الحركة الاجتماعية بالكامور من ولاية تطاوين بالجنوب التونسي.

لقد تداول نشطاء الفضاء الافتراضي وشبكات التواصل الاجتماعي في أواخر شهر جوان من سنة 2017 صورة تشير إلى مواطن مسنّ رفقة عدد من الشباب بصدد توقيع اتفاق مع وزير التشغيل ومعلنا عن فكّ اعتصام الكامور وإعادة تشغيل صمام قنوات النفط الذي أغلقه المحتجون بعد كرّ وفر ضد السلطة المركزية والأشكال النضالية.

---

[302]John Holloway, changer le monde sans prendre le pouvoir, Montréal-Paris, Lux/Syllepse, 2007, p.295.

[303]سميحة الحامدي، الحركة الاجتماعية بالحوض المنجمي 2008: الشباب وملامح فاعل صاعد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس 2013 ; Samiha Hamdi, « le mouvement des jeunes chômeurs du Bassin minier tunisien : revanche du social et reconfiguration de l'acteur », in Mohamed Ali Ben Zina et AissaKadri (s.dir), un Etat en transition : une société en mouvement, la Tunisie (2011-2014), Arabesques, 2019 ; Samiha Hamdi, Jeunes et actions politique : Comportement électoral et nouvelles formes d'expression dans l'espace urbain en Tunisie, soutenue le 16 octobre 2O18 à la faculté des lettres et sciences humaines de Sfax.

ويحيلنا البحث في معنى هذه الصورة إلى ما تشهده العلاقة من تغير عميق بين الماسكين بالسلطة والفاعلين السياسيين من داخلها ومن هم خارج السلطة وليس لهم من يمثلهم تمثيلا رسميا. فلأول مرة تضطر الحكومة لتوقيع اتفاق مع مواطنين عاديين، وليس مع منظمات رسمية كما جرت العادة. فنحن على ما يبدو إزاء تشكل واقع سياسي غير معتاد يكون فيه الفاعل الرئيسي مواطنين عاديين لهم منطق فعل خاص بهم لمقاومة ما يعيشونه من تهميش وغياب للعدالة الاجتماعية.

وسيتركز اهتمامنا في هذه الورقة على فاعل اجتماعي جديد طبع الحركات الاجتماعية بعد 2011. هذا الفاعل سنسميه المواطن العادي الذي يتمتع –على عكس ما تذهب إليه النظريات الكلاسيكية أو الخطاب الإعلامي-بقدرة على تشكيل عملية تحول سياسي واجتماعي من خلال ما تقوم به قوى داخلية تتكون أساسا من الأفراد والجماعات ومن قدرة المواطنين العاديين على ابتكار طرائق فعل متعددة للتأثير على مسارات التغير في مجتمع يشهد ديناميكية على جميع المستويات وذلك من أجل تحسين حياتهم.

لذلك سيكون سؤالنا المركزي هو التالي: كيف يلزم هؤلاء المواطنون العاديون الماسكين بالسلطة على تغيير واقعهم السياسي والاجتماعي خارج الأطر السياسية الكلاسيكية؟ وكيف يمكن لسلوك فردي أن يتحول إلى سلوك جماعي وكيف يرتقي ما هو فردي إلى ما هو عام؟

وعليه ندرس الحركة الاجتماعية بالكامور انطلاقا من "الأفعال الجمعية لفاعلين غير جمعيين[304]" من أجل إحداث تغيير في واقعهم ومعيشهم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي واليومي دون أن تكون هذه الأفعال موجهة بإيديولوجيات أو قيادات أو تنظيمات معترف بها.

[304]AsefBayat, Life as Politics: How ordinary people change the Middle East, ISIM/ Amsterdam University Press, Amsterdam, 2010.

ولفهم أعمق للحركة الاجتماعية بالكامور ولفهم منطق فعل الفاعلين باعتصام الكامور ومبررات فعلهم ارتأينا أن نعتمد المنهج الكيفي من خلال المجموعات البؤرية والمقابلات نصف الموجهة. ذلك أن المقابلات التفهمية تمكننا من إعادة تركيب المعنى الذاتي الذي يعطيه الفاعل الاجتماعي لفعله وفهم أعمق لمعنى تجاربهم اليومية المعيشة. فهذا التمشي التفهمي يمكنا من أن نكون أقرب للفاعل الاجتماعي وفي تفاعل مباشر معه، لذلك انصب اهتمامنا على خطاب الفاعلين الذي يمكننا من "إعادة تركيب الواقع الاجتماعي وغير منفصل عن سياق إنتاجه[305]."

وبناء على هذا التمشي المنهجي قمنا بإجراء ثلاث مقابلات، الأولى كانت مع منسق اعتصام الكامور والثانية مع المسؤول عن متابعة إنجاز وتفعيل اتفاق الكامور بولاية تطاوين، وثالثة مع عضو مكتب جهوي لاتحاد الشغل بتطاوين، وفضلا عن تنظيم مجموعة بؤرية حضر فيها ستة فاعلين في اعتصام الكامور، كان الوقت المحدد لكل مقابلة بمعدل ساعتين.

[305] Janine Pierret, « Place et usage de l'entretien en profondeur en sociologie », in, Dan Kaminski et Michel Kokoreff, Sociologie pénale : système et expérience pour Claude Faugeron, ERES, 2004, pp.199-213.

1 – خصائص الحركة الاجتماعية بالكامور: حركة اجتماعية جديدة؟

306

ظهر مفهوم الحركات الاجتماعية سنة 1842 حين استخدمه "فون ستاين" للتعبير عن أشكال الاحتجاج المختلفة الهادفة إلى تغيير الأوضاع الاجتماعية. وقد ارتبط استعمال هذا المفهوم في المجتمعات الصناعية بالحركات النقابية والعمالية. غير أن مفهوم الحركة العمالية قد تطور مع عالم الاجتماع الفرنسي ألان توران، إذ اعتبر أن الحركة النقابية "لم تكن فقط حاملة لحركة عمالية معارضة للكيفية التي يستعمل بها اجتماعيا منتوج النشاط الصناعي بل أيضا حركة متداخلة مع الاشتراكية، بصفتها تاريخية تهدف إلى تغيير نمط التنمية وبصفة أدق إلى الاستيلاء على السلطة[307]." فخلافا إلى ما ذهب إليه ماركس فإن الصراع لم يعد أساسه اقتصاديا بل صراعا من أجل احتكار وسائل الإنتاج من قبل الطبقة المهيمنة، أي صار بالأساس موجها بقيم المجتمع ما بعد الصناعي" الذي يهتم بكيفية

[306]مسيرة دعا لها منسق اعتصام الكامور يوم 18 ماي 2018 بتطاوين

[307]Alain Touraine, la parole et le sang, Odile Jacob, 1988, p. 257.

توظيف القيم المنتجة أكثر مما يهتم بمن يملكها[308]." لذلك اعتبر توران أن هوية الطبقة العمالية في المجتمعات ما بعد صناعية قد شهدت تغيرا. فلم تعد تعبر عن وحدة متجانسة بفعل بروز فئات جديدة مثل العمال التقنيين السامين وغيرهم مما نتج عنه تميّز كل فئة برهانات ومطالب خاصة بها.

وعلى هذا الإرث المفاهيمي تأسس مفهوم الحركات الاجتماعية الجديدة في منتصف القرن العشرين وذلك تزامنا مع بروز جملة من الحركات الاجتماعية الجديدة التي وجهت المجتمعات والتاريخ وجهة مغايرة تختلف في وجوه عدة عن الحركات النقابية والعمالية. ومن ذلك الحركة الطلابية سنة 1968 والحركات الجهوية والنسوية والبيئية التي تميزت بقدرتها على استقطاب فاعلين اجتماعيين جدد لهم مطالب مغايرة للحركات النقابية والعمالية. إن الرهان هنا لا يخص تقسيم الثروة والمراتب الاجتماعية بقدر ما يهتم بمشاكل جديدة مثل البطالة والإقصاء الاجتماعي والثقافي. وعلى هذا الأساس يكون السؤال الذي يطرح في سياق محاولة فهمنا للحركة الاجتماعية بالكامور هو التالي: إلى أي حد كانت هذه الحركة مجددة في مستوى فاعليها ورهاناتها؟

إن السمات المميزة للحركة الاجتماعية بالكامور تؤكد ما ذهبت إليه التحاليل السوسيولوجية حول الدور الصاعد للشباب في التغيير المجتمعي وذلك منذ ظهور الحركة الطلابية 68. وقد غذت هذه الحركة الدراسات السوسيولوجية لمدة عقود معتبرة الشباب فاعلا اجتماعيا جديدا له القدرة على تشكيل "حركات اجتماعية جديدة" من حيث أشكال النضال والمضامين، فقد أصبحت هذه الحركات عابرة للطبقات وصار لها رهان ثقافي مخصوص (الحركات النسوية، حركات الأقليات الدينية والجنسية). وما يعيشه المجتمع التونسي اليوم وكل العالم من تصاعد للحركات الاجتماعية، خاصة تلك التي برز فيها الشباب بوصفه فاعلا رئيسيا فيها، يجعلنا نعيد التفكير في آليات تحليل هذه الحركات ومحاولة فهم رهاناتها.

[308] سميحة الحامدي، الحركة الاجتماعية بالحوض المنجمي 2008: الشباب وملامح فاعل صاعد، مصدر سابق، 2013، ص. 30.

إن المتابعين لتطور أشكال الحركات الاجتماعية الجديدة في تونس يمكن أن يتوقف على لحظتين تاريخيتين مهمتين، الأولى تمثلت في الحركة الاجتماعية بالحوض المنجمي سنة 2008 والحركة الاجتماعية التي أطاحت بحكم بن علي وما تلاها من حركات.

وجدير بالذكر أنه من خلال دراستنا للبعض من هذه الحركات لاحظنا أن لكل منها خصائصها، إذ تميزت كل حركة اجتماعية بسمات جديدة وحافظت في نفس الوقت على السمات التقليدية للحركات الاجتماعية. فمثلا الحركة الاجتماعية بالحوض المنجمي سنة 2008 كانت مؤطرة من قبل نقابيين ومسنودة من قبل أحزاب ومنظمات حقوقية وشخصيات سياسية معارضة[309]. أما الجديد الذي ميز هذه الحركة فيتمثل في بروز فاعل اجتماعي جديد وهو الشباب الذي مثل فئة المعطلين عن العمل من أصحاب الشهائد العليا وغيرهم. ويتفرد هذا الفاعل الجديد بابتكار طرق جديدة في الفعل وفي أشكال مقاومة السلط الأمنية (مواجهات ليلية، جمع الحشرات والزواحف السامة والحيوانات المتعفنة ورميها في أماكن انتشار الأمن).

أما الحركة الاجتماعية بالكامور فقد تفردت بشكل جديد، ذلك أن فاعليها لا ينتمون إلى الأحزاب وأغلبهم معطلون غير حاملين لشهائد علمية ورفضوا رفضا قاطعا مساندة الأحزاب. ولم يكن حضور المنظمة الوحيدة التي حضرت في آخر مراحل التفاوض بصفتها ضامنا لتفعيل الاتفاق، إلا بطلب من الشباب لتقوم مقام الضمان الأدبي الضاغط في حال تراجع الحكومة عن تفعيل الاتفاق. في هذا السياق يقول عضو المكتب الجهوي للاتحاد العام التونسي للشغل بتطاوين "لقد رفض شباب الاعتصام رفضا قاطعا حتى مجرد مساندتنا لهم، في الحقيقة لم نكن نتوقع أن ينجح الشباب في الصمود وإنجاز هذا النجاح. حتى عندما هددوا بغلق (la vanne)تدفق النفط عبر القنوات بالكامور لم نصدق

[309] سميحة الحامدي، الحركة الاجتماعية بالحوض المنجمي سنة 2008، الشباب وملامح فاعل صاعد، مصدر سابق.

أنهم قادرون على ذلك واعتبرناه مجرد تهديد. ذلك أن إغلاقه يحتاج مختصين ذوي كفاءة عالية. غير أننا فوجئنا بأنهم نفذوا تهديدهم[310]."

فهذه الحركة الاجتماعية تميزت برفضها لكل شكل مؤسساتي تقليدي. ولكن يمكن القول في نفس الوقت إن المؤسسات غير الرسمية أخذت مكان المؤسسات الرسمية ونعني بذلك الحضور القوي للوشائج الجهوية والأولية التي أخذت مكان الأحزاب. فالحركة الاجتماعية بالكامور لاقت دعما وحشدا جهويا واضحا. والملاحظ أنه من خلال متابعتنا لبعض الحركات الاجتماعية مثل التي جدت بجمنة أن الجهوي والمحلي يصبح عابرا لما هو سياسي، وهذا ما يؤكد مرة أخرى مأزق الأحزاب السياسية والديمقراطية التمثيلية إذ تصبح العلاقات الأولية والجهوية هي المحددة لما هو سياسي وليس العكس. وقد بدا هذا واضحا أيضا في الانتخابات البلدية وبعض التحالفات التي وقعت بين أطراف سياسية مختلفة وتجاوزت في بعض الأحيان حتى القيادات الحزبية[311]. غير أن سمات الحركة الاجتماعية بجمنة تختلف عن سمات مثيلتها بالكامور، إذ أن الحركة الاجتماعية بجمنة لم تخرج عن المؤسسات التقليدية حيث كان الفاعلون ممن أطروا الحركة ينتمون إلى أحزاب سياسية مختلفة أيديولوجيا. ولكن الطريف أن هذه الأحزاب توفقت في إنجاز وفاق من أجل الصالح العام متجاوزة بذلك الصراعات الأيديولوجية التي يتسم به المشهد السياسي والفضاء العام. كما أن الحركة الاجتماعية بجمنة لاقت دعم ومساندة أحزاب وشخصيات سياسية. في حين أن شباب الكامور قاموا منذ البدء، كما عبروا لنا، بطرد كل ممثلي الأحزاب السياسية وحتى النقابيين الذين حاولوا مساندتهم. ولعل هذا سر فرادتها وما مكنها من الحفاظ على وحدتها خلافا للحركات الاجتماعية بالحوض المنجمي لما بعد 2011 التي تميزت بالتشظي والانقسام.

[310] من مقابلة مع عضو المكتب الجهوي للاتحاد العام التونسي للشغل بتطاوين، أكتوبر 2017، مقر المكتب الجهوي للاتحاد العام التونسي للشغل، تطاوين.

[311] يمكن أن نذكر على سبيل المثال ما وقع من تحالفات بين الجبهة الشعبية وحركة النهضة إبان الانتخابات البلدية في نوفمبر 2018 ببلدية العروسة من ولاية سليانة. وقد عبر المجلس المركزي في بلاغ له عن رفضه لهذا التحالف واعتبره أحادي الجانب مذكرا ببيانه الصادر يوم 11 ماي 2018 الذي أكد فيه بأنه لن يتحالف لا مع حركة النهضة ولا مع حركة نداء تونس.

لكن من المهم التذكير بأن البعد الجهوي والحضور القوي للعلاقات الأولية لا يعبر بالضرورة على انكفاء محلّي لحركة الكامور.فعندما تتحول الحركة من حركة احتجاجية محلية لبعض الشباب العاطل عن العمل لا يتعدى عددهم عشرة أفراد من معتمدية "بير لحمر" بتطاوين مطلبها الأساسي التشغيل لا غير إلى حركة يتطور تنظيمها ويرنو أفقها إلى المطالبة بإعادة توزيع الثروة والعدالة الاجتماعية والحق في الاعتراف، فإن المطلب المحلي أو الجهوي يمكن أن يرتقي ويتقاطع مع الصالح العام وحتى مع ما هو كوني حقوقي وثقافي. فنحن هنا إزاء تشكل مواطنة جديدة لمواطنين عاديين يبحثون عن "الاعتراف، وعن سامع يصغي إليهم بصفتهم ذوات سياسية ليس فقط من قبل المؤسسات السياسية بل أيضا من قبل جماعات الانتماء وبوصفهم ذوات حاملة لحقوق وقادرة هي نفسها على تعريف هذه الحقوق[312]."

وانطلاقا مما تقدم يبدو أن رهان الحركة الاجتماعية بالكامور الجمع بين ما هو اقتصادي/ اجتماعي، وبين ما هو ثقافي وسياسي يتوق إلى الكرامة والاعتراف الاجتماعي. لذلك نرى أن خصائص الحركات الاجتماعية التي شهدها المجتمع التونسي بعد 2011 – أو البعض منها على الأقل – قابلة للتصنيف ضمن ما اعتبره جيوفر يبلاير " جيلا جديدا من الحركات التي تتجاوز الثنائية القائمة بين ما يسمى بالحركات الاجتماعية الجديدة التي تحركها الاحتجاجات ذات الطابع الثقافي المتمحورة أساسا حول الاعتراف وقيم ما بعد-مادية والحركات الاجتماعية القديمة الموجهة باعتبارات مادية ومتمحورة أساسا حول إعادة توزيع الثروة[313]." فالحركة الاجتماعية بالكامور جمعت بين البعدين الثقافي المتمثل في الصراع من أجل الاعتراف والحق في الولوج إلى مجتمع الاستهلاك والمتعة بوصفهم شبابا لهم قيم ثقافية جديدة وبوصفهم جهة داخلية تعاني التهميش والتوزيع غير العادل للثروة.

[312]Marion Carrel et Catherine Neveu (s.dir), Citoyenneté ordinaire. Pour une approche renouvelée des pratiques citoyenne, Paris, Karthala, 2014, p.10.
[313]Geoffrey Pleyers, « Démocratie et dignité au cœur des mouvements post-2010 », in Mohamed Nachi (s.dir), Révolutions et émancipations, Nirvana, 2017, p. 230.

وعليه فإننا سنعمل على تحليل الحركة الاجتماعية بالكامور انطلاقا من هذا المفهوم للحركة الاجتماعية الذي يستند إلى عدة أبعاد ميزت منطق فعل الفاعلين وهي البعد الذاتي الخاص بتجربة الفاعلين الاجتماعين إذ نلاحظ أن علاقتهم بذاتهم وبالآخرين قد تمثل محورا رئيسيا في أشكال الصراع بالمجتمعات المعاصرة. ولهذا لا يمكن أن نغفل في هذه الحركة تلازم البعد الثقافي المتمثل أساسا في الصراع من أجل الاعتراف مع البعد الاقتصادي.

2 – الحركة الاجتماعية بالكامور: القائد الذي خرق المعتاد

جانب من اعتصام الكامور بصحراء تطاوين[314]

[314]من مقال على موقع Tunis webdo بتاريخ 31 ماي 2017
http://www.webdo.tn/

لقد تابعنا اعتصام الكامور من خارج البلاد، حينها لفت انتباهنا من خلال متابعتنا لشبكات التواصل الاجتماعي ومختلف وسائل الإعلام لشخصية كانت محل اهتمام وسائل الإعلام. إنه المنسق والناطق الرسمي لاعتصام الكامور. كان السياسيون والأمنيون يتهمونه بأنه يتآمر على أمن البلاد ويقوم بتنفيذ أجندات مجموعات إرهابية وناشطين في التجارة الموازية[315]. وبما أنه على الباحث أن يكون حذرا في تناوله للخطاب السياسي الرسمي والإعلامي، قررنا التواصل معه لفهم أكثر موضوعية للحركة الاجتماعية بالكامور التي احتلت حيزا هاما من مجال الشأن العام التونسي وحتى الدولي بما أن الاعتصام كان له تأثير مباشر على الشركات البترولية العابرة للقارات. لذلك تواصلنا معه في مرحلة أولى عبر شبكة التواصل الاجتماعي "فايسبوك" ثم في مرحلة ثانية من خلال إجراء مقابلة مباشرة. لهذا "القائد العادي" ملامح نكثفها فيما يلي استنادا إلى ما عبر عنه قولا:

مؤطر رقم 1: ملامح منسق اعتصام الكامور وناطقه الرسمي

عمري 33 سنة، لا أنتمي إلى أي حزب سياسي ولم تكن لي أي تجربة لا حزبية ولا في المجتمع المدني. يتيم الأب منذ سن الثالثة، غادرت مقاعد الدراسة منذ السابعة أساسي. عشت في ظروف اقتصادية صعبة. كنت مضطرا لأتحمل مسؤولية العائلة في سن مبكرة. عشت طفولتي في السوق، فأنا "ولد سوق" كنت أبيع المناديل الورقية وغيرها من البضائع الصغيرة وأنا حافي القدمين، ولكن ذلك مكنني من اكتساب علاقات اجتماعية مهمة، وتمكنت من نيل ثقة أغلب الأهالي هنا في تطاوين. تعرضت لحادث مرور سنة 2008 حين كنت رفقة أحد الأصدقاء المقيمين بالخارج. سنة 2013 وتحصلت على تعويض من شركة التأمين ومكنني ذلك من بعث مشروع تجاري (بيع الملابس الجاهزة من تركيا). لكن للأس فلم ينجح

[315] انظر تصريحات وزير التشغيل والمكلف الرسمي للتفاوض مع المحتجين باعتصام الكامور عماد الحمامي:

https://www.youtube.com/watch?v=iC6qm83AzkY

المشروع رغم محاولاتي المتعددة لمقاومة الظروف التي حالت دون نجاح المشروع. الفشل نتج عن سببين اثنين، الأول أنه في البداية كانت الحدود بين ليبيا وتونس غير مراقبة فكنت أتحيل لإدخال البضاعة من تركيا عبر ليبيا حتى لا أقوم بدفع معاليم الديوانة، والسبب الثاني وهو الأهم الوضع الاقتصادي الصعب للشباب في تطاوين، فمثلا كنت أقارن بيني وبين التاجرات في صفاقس، فتجارتهن كانت أحسن بكثير من تجارتي ذلك أن الوضع الاقتصادي في صفاقس وبقية الجهات الساحلية يمكن الشباب من الولوج إلى السوق الاستهلاكية. فشباب هذه المناطق من أولوياتهم اقتناء أحسن الملابس وأفخر العطور بينما الشباب هنا كل أولوياته وتفكيره موجه نحو عائلته وكيف يؤمن لهم ضروريات الحياة. فهذا واقع مرير يعيشه شباب ولاية تطاوين والمناطق الداخلية وجب توضيحه. لذلك لم ينجح مشروعي التجاري. وأنا اليوم عاطل عن العمل وعلى عاتقي مسؤولية العائلة ولم أتزوج إلى حد هذه اللحظة.

أما في ما يخص تجربتي السياسية فأنا لم ولن أنتمي إلى أي حزب سياسي ولم تكن لي أية تجربة في المجتمع المدني وأول مرة أشارك في حركة احتجاجية. في الحقيقة لم أتوقع هذا النجاح ولم أخطط لأكون منسق اعتصام الكامور ولا لأن أصبح بهذه الشهرة ومحل اهتمام جل وسائل الإعلام المحلية والعالمية. في البداية كان كل اهتمامي أن نطالب بتشغيل الشباب العاطل عن العمل ولكن في الأخير تمكنا من إنجاز ما عجزت عن إنجازه كل الأحزاب السياسية.

إن المتأمل في خصائص شخصية منسق اعتصام الكامور يلاحظ أنه مواطن عادي بتحصيل مدرسي ضعيف وليست له تجربة سياسية أو أي نشاط في المجتمع المدني. فحتى فكرة الاعتصام كانت بطريقة عفوية وغير مخطط لها، ولكن التجربة التي خاضها منسق اعتصام الكامور وبقية الفاعلين بينت أن المواطن العادي يمكن أن يتمتع بقدرة فائقة على الفعل وابتكار آليات جديدة في الاحتجاج والتفاوض والتنظيم. " لقد تجاوز

عدد خيمات اعتصام الكامور ثمانين خيمة، ورغم ذلك "كنا في غاية التنظيم، فعند مناقشة أي قرار ننوي اتخاذه أو التنظيم لتحركات يكون لكل ممثل خيمة مكان مخصص له باسمه ويكون عادة اسم الحي أو المعتمدية التي يمثلها. ويدار الحوار بشكل ديمقراطي ومنظم ويتم اتخاذ القرار المناسب بالتصويت. كما نقوم بتنظيف مكان الاعتصام. صحيح أنه لم تكن لنا تجربة سابقة في تنظيم الاحتجاجات ولكننا نجحنا في ذلك دون أن نخطط له".

كما تمتع منسق اعتصام الكامور بمهارات وقدرة على التفاوض وذلك باعتماد أساليب المراوغة واللعب:"نخليهم ديما حايرين منقولهمش الصحيح، ديما نعطيهم انطباع اللي احنا عنيفين وفوضويين" وكأنه يعبر بكل دقة عن مفهوم "منطقة الغموض" ميشال كروزي التي تكون بمثابة "ورقة رابحة" لحسن التفاوض والمناورة. فمنسق اعتصام الكامور يعبر عن قدرة الفاعلين الاجتماعيين على تجاوزهم للمحددات المشروطة مسبقا بالاعتماد على مبدأ "الاحتمالية" إذ أنهم " يقيمون داخل إكراهات النظام هامشا من الحرية يستعملونه بطريقة استراتيجية في تفاعلهم مع الآخرين[316]."ومن هذا يتضح لنا أن منسق اعتصام الكامور استمد فعله من خلال معقوليته القائمة على أساس مطامحه وقدرته على اللعب والتفاوض.

كما أن منسق اعتصام الكامور ومن معه كانت لهم القدرة على ابتكار أشكال مقاومة جديدة من خلال اعتماد "النص المعلن" و"النص الخفي" كآلية لمقاومة من هم في السلطة وهي نفس الآليات التي يعتمدها من هم في السلطة، فمثلا لا يعتمد المفاوضون لحظة التفاوض نفس الخطاب الذي يمر عبر وسائل الإعلام والفضاء العام. فالوزير الذي يقول في وسائل الإعلام إن اعتصام الكامور ممول من مجموعات إرهابية يختلف خطابه حين يكون في جلسة تفاوضية، وهذا ما أكده لنا منسق اعتصام الكامور بقوله "نفس الوزير الذي كنت معه في المباشر على إحدى القنوات التلفزية واتهمني بالتخريب وتنفيذ

[316]Michel Crozier et EehardFreidberg, l'acteur et le système, Seuil, 1981, p.25.

أجندات، استقبلني في اليوم الموالي بحرارة وطلب مني الجلوس إلى جانبه ليُبيّن لي أنني مهم، وأنا لست أحمقا لأصدقه بل ولهذا رفضت وقلت له أنا هنا خصمك لذلك سأجلس قبالتك فمكاني ليس بجانبك[317]."من الواضح أن لمنسق اعتصام الكامور ولمن معه القدرة على فك رموز "النص المعلن" و"النص الخفي"، بل هم أيضا يعتمدون على نفس الآلية لفهم خطاب خاص فيما بينهم يختلف عن الخطاب المعلن، ففيما بينهم يدركون أن سقف المطالب المقدمة لا يمكن تحقيقه بل إن ذلك فقط من أجل تحسين شروط التفاوض. فمثلا طلب تخصيص 20%من عائدات النفط يعلمون جيدا أنه من غير الممكن تحقيقه وقد يقبلون بمقترح أقل من ذلك بكثير.

من الملامح الأخرى لمنسق اعتصام الكامور القدرة على توظيف رأس المال الاجتماعي والرمزي مما مكنه من سهولة التعبئة الجماهيرية للخروج من الأزمات، فمثلا استطاع منسق اعتصام الكامور أن يجمع حوله كل الجهة ضد تأليب الخطاب الرسمي واتهامه بولائه لمجموعات إرهابية: "كنت أتذكر ذلك اليوم جيدا عندما صرح وزير التشغيل في وسائل الإعلام أنني أتلقى تمويلا من مجموعات إرهابية للتآمر على أمن الدولة، كان ذلك خلال شهر رمضان، في الواقع كنت خائفا جدا فلم يعد أمامي الكثير من الخيارات، إما أن أنجح في إقناع الرأي العام على الأقل في جهتي لمساندتي أو أن السجن في انتظاري. فكرت قليلا ثم قمت بتسجيل فيديو دعوت فيه الأهالي وبلغة بسيطة للخروج في مسيرة ومساندة التحركات دفاعا عن حقوقهم وحقوق أبنائهم ونشرته في شبكات التواصل الاجتماعي. حينها لم ننشئ بعد صفحة خاصة لاعتصام الكامور ولكن بفضل علاقاتي نشرت الفيديو بصفحات خاصة بالشأن الجهوي. في الحقيقة لم تكن لدي أية فكرة عن مدى نجاح المسيرة التي دعوت إليها، ولا أخفيك القول كنت شديد التوتر حتى أنني واصلت الصيام حتى بعد الإفطار كنت فقط أقوم بإشعال السيجارة تلو السيجارة في انتظار خروج الأهالي إلى المسيرة. كنت في الشارع في انتظارهم وبعد فترة وجيزة من الإفطار بدأت الوفود تلتحق بالشارع، وبدت ملامح الارتياح بادية على وجهي وسرعان ما امتلأت

[317] من مقابلة مع منسق اعتصام الكامور، أكتوبر 2017، تطاوين.

الشوارع بكل الفئات الاجتماعية، شباب، كبار في السن، عاطلون عن العمل وموظفون وتجار، كانت مسيرة ضخمة جدا. لم أكن أتوقع مثل هذا النجاح، شعرت بأني قوي جدا وأن مغالطات الإعلام ومن هم في الحكومة لن تهزمني[318]."

إن ما يلفت الانتباه في خصائص شخصية منسق اعتصام الكامور هو بروز شكل جديد من المواطنة تجاوز المعنى الكلاسيكي الذي عبرت عنه الديمقراطية التمثيلية. لقد جسدت الممارسة الانتخابية في المجتمعات الغربية في أواسط القرن 19معنى الواجب المدني أو بعبارة أخرى شكلا من أشكال "التطور الذي يكون غالبا غير متوازن ويتضمن في بعض الأحيان اتفاقا بين الناخبين والمنتخبين[319]."

فهذا الإجماع حول الديمقراطية التمثيلية يعبر عن نوع من النزوع إلى "إضفاء الطابع السلمي على العلاقات الاجتماعية[320]."غير أننا نلاحظ اليوم ومن خلال متابعتنا لمختلف الحركات الاجتماعية الشبابية أن هناك أزمة ثقة بينهم وبين الأحزاب والفاعلين السياسيين. فهم لا يشعرون بأن الأحزاب يمكن أن تمثلهم أو تدافع عن حقوقهم. وفي هذا الإطار أفادنا أحد المستجوبين "أنا لا أمثل غير نفسي ولا أحد يمكنه أن يمثلني أو يدافع عن حقوقي، كل السياسيين يتصفون بالكذب ولا يدافعون إلا عن مصالحهم. السياسة ملوثة بأموال رجال الأعمال، لذلك الأحزاب لا تخدم إلا مصالحهم[321]." ثم أضاف شاب آخر: "فما الذي حققته الأحزاب لجهة تطاوين على مر سنوات؟ لا شيء على الإطلاق، لذلك عليهم أن يكفوا عن استبلاهنا لأننا نعلم أنهم لا يتوجهون إلينا إلا أوقات الحملات الانتخابية بخطابات كاذبة[322]."فمعنى المواطنة هنا انزاح عن معناه الكلاسيكي المرتبط بالمؤسسات لتصبح –المواطنة- مرتبطة بمواطنين عاديين يمارسون مواطنتهم من خلال

---

[318] مقابلة مع طارق، مصدر سابق.

[319] Gisbert Cyril, Nicolas Fabien, « La mutation du vote protestataire : partis tribuniciens, partis de gouvernement et sentiment antiparti », in, Pôle Sud, n°24, 2006. pp. 139-154.

[320]Norbert Elias, La civilisation des mœurs, Archives des sciences sociales, Calmann-Lévy, Paris, 1973.

[321] مجموعة بؤرية مع مجموعة من الشباب الناشط في اعتصام الكامور، أكتوبر 2017، تطاوين.

[322]نفسه.

حياتهم اليومية دون أن ينتبه إليهم أحد. "فلا أحد انتبه إلى ما يمكن أن يقوم به شباب معطل عن العمل دون شهائد علمية. وحتى في تمثلاتنا ارتبطت الثورة التونسية بالشباب أصحاب الشهائد العليا وهذا ما قامت بتسويقه قناة الجزيرة ووسائل الإعلام[323]." في حين اتضح أن من أقدم على حرق نفسه وأشعل شرارة التحركات الاجتماعية بداية من 17 ديسمبر 2011 لم يكن من أصحاب الشهائد العلمية، وهذا ما يفسر تشكيك المقاربات الكلاسيكية للمواطنة في قدرة المواطنين العاديين على التعبير عن مشاكلهم وفرض وجودهم في الفضاء العام، وهو ما يعبر عنه بعبارة "مهارة مواطنية" التي لا يمكن تحقيقها إلا في إطار مؤسساتي. وعلى عكس ما ذهب إليه "هابرماس" من أن تشكيل الفضاء العام ومناقشة الشأن العام اقتصر على الطبقة البورجوازية مُقصيا بذلك بقية الفئات والطبقات الاجتماعية، فإن التحول الذي شهده الفضاء العام في تونس حتى قبيل 17 ديسمبر 2011 أثبت أن الفضاء لم يعد مقتصرا على طبقة أو فئة اجتماعية بعينها[324] بل تمكنت الفئات الاجتماعية المهمشة والمقصية طيلة عقود من المشاركة في الفضاء العام من افتكاك مكان وإعادة تملكه، فالفاعلون في الحركة الاجتماعية بالكامور مثلا على التحول في تشكيل الفضاء العام والتحول من مفهوم المواطنة الكلاسيكية إلى المواطنة العادية. فبهذا المفهوم تصبح المواطنة"بناء اجتماعي وسياسي، صناعة في تطور مستمر ومجموعة من المسارات يمكن أن تتنوع في أشكال تفعيلها[325]."وفي نفس السياق يعتبر"جاك ايون" أن المواطنة "مسار متواصل يتجسد من خلال المعيش اليومي[326]" للفاعلين الاجتماعيين. وفي نفس السياق يعتبر "جون هولواي" في دراسته للحركات الاجتماعية أن الثورة ينبغي أن تنبع من الحياة اليومية العادية، إذ يعتبر أن رهان الحركات الاجتماعية الجديدة، على

[323]FethiRekik et Samiha Hamdi, «Parts du politique et de l'économique dans le mouvement social de Kamour », in Mohamed Nachi (s.dir), Lasociologiepragmatique&l'étudedessociétésmaghrébines, Nirvana, 2019

[324]Samiha Hamdi, jeunes et actions politique : comportement électoral et nouvelles formes d'expressions chez les jeunes dans l'espace urbain en Tunisie, Op.cit.

[325]Marion Carrel, Catherine Neveu, (s.dir), Citoyennetés ordinaires. Pour une approche renouvelée des pratiques citoyennes, Paris, Éditions Karthala, 2014,p. 6.

[326]Jacques Ion, « postface », in [326]Marion Carrel, Catherine Neveu, Op.cit, p.319.

عكس الحركات العمالية، ليس افتكاك السلطة من أجل الحكم ولكن تغيير العالم دون أن يكون هناك ضرورة لافتتاك السلطة[327]. فالثورة بهذا المعنى لا يمكن أن تكون "حكرا على النخب المستنيرة ولا حتى على القوى الطلائعية[328]."

وفي نفس هذا المعنى يقول أحد الشباب المشارك في الاعتصام " لقد تمكنا من تحقيق ما لم تحققه أكبر الأحزاب الموجودة في الساحة السياسية اليوم، وسنظل ندافع عن مصالح الجهة ومصالح الشباب المعطل عن العمل، لقد تمكنا من إمضاء اتفاق يضمن 4500 موطن شغل وصندوقا لتمويل مشاريع تنموية بالجهة تقدر ب80 مليار من المليمات سنويا[329]." وبهذا المعنى تعبر الحركة الاجتماعية عن "سلسلة ذات ديمومة من التفاعلات بين الماسكين بالسلطة وأشخاص يتحدثون نيابة عن قاعدة جماهيرية تفتقد التمثيل السياسي الرّسمي، وذلك في سياق نشر هؤلاء الأشخاص مطالب محددة تستهدف إجراء تغيير في توزيع السلطة أو ممارستها وتدعيم هذه المطالب بتحركات جماعية عمومية من أجل حشد التأييد[330]."

فمقاطعة الانتخابات وإعادة تملك الفضاء العام والمساحات العامة أخذت مكان المواطنة الكلاسيكية. فهذا العزوف لا يعبر بالضرورة عن مواطن سلبي غير فاعل بل يعبر عن شكل جديد من الممارسة المواطنية النقدية، الساخرة وتعبر عن ريبة من كل الفاعلين السياسيين. وهذا المعنى الذي عبر عنه منسق اعتصام الكامور بقوله " لقد انتخبت مرة واحدة في حياتي ولن أكررها. بل أكثر من ذلك إنني نادم أشد الندم على ما قمت به ولي رغبة في أن أقوم بقطع إصبعي الذي تلوث بذلك الحبر الأزرق سنة 2011. في البداية انطلت علي حيلة ذلك الخطاب المشحون بالتظلم والمعاناة من النظام الديكتاتوري

---

[327] John Holloway, Op.cit.

[328]Mohamed Nachi et Matthieu de Nanteuil, « Révolutions et émancipations à l'heure de la globalisation : pour une sociologie post-européenne », in Mohamad Nachi (s.dir), Révolutions et émancipations, Nirvana, 2017, p.45.

[329]من مقابلة مع منسق اعتصام الكامور، مصدر سابق.

[330]Charles Tilly, « Social Movements as historically specific clusters of political performances, Berkeley Journal of Sociology 38, 1994, pp. 1-30, in, تشارلز تيلي، الحركات الاجتماعية، ترجمة وتقديم ربيع وهبة، المجلس العربي للثقافة، القاهرة، 2005، ص. 15.

السابق وأيضا المشحون بخطاب ديني يشعرنا بأن منتمي حركة النهضة "ناس تخاف ربي" ولكني اكتشفت أن الجميع سماسرة يتاجرون بمعاناة المواطن. أدركت أن الجميع لا يخدم إلا مصلحته. فماذا قدموا مثلا لولاية تطاوين منذ 2011، لا شيء غير مزيد التهميش، فأنا لست بحمار لأنتخب طبقة سياسية تتاجر بمعاناتنا. ولكنني مقتنع أنني يمكن أن أدافع عن مصالح الجهة التي أنتمي إليها وعن مصالح الشباب الذي يعاني البطالة والتهميش بطرق أخرى[331]." فالملاحظ هنا أن الديمقراطية الاحتجاجية حلت محل الديمقراطية التمثيلية.

3- الصراع من أجل الاعتراف

مؤطر رقم 2: اعتصام الكامور كما يروي أحداثه فاعلوه

أعتقد أن الاعتصام جاء متأخرا، فالكل يعلم أن تطاوين تؤمن تقريبا 50 %من إنتاج النفط لتونس. فيوميا تمر أمامنا عشرات الشاحنات المحملة بالنفط، والتجهيزات الثقيلة المقدرة بالمليارات. هذه الشركات تتعاقد مع مهندسين وخبراء من الخارج بأسعار خيالية في حين يضطر الشباب هنا إلى تقاسم السجائر. ويضيف شاب آخر " حتى مقر الشركات توجد في تونس العاصمة وبلدياتها هي التي تتمتع بعائدات الضرائب. في حين لا يوجد في تطاوين إلا طريق رئيسي واحد، لا توجد مرافق ترفيه نهائيا، فمن حقنا كشباب أن نحلم مثل غيرنا من شباب المناطق الساحلية بأن نرافق زوجاتنا وأطفالنا بأماكن ترفيه. فلماذا تقسو علينا الطبيعة والحكومات المتعاقبة. هل تعلمين أن درجات الحرارة هنا تتجاوز الخمسين صيفا؟ فلا وجود حتى لمسبح بلدي هنا، فبالرغم من أن المنطقة تتمتع بثروات طبيعية إلا أننا نعاني من التهميش والبطالة. وحتى الانتدابات في الشركات البترولية تتم بالمحسوبية والولاءات، فمثلا حصلت على تكوين مهني في اللحام بعد أن علمت من مكتب الشغل أن المتكونين في هذا الاختصاص سيتم انتدابهم في الشركات البترولية، إلا

[331] من مقابلة مع منسق اعتصام الكامور، مصدر سابق.

أننا فوجئنا بعد القيام بالمناظرة أن كل الناجحين كانوا من ولاية قابس وذلك في علاقة بإحدى الشركات التي هي على ملك عائلة من هذه الولاية. فحتى في المناظرات الوطنية ليس لنا نفس الحظوظ في النجاح مثل شباب بقية المناطق إذ أننا لا نتلقى نفس درجة جودة التعليم، فنحن لا نتلقى نفس التعليم لأن الأساتذة وخاصة أساتذة اللغات لا يرغبون في العمل في المناطق الداخلية لذلك نلاحظ أن أدنى نسب النجاح نجدها في الولايات الداخلية في حين يتفوق أبناء الجهات الساحلية. فكيف ستكون حظوظنا متساوية في المناظرات الوطنية؟ لذلك من حقنا أن نطالب بتشغيل أبناء الجهة في الشركات البترولية وأن نطالب بنسبة من عائدات البترول لتنمية الجهة.

الجيش التونسي يطوق مكان الاعتصام بالكامور[332]

ما يمكن ملاحظته أن دوافع تشكل الحركة الاجتماعية بالكامور متعددة فمنها ما هو فردي ومنها ما هو جماعي ومنها ما هو جهوي محلي ومنها ما هو وطني ومنها ما هو

[332]http://www.webdo.tn

اقتصادي اجتماعي ومنها ما هو سياسي وأخلاقي. لذلك لا يمكن فهم منطق فعل الفاعلين في الحركة الاجتماعية بالكامور انطلاقا من بعد واحد، ولهذا الاعتبار تبدو لنا مقاربة نانسي فرازر لمفهوم "الاعتراف الاجتماعي" مناسبة لفهم أعمق لهذه الحركة الاجتماعية. فنانسي فرازر انطلقت من نقد المفهوم الثقافي للاعتراف الاجتماعي الذي يمثله أساسا شارلز تيلي وأكسل أونث، فهي تعتمد على "نظرية تقدم نفسها بوصفها أحد مكونات سياسة الاختلاف الثقافي التي تتضافر جهودها من أجل تحقيق مطلب اجتماعي للمساواة[333]." فالاعتراف الاجتماعي هنا مرتبط بالعدالة الاجتماعية إذ يمر تحقيقها عبر آليتين اثنتين، التوزيع العادل للثروة والاعتراف بالخصوصيات الفردية، فالفاعلون الاجتماعيون يصارعون من أجل تحقيق العدالة في بعديها الاقتصادي/الاجتماعي المتمثل في مقاومة الاستغلال والإقصاء والتهميش وأيضا في بعدها الرمزي أي الصراع ضد هيمنة نموذج ثقافي بعينه. وفي هذا السياق تقول نانسي فرازر " إننا أمام مأزق مركب، سأسميه مأزق إعادة التوزيع/الاعتراف، فالأفراد الذين هم في نفس الوقت يعانون من غياب العدالة الثقافية والاقتصادية هم في حاجة إلى الاعتراف وإعادة توزيع الثروة. إن احتجاجهم يعبر في الآن نفسه عن مطلب من أجل المساواة ونفي لخصوصياتهم[334]." فالفاعلون الاجتماعيون بالنسبة للكاتبة ليسوا في حاجة إلى إثبات هوياتهم الخاصة بقدر حاجتهم إلى إثبات مكانتهم الاجتماعية بوصفهم شركاء وفاعلين بصفة تامة وفعلية في المجتمع الذي ينتمون إليه. فنحن إزاء ما تسميه " معايير التناصف في المشاركة[335]." فعدم الاعتراف لا يعني التعدي على الهوية ولكن علاقة "تبعية لأصحاب القرار الهرمي" وهذا ما يمنع الفاعلين من المشاركة بصفة فعلية ومتساوية في الحياة الاجتماعية.

---

[333] Nancy Fraser, « Justice sociale, redistribution et reconnaissance », Revue du MAUSS, vol. n° 23, n°.1, 2004, pp. 152-164.

[334]Nancy Fraser, Qu'est-ce que la justice sociale ? Reconnaissance et redistribution, traduit par, Estelle Ferrarese, La Découverte, 2011, p.21.

[335]Ibid, p.50.

تميزت الحركة الاجتماعية بالكامور بقواعد تختلف عن بعض الحركات الأخرى المشحونة بمطلب اعتراف ثقافي وأخلاقي التي بدأت في البروز في المجتمع التونسي بعد 2011 خاصة في المدن الكبرى على غرار الحركات المدافعة عن الأقليات الجنسية والدينية، فما غذى الاحتجاجات في اعتصام الكامور (المؤطر رقم 1 والمؤطر رقم 2) أولا مطلبهم في الاعتراف بهم كأفراد ومواطنين لهم نفس الحقوق الثقافية (مجتمع الرفاهية والاستهلاك كغيرهم من الشباب) لذلك نلاحظ أنه خلال المقابلات التي أجريناها مع منسق اعتصام الكامور وبعض الشباب الفاعل في الاعتصام تتردد دائما المقارنات بينهم وبين شباب المناطق الساحلية إذ يعتبرون أنفسهم يعانون من غياب العدالة الثقافية.

أما المطلب الثاني فيتمثل في التوزيع العادل للثروة الذي يرافقه ما يسمى "الغضب الأخلاقي" الذي استنتجناه من خطاب منسق اعتصام الكامور وبقية الشباب. فما يعيشه الفرد من تجارب ظلم وشعور بغياب العدالة الاجتماعية يمكن أن يمثل تراكمها في لحظة ما انفجارا اجتماعيا يولد مثل هذه الحركات الاجتماعية التي تبدو في ظاهرها عفوية، فلا أحد من الشباب مثلا يتذكر التاريخ المحدد الذي انطلقت منه الاحتجاجات في ولاية تطاوين في حين يتذكرون جيدا بداية اعتصام الكامور وتاريخ فك الاعتصام وإمضاء الاتفاق مع السلط المعنية، ولكنها في جوهرها تعبر عن التجارب الذاتية أو الجماعية للظلم وغياب العدالة الاجتماعية، فتلك التجارب يمكن أن تتطور إلى ما يهم الشأن العام والعيش المشترك. في تلك اللحظة يتحول الفعل الفردي أو الفعل الذي يبدو محليا إلى حركة اجتماعية. فيتحول مثلا مطلب الشغل والخلاص الفردي إلى مطلب تنمية الجهة والتفكير في آلية لإدارة الشأن المحلي لتفعيل صندوق التنمية الذي أقرته الحكومة من خلال الاتفاق المبرم. في هذا السياق يقول منسق اعتصام الكامور "أريد من الوضع الاقتصادي والاجتماعي أن يتغير في ولاية تطاوين أريدها أن تكون مدينة بملامح جديدة، لذلك علينا أن نعمل على إنجاح صندوق التنمية من أجل مصلحة الأهالي هنا والصالح

العام"[336].وأضاف "كما سنعمل على أن تكون شركة الغراسة والبيئة التي ستنتدب 2500 عونا لا فقط مجرد مؤسسة تقوم بالدفع أجر دون مقابل بل شركة تقوم بدورها في تنمية الجهة بطريقة فعلية وفعالة[337]." وفي متابعتنا لنشاط هذه المؤسسة لاحظنا فعلا أنها قامت بعدة مشاريع فلاحية وبيئية ساهمت في تنشيط الحركة الاقتصادية بالجهة[338].

فما يمكن استنتاجه أن قواعد الاعتراف لا تكون بالكيفية نفسها في كل الحركات الاجتماعية فهي عادة ما تكون في أشكال "هرمية مختلفة وتتمحور حول غياب العدالة الاقتصادية أو الثقافية، وتتعدد بشكل هرمي حسب السياقات المحلية والعالمية المميزة للعادات الثقافية والنظام المؤسساتي والهوياتي[339]."فإدانة شباب اعتصام الكامور لغياب العدالة الاقتصادية والاجتماعية يرافقه شعور "بالحقرة" وبتجربة ذاتية مريرة تشعرهم بأنهم أقل مرتبة من غيرهم فيشعرون بأنهم ينتمون إلى عالم اجتماعي مختلف، لذلك فنحن أمام صراع بين عالمين:

أ- عالم العظماء وهو عالم يتمتع "بشرعية قوية وتنتج أنظمة الاعتراف المعتمدة انطلاقا من المؤسسات وأسواق العمل الشرعية[340]." فالفاعلون في هذا العالم يتمتعون "بموارد اجتماعية واقتصادية وثقافية ورمزية تمكنهم من مكانة اجتماعية ومن اعتراف في الفضاء العام[341]."ومن هذا المنطلق يرى شباب اعتصام الكامور أنفسهم مقصيين من هذا العالم الذي لا يعترف بهم. فحتى مؤسسات الدولة التي من دورها الاعتراف بالأفراد بطريقة متساوية من خلال منطق الجدارة تكون في نظرهم منحازة إلى

---

[336] مقابلة مع منسق اعتصام الكامور، مصدر سابق.
[337] مقابلة مع منسق اعتصام الكامور، مصدر سابق.
[338] لمزيد من التفاصيل يمكن الاطلاع على الموقعين التاليين:http://www.alchourouk.com/article
https://www.nessma.tv/article

[339] Laurence Roulleau-Berger, « Grammaires de la reconnaissance, individuation et ordres sociétaux », in, Alain Caillé (s.dir), La quête de reconnaissance : nouveau phénomène social, Edition La découverte, 2007, p.136
p.136
[340] Ibid. p.137.
[341]Samiha Hamdi, jeunes et actions politique : Comportement électoral et nouvelles formes d'expression dans l'espace urbain en Tunisie, Op.cit.

عالم العظماء، فمثلا منطق الانتدابات في الوظيفة العمومية يكون في صالح هؤلاء الذين مكنتهم الدولة من جودة تعليم أفضل منهم، وتميز الدولة أيضا الجهات الساحلية عن الجهات الداخلية من خلال اعتماد سياسات تنموية تمييزية. وبهذا المنطق يبررون الطابع الجهوي والمحلي للمطالب كاعتماد حصة من عائدات النفط لتنمية الجهة.

ب- عالم الصغار وهو العالم الذي يتصف بـ" شرعية ضعيفة وينتج أنظمة اعتراف غير معتادة[342]." فهذا العالم يتمظهر من خلال هشاشة العمل والتهميش.فالمنتمون إلى هذا العالم يشعرون بالإقصاء والحرمان من الاعتراف بهم في الفضاء العام، فهيمنة من ينتمون إلى عوالم العظماء على من هم من عوالم الصغار ينتج عنها انقسامات اجتماعية وتقلص فضاءات الاعتراف المتبادل أو "البيذاتي". وهذا ما يخلق لدى المجموعات أشكالا عدة للصراع من أجل الحصول على حقوقها ويغذي النزوع إلى الانكفاء المحلي أو الجهوي في أغلب الحركات الاجتماعية التي ما انفك عددها يتزايد بعد 2011.

فما يعيشه الشباب المعطل بتطاوين وشعورهم بالانتماء إلى منطقة مهمشة أي إلى "عالم الصغار" يفاقم شعورهم بعدم المساواة الاقتصادية وبالتالي الفوارق الاجتماعية وغياب تكافؤ الفرص وإمكانية التمتع بالثروات والخيرات الوطنية وتحقيق الذات.

خاتمة

نلاحظ من خلال ما تقدم أن الحركة الاجتماعية بالكامور مثلت مشهدا من مشاهد ما يعيشه المجتمع التونسي من ديناميكية منذ 2011. فقد عبرت عن تغير الفضاء العام وإعادة تشكله ببروز فاعلين اجتماعيين جدد يسعون إلى فرض تموقعاتهم في فضاء أقصاهم سياسيا واجتماعيا واقتصاديا. فهندسة الفضاء العام لم تعد حكرا على نخبة بعينها بل تمكن مواطنون عاديون من إعادة تملك الفضاء العام بأشكال فعل جديدة مكنتهم من تغيير واقعهم، وهو ما يدعونا إلى بذل مجهود نظري وتطبيقي أكبر

[342] Laurence Roulleau- Berger, art. Cité. p.137.

لفهم هذه الحركات الاجتماعية الجديدة التي تعددت هوياتها ورهاناتها وفاعلوها في المجتمع التونسي والعربي والعالمي. فما يشهده العالم اليوم من تنامي الحركات الاجتماعية يجعلنا نركز اهتمامنا على مفهوم الحركات الاجتماعية بوصفها آلية من آليات التحليل لفهم أعمق للواقع.

منتصر بالله نغموشي

كاتب مهتم بالشأن الاجتماعي وسينمائي هاوٍ

احتجاجات الفلاّحين في جندوبة: الجرّار من الحقل الفلاحي إلى الحقل[343] الاحتجاجي، مقاربة سوسيو-إتنوغرافيّة

Abstract/ملخّص

بعد الثورة، صارت الاحتجاجات والحركات الاحتجاجية أمرا واسع الانتشار في جلّ الولايات التونسية. جندوبة، ولاية فلاحية في الشمال الغربي، شهدت بين ديسمبر 2017 وديسمبر 2018 حركة احتجاجية منظمة وممنهجة قام بها الفلاحون بتأطير الاتحاد الجهوي للفلاحة والصيد البحري بجندوبة. هذه الاحتجاجات جلبت لنا آلية احتجاجية جديدة تنضاف للقاموس الاحتجاجي في تونس، حيث خرج الجرار من الحقل الزراعي إلى الحقل الاحتجاجي ومن الوسط الريفي إلى قلب المدينة بما تمثله من رمز للسلطة والمركزية في الولاية. هذه الورقة بحث في مفهوم الانخراط لدى الفلاحين، في رمزية الجرار وفي كيفية تأطيرهم للواقع.

After 2011, protests in Tunisia became a very common thing in all regions, **Jendouba**, an agricultural state in the north-west witnessed during the period between December 2017 and December 2018 a structured movement of peasants organized in a regional Agricultural Union, the movement brought to us a new mechanism of protesting, where we have witnessed the emergence of agricultural machines from the sawing field to the protesting field, and from the rural environment to the heart of the downtown of the city, this downtown that holds all the symbols of power and the institutes of state.

This paper is a dive-in in this movement and an analysis of it’s symbolism.

"أنا أحكي قصة بالصورة .. الصورة متحركة .. لذلك أحركها"

هوارد هوكس، مخرج سينمائي أمريكي

إنّ مخرج الأفلام الوثائقية عندما يقوم بوضع مادته السينمائية أمام الكاميرا، يصنع بصفة تلقائية إطارا لما ينقله، إطارا يحدد عبره وجهة نظر تحليلية كاملة يتبناها المخرج نفسه عمّا يصوره .

وإن كانت السينما قد غاصت منذ القديم في مفهوم الإطار سينمائيا (**cadrage**) ، فإن سبعينات القرن الماضي وفّرت لنا عبر ارفينغ ڤوفمان (**Erving Goffman**) أداة تحليلية جديدة للظواهر الاجتماعية والفاعلين فيها ، إنها نظرية الأطر والتحليل الإطاري[344] (**framing theory and frame analysis**) التي حوّلت ما يقوم به المخرج السينمائي عبر الكاميرا إلى أداة تحليل سوسيولوجية تمكننا بطريقة فعالة من تحديد ما تحمله الحركات الاجتماعية من أفكار وتربط بين أشكال الاحتجاج وآلياته وبين تأطير الفاعلين فيه لواقعهم وتفاعلاتهم معه.

لا يمكن لنا أن نمر بتمظهرات الفعل الجماعي في تونس بعد الثورة من دون ملاحظة تغيرات كبيرة في أشكال هذا الفعل، في الفاعلين أنفسهم وحتّى في الإطار الذي تقوم فيه هذه التحركات، ولعل أجدّها احتجاجات الفلاحين في جندوبة في عدة مناسبات خلال شهر ديسمبر الفارط، التي لم تأخذ شكلا "معهودا" و "مألوفا" ، بل توصّمت بشكل واضح بطبع القائمين بها. احتجاجات الفلاحين في جندوبة جلبت لنا شكلا جديدا من الاحتجاج: مسيرة تجوب شوارع المدينة على أظهر الجرارات الزراعية .

[344]Frame Analysis: An Essay on the Organization of Experience , Erving Goffman

إن كانت الحادثة تمثل بالنسبة لكاميرا المخرج الموثق مادة سينمائية بامتياز[345] ، فهي بالتأكيد تمثل فرصة لمزيد فهم الفعل الجماعي في تونس بعد الثورة وأطره الجديدة من أطر اجتماعية سياسية عامة إلى الأطر الذهنية الخاصة بالفاعلين أنفسهم وكيفية قراءتهم لواقعهم المعيش وتحركهم فيه، وبالطبع فرصة لتسليط الضوء على أحد الفاعلين الجدد: الفلاحين، وذلك باعتماد مقاربة سوسيولوجية كيفية، تقوم على ملاحظة بالمشاركة في مسيرة يوم الأربعاء 19 ديسمبر 2018 وعدد من المقابلات نصف الموجهة مع فلاحين كانوا من الوجوه البارزة في التحركات المذكورة ومنضوين تحت لواء الفرع الجهوي لاتحاد الفلاحين بجندوبة .

تجد هذه الصفحات مكانها في هذا الكرّاس انطلاقا من كون الفعل الذي قام به الفلاحون في جندوبة في الشتاء الفارط، أي الاحتجاج مصحوبين بجراراتهم، هو شكل من أشكال الفعل الاحتجاجي الجديد وآليات الاحتجاج الجديدة، ومن كون المنظمة الداعية لهذا الفعل -أي اتحاد الفلاحين في ثوبه الجديد- ، من الفاعلين "الجدد" في الحقل الاحتجاجي التونسي .

مدخل إشكالي:

في كتابه "كيف صار التّونسيّون تونسيّين" ، يخصّص الهادي التيمومي[346] فصلا كاملا للحديث عن الفترة الممتدة بين 1864 و 2014، هذا الفصل كان بعنوان "التّاجر الدّاهية والفلاّح الثائر". وللتوضيح، الاستشهاد بالكتاب هنا ليس لداعي استعمال أي من محتوياته، بل هو لترسيخ فكرة الفلاّح الثائر وكمرجع تاريخي، حيث سبق للكاتب نشر كتاب

[345] الكاتب بصدد تصوير وثائقي حول هذه التحرّكات
[346] الهادي التيمومي هو مؤرخ وأستاذ جامعي تونسي

بعنوان "انتفاضات الفلاحين في تاريخ تونس المعاصر" وهو كتاب يتناول فيه المؤلف انتفاضة الفلاحين في الوسط الغربي التونسي سنة 1906 .

في نشرية شهر ديسمبر 2018 ، وثّق المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية عدد 359 حركة احتجاجية اجتماعية في ولاية جندوبة، منها 30 في شهر ديسمبر الفارط، الشهر الذي حدثت فيه المسيرات المذكورة .

وفيما استأثرت المؤسسة التربوية بجلّ هذه الاحتجاجات، حيث كانت في قلب الحركية الاحتجاجية في تلك الفترة نظرا للخلاف بين النقابة والوزارة، لم تغب الحركات الاحتجاجية التي يقف وراءها الفلاحون عن المشهد ، حيث دعا الفرع الجهوي لاتحاد الفلاحين بجندوبة إلى مسيرات خلال شهر ديسمبر، سماها "يوم غضب. "

أولى المسيرات كانت في 13 ديسمبر 2017 ، أي قبل سنة كاملة من المسيرات المذكورة، حيث أصدر الاتحاد بيانا يدعو فيه منظوريه إلى تنظيم مسيرة حاشدة، ولم يكن البيان الداعي لهذا الاحتجاج مفاجئا نظرا لأن بعض الفلاحين كانوا بالفعل معتصمين أمام الولاية منذ أول شهر ديسمبر 2017 تقريبا، بقدر ما كان محتواه مفاجئا، حيث دعا الاتحاد "كل الفلاحين رجالا ونساءً من كافة المعتمديات إلى المشاركة في يوم الغضب مصحوبين بآلاتهم وجراراتهم الفلاحية".

هذا البيان كان سابقًا لعدة بيانات لاحقة تتمحور كلها حول نقطتين: الدعوة ليوم غضب وإحضار الآلات الفلاحية وأحيانا حتى المواشي للمسيرات المدعوّ لها .

- تنظيم **"يـوم غـضـب"** و ذلك **يوم الأربعاء 13 / 12 / 2017** على الساعة **العاشرة صباحا** أمام خيمة الاعتصام تجوب الشارع الرئيسي لولاية جندوبة .
- دعوة كل الفلاحين رجالا و نساءا من كافة المعتمديات الى المشاركة في يوم الغضب مصحوبين بآلاتهم و جراراتهم الفلاحية .

نقطتان من بيان صدر عن اتحاد الفلاحين بجندوبة في 9 ديسمبر 2017

ولئن تعددّت التواريخ والبيانات ، فإن ما يجب استخلاصه من هذا المدخل الإشكالي هو أنّه على امتداد أكثر من سنة ، قام اتحاد الفلاحين والفلاحون عموما في جندوبة بالاحتجاج بطريقة منظمة وممنهجة ، حيث تواترت المسيرات أيّام الأربعاء بما يمثله هذا اليوم من رمزية في جندوبة حيث أنه يوم سوقها الأسبوعية، وتصبح هذه الاحتجاجات تقريبا أسبوعيّة خلال شهر ديسمبر (ديسمبر 2017 ، ديسمبر 2018) .

انطلاقا ممّا سبق ذكره ، فإن هذا المقال يتناول بصفة مباشرة موضوع احتجاج الفلاحين في جندوبة في أربعة عناصر تجلّت انطلاقا من العمل البحثي الميداني ومن ما تم استخلاصه من المقابلات مع الفلاحين والملاحظة بالمشاركة في مسيرة 19 ديسمبر 2018 .

العنصر الأوّل هو عنصر تعريفي نهدف منه لبناء إطار لهذه التحركات، نرسم من خلاله تغيّرات الإطار الاجتماعي والسياسي في تونس بعد الثورة بالنسبة لاتحاد الفلاحين .

العنصر سيكون موجزا لكن مكثفا في مسح شامل وعام لتاريخ المنظمة، أو فكرة نقابة للفلاحين على الأقل، ثم سنتناول بصفة خاصة تغيّر مفهوم الانخراط لدى الفلاح بعد الثورة.

بالنسبة للعنصر الثاني، فهو عنصر يجيب عن سؤال "لماذا يحتج الفلاحون؟"

إنّ امتداد هذه الاحتجاجات على مدى سنتين بصفة ممنهجة ومكثفة وبآليات مختلفة ومتجددة

يضفي على محرّكاتها وأسبابها أهمية كبيرة نظرا لأن مدى انخراط الفاعلين فيها مرتبط أساسا بشعور موحّد بالخطر الجماعي ووعي مشترك بمشاكل القطاع.

أما العنصر الثالث فسنجيب فيه عن أسئلة كيفيّة: كيف يحتج الفلاّحون؟ كيف تم إيجاد صيغة الاحتجاج "المميّزة" تلك حسب إفادات الفلاحين الذين يفرقون في إجاباتهم بالفعل

بين "احتجاج عادي" و "احتجاج مميّز" ؟ كيف يمكن رسم الخط الفاصل بين هذين النوعين من الاحتجاج انطلاقا من المخيال الجماعي للفلاحين؟

هذا العنصر يهدف لتوصيف هذه الاحتجاجات وآلياتها ومزيد فهم حدوثها بتلك الكيفية انطلاقا من تحليل لأطر الفلاحين ومخيالهم الجماعي.

بالنسبة للعنصر الأخير، فهو عنصر فرضه الميدان، حيث تجدر الإشارة إلى أن أحد المقابلات مع أحد أعضاء الاتحاد ، تمت قرب خيمة اعتصام ، وهو اعتصام دخلت فيه العديد من مكوّنات المجتمع المدني والمنظّمات في جندوبة منذ قرابة الشهر، تحت راية حملة سمّيت بـ"جندوبة تريد تنمية حقيقية"، وتجدر الإشارة أيضا إلى أن مسيرات اتحاد الفلاحين المنصرمة لم تخلُ من مساندة منظمات أخرى بالجهة على غرار اتحاد أصحاب الشهادات المعطلين عن العمل بجندوبة، هذا العنصر هو عنصر يجيب عن مدى انخراط الفلاحين في الحركات الاحتجاجية الأخرى بولاية جندوبة.

مدخل منهجي:

إنّ كاتب هذه السطور ليس بغريب عن الفلاحين في جندوبة وعن هياكل القطاع ومنظماته، حيث يرجع أصله لعائلة من الفلاحين الرئيسيين في الجهة وسبق لجدّه أن تولّى منصب رئيس التعاضدية بجندوبة.

هذا الرأسمال العلائقي سهّل الوصول للفلاحين المعنيين بالأمر وقيادات الاتحاد الجهوي بجندوبة، وإن لم تطرح مشاكل وصعوبات في العمل الميداني نفسه، فإن التوثيق كان صعبا (تسجيل، تصوير، تنقل) نظرا لتهرّي المسالك الفلاحية بالجهة وللقيام بالمقابلات في ظروف فرضها النشاط اليومي للفلاّحين بالجهة بين الحقل والاعتصام.

المصادر التاريخية المعتمدة في هذا المقال هي الوثائق المنشورة في موقع الاتحاد الرسمي والكلام المنقول شفويا عن بعض الفلاحين المسنّين بالجهة.

للإجابة عن العنصر الثاني "لماذا يحتج الفلاحون؟" تمت دراسة الواقع الموضوعي الذي يمكن من خلاله تفسير احتجاجات الفلاحين وطريقة استبطان الفلاحين لهذا الواقع وتعاملهم معه من خلال الاحتجاج، هذا العنصر نجيب عنه من خلال دراسة البيانات التي يصدرها الاتحاد ومقاربة إثنوغرافية لمزيد فهم استبطان الفلاحين لمشاكل الجهة والقطاع.
بالنسبة للعنصر الثالث "كيف يحتج الفلاّحون؟" فقد تم اعتماد الملاحظة بالمشاركة كطريقة لبناء مشهد الاحتجاج ورسم أطره.
أمّا العنصر الأخير، فقد اعتمدت في بلورته على الملاحظة والمتابعة للمعتصمين منذ غرة جانفي أمام الولاية على وسائل التواصل الاجتماعي وعلى المقابلات معهم.

عناصر سياقية:

1. المسيرات والاعتصامات التي نفذّها الفلاحون كانت كلها في شارع النخيل،وهو شارع رئيسي في جندوبة يحتوي على العديد من المرافق العمومية ومنشآت السيادة مثل الولاية، القباضة، إقليم الحرس الوطني، إقليم الشرطة، محكمة الناحية، المحكمة الابتدائية.

2. كل المسيرات تم القيام بها صباح يوم أربعاء، يوم الأربعاء هو يوم السوق الأسبوعية بالولاية وهو أكثر يوم يزدحم فيه الشارع المذكور.

3. المقابلات تم إجراؤها في بداية مارس وفي منتصفه، المسيرة التي شاركت فيها كانت بتاريخ 19 ديسمبر 2018، هذا العمل امتد على فترة 3 أشهر تقريبا كان فيها الفلاحون ينظمون تحركات دورية ومنظمة، والبعض منهم كان مشاركا في تحركات

أخرى أبرزها حملة "جندوبة تريد تنمية حقيقية" التي بدأت في 1 جانفي 2019 ومازالت متواصلة لحد كتابة هذه السطور.

I. اتحاد الفلاحين والإطار الاحتجاجي بعد الثورة: إعادة هيكلة كاملة للاتحاد

1. لمحة تاريخية موجزة[347]

إنّ وجود هيكل ينظم القطاع الفلاحي في تونس يعود لقرابة المائة سنة، حيث تم في 1920 تكوين شكل من النقابة تحت مسمى "الحجرة الشورية الأهلية للمصالح الفلاحية بشمال المملكة التونسية " لعبت دور الوسيط بين كبار الفلاحين في الشمال التونسي والمستعمر الفرنسي، وقد ترأس هذه المنظمة الطاهر بن عمار.

وبينما كانت أولى المنظمات النقابية الفلاحية تضم فلاحي الشمال التونسي أساسا (جندوبة، باجة، تونس) بدأت أولى النقابات في الظهور في الجنوب والساحل في منتصف الثلاثينيات، حيث تأسست سنة 1936 "نقابة الفلاحين التونسيين بالجنوب" وفي سنة 1937 "جمعية الفلاحين التونسيين" التي تضم أغلب النقابات الفلاحية بالساحل.

سنة 1945، أعيد تأسيس جمعية الفلاحين التونسيين التي ترأسها علي بلحاج وكانت بمثابة هيكل قيادي أعلى لكل الجمعيات الفلاحية بالبلاد وذلك في نطاق توحيد العمل النقابي الفلاحي.

وشهدت السنوات اللاحقة ميلاد العديد من" المنظمات الأخرى مثل "اتحاد القطر التونسي للجامعة العامة للفلاحين" و"الجامعة العامة للفلاحة التونسية".

[347] المصدر : الموقع الرسمي للاتحاد التونسي للفلاحة والصيد البحري

في عام 1955 تفاقم الصراع اليوسفي البورقيبي مما أدى إلى انقسام الفلاحين إلى شقين: شق يوسفي حافظ على تسمية الاتحاد العام للفلاحة التونسية وشق بورقيبي ويمثله الاتحاد القومي للمزارعين التونسيين.

ونظرا لصعود القوى البورقيبية للحكم تم اعتماد تسمية الاتحاد القومي للمزارعين التونسيين بشكل رسمي واعتباره المحاور الوحيد للسلطات العامة باسم الفلاحين .

بعد الاستقلال اتخذ هذا الهيكل النقابي عديد المسميات مواكبة لتوجهات الحكومات المتعاقبة حتى سنة 1992 حيث اتخذ تسميته الحالية وهي "الاتحاد التونسي للفلاحة والصيد البحري".

هذه النبذة الموجزة لتاريخ الاتحاد ومدى قدرته على مسايرة توجهات الحكومات لا يدل سوى على مدى ارتهان اتحاد الفلاحين للسلطة، ومدى تبعيته للحزب الحاكم قبل الثورة.

في المقابلات نصف الموجهة ، عندما تم طرح سؤال مدى استقلالية الاتحاد قبل الثورة، أكد الفلاحون أن الاتحاد كان بالفعل خاضعا كليا للحزب الحاكم، منعدم التحركات والانخراط فيه كان محدودا، وبالفعل كل الفلاحين الذين أجريت معهم المقابلات انخرطوا في الاتحاد بعد الثورة، وتجدر الإشارة إلى أن أحدهم هو نائب رئيس الفرع الجهوي للاتحاد في جندوبة.

2. الثورة والإطار الاحتجاجي الجديد: تغيّر مفهوم الانخراط[348] لدى الفلاح

"الاتحاد كان خاضعا لسياسة سابقة، كان الاتحاد تابعا للحزب الحاكم وبالتالي الانخراط فيه كان محدودا ومنعدم التحركات. بعد الثورة صارت العديد من التجاذبات ووضع الاتحاد نفسه على سكة جديدة حيث صار له هيئة منتخبة بحق من الفلاحين وهو الآن في مسار صحيح وسياسة جديدة أقرب من الفلاح ومصالحه."

[348] نتحدث هنا عن طريقة فهم الفلاح لانخراطه في إتحاد الفلاحين و ما يمثله هذا الإتحاد في مخيال الفلاح. هذه العلاقة ستكون مدخلا لفهم مدى انخراط الفلاحين و أشكاله.

يحدثنا هنا فريد العبيدي، نائب رئيس الاتحاد الجهوي للفلاحين بجندوبة، في إجابة عن سؤال ماذا غيّرت الثورة في الفلاح وفي اتحاد الفلاحين، ويسترسل:

"التغيير الذي جاء مع الثورة جلب إطارا جديدا، إطارا يمكن فيه الاحتجاج وفيه تصورات جديدة وتوقعات أكثر، لم تكن موجودة قبل الثورة".

فترة ما بعد الثورة كانت فترة استرداد كرامة، حيث تم استرجاع المنظمات والنقابات والجمعيات من سطوة الحزب الحاكم وأذرعته العديدة، ولم يتخلف الفلاحون عن ركب المواطنين التونسيين الذّين اقتحموا هياكل منظمات كانت مغلقة أمامهم في السابق وتحتكر على المنتسبين لحزب التجمع، لكن الذي تغيّر بحق بعد الثورة هو مفهوم الانخراط لدى الفلاح نفسه.

"قبل الثورة، الانخراط لم يكن يعني الكثير، أغلب من انخرطوا في الاتحاد قاموا بذلك فقط للتمتع بالعلف المدعم وبعض المواد التي تمنحها الدولة، الانخراط لم يكن يعني الاعتناء بمشاغل القطاع والفلاحين. "

يقول م.ع، فلاح شاب من جندوبة، موضحا منذ بداية المقابلة أنّه لم ينخرط في الاتحاد سابقا نظرا للتوجه السياسي للاتحاد: "معروف، مثل كل المنظمات، تابع للسلطة. "

والحقّ أنّه تمّ التماس تغيّر واضح في هذا المفهوم بالنسبة لفلاحي الجهة، حيث في جلّ المقابلات عند طرح أي سؤال يتعلق بالانخراط بدا أغلب الفلاحين تقريبا متحمسين للدفاع عن فكرة نقابة تمثّل القطاع وتذود عن مصالحهم، وتجدر الإشارة إلى أنّ هناك نوعا من اللحمة بين فلاحي الجهة والشعور المشترك بالتهميش والإقصاء، شعور يجعل أغلب الفلاحين يتحدثون عن الإهمال العمد للنشاط الفلاحي وعن عدم رعاية الدولة لمصالح فلاحيها في حين تتجه سياساتها لفتح الباب أمام منتوجات فلاحي الاتحاد الأوروبي والخارج.

فإن كانت المشاكل التي يواجهها فلاّحو الولاية ليست بالجديدة بما هي مشاكل متجذرة في القطاع الذي تم إهماله بحق منذ انتهاء التجربة التعاضدية، فإنّ نزعة الفلاحين إلى التحرك الجماعي والانخراط التام لهؤلاء في كل التحركات هو أمر طارئ وجديد.

هذا التغيّر في مفهوم الانخراط، وتقريب المواطنين من الشأن العام وفتح باب إبداء الرأي والنقاش، جعل من الثورة مياه غيث ينتظرها الفلاحون، حيث خلق الوضع بعد الثورة أرضية خصبة للفلاحين ولاتحاد الفلاحين الذي أعاد هيكلة نفسه ورسم لنفسه أهدافا جديدة لمزيد التقرب من الفلاح .

نقلا عن نائب رئيس الاتحاد الجهوي في جندوبة، عدد المنخرطين يتراوح بين الخمسة (5) والستة (6) آلاف، وهو ما يمثّل نسبة ضئيلة من العدد الحقيقي للفلاحين ومتعاطي النشاط الفلاحي بجهة فلاحية بامتياز، ومن الأهداف التي رسمتها الهيئة الجديدة للاتحاد العمل على مزيد تشريك الفلاحين ورفع عدد المنخرطين بالولاية.

"من أهداف الهيئة الجديدة العمل على رفع عدد المنضوين تحت لواء الاتحاد حتى الـ20 ألف، وعلى مزيد تنظيم القطاع وهيكلته، وقمنا مؤخرا بإصدار بطاقات مهنية مثل هذه (قام بسحب بطاقته من محفظته)، يمكنك تصويرها ".

تجدر الإضافة أن الثورة رفعت سقف الانتظارات بالنسبة للفلاح الذي يجيب عن سؤال ماذا تغيّر بعد الثورة بـ

"بعد الثورة ومكسب الحرية والقدرة على التعبير عن الرأي ، اعتقدنا أننا سنتحرّر وسنأخذ حقوقنا، لكن العجيب أنه تم تهميشنا أكثر !."

حيث الإطار العام بعد الثورة بما هو إطار خلاّق جعل من الفلاح ينتظر أكثر من الدولة ومن نقابته نفسها، فإن كان انخراط الفلاح سابقا في اتحاد الفلاحين انخراطا شكليا يخلو من أي عمل نقابي احتجاجي ولا يعدو كونه طريقة للحصول على بعض الامتيازات البسيطة مثل العلف المدعم، فشكل الانخراط الذي نلمسه حاليا لدى فلاحي جندوبة المنتمين للاتحاد هو انخراط نابع من انتظارات الفلاحين لمزيد من الالتفات للقطاع وتطويره وشكل من أشكال الالتفاف حول منظمة تسعى للدفاع عن مصالح منظوريها وقطاعها.

II. لماذا يحتجّ الفلاّحون ؟

"منذ الاستقلال وانتهاء التجربة التعاضدية، توجهت سياسة الدولة من دعم الفلاحة إلى دعم السياحة ومجالات أخرى والتخلي عن الفلاحة وعدم اعتبارها ركيزة لاقتصاد البلاد."
يقول أحد الفلاحين، إن الشعور المشترك بتهميش الدولة يطغى هنا في جندوبة على جلّ المحادثات الثنائية والجماعية بين الفلاحين من مختلف الأعمار والتوجهات السياسية، حيث يربط الفلاح دائما بين صعوبات القطاع المتعددة، وتواطؤ الدولة وسياستها الممنهجة لضرب قطاع الفلاحة.
نظرا لتعدد النقاط المطروحة في البيانات الاحتجاجية التي يصدرها فلاحو الجهة، سنكتفي في هذا العنصر بذكر أهم العناصر التي ساقها الفلاحون في المقابلات نصف الموجهة.

1. دعم مواد الإنتاج الفلاحي

عبّر كل الفلاحين في المسيرات وفي الاعتصامات وبشكل مفصّل في المقابلات نصف الموجهة عن فشل سياسة دعم الإنتاج الفلاحي الذي تنتهجها الدولة.
بالنسبة للفلاح، المبالغ المخصصة للدعم لا تتجه للفلاح بل تتجه لأطراف أخرى مثل مراكز تجميع الحليب.
وكان لمسألة علف الأبقار المدعم نصيب الأسد من تشكيات الفلاحين، حيث سبق لفلاحي ولاية جندوبة في 2017 الاحتجاج بشكل خاص على مصاعب إنتاج الحليب بسكب بعض من إنتاجهم اليومي للحليب أمام الولاية.
"الفلاح يتعب على إنتاجه ثم يبيعه بسعر 890 مليم لمراكز تجميع الحليب، هذا السعر لا يغطي مصاريف الإنتاج بالنسبة للفلاح، والغريب أن الدعم لا يعطى للفلاح بل يعطى لمراكز التجميع" يقول فريد العبيدي.

أما أحد الفلاحين المعتصمين أمام الولاية في إطار حملة "جندوبة تريد تنمية حقيقية[349]"، فيضيف:

"المشكل ليس في الدعم، المشكل مثلا أن المواد المدعمة نفسها مثل مادة "السداري" (علف للأبقار) هي مواد غير متوفرة بصفة كافية ولا تلبي احتياجات الفلاحين كلهم، والكميات التي يوفرها لنا اتحاد الفلاحين كوسيط شراء هذه المادة المدعمة لا تكاد تكفينا ، هذا المشكل يرجع بالأساس إلى غياب الصناعات التحويلية في ولاية جندوبة، مثلما كنا نناقش في الاعتصام اليوم، ولاية جندوبة فيها 170 ألف هكتار صالح للزراعة ورغم هذه المساحات الشاسعة والإنتاج الوفير، كل ما ينتج هنا يحوّل في مناطق أخرى خاصة القمح الصلب الذي تصنع منه مادة السداري، وعلاوة على هذا كله لا تتوفر لجندوبة الحصة الكافية من هذه المادة المدعمة".

من مشاكل الدعم الأخرى، أنّ الأسعار محرّرة من جهة المزود والفلاح فقط، حيث يشتري الفلاح الأغراس والمشاتل والعلف والنباتات والبذور (مثال بطاطا، فلفل، طماطم) بأسعار مختلفة يحددها المزودون عملا بمبدأ العرض والطلب، بينما في السوق بعد أن يتمّ الإنتاج يجد الفلاح نفسه مقيدا بأسعار تحددها الدولة دون مراعاة لأسعار ما قبل الإنتاج التي تكبدها لوحده.

2. بنية تحتية كارثية

الانقطاع المتواصل لمياه الري، في السنوات الأخيرة صار مشكلا عويصا حيث الصّابة صارت تتلف دائما جراء هذه الانقطاعات.

[349] هو شعار حركة احتجاجية بدأت منذ جانفي الفارط في جندوبة، و هي حركة اجتماعية تجمع كافة أطياف المجتمع المدني في جندوبة والنقابات والمنظمات و الجمعيات في مطالبة بالالتفات لمشاكل الجهة والمسارعة في إيجاد حلول.

"رغم الكمية الهائلة من المياه في جندوبة التي تتوفر فيها أكبر طبقة مائية في البلاد التونسية مثل ما يعرف الجميع، 5 سدود، 40 بحيرة جبلية، طبقة مائية تمسح 703 مليون متر كبّة، فإنّ من الغريب أن تواجهنا هذه المشاكل في جندوبة ."

شبكة مياه الري في تونس يعود تاريخها لبداية السبعينات، المناطق السقوية في تونس صارت تعني من تهري هذه الشبكة التي صارت تضيع نسبة كبيرة من المياه قبل أن تصل للفلاح، الفلاح الذي يجد نفسه مطالبا بتسديد أثمان باهظة لقاء الماء

"ما يزيد المشاكل هو الفوترة وما ندفعه كفلاحين مقابل المياه، إذ أن أغلبية الفواتير هي فواتير تقديرية حتى في سنوات الجفاف التي ينقطع فيها الماء دائما ندفع نفس الكمية."

يقول أحد الفلاحين "م.ر"، ثم يستطرد محدثا عن بقية مشاكل البنية التحتية، من طرقات غير صالحة للاستعمال، لعزلة الفلاحين في المناطق النائية التي تجبرهم على بيع منتوجاتهم للوسطاء وذلك لتجنب عناء التنقل للأسواق واستحالته أحيانا.

" الفلاح لا يستطيع الوصول للأسواق بمفرده في أحيان كثيرة"

III. كيف يحتج الفلاحون؟

" بالنسبة للاحتجاج، نحن في اتحاد الفلاحين رأينا أن المسيرات التقليدية والاعتصامات العادية صارت أمرا مألوفا منذ الثورة، أمرا يمر عليه الجميع مرور الكرام، لذلك أردنا التميز وإضفاء طابع جديد ،ما الذي يميزنا نحن كفلاحين؟

إنها جراراتنا وأبقارنا، لذلك دعونا إلى جلب ما يميزنا كفلاحين إلى الشارع والاحتجاج بواسطته. المسيرة الأولى كانت بالجرارات، في المسيرة الثانية أحضرنا جراراتنا وأبقارنا، وإذا تواصل الأمر هكذا فسنحضر بقية مواشينا من أغنام وأشياء أخرى جديدة فالاحتجاج حقّ مشروع"

يقول نائب رئيس الاتحاد بجندوبة، في توصيفه لطريقة الاحتجاج لدى الفلاح ولمدى ارتباط هذا الأخير بوسائل عيشه ومهنته، بالنسبة للفلاحين، آلية الاحتجاج المستعملة،

أي استعمال الآلات الفلاحية والمواشي، تتعدى مجرّد البحث عن التميّز إلى إطار ذهني كامل: كيف يتصوّر الفلاح الاحتجاج؟

عند طرح نفس السؤال على أغلب الفلاحين "لماذا اخترتم الاحتجاج بتلك الطريقة؟"، نجد شبه توافق أو إجماع مستقى من ذهنية مشتركة ومن مخيال جماعي بنته المهنة والوضعية المشتركة للفلاحين في جندوبة، حيث أجمع كل الفلاحين على أنّ الاحتجاج لابد أن يكون "متميزا" ، أي أن يدلّ هذا الاحتجاج على هوية القائمين به وعلى مشاكلهم بطريقتهم.

هذا التمييز الواعي، و اللاّواعي أحيانا، بين احتجاج "عادي" واحتجاج "مميّز" هو منطلق لمزيد فهم الإطار الذي نبعت منه هذه الآليات الاحتجاجية، حيث لا نعتبر مثلا إحضار المواشي والخروج في مسيرة على متن الجرارات مجرّد طريقة للتميز بقدر ما نعتبرها آلية احتجاج نابعة بصدق من تصوّر الفلاح للاحتجاج ولإجابته على سؤال "كيف أحتجّ؟"

1. في رمزية الجرّار

الجرّار بما هو آلة زراعية ضخمة الحجم، بصخبه وبملئه للشارع بطريقة نوعية قبل أن تكون كيفية، حيث أنّ بضع جرّارات أكثر من كافية لملء الشارع بينما قد يعجز مئات الفلاحين المترجلين على القيام بذلك، هو وسيلة ضغط ووسيلة خلق.

هو وسيلة ضغط على السلطة، حيث لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تمرّ مسيرة تضم عشرات من الجرارات الهادرة مرور الكرام من أمام الولاية بما تمثله من مركز سلطة في جندوبة، والأكثر أن مسيرة تتقدمها الجرارات لا يمكن وقف تقدّمها باستعمال وسائل بوليسية تقليدية كوضع حاجز أمني.

وهو وسيلة خلق، حيث لم ينجح الجرار فقط في ملء الفضاء العام في جندوبة، بل تمكن من خلق رأي عام في المقاهي والجلسات الجماعية بما هو موضوع مطروح للنقاش وللتعاطف في أغلب الحالات نظرا لرمزية الفلاح ومهنته في جندوبة.

إنّ دخول الجرارات للحقل الاحتجاجي مثّل نقلة نوعية في آليات الاحتجاج بالجهة ومدى فاعليته، الجرّار وسيلة إنتاج تعبّر عن هوية مهنية محددة، أي الفلاحين بما هم منتجون، هو دخيل على الحقل الاحتجاجي في مرحلة أولى، ودخيل على الوسط الحضري[350] أساسا. بالعودة للمقابلات، نجد أن الفلاحين يعتبرون الجرار جزءًا من هويتهم الاجتماعية، حيث صار مكوّنا لهوية الفلاح وبالتالي محدّدا لإطاره التحليلي ولطريقة تصوره للحركية الاحتجاجية الدؤوبة[351]، في إحدى المقابلات، يجيب أحد الفلاحين بطريقة بديهية عن سؤال "لماذا اخترتم استعمال الجرارات؟" مباشرة بـ" ماذا تريدنا أن نستعمل؟ نحن فلاحون."

هذه البداهة في التمييز بين احتجاج "عادي" واحتجاج "مميز" أولا وفي ربط الاحتجاج المميّز بالجرار بما هو مكون هوية اجتماعية مهنية ثانيا، هو مدخل لمزيد فهم الأطر التي خلقت هذه الحركية الاحتجاجية وطريقة قولبتها على تلك الطريقة، الجرار هنا رمز ينقلنا من مشاهد احتجاج ذات آليات جديدة وفاعلين جدد في الحقل الاحتجاجي إلى تحليل إطاري يغوص في رمزية هذا الجرار لدى الفلاحين بما هم مجموعة ذات صفات مشتركة وتحمل همّا ومشاكل مشتركة.

2. احتجاج عادي، احتجاج مميّز

8 سنوات من الثورة، عشرات من المسيرات، مئات من حالات الاحتجاج الجماعي، آلاف من حالات الاحتجاج الفردي، على امتداد هاته السنوات كانت الحركات الاحتجاجية تملأ

[350] المسيرات تمت في وسط مدينة جندوبة

[351] هناك تواصل على مدى أكثر من عام لهذه الآلية الاحتجاجية ، ما يجعلها آلية غير طارئة

الفضاء العام التونسي من الشوارع والمقاهي إلى وسائل الإعلام المكتوبة والمرئية والمسموعة وصولا إلى وسائل التواصل الاجتماعي. ولا يكاد يمرّ يوم على المواطن التونسي العادي، دون أن يسمع عن تحرك احتجاجي في أحد ربوع البلاد.

الفلاحون لا يختلفون كثيرا عن بقية المواطنين، تلك الفسحة من الزمن التي يخصصها الفلاح بعد يوم طويل من العمل ليجلس في مقهى أو أمام تلفازه، لا تخلو من هذه الأخبار، هذا مدخل لمزيد فهم هذا التعبير: "احتجاج عادي".

صارت ذهنية المواطن التونسي قابلة لجلّ أنواع التحركات، تحركات يعتبرها المواطن عادية، ربما يختلف النوع الذي تندرج فيه الاحتجاجات التي يعتبرها التونسي عادية من مواطن إلى آخر، لكن بالنسبة للفلاحين في جندوبة، لا يوجد أي تصنيف أو طيف يمكن أن تصنف ضمنه تحركاتهم.

"نحن بحثنا عن التميز لكي يسمع صوتنا، الاحتجاج بطرق جديدة هو طريقة لتفرض بها وجودك وتجعل الإعلام يتكلم عنك" يقول س.ج ، فلاح شاب آخر من جندوبة، في حديثه عن الاحتجاج، نجد أنّ هناك توافقا بين الفلاحين في جلساتهم المصغرة أثناء التخطيط للتحرك، بمعنى أن أيّ تحرك يجب أن يخرج عمّا هو متعارف عليه وما هو عادي، عندما سألت عن كيفية التوافق لاختيار طريقة الاحتجاج، الإجابة كانت بالإجماع: أثناء المناقشات صلب اتحاد الفلاحين وقبل كتابة البيانات، فكرة إيصال الأصوات وجعل الاحتجاج أمرا يتداول وخلق رأي عام حوله كانت دائما هاجسا، أغلب المتناقشين كانوا يبدون خوفا من مرور الاحتجاج إلى خانة العادي واليومي بما معناه أنه يفقد رمزيته، إنّه البحث عن الرمزية وإضفاؤها على التحركات التي لعبت دور المحرك والمؤجج لهذه الاحتجاجات طيلة السنتين تقريبا، وهو ما خلق نوعا من الوعي المشترك والجماعي بين الفلاحين مما ساهم في انخراطهم الكامل في هذا الاحتجاج واستعدادهم الكامل لدعمه وخلق آلياته.

IV.الفلاحون والحركات الاحتجاجية الأخرى بجندوبة

هذا العنصر هو عنصر يجيب عن مدى انخراط الفلاحين في جندوبة في مرحلة أولى، وعن مدى تشابك الحركات الاحتجاجية بجندوبة في مرحلة ثانية.

تمت إحدى المقابلات في مارس الفارط مع فلاح منخرط في اتحاد الفلاحين، وهو مرابض في خيمة اعتصام "جندوبة تريد تنمية حقيقية".

لئن كان المقال في بداية كتابته لا يتطرق لهذه الحملة ولا لهذا العنصر، فإن الاعتصام الذي انطلق في غرّة جانفي الفارط والجامع لأطياف عديدة من المنظمات والجمعيات والنقابات الجهوية بولاية جندوبة هو بحق تعبيرة عن التقاء الحركات الاحتجاجية بالجهة.

مكونات هذا الاعتصام على اختلافها، تحمل همّا مشتركا بمشاغل الجهة نلمسه من خلال المقابلات والبيانات ونشاطات المعتصمين على وسائل التواصل الاجتماعي.

1. انخراط الفلاحين في الحركات الأخرى

في بداية تحركات الفلاحين في ديسمبر 2018، لم تكن بيانات المساندة تصدر فقط عن الاتحادات الجهوية الأخرى لاتحاد الفلاحة، بل كانت تصدر أيضا عن المكتب الجهوي لاتحاد أصحاب الشهائد العليا المعطلين عن العمل، الذي وجدنا انخراط عديد من أعضائه في التحركات والمسيرات في الجهة.

مقابل هذا الدعم والانخراط، نجد أيضا انخراطا متبادلا من الفلاحين والاتحاد الجهوي للفلاحين بجندوبة في الحركات الأخرى في الجهة، هذا الانخراط يحمل في طياته شعورا مشتركا بين الفلاحين وبقية الناشطين في جندوبة.

في اعتصام "جندوبة تريد تنمية حقيقية"، التقينا بـ "م.ع"، الذي كان في موقعين احتجاجين مختلفين: الأول احتجاج تحت "اتحاد الفلاحين"، يعنى بمشاكل القطاع الفلاحي والصعوبات التي يتعرض لها الفلاحون في جندوبة،والثاني هو اعتصام يعنى

بمشاكل الجهة بصفة عامة، اعتصام يطالب بالتنمية وبتفعيل التمييز الإيجابي والبحث عن حلول جدية للجهة.

والحق أن بقية الفلاحين رغم عدم مشاركتهم في الاعتصام بطريقة مباشرة، هم مساندون للتحرك وحالمون بالآفاق التي يفتحها هذا الاعتصام للجهة ككل.

تحركات الفلاحين في جندوبة قد تبدو حاملة لمشاكل الجهة والقطاع، أي أنها جهوية قطاعية، لكنها تحمل في طياتها أفق تشبيك والتقاء مع بقية الحركات الاحتجاجيه بالجهة والبلاد نظرا لأن مطالب الفلاحين تقع دائما في سقف انتظارات المواطن البسيط و"قفته المرتبطة بإنتاج فلاحي بلاده" حسب أحد الفلاحين.

2. جندوبة تريد تنمية حقيقية: التقاء الحركات الاحتجاجية

الرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الإنسان بجندوبة، نقابة قوات الأمن بجندوبة، الاتحاد العام لطلبة تونس بجندوبة، الاتحاد الجهوي للفلاحين بجندوبة، -ذكرا لاحصرا- ، مع العشرات من الجمعيات والمنظمات الأخرى بالجهة ، لم تتخلف أي من مكونات المجتمع المدني في الولاية عن دعم هذا الاعتصام والمشاركة في المسيرات التي ينظمها تحت عنوان "أربعاء الغضب"، هاته الحملة التي اتخذت شعارا لها خريطة ولاية جندوبة، لتنوء عن كل التجاذبات السياسية والاجتماعية ولتكون بحق جبهة احتجاجية موحدة تجمع كل أطياف المجتمع بالولاية.

في مارس الفارط، مررت بالمرابطين في خيمة الاعتصام، وقّعتُ على العريضة الاحتجاجية، ولم تفتني ملاحظة البعض من الأسماء المرفقة بالمهن والصفة، أساتذة، فلاحون، مهنيون، سواق تاكسي، طلبة، معطلون عن العمل، فنانون، العريضة التي وصلت إلى أكثر من خمسة (5) آلاف توقيع هي دليل ومرجع إحصائي يعبّر بصدق عن مدى تشابك والتقاء الاحتجاجات بولاية جندوبة.

خلال سنة 2018، لم يغب المعطلون عن العمل عن الحقل الاحتجاجي في جندوبة، كذلك لم يتخلف سواق التاكسي والنقل عن التحرك و أيضا العديد من الاعتصامات المتفرقة وحركات غلق الطريق مطالبة مثلا بالتشغيل أو الحق في الماء الصالح للشراب وغيرها، منذ بداية 2019، أي بداية الاعتصام، كل هذه الأطراف تغيبت عن الساحة في شكلها المشتت لتعود في شكل موحد وجامع لجلّ الطلبات، فالحق في التشغيل وتحسين البنية التحتية والماء الصالح للشراب وتحسين القطاع الفلاحي، كلّها وضعت تحت سقف مشترك لا يتجزأ يطالب بحلول جماعية ومشتركة ليس لقطاعات بعينها بل للجهة ككلّ.

خاتمة

ما قام به فلاحو جندوبة على امتداد سنتين من احتجاج خلاق ومجدد لآليات الاحتجاج وجد طريقه في هذا الكراس نظرا لأنه امتداد فعلي للحراك الثوري في تونس ولبحث الفاعلين عن رمزية جديدة للاحتجاجات والحركات الاحتجاجية.

بمجرد دخول الجرارات بما هي وسائل إنتاج إلى الاحتجاج وتحولها إلى وسيلة احتجاج صرنا نبحث عن تفسيرات اجتماعية للأطر التي يحلل من داخلها الفاعلون واقعهم ويتعاطون معه.

إن تحركات الفلاحين ونجاحهم في خلق آلية احتجاج جديدة تدفع بوسائل الإنتاج من الحقل الزراعي إلى الحقل الاحتجاجي، هو بحق نقلة نوعية للحركات الاحتجاجية بالجهة وبالبلاد، بالنسبة لولاية جندوبة على الأقل، أفق التقاء وتشابك الحركات الاجتماعية الاحتجاجية يتم بلورته في حملة "جندوبة تريد تنمية حقيقية"، لقد تغلب الشعور الجماعي بالتهميش والإقصاء على كل الخلافات التي تعرفها القطاعات والمهن في الجهة، فهل صار يمكننا الحديث عن اختفاء للسكترية بشكلها النقابي والاجتماعي في الولاية؟

محمد سليم بن يوسف

باحث دكتوراه في العلوم السياسية

العمال التونسيون والمسألة الاجتماعية في تونس بعد 2011: احتجاجات "شوكوطوم"و"تكنوفير"مثالاً

ملخص

يركز هذا المقال على علاقة عمال القطاع الصناعي الخاص بالمسألة الاجتماعية منذ 2011. من خلال دراسة تحركات عمالية جدت في مصنعين، تحاول هذه الورقة أن تصف وتحلل طرق، فرص وعوائق الاحتجاج التي ترتبط بالمحيط الاجتماعي للعمل النقابي في المستوى القاعدي. من جهة أخرى، تحاول هذه الورقة أن توضح أن هذه الاحتجاجات لا تهدف إلى قلب الهيمنة الاجتماعية بقدر ما تحاول إعادة التفاوض في شروطها، وذلك اعتماداً على تحليل "الاقتصاد الأخلاقي"لهذه الاحتجاجات. يتأسس هذا المقال على عمل ميداني كيفي تم في مصنعين بجهة منوبة في تونس الكبرى، وقد كان ذلك في إطار بحث دكتوراه في علم الاجتماع السياسي لميكانيزمات الهيمنة وديناميات الاحتجاج المتعلقة بالشغل في تونس بعد 2011. تم جمع هذا المضمون بالاعتماد على مقاربة منهجية اثنوغرافية.

Abstract

This article focuses on the links between workers of the industrial private sector in Tunisia and the “social question” since 2011. While studying recent labour mobilizations in two different factories, this paper tries to describe and analyze the manners, opportunities and constraints of protest related to the social environment of the downscale trade unionism. On the other hand, by analyzing the “moral economy” of these protests, the paper tries to demonstrate how these mobilizations are rather conceived to negotiate social domination than to overthrow it. The paper is based on a qualitative fieldwork that has taken place in two factories situated in the region

of Manouba of the Great Tunis. The fieldwork has been led for a PhD thesis in political sociology about the domination mechanisms and the protest dynamics related to labour in Tunisia after 2011. The material was collected thanks to a qualitative ethnographic approach.

يعلمنا التاريخ الاجتماعي أن لا مجال لسياسة اجتماعية دون حركة اجتماعية قادرة على فرضها.

(بيار بورديو)

ما تزال المسألة الاجتماعية مركزيةً في الحقل الاحتجاجي التونسي منذ سنة 2011. إلا أن الحركات الاحتجاجية للعمال التونسيين، رغم كثرتها وتواترها في سياق المسار الثوري، لم تتم دراستها بالشكل الكافي. فمن جهة أولى، استأثرت إشكاليات البطالة وغلاء المعيشة -وهي إشكاليات مفصلية لدرجة أن حتى نضالات العمال معنية بها- بجل الاهتمام السياسي والإعلامي بالمسألة الاجتماعية، وهو ما يجعل من مفردات عامة مثل "المواطن البسيط"و"الزوالي"تأخذ مكان مفردة "العامل"التي تعبر عن واقع أكثر خصوصيةً وتحديداً. من جهة أخرى، اهتم البحث الأكاديمي وشبه الأكاديمي بالتحركات الاحتجاجية التي تقع في المجال العمومي ولم يلتفت، إلا نادراً، للمعارك العمالية التي تدور رحاها في الأحواض الصناعية. فالمسرح الاحتجاجي الصناعي يشهد كفاحات ذات دوافع ومطالب متنوعة، إذ يطالب العمال بالزيادة في الأجور، يتمردون على نسق الهيمنة داخل المصنع، يحتجون ضد قرارات الطرد الجماعي ويقارعون قمع العمل النقابي. وهي كلها تحركات تقع تحت مسميات الشغل والكرامة التي جاءت بها الحركة الاجتماعية في اللحظة الثورية لشتاء 2010-2011. لذلك فسوف ننطلق من هذه المسلمة : الطبقة الشغيلة (بالساعد) لها مكانة مركزية في الحركة الاجتماعية التونسية، لكنها لا تحظى بالاهتمام العلمي والسياسي اللازمين، لذلك تحاول هذه الورقة تناول العمال التونسيين كفاعلين، قدماء وجدد في ذات الوقت، في إطار النضالات الاجتماعية التي تخاض في هذا السياق الذي هو مواصلة للمسار الثوري، بوتيرة متباينة بين الفترة والأخرى. سوف نتحاشى خلال هذه الورقة المقاربة التمجيدية لدور الطبقة العمالية في التاريخ، والتي تنطلق من سردية ماركسية تجعل من هذه الطبقة مهدياً منتظراً يتحقق على يدها الخلاص الاجتماعي، لكننا سنبتعد كذلك عن تلك النظرة التقزيمية للعمال، المروجة لمقولات نهاية التاريخ وانتفاء

الصراع الاجتماعي، أو تلك التي تعتبر الكفاحات الشغلية "كفاحات كغيرها". فنحن ننطلق من مسلمة أخرى مفادها المركزية السياسية للعمل، باعتبار أن المصانع خاصةً - وأوساط العمل عامةً - هي مؤسسات سياسية بامتياز، تنتج فيها نواميس وتمارس فيها علاقات سلطة ورقابة. سنكتفي بمحاولة فهم الاحتجاجات العمالية في السياق التونسي الحالي، وذلك بتحليل مطالبها ودوافعها، عوائقها ومختلف مستويات انتشارها، تمفصلاتها و"اقتصادها الأخلاقي". وهذا يتطلب تدخل العديد من الحقول المعرفية للعلوم الاجتماعية: سوسيولوجيا الالتزام النقابي لدراسة مسارات النقابيين في المصانع، سوسيولوجيا العمل لبحث العلاقات الشغلية ومختلف التحولات الطارئة على تنظيم الشغل وسوسيولوجيا الحركات الاحتجاجية لدراسة لحظات بزوغ الاحتجاجات العمالية ومواردها، كيفية تطورها حسب الفرص المتاحة والأطر الإدراكية التي يتحرك بها فاعلوها. كما ستسعى هذه الورقة إلى تسليط الضوء على تعددية الذوات السياسية التي تتحرك داخل الحقل الاحتجاجي العمالي، وذلك من بوابة تعدد تجارب التسيس وأسباب (عدم) الانخراط في الفعل الجماعي، وهو ما يقطع في الآن ذاته مع النظرة الرومانسية للبروليتاريا "المحررة"ومع الازدراء الطبقي الذي لا يرى فيها إلا العجز السياسي. تعتمد هذه الورقة في جزء منها على عمل ميداني (22 مقابلة نصف موجهة مع عمال من مصنعين في جهة منوبة) يقوم به كاتب هذه السطور في إطار بحث دكتوراه حول ثنائية الاحتجاج والهيمنة في السياقات الشغلية في تونس بعد 2011، ويجد هذا النص مكانه في كراس المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية حول "الفاعلين الجدد"إذ أنه ينطلق من فكرة أن هؤلاء العمال المنتفضين/ المحتجين في الحقل الاحتجاجي اللاحق للحظة 2010-2011الثورية هم فاعلون "قدامى جدد"، من مكونات حركةٍ اجتماعية لم تبح بعد بمكنونها. وبالتالي فهذه الورقة تندرج في إطار هذا العمل الجماعي في كراس المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية حول الحركات الاجتماعية (بالمعنى اللامفهومي للكلمة) وأشكال الاحتجاج ورهاناته في السياقات الاجتماعية اللاحقة للحظة الثورية، فعمال القطاع الخاص يعبرون عن فحوى المسألة الاجتماعية المطروحة بطريقة مركزية

في المسارح الاحتجاجية التي تعرفها البلاد منذ هروب بن علي، فهم جنود معركة تخاض بأشكال مختلفة في سياقات متعددة، وقد يصح تشبيههم بالفيلق المعزول الذي يناضل من أجل البقاء الاجتماعي.

مدخل إشكالي:

تفيد الأرقام الرسمية ارتفاعا في عدد الإضرابات والاعتصامات العمالية في القطاع الخاص بعد الوضعية الثورية التي عرفتها تونس في شتاء 2010-2011[352]. ولئن تعددت التصنيفات الرسمية لهذه التحركات الجماعية، فإن هذا الارتفاع يؤشر إلى ظاهرتين: احتداد وتيرة النزاعات الشغلية من جهة واشتداد نزعة العمال نحو الفعل الجماعي. وعرفت هذه التحركات خلال السنوات الأولى بعد اللحظة الثورية ترجيحاً لكفة الطبقات الشغيلة في موازين القوى على حساب الأعراف، إذ كان هؤلاء مرغمين على الرضوخ لمطالب العمال المكافحين، وهذا أدى مثلاً إلى موجة من "الترسيم"في مصانع قطاع النسيج مع إقرار زيادات في الأجور[353]. لكن يبدو أن تراجع هذا الزخم العمالي أدى خلال السنوات الخمس الأخيرة إلى عودة موازين القوى إلى سالفها. ويظهر ذلك من خلال عدم قدرة التحركات العمالية الحالية على فرض تنازلات على الأعراف من جهة، وقدرة هؤلاء على إدارة الصراع الاجتماعي بأساليب متنوعة عبر التحكم في موارد مختلفة من جهة أخرى. يطرح هذا المعطى أكثر من تساؤل، سنحاول في هذه الورقة التطرق للبعض منها واقتراح إجابات امبريقية لها. ولعل أكثر التساؤلات مركزيةً وأشدها خطورةً نظريةً هو ذلك الذي يتعلق بموضوع التحركات العمالية في القطاع الخاص: لماذا يتحرك العمال التونسيون وما هي مطالبهم؟ سوف نرى أن الإجابة ليست قطعية، بل هي مموضعة اجتماعيا وهي تبنى

352أنظر تقرير وزارة الشؤون الاجتماعية، الصفحة السابعة:
.http://www.social.tn/fileadmin/user1/doc/annuaire_2014_version_final.pdf

353أنظر :
Sarah Barrières, Les conditions de travail : les autres raisons de la colère du peuple tunisien? Ethnographie d'une mobilisation syndicale d'ouvrières en contexte révolutionnaire, In : (dir.) Amin Allal, Myriam Catusse, Quand l'industrie proteste. Fondements moraux des (in)soumissions ouvrières, PUR, Rennes, 2018

من خلال التفاعلات الاجتماعية (interactions sociales) بين الفاعلين ومنافسيهم، محدثيهم أو أعدائهم. سنرى أنها، ولئن أخذت مسميات عامة لمطالب نقابية كلاسيكية تتوفر في كل المصانع (تحسين الدخل، لباس الشغل، تطبيق اتفاقات قديمة، منح...)، فإنها تخفي منطقيات أكثر ظرفية ومحلية، تتعلق بتحسين شروط الهيمنة الاجتماعية قياساً على عقد اجتماعي تمت صياغته داخل المؤسسة وتنكر له أرباب العمل لأسباب مختلفة. يطرح هذا المعطى كذلك تساؤلاً آخر يتصل بعلم اجتماع الحركات الاجتماعية، وهو يتعلق بأشكال الاحتجاج والفعل الجماعي. كيف يتحرك العمال التونسيون؟ ما هي أشكال المطالبة والاحتجاج لدى عمال القطاع الخاص؟ سنرى أن أشكال الاحتجاج تمزج بين "فهرس فعل" (répertoire d'action) كلاسيكي في العمل النقابي (الإضراب، الاعتصام، الانقطاع الفوري عن العمل débrayage...) وبين منطقيات أخرى هجينة، لها خاصيات تجعلها في مكانة (بين –بين)، بين سياسة النزاع وسياسة التفاوض، يتحرك العمال موضوع البحث بشكل يجعل من القانون مرجعيةً تشرعن للاحتجاج ومورداً يحاولون تطويعه لخدمة قضيتهم. ثالثاً، يجوز التساؤل حول طريقة إدارة الصراع الاجتماعي من قبل الطرف المقابل: الأعراف. ما هي التكتيكات التي يلتجئ إليها أرباب العمل لقمع العمل النقابي أو لتحييد النضال العمالي؟ سوف نحاول خلال هذه الورقة أن نبين كيف يلجأ أرباب العمل لأشكال مختلفة لقمع الاحتجاجات، بدءًا بالوسائل القانونية التي ينص عليها قانون الشغل، مروراً باستنزاف الأجراء عن طريق اللجوء الممنهج للقضاء ووصولاً لتعبئة "جهاز حفظ نظام"يتم تأجيره من البروليتاريا الرثة (lumpenprolétariat) لتخويف العمال، بل والاعتداء عليهم. أخيراً، سوف نسائل خلال هذه الورقة الأسس المادية والمعنوية للانتماء للشركة. فهؤلاء العمال يستعملون مبررات خطابية لشرعنة تحركاتهم، بل وذواتهم الاجتماعية نفسها داخل المؤسسة الشغلية. ما هي الأسس الموضوعية والذاتية لهذه المبررات؟ سوف نحاول، من خلال بحثنا الامبريقي، تقديم فرضيات مفادها أن هذه الأسس تمزج الموضوعي بالذاتي، بشكلٍ

يجعل من مبرر "المؤسسة التي وفرت تكويناً وهويةً مهنيتين"مثلاً يتداخل مع مبرر "المؤسسة الأم التي جعلت منا رجالاً".

مدخل منهجي :

يقع هذا العمل في إطار بحث دكتوراه يقوم به كاتب هذه السطور، يسعى لفهم دينامية الهيمنة والاحتجاج الأوساط الشغلية في تونس بعد 2011في سياقات اجتماعية ومهنية مختلفة. هذه الورقة مستقاة من مسح تعلق بميدانين من ميادين البحث يعرفان تحركات عمالية ونزاعات شغلية جماعية منذ سنوات، وهما مصنعا شوكوطوم الكائن بمنطقة واد الليل وتكنوفير الذي يوجد في منطقة المرناقية. يندرج هذا العمل في إطار مقاربة منهجية لا تعتمد على تفسير الظواهر الاجتماعية بقدر ما تحاول فهمها. هذه المنهجية الكيفية تم تخييرها عن المنهجية الكمية، وذلك لاعتبار أن موضوع البحث كان يتطلب مقاربةً ميدانية تسعى للوصول إلى مسارات الفاعلين الاجتماعية، المهنية والنقابية وتتقصى مراسيهم الاجتماعية والإقليمية (ancrages sociaux et territoriaux). كما نبرر هذا التمشي المنهجي بأن بعض المسائل التي هي موضوع البحث يصعب تطويعها للإجراءات الكمية، ومن ذلك مثلاً الأبعاد العاطفية للتحركات العمالية والمبررات الخطابية (الذاتية) المراد منها إضفاء الشرعية على فعل المطالبة. كما أن المنهج الإبستمولوجي المتبع هو المنهج الاستقرائي (méthode inductive) وليس المنهج الافتراضي - الاستنتاجي (méthode hypothético-déductive)، باعتبارنا ننطلق من البحث الميداني لبناء وتثبيت الفرضيات، وليس العكس. تم بناء هذا العمل من جهة أخرى على مقاربة اثنوغرافية (approche ethnographique) للميدان، تعتمد الالتصاق قدر الإمكان بأماكن الملاحظة وعلى الاحتكاك بالفاعلين خلال حالات اجتماعية مختلفة، إلا أنه لم يتسنّ (بعد) الولوج لأماكن العمل. تعتمد هذه الورقة على جزء من مادة إمبريقية تم تكوينها من خلال تقنيات المقابلات نصف الموجهة والملاحظة دون مشاركة. وقد تم

إجراء 24مقابلة بين نوفمبر 2018وجانفي 2019وكان ذلك مع عمال ونقابيين تم طردهم أو غادروا إحدى الشركتين. تم تغيير الأسماء في الشهادات المستعملة في هذا المقال لحماية المعطيات الشخصية للأشخاص المستجوبين.

بعض العناصر السياقية:

يقع مصنع تقنيات البلور(تكنوفير - Technoverre) بمنطقة المرناقية من ولاية منوبة. وقد تم إنشاء هذا المصنع سنة 1978، وهو يختص بأنشطة تحويل البلور وتركيبه ليكون مثلاً صالحاً للسيارات أو لواجهات المحلات وغير ذلك. تفرز المقابلات أن هذا المصنع عرف سنوات مجده في الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي وحتى أوائل العشرية الأولى من الألفية الثالثة، إذ كان رائداً في قطاع البلور على المستوى الإفريقي وعرف بجودة منتجاته ووفرة صادراته وتنوعها. إلا أن هذه الشركة عرفت أزمات مالية واجتماعية ظهرت بوادرها مع تغير الأيادي المتصرفة، إذ أحال المالك التاريخي للمصنع التصرف في أنشطته لابنه ووارثه. أدى سوء تصرف هذا الأخير إلى زيادة حجم ديون الشركة لدى البنوك والدولة والصندوق الوطني للضمان الاجتماعي، كما تسبب لا محالة في تعطيل خلاص أجور العمال. وقد دفع هذا بالأجراء للدخول في موجة من الاحتجاجات ومن الفعل الجماعي (احتلال المصنع، اعتصام، مظاهرات، إضراب جوع...)، تزامناً مع المفاوضات واللجوء للقضاء. وقد أنصف القضاء أجراء الشركة (بعمالها وإطاراتها) وذلك بإصدار أحكام تقتضي التعويض على الضرر الحاصل وصرف المستحقات من جهة وإحالة المصنع على مستثمر جديد من جهة أخرى. بقي المصنع مغلقاً لأربع سنوات، من 2011إلى حد سنة 2015، حينما تم إيجاد مستثمر يرغب في شراء المصنع، شريطة الالتزام بكراس شروط يفرض المحافظة على مكتسبات الأجراء والقيام باستثمارات قصد تطوير الشركة وإرجاعها لسالف مجدها. إلا أن المالك الجديد (وهو حريف قديم للمصنع يملك محلات لبيع بلور

السيارات ومن أحد أثرياء منطقة المرناقية) لم يلتزم بهذا الاتفاق وبدأ بضرب العمل النقابي. فمنذ سنة 2016، تم طرد ستة نقابيين عن طريق تلفيق تهم كيدية وأحيل أكثر من عشرين أجيراً على التقاعد المبكر، كما تم الاتفاق مع عدد آخر من العمال على مغادرة العمل بمقابل مالي تم الاتفاق عليه "تحت الحائط". في فيفري 2018، أطردت إدارة الشركة 31عاملاً ونقابياً على خلفية وقفة احتجاجية قاموا بها إثر الاعتداء بالعنف على أحد نقابيي المصنع من خلال المالك الجديد. دخل هؤلاء العمال في اعتصام أمام مقر الشركة دام 8أشهر، وذلك بالتوازي مع قيام قضايا مختلفة، تتراوح بين المدني والجزائي والشغلي.

يقع مصنع لبتسانت (**L'appétissante**)، المعروف بصناعة البسكويت ذي الشعبية "شوكوطوم"في منطقة واد الليل من ولاية منوبة من تونس الكبرى. وقد تم إنشاء هذا المصنع سنة 1949، ثم تمت إحالة ملكيته على رجل الأعمال والصناعي مختار باللاغا سنة 1962. إثر وفاة مالك المصنع سنة 2003، فوت الورثاء في المصنع لشركة هندية الأصل متعددة الجنسيات مختصة في الصناعات الغذائية ومقرها الإمارات، وذلك سنة 2008. تم الاتفاق سنة 2011على جملة من المطالب الاجتماعية (تحسين الأجور، منح، تحسين ظروف العمل داخل المصنع إلخ) على أن يتم الاستجابة لها بعد تحسن إنتاجية ومردودية الشركة. تم تغيير المدير العام للشركة سنة 2015من قبل المجموعة الهندية. عزم المدير العام الجديد على تغيير تحسين المردود الاقتصادي للشركة، وذلك من خلال القيام بتعصير الجهاز الإنتاجي وإحكام القبضة على المصاريف. قام المدير العام الجديد بطرد إطارات الشركة الذين رفضوا التغييرات التي قام بها في الشركة وانتدب كوادر جدد من معارفه. من جهة أخرى، اجتمع بالعمال ووعدهم بالإيفاء بالمطالب العالقة عندما تتحسن

مردودية الشركة الاقتصادية. وهو ما لاحظه العمال بالفعل، إلا أنه لم يتم الإيفاء بالمطالب رغم محاولات النقابيين الرامية للتفاوض. أقر العمال إضراباً حضورياً بيوم في جويلية 2018، إلا أن إدارة الشركة رفضت أن يتم الإضراب داخل الشركة وطلبت من العمال القيام بإضرابهم أمام الشركة. بعد انتهاء الإضراب، منع العمال المضربون من مزاولة عملهم عن طريق مجموعة من المنحرفين زعمت الإدارة فيما بعد أنهم أعوان حراسة. بعد أعمال عنف وقعت يومذاك بين بعض العمال المضربين و "أعوان الحراسة"، قررت الشركة القيام بصد عن العمل، أو ما يعرف بـ"إضراب الأعراف" (grève patronale) مدته شهر، وذلك توازياً مع إعداد قائمة لعمال سيتم طردهم على خلفية أعمال العنف هذه ومتابعتهم قضائياً من قبل إدارة الشركة. احتجاجاً على هذا القرار، قرر جل عمال الشركة تنظيم اعتصام أمام مقر الشركة في واد الليل. تمت أثناء هذا الاعتصام مقابلات بين اتحاد الشغل واتحاد الأعراف لحل الأزمة، وتوصل الأطراف إلى اتفاق يقضي باستئناف نشاط الشركة على أن يتم طرد ثمانية عمال منه نقابيين اثنين. لم يرض هذا الاتفاق العمال المعتصمين الذين اعتبروه جائراً، باعتبار أن الطرد تم بصفة انتقائية للعمال الأكثر مقاومةً ولم يتم على أساس القيام بأعمال عنف. تواصل الاعتصام إلى حد أوائل شهر سبتمبر، أين تم فض الاعتصام عنوةً من طرف القوة العامة. عاد العمل إلى وتيرته العادية منذ ذلك الوقت ويشهد المصنع حالياً اندثاراً كاملاً للعمل النقابي، إذ وصلت إدارة المصنع سياستها القمعية تجاه فعل المطالبة والاحتجاج.

1) لماذا يتحرك العمال؟ الاقتصاد الأخلاقي للاحتجاجات وتحسين شروط الهيمنة

"بالنسبة لنا، المطالب التي عبرنا عنها هي جزئيات، ليست بمشاكل جوهرية، مشكلتنا الأساسية هي إعادة الشركة لسالف مجدها. لقد قضيت 4سنوات من البطالة،

وبعد عودتي للعمل أتوقع عودةً على أسس صحيحة، وأن أرى آفاقاً جيدة، أن أراك تستثمر في الشركة لتطويرها. عند ذلك سوف أرى آفاقاً، وأن العشرة أو الخمس عشرة سنةً الباقية من عملي تستحق التعب... لكن عندما لا تستثمر، عندما تطرد العمال عشوائياً، ينتابني شعور بأنني عدت للعمل لسنتين أو ثلاثة فقط قبل أن تغلق الشركة مرةً أخرى، هذا هو الهاجس الأساسي. لكن بالنسبة للباس الشغل ومنح الإنتاج، فهي جزئيات يمكن التفاوض فيها."[354]هكذا صرح بدر السنوسي[355]، وهو نقابي سابق بمجمع تكنوفير تم طرده من قبل المالك الحالي في 2016بعد أن لفق له تهمةً كيدية بالسرقة. يعبر هذا المقتطف عن الأسس الحقيقية لانتظارات عمال شركة تكنوفير ولمطالبهم إزاء المالك الجديد للمصنع. فرغم وجود مطالب اجتماعية وتكرارها في شتى أشكال الفعل الجماعي التي تمخضت عن نضالات أجراء الشركة ونقابييها (صرف المنح، توفير لباس الشغل، احترام التصنيف المهني إلخ)، إلا أن المحفز الرئيسي يتعلق بإعادة المجد لشركة كانت رائدةً في مجالها، وهو قطاع البلور. ويعبر هذا المطلب الأساسي عن تفتت العقد الاجتماعي القديم للشركة، ولا يمكن فهمه دون الرجوع للمسار السوسيوتاريخي والاقتصادي للشركة. فقد كانت "تكنوفير"تحظى بثقافة إنتاجية، تقوم على عقد اجتماعي يلتزم من خلاله العمال بالعمل والإنتاج في حين يتولى العرف ضمان الحقوق الاجتماعية للأجراء ويستثمر من أجل تطوير الشركة والنهوض بها. وكما أشرنا إليه في العناصر السياقية، كان مجمع تكنوفير رائداً على المستوى الإفريقي وذا صيت عالمي في ميدان تحويل البلور خلال الثمانينات والتسعينات. ويعبر العمال عن هذه الحقبة بحنين لفترةٍ كانت الشركة تنعم فيها بالرخاء الاقتصادي وتدار بطريقةٍ أبوية (paternaliste)، لكنهم يعتبرونها "عادلة"بالمقارنة مع ما يعيشونه الآن مع المالك الحالي للمصنع. وعادةً ما تكون هذه المقارنة مصحوبةً بتمثلات تبني تناقضاً بين صورة "رجل الأعمال الصناعي"، الذي يعرف تبعيات العمل الصناعي ويلتزم بمتطلباته، الاقتصادية منها والاجتماعية، و "التاجر الدخيل على القطاع"الذي لا يعترف

354مقابلة في نوفمبر 2018بتونس.

355هذا الاسم مستعار. لأسباب تتعلق أساساً بحماية المستجوبين ومعطياتهم الشخصية نظراً للمضايقات التي يمكن أن تعترضهم ونتائج ذلك على حياتهم المهنية، تم تعميم هذه العملية على كل المستجوبين.

سوى بالربح السريع. لذلك فإن عمال ونقابي شركة تكنوفير ينتفضون ضد تصور للعمل الصناعي يمثله المالك الجديد، إذ ظهر أن غاية هذا الأخير من المصنع هو استعمال معامله الكبيرة لأغراض تجارية[356]. فهم لا يرفضون الهيمنة الاجتماعية في المطلق، بل على العكس من ذلك هم على وعي كامل بموقعهم الطبقي ويقبلون إحداثيات وجودهم في الهرمية الاجتماعية. لكنهم يرفضون إسناد مشروعية لهيمنة لا تستجيب لشروط معينة، تتعلق باحترام حقوق العمال وبتصور "صناعي"حقيقي للعمل داخل المصنع والالتزام بتطوير الشركة. ولعل لهذا العقد الاجتماعي شكل رسمي، إذ تم إقرار كراس شروط فرض القضاء على المستثمر الجديد الالتزام به، يتضمن نقاطاً تحيل على الاستثمار في الشركة باقتناء آلات وعلى تدعيم حقوق العمال وزيادة الطاقة التشغيلية للمصنع. وبالتالي تعبر احتجاجات العمال عن "اقتصاد أخلاقي"[357]يتم تحديد معالمه سياقياً حسب العقد الاجتماعي الذي بموجبه يلتزم المهيمن (العرف) بجملة من القيم التي صارت مشتركة داخل المؤسسة وبجملة من السلوكات الاجتماعية التي تشكل نسقاً متكاملاً في حاكمية[358](gouvernementalité) المصنع. ولعل هذا ما يعبر عنه كذلك عمال شوكوطوم ونقابيوها المطرودون عندما يذكرون الطريقة التي كانت تدار بها العلاقات الاجتماعية داخل الشركة وطبيعة الروابط بين الأجراء والإدارة الممثلة في شخص "رب العمل".

"لقد كان م.ب... لن أتحدث عن الأجر الشهري. هل تعرف العبارة "كف وكعبة حلوى"؟ كان إذا عاتبك اليوم، غداً ينسى ذلك ويعود كل شيء كما كان. لقد بكينا حقاً على ب.

356ومن المؤشرات على ذلك ما صرح به بعض العمال في المقابلات حول قيام المستثمر الجديد بتحويل أحد معامل الشركة لمخزن تم تسويغه لأحد شركات المياه المعدنية.

357نجد هذا المفهوم لدى المؤرخ البريطاني إدوارد بالمر ثومسون في كتابه " The making of the english working class"وقد طوره في مقاله "Moral economy of the english crowd". وقد استنبط ثومسون هذا المفهوم من خلال تاريخ تكوين الطبقة الشغيلة في إنجلترا ليعبر عن القيم والتقاليد والتصورات التي ترتبط بالالتزامات الاجتماعية والوظائف الاقتصادية لمختلف الفئات الاجتماعية.

358هذا المصطلح هو ترجمة (على الأرجح غير دقيقة) لمفهوم "la gouvernementalité"لميشال فوكو. ونعني به عقلانية الحكم ونسق ممارسة السلطة ومنطقيات هذه الممارسة. وإن استعمل فوكو هذا المفهوم لتحليل سلطة الدولة و اشتغال أجهزتها البيروقراطية اعتمادا على معارف معينة تتعلق بالمجموعة البشرية المحكومة، فإننا ندافع عن وجاهة هذا المفهوم في السياق الشغلي باعتبار الشركات مؤسسات سياسية بامتياز، تقوم على انساق حكم وممارسات للسلطة (سلطة تحديد معايير الإنتاج والعمل، سلطة رقابة، سلطة تأديبية) هي موضوع تفاوضه وصراع دائم.

اشتغلت معه 4سنوات فقط... عندما توفي بكيته. كان، إلى جانب الأجر الشهري، إذا كنت بحاجةٍ إليه تجد يد المساعدة. كان يقرض العمال 1000دينار و2000دينار إذا ما كانوا في حاجة إلى ذلك، للزواج أو غير ذلك. أما الآن، فذلك محدد ب350دينار على أقصى تقدير ولا يمكنك أن تقترض أكثر من ذلك"[359].لذلك فإن من بين الأسباب التي تفقد مشروعية الهيمنة الاجتماعية لدى العمال هو تفتت هذا العقد الاجتماعي وزعزعة الأنساق السلطوية الأبوية داخل الشركة. وهو ما يظهر من خلال المقارنة التي قام بها النقابي السابق في مصنع شوكوطوم في المقتطف الأخير بين طرق التسيير القديمة للمالك التاريخي للشركة من جهة (علاقات أكثر "مباشرةً"و إدارة أبوية لقوة العمل) وأساليب الإدارة الحالية التي تتسم بإجراءات "تصرفية" (gestionnaires) باردة تحكمها منطقيات اقتصادية ومالية. وقد صار هذا التحول في الأنساق السلطوية داخل مصنع شوكوطوم بالتوازي مع التغيرات التي طرأت على هرمية الشركة، إذ صارت هذه الأخيرة على ملك مجموعة متعددة الجنسيات، وهو ما أدى كذلك إلى تحولات على مستوى أشكال إدارة الشركة (management).

2) كيف يتحرك العمال؟ إشكال وأشكال الفعل الجماعي

تعتبر أشكال الاحتجاج من المواضيع الكلاسيكية التي تتطرق لها سوسيولوجيا الحركات الاجتماعية، وهو ما يفرض دراسة كيفية تكوين المجموعة المحتجة، أدوات فعلهم، استراتيجيتهم العملية والخطابية والتأطيرية ولحظات المرور من حالة الخضوع أو مجرد الاستياء إلى حالة الاحتجاج الجماعي. في موضوع الحال، لا يمكن تجاهل أشكال الفعل الجماعي التي يستعملها العمال، والتي تختلف سياقياً حسب تسلسل التفاعلات بينهم وبين خصومهم أو/ وحسب الإستراتيجية المتبعة والأهداف المرسومة. عوض أن نقسم أشكال الفعل الجماعي إلى أصناف متفرقة دون أرضية اجتماعية، نرى أن هذه الأشكال هي ممارسات اجتماعية تربطها استمرارية (continuum)، وهي قابلة للتهجين ولإعادة التشكل سياقياً. ويبرز البحث الميداني هذا التشكل السياقي لأشكال الفعل

359مقابلة في نوفمبر 2018بتونس.

الجماعي، ولو أنها بقيت في المجمل ذات صلة بفهرس أو ريبيرتوار الفعل (répertoire d'action) الذي تجذر في تونس بعد 2011من خلال الحركات الاحتجاجية والذي يحتوي طرقاً للفعل صارت كلاسيكية. فبالنسبة لعمال شركة تكنوفير، كانت أشكال الإضراب، الاعتصام، المظاهرة، "احتلال"المصنع (occupation)، الوقفة الاحتجاجية، إصدار البيانات وحتى الاحتجاز بالقوة (séquestration) من أهم وسائل الكفاح التي تمت الاستعانة بها. فقام العمال بتأطير من نقابييهم بالاعتصام داخل المصنع عندما امتنع مدير المصنع القديم، وهو ابن صاحب المصنع، عن دفع مستحقات العمال بسبب الصعوبات المالية التي مرت بها الشركة جراء سوء التصرف الذي تشوبه شبهات فساد[360]. فتوازياً مع الإجراءات القضائية التي اقتضتها المرحلة، احتل العمال المصنع واعتصموا داخله، وذلك في ظروف استحالت فيها اقتصادياً مواصلة الإنتاج. كما قام العمال المحتجون في ماي من سنة 2010باحتجاز المالك التاريخي للمصنع (الأب) في مكتبه لبضع ساعات، وذلك عندما أبى الابن أن يسلمهم مستحقاتهم[361]. أما بعد أن فتحت الشركة أبوابها مجدداً سنة 2015، فقد صارت التحركات أقل حدةً وتم التخلي عن البعض من أشكال الفعل الأكثر نزاعيةً. فلئن بقي شكل الإضراب القانوني المعلن والوقفة الاحتجاجية والاعتصام من بين الوسائل النضالية المتبعة، طبع التمشي الإجرائي القضائي على السلوك الاحتجاجي لأجراء المصنع. يمكننا تفسير هذا بتقديم فرضيتين. أولاً، نجح المستثمر الجديد في ضرب "روح المقاومة"للعمال وذلك بطرد وتلفيق تهم للعناصر النقابية الأكثر تأثيراً واستعداداً لاستعمال وسائل "جذرية"نسبياً (سنعود لذلك بأكثر تفاصيل في العنصر الموالي). ثانياً، لا تحظى بعض الممارسات الاحتجاجية، مثل الاحتجاز القسري أو الإضراب غير المعلن (débrayage) بموافقة المركزية النقابية مما يجعل هذه الأخيرة تسحب مساندتها الثمينة لنقابييها وللعمال خلال المعركة. لذلك يخير هؤلاء التريث والاقتصار على متابعة القضايا المدنية والجزائية المثارة بينهم وبين المشغل. إلا أن

360تحيل بعض الوثائق والتقارير التى قام بصياغتها كوادر سابقة للمصنع والتى تحصلنا عليها على شبهات فساد مالي تم بتحويل وجهة الأموال نحو الحسابات الشخصية لعائلة مالك المصنع عوضاً عن حسابات الشركة.

361مقابلة في ديسمبر 2018، تونس. يروي النقابي السابق في مجمع تكنوفير شاكر النابلي كيف رفض الإتحاد العام التونسي للشغل أن يساند هذا الاحتجاز الذي بدأت السلطات في التدخل فيه، وكيف كان ذلك عاملاً محدداً في إنهاء الاحتجاز بعد سويعات من بدايته.

هذا لم يمنع 31من عمال شركة تكنوفير ونقابييها من تنظيم اعتصام أمام مقر الشركة دام 8أشهر انطلاقاً من فيفري 2018، وذلك احتجاجاً على طردهم. والملاحظ هنا هو وجاهة تعقب اللحظة الدقيقة للفعل داخل سلسلة التفاعلات الاجتماعية للاحتجاج،فلم يقم العمال بتنظيم اعتصام طويل المدة إلا بعد أن خسروا شغلهم، في حين أنهم قاموا قبل ذلك بتنظيم وقفة احتجاجية دامت ساعةً واحدة على خلفية اعتداء المستثمر الجديد على نقابي، وكانت هذه الوقفة سببا لطردهم. بالنسبة لشركة شوكوطوم، لم تخرج أشكال الاحتجاج عن طرق الفعل الجماعي الكلاسيكية. وعلى عكس شركة تكنوفير، ليس لعمال مصنع البسكويت تاريخ احتجاجي يذكر قبل دورة الصراع التي عرفوها انطلاقاً من جويلية 2018. بدأت أشكال خوض الصراع الاجتماعي في مصنع شوكوطوم بإضراب قانوني من أجل تطبيق اتفاق يتعلق بجملة من المطالب، تم توقيعه في سنة 2011. لكن ردة فعل إدارة الشركة جذرت الصراع، إذ لم تقتصر على الاعتماد على منحرفين لدفع الحركة الاحتجاجية نحو العنف فحسب، بل عمدت إلى إصدار قائمة بعدد من العمال والنقابيين لطردهم، ومن ثمة إلى إقرار صد عن العمل لمدة شهر انطلاقاً من 31جويلية. وهذا ما أدى إلى تحول نوعي في الأشكال الاحتجاجية المتبعة من قبل الحزام النقابي والعمال، أي المرور للاعتصام احتجاجا على قرارات اعتبروها جائرة. تمت كذلك بعض الوقفات الاحتجاجية، خاصةً خلال الأيام الأولى للمحاكمات أمام مقرات المحاكم المعنية. وقد حضر هذه الوقفات بعض المناضلين السياسيين من اليسار الراديكالي الذين ساندوا العمال خلال بعض ردهات نضالاتهم من خلال الحضور معهم والوقوف إلى جانبهم في بعض التحركات. ولعل الملفت للانتباه في كلتا الحالتين هو التداخل بين منطقيات الاحتجاج ومنطقيات التفاوض، بل ووجودهما في استمرارية واحدة للسلوكات الاجتماعية. ففي الكثير من الأحيان يمكن اعتبار الاحتجاج الخيار الأكثر وجاهةً في لحظةٍ تقفل فيها إمكانية التفاوض من قبل الطرف المقابل. إذ يعبر بعض المستجوبين من الجانبين عن تصور وظيفي للحركة الاحتجاجية، باعتبارها تكتيكاً قد تفرض على الإدارة أو "رب العمل"القبول بالجلوس على طاولة التفاوض، في حين يؤدي فشل التفاوض أو التنكر للاتفاقات التي أفضى إليها إلى

تجذير الاحتجاج أحياناً أخرى. من جهة أخرى، يمكن ملاحظة المرجعية القوية للقانون ورموزه (المحكمة، القضاء، القضاة...) لدى العمال في أشكالهم الاحتجاجية. إذ هم لا يستدعون القانون لشرعنة احتجاجاتهم والحقوق التي يطالبون بها فحسب، بل يمحورون تحركاتهم حوله بالاحتجاج عبر التجمهر أمام المحاكم، أحياناً بإيعاز من المحامي. في إحدى الملاحظات الميدانية في شهر ديسمبر، رصدنا خطاب المحامي الذي كان يحاول إقناع منوبيه، عمال تكنوفير، بضرورة التحرك للتأثير على القضاء إثر حكم ابتدائي بخطية مالية ضد العمال إثر شكوى قام بها العرف من أجل "تعطيل حرية العمل".

"هذا الحكم غير منطقي. لقد حكم القاضي في الجزء المدني للقضية بعدم التعويض، في حين أنه يحكم بخطية قدرها 200دينار لتهمة ليست موجودة في أصل القضية وهي الإضراب غير الشرعي. بصراحة، من الواضح أنه قضاء تعليمات. لا بد من أن تضغطوا، أن تتجمهروا أمام المحكمة. لو كنت مكانكم لناديت زوجتي وأبنائي للقدوم هنا والاحتجاج للضغط. أنتم 31، مع عائلاتكم تصبحون 100"، هكذا خاطب المحامي العمال المتجمعين أمام المحكمة إثر التصريح بحكمهم في ديسمبر 2018[362]. هذا الربط بين حقلين مختلفين (حقل الاحتجاج وحقل القضاء[363]) بأنساق ومنطقيات اجتماعية مستقلة، بشكلٍ يجعل من الفعل الاحتجاجي في الفضاء العمومي يؤثر على الاشتغال الذاتي لحقل القضاء ونواميسه يدعونا للانتباه لهجانة فعل الاحتجاج و درجة تعقيده الاجتماعية. فالاحتجاج بناء اجتماعي، ينحت حسب التفاعلات السياقية بين الفاعلين والحقول الاجتماعية المعنية بهذه التفاعلات. بالنسبة للفعل الجماعي العمالي، يمكن القول أنه مقيد بمحددات التفاعلات مع الأعراف، وأن تكتيكات هؤلاء في مواجهة الاحتجاجات العمالية مهمة لفهم طرق التنظم و ممارسة الصراع الاجتماعي من قبل الأجراء.

362ملاحظة ميدانية أمام المحكمة الابتدائية بمنوبة، ديسمبر 2018.

363نحيل هنا لنظرية الحقول لعالم الاجتماع بيار بورديو. فالحقل الاجتماعى هو مفهوم يحيل إلى مجال اجتماعي له نواميسه وقواعد اشتغاله ويسعى الفاعلون الاجتماعيون الذين فيه إلى التنافس على رأس المال الذي يقدمه ذلك الحقل. أنظر :

Pierre Bourdieu, avec Loïc J.D Wacquant, Réponses. Pour une anthropologie réflexive, Paris, Le Seuil, 1992, 267.

3) استراتيجيات الأعراف في قمع النضال العمالي

يتبين من خلال حالتي شوكوطوم وتكنوفير أن الموارد التي هي على ذمة الأعراف لتأديب العمال ومجابهة تحركاتهم متعددة وفعالة. فقد نجحت تكتيكات أرباب العمل في ضرب العمل النقابي وتشتيت اللحمة العمالية وإضعاف تحركات الأجراء واستنزافها. وينوع مديرو المصانع (سواءً كانوا "أعرافاً"أم لا) في سجلات القمع بشكل يمزج بين ما هو قانوني وما هو غير قانوني، بين المهادنة الماكرة والإستراتيجيات العدوانية، بين المعاملة الانتقائية والمعاملة الجماعية، بل وبين التفاوض الهادئ واللجوء للعنف المادي. ولعل أبرز التكتيكات وأكثرها نجاعةً وأقلها "كلفةً"بالنسبة للأعراف تتمثل في تحويل الصراع الاجتماعي إلى صراع قضائي (judiciarisation du conflit social)، وذلك عن طريق تلفيق تهم كيدية للعناصر الأكثر تحركاً في النقابة. سنطلق على هذه الاستراتيجيا اسم "التأديب بالاستنزاف القضائي"، إذ أن اللجوء إلى القضاء يشدد الخناق على عمال غير قادرين على مجاراة المتطلبات المادية (أموال ووقت) لهذه القضايا، خاصةً مع تعددها. ورغم أن هذه التهم كيدية تنتهي في كثير من الأحيان بتبرئة العمال منها، تبدو وظيفة تحويل الصراع الاجتماعي إلى صراع قضائي فعالةً من حيث أنها تجعل العمال رهينة إجراءات تقاضي تدوم أشهرا وسنوات، في حين أن رهان تلبية الحاجات الحياتية وإعادة الإنتاج البيولوجي لقوة العمل يطرح عليهم بقوة ويجعلهم يفتقدون للوقت والمال اللازمين لمتابعة هذه الإجراءات.

"لا يجب أن يتشبث المرء بموقفه، وإلا فإن المعركة خاسرة لا محالة. فهو، بإمكانه أن يوكل 10محامين، في حين أننا لا نستطيع حتى أن نوفر ثمنا الرغيف إذا لم نشتغل... لذلك وجب علينا أن نجد حلاً توافقياً. أردنا أن نفعل ذلك... فقد أطرد [شاكر النابلي] قبل ذلك، اتهمه بسرقة صك!"، هكذا صرح النقابي السابق في تكنوفير سمير الفرشيشي. وقد بدأ المالك الجديد لمصنع تكنوفير بانتقاء العناصر النقابية الأكثر حركيةً وبتلفيق تهم كيدية

بالسرقة، نجحت في إبعادهم نهائياً عن المصنع، خاصةً وأنهم قادرون على إيجاد موطن شغل في مكان آخر نظراً لامتلاكهم لـ"صنعة". وبصفة عامة، يشكو العمال المطرودون من كثرة القضايا، بين الجزائي والشغلي. "نتابع ثلاثة قضايا الآن، قضية في الاعتداء على حرية العمل، قضية في العنف وقضيتنا في المطالبة بتعويض عن الطرد التعسفي"، تقول مجموعة من النقابيين المطرودين من شركة تكنوفير في شيء من السخرية. لكن قبل ذلك كانت للمستثمر الجديد إستراتيجيا أخرى أدت بصفة غير مباشرة إلى إضعاف المقاومة داخل الشركة، وهو خفض عدد العمال انطلاقا من سنة 2016. وقد تم ذلك عبر اقتراح الإحالة على التقاعد المبكر أو بإنهاء توافقي للعلاقة الشغلية مقابل مبلغ مالي لعدد مهمّ من الأجراء. من جهة أخرى، استعملت إدارة شركة شوكوطوم أعمال العنف التي جدت بين بعض العمال المضربين وبعض الأفراد التي زعمت أنهم أعوان حراسة لكي تقدم شكوى قضائية ضد العناصر النقابية الأكثر نشاطاً لتوجه لهم تهمة العنف و"التعدي على حرية العمل". ولئن انتهت هذه القضية بالحكم ابتدائيا بعدم سماع الدعوى وبراءة العمال الذين وجهت إليهم التهم، إلا أن هذا المسار القضائي ساهم منذ بدايته في ضرب قيمتهم الاعتبارية أمام المركزية النقابية وتشتيت التركيز النضالي.

"زميلنا[رامي] الذي طرد معنا جاءه عرض شغل، لكن إدارة شركته المستقبلية طلبات منه أن يلتزم بالحضور اليومي، وهو غير ممكن نظراً لأنه مجبور على الحضور في المحكمة لمتابعة القضية. لذلك لم يتم انتدابه"، يقول الهاشمي منصر، أحد العمال الذين تم طردهم في سبتمبر 2018من شركة شوكوطوم[364]. وهذا يبين مدى الفاعلية الوظيفية لتحويل الصراع الاجتماعي إلى صراع قضائي من وجهة نظر الأعراف، فهو يتملك بشكل كامل الزمن الاجتماعي للعمال بشكل يجعلهم غير قادرين على أن يباشروا عملاً جديداً. أما عن وسائل الإكراه المادي، فهي كذلك من ضمن التكتيكات المستعملة، لكنها ذات فاعلية نسبية. في حالة شركة شوكوطوم، أدى اللجوء لـ"جهاز حفظ نظام"لا شكلي عبر انتداب منحرفين كـ"أعوان حراسة"إلى أحداث عنف أدت بدورها إلى خلق ذريعة قانونية لطرد

364مقابلة في فيفري 2019، تونس.

بعض العمال. من جهة أخرى، تم فض الاعتصام أمام المصنع في أوائل شهر سبتمبر باستعمال القوة العامة وبإيعاز من إدارة الشركة، وهو ما أدى إلى نهاية التحركات الاحتجاجية. أما في شركة تكنوفير، فلم تؤدّ محاولة تفريق اعتصام "الواحد والثلاثين"إلى نتائج تذكر، وذلك رغم محاولة بعض المأجورين استفزاز العمال عبر الاعتداء اللفظي والمادي. ويرجح أن يكون سبب ذلك عمر العمال المعتصمين المتقدم نسبياً (وهو ما يجعل الاعتداء عليهم بالعنف فعلاً بغيضاً اجتماعيا). أخيراً، يمكن أن نلاحظ استعمال إدارتي الشركتين لوسيلة قانونية أخرى يلقى استعمالها رواجاً لدى العديد من أعراف القطاع الخاص، خاصةً عندما تشتد وتيرة الفعل الجماعي العمالي. هذه الوسيلة هي الصد عن العمل (lock-outأو grève patronale)، وهي مكفولة بقانون الشغل وتقتضي إغلاق مقر الشركة من طرف إدارتها لمدة من الزمن قصد "الحفاظ على المناخ الاجتماعي للشركة". وقد تم استعمال هذه الوسيلة من شركة شوكوطوم، حيث قامت الإدارة بإقرار صد عن العمل لشهر أوت 2018، وذلك إثر الإضراب الذي نظمه العمال يوم 17جويلية، ثم هددت بعد ذلك بالغلق أمام تواصل اعتصام العمال. وقامت إدارة تكنوفير بإقرار صد عن العمل كذلك خلال صائفة 2017لمدة ثلاثة أشهر، وذلك على خلفية إضراب قام به العمال للمطالبة بمستحقات عالقة. وهذه الوسيلة عادةً ما تنجح في ضرب التحركات الاحتجاجية للعمال وضربها، إذ أنها لا تعطل الزخم الاحتجاجي فحسب، بل تضرب مصداقية المحتجين أمام "الرأي العام"المهيأ لقبول تحميل مسؤولية "تعطيل الإنتاج"للعمال[365].

4) "إنها شركتنا !" : الأسس المادية والمعنوية للإحساس بالانتماء لدى العمال

365لعل تغطية وسائل الإعلام المهيمنة للنزاع بين عمال شوكوطوم والمدير العام للشركة أكبر دليل على الانحياز الفاضح للثاني، سواءٌ كان ذلك عبر المجال الذي أفصح له أو حتى طريقة نقل الأحداث وتصويرها على أنها "تجاوزات نقابية".

"الطوم أمي، لقد كبرت فيها وجعلت مني رجلاً"، يقول أحد النقابيين المطرودين من شركة شوكوطوم[366].

"أخيّر العودة للعمل... عمري 44سنة كم تبقى لي حتى أحال على التقاعد؟ أريد أن أواصل في الشركة فقد تعودت عليها، إنه عملي. إنها حكاية... حتى الآلة، لها حكاية روحانية معك. إنه عملٌ تجيده، تستطيع العمل وأنت مغمض العينين."، صرح أحد النقابيين المطرودين من شركة تكنوفير العام الماضي[367]. يعبر هذان المقتطفان عن الشعور بالانتماء لدى العمال وعن شدة تعلقهم بمؤسسة العمل. فقد أبرزت المقابلات أن النقابيين والعمال المطرودين على خلفية النضال النقابي أو المشاركة في تحركات احتجاجية يخيرون العودة للعمل في الشركة على التمتع بتعويضات على الطرد التعسفي أو على الضرر الحاصل. لذلك فإنهم يعيشون طردهم كمحنة اجتماعية وهم يقومون بأشغال لا تتحقق فيها مهاراتهم المهنية التي تكونت على مرّ السنين في شركة واحدة. فهم يجيدون التعامل مع البلور ويعرفون كيف يحولونه إلى بلور سيارات أو بلور واجهات (تكنوفير) ويعرفون كيف يحوّلون العجين والكريمة إلى بسكويت (شوكوطوم)، وإنجاز هذا العمل بإتقان هو ما يقولب هويتهم المهنية. لكنهم لا يجدون رضاً كبيراً في أشغال كالبناء أو العمل في السوق مثلاً، وهي أشغال لا يراد منها سوى توفير مورد رزق. لذلك نجد أن الأسس المادية والمعنوية للإحساس بالانتماء للشركة ممتزجة في خطاب العمال، فهم كانوا يباشرون عملاً مدهم بـ"صنعة"، أي مهارات مهنية ملموسة ووهبهم أجراً شهرياً قاراً وحمايةً اجتماعية وضماناً عند التقاعد. وهذا في حد ذاته يولد إحساساً بالاعتراف بالجميل وبالانتماء يعبرون عنه من خلال تعابير مثل "إنها أمي"أو "كبرنا في الشركة"أو "لقد جعلت منا رجالاً". من جهة أخرى، تفرز المقابلات تعبيرات عن مشروعية التواجد الاجتماعي للعمال داخل الشركة، بل عن إحساسٍ دفين يعبر عن تملكها رمزياً. وعادةً ما يعبر العمال عنها بجملة بسيطة : "إنها شركتنا!"، إذ هم يرفضون فكرة أن هذه الشركة هي على ملك شخص آخر أو

366مقابلة في ديسمبر 2018، تونس.
367مقابلة في نوفمبر 2018، تونس.

يديرها شخص آخر، حتى وإن كانوا يقبلون ذلك على سلم الهرمية الاجتماعية. فهم واعون بعدم ملكيتهم القانونية للشركة وقابلون لذلك، لكنهم يغذون "خطاباً خفياً"[368] (discours caché) يعتبرون من خلاله أنهم أعطوا الكثير للشركة، وأنهم بالتالي أصحابها الحقيقيون بما أنهم أفنوا عمرهم فيها. "لقد قمنا بحراسة الشركة من المجرمين أيام الثورة"، يقول كل من عمال شوكوطوم وتكنوفير في المقابلات. بالتالي، يضع العمال معاييراً بديلة، مموقعة اجتماعيا، لاستحقاق تملك الشركة. لكنها تبقى "خطاباً خفياً"، لا يهدد الهرمية الاجتماعية ولا يسعى إلى تغييرها.

الخاتمة:

بعد 2011، لم تتوجه الأنظار إلا نادراً لنضالات عمال القطاع الخاص. لكن المصانع تزخر بالمعارك الاجتماعية، وتحدث مسارح الاحتجاج فيها قصصاً كثيرة حول ملاحم اجتماعية ومظالم، حول المقاومة والهيمنة، حول سياسة الصراع وسياسة الواقع. حاولنا خلال هذه الورقة أن نقص ونحلل جزءًا صغيراً من هذا الواقع الاجتماعي، وذلك من خلال دراسة واستقراء هذا الواقع في مصنعي تكنوفير وشوكوطوم. أبرزنا مكانة تفتت العقد الاجتماعي القديم لهذين الشركتين في تغذية النزعة الاحتجاجية، تقصينا طرق وأشكال الاحتجاج الهجينة لدى العمال والنقابيين، ودرسنا التكتيكات والموارد الاجتماعية التي يتمتع بها الأعراف لقمع الاحتجاجات من جهة وأسس "الاقتصاد العاطفي"للإحساس بالانتماء للشركة لدى العمال. إجمالاً، تفتقر تحركات عمال القطاع الخاص إلى الموارد الاجتماعية التي تجعلها قادرةً على تحقيق أهدافها، وذلك يعود إلى ارتفاع كلفة النضال (فقدان العمل، عدم تلقي دخل مالي، التعرض لقمع السلطات...) وإلى ضعف السند

368هذا المفهوم للباحث في العلوم السياسية "جيمس سكوت". يعبر مفهوم "الخطاب المخفي"عن قدرة المهيمن عليهم و"السوبلترن"على تطوير خطاب نقدي "في ظهر السلطة"، أي سراً وبعيدا عن أنظار المهيمنين، في هامش "المجال العام". أنظر : James Scott, Domination and the arts of resistance : Hidden transcripts, Yale University Press, 1990.

النقابي للمركزية النقابية، مقابل القدرة الهائلة على إدارة الصراع الاجتماعي من قبل الأعراف. وهو ما يعبر، في المرحلة الحالية، عن انخرام كبير في موازين القوى لا يخدم مصلحة الطبقة الشغيلة. حاولنا أن نبين ضمنياً من خلال هذه الورقة، أن العمال في القطاع الخاص جزء هام من نضالات المسألة الاجتماعية، وأن علاقتهم بها تمر حتماً عبر وقائع اجتماعية مختلفة، انطلاقا من ممارسات الهيمنة والاحتجاج ووصولاً لأساليب تسيس (politisation) العمال عبر مساراتهم المهنية أو/ والنقابية أو/والنضالية. عسى لهذه الورقة أن تكون مساهمة متواضعة في عمل فسيفسائي حول الحركات الاحتجاجية ومختلف أشكالها في إطار هذا الكراس للمنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية. وعساها تعكس قصة ذلك الفيلق المعزول الذي يكابد من أجل البقاء الاجتماعي، والذي يجعل من نضالاته في صلب المسألة الاجتماعية معارك لا مرئية، بوعي يتراوح بين التحت سياسي (infrapolitique) والسياسي. فالعمال ينخرطون في الحركة الاجتماعية المطالبة بالعدالة دون أن يكون لهم الزمن الاجتماعي الكافي لإدراك ذلك. لعل هذه الورقة تمكنهم من شيء من ذلك الزمن.

عبد الرحمان بن شعبان

أستاذ تعليم ثانوي وباحث في التاريـخ المعاصر

جيش الطباشير: عندما ينفُذُ القطاعي إلى العمق الوطني[369]

[369] المقصود بالوطني هو العام، الشامل، المتجاوز للقطاعي، الفئوي، المحلي

ملخص

قراءة لتحركات أساتذة التعليم الثانوي نوفمبر 2018_فيفري 2019 ، في الأسباب والأهداف، في التركيبة وأساليب الاحتجاج ، في علاقة نقابة التعليم الثانوي بالمكتب التنفيذي للاتحاد العام التونسي للشغل، في القطاعي والوطني والعلاقة بينها ، حول كل هذه الاستفهامات والعناوين تبحث هذه الورقة السوسيوتاريخية.

Abstract

This socio-historical paper is a study of the movement carried by high school teachers from November 2018 to February 2019. It will look into the movement's causes and aims, as well as its constitution and the forms of protest it undertook. The following is also an observation of the relationship between the General League of Secondary Education and the Executive Office of the Tunisian General Labor Union, as well as an examination of both the sectoral and the national dimension of the movement and the relation between these two.

" نحن لا نناضل من أجل رسيون خبز وبنطلون، نحن نناضل من أجل وطن "

فرحات حشاد

"شادين شادين في حقوق المربين"، شعار رددته حناجر أساتذة التعليم الثانوي في شوارع البلاد منذ انطلاق تحركاتهم الاحتجاجية في نوفمبر 2018 وتواصلها إلى فيفري 2019 ، هذه الاحتجاجات كانت عنوانا للشارع التونسي خلال أكثر من أربعة أشهر وسمتها الحكومة والإعلام بـ" أزمة التعليم الثانوي" في حين أعلن أصحابها أنها " ثورة جيش الطباشير " ترجموها في الواقع بمسيرات جهوية ووطنية واعتصامات بالمندوبيات الجهوية للتربية في كل ولايات الجمهورية ومن ثمة باعتصام مركزي في مقر وزارة التربية .

يشهد التعليم العمومي في تونس منذ سنوات تأزما كبيرا على كل المستويات، بعد 14 جانفي 2011 بدأت الأصوات تتعالى مطالبة بضرورة الإصلاح والتغيير الذي أصبح حاجة ملّحة أمام تدهور وضعية المؤسسات التربوية وقدم المناهج وطرق التدريس من جهة، وتدهور وضعية الأساتذة من جهة أخرى خاصة خلال الخمس سنوات الماضية وما رافقها من ارتفاع للأسعار وتدنٍّ للقدرة الشرائية ، كلّ هذا دفع بالنقابة العامة للتعليم الثانوي ومن ورائها 100 ألف أستاذ وأستاذة للدخول في موجة من الاحتجاجات على امتداد أكثر من ثمانِ سنوات، ولكن تحركات نوفمبر 2018_ فيفري 2019 كانت مغايرة للتحركات التي سبقتها من حيث طبيعة التحركات وأشكال الاحتجاج ومن حيث تركيبة المحتجين والشعارات التي رُفعت.

تحركات "جيش الطباشير " لم تكن مطلبية قطاعية فقط، بل كانت مطالب وطنية واجهت خيارات الحكومة ومثّلت حيّزا واسعا لإمكانيات التغيير التي بدأت تتلاشى عند عدد كبير من التونسيين وخلق الأساتذة تعبيرة جديدة من تعبيرات الفعل الجماعي من خلال تجاوز المنطق النقابي الهيكلي الصرف الذي ينبني على الانضباط لقرارات الهياكل

العليا وتحويل مبادرات فرديّة إلى منجزات جماعية. وانطبقت عليه محددات خلق الفعل الجماعي كما أوردها " دفيد سنو" أحد مؤسسي نظرية " التحليل الإطاري"[370] وهي: وجود المشكل وتحديد المسؤولين عنه (إصلاح المنظومة التربوية وتحسين الوضعية المادية و المعنوية للأستاذ / المسؤول هو وزارة التربية والحكومة)، تحديد الآليات والوسائل الناجعة والضرورية للفعل ومواجهة الجهة التي تسبب/ تمثّل المشكل (المسيرات، الاعتصامات، مقاطعة الفروض التأليفية) والإيمان / الاعتقاد بضرورة القدرة على الفعل وضرورة الفعل وإمكانية التغيير والانتصار (نسبة انخراط الأساتذة في هذه التحركات تجاوزت التسعين بالمائة[371]). على مستوى خر كان المكتب التنفيذي للاتحاد العام التونسي للشغل رافضا لهذه التحركات ليجد جيش الطباشير نفسه لا في مواجهة الحكومة وجزء كبير من الأولياء فقط بل في مواجهة المركزية النقابية كذلك .

هذه الوضعية طرحت عدّة تساؤلات ليس على المستوى النقابي والتاريخي فقط، بل على المستوى السوسيولوجي:" ما هي طبيعة العلاقة بين المركزية النقابية وجامعة التعليم الثانوي؟ ما الذي جدّ على تركيبة هذا القطاع ؟ ما علاقة هذه التحركات بالحركة الاجتماعية المتواصلة منذ17 ديسمبر 2010 / 14 جانفي 2011؟ هل هي مجرد تحركات احتجاجية غايتها تحقيق مطالب قطاعية أم أنها امتداد لمسار ثوري تعطّل يحاول الأساتذة إحياءه ؟

في الإجابة عن أسئلة هذه الورقة البحثية السوسيوتاريخية تمّ اعتماد المنهج الكيفي الذي يمكّننا من دراسة التحركات الاحتجاجية ودور الفاعلين فيها، اعتمدت المقابلات نصف الموجهة وطرحت خلالها الأسئلة ذات العلاقة بالإشكالية محلّ الدراسة في هذا البحث مع الفاعلين .

إرتأيتُ أن أتوجه إلى الكاتب العام المساعد المسؤول عن المرأة والشباب العامل

[370]Benford ,RobertD,et DavidSnow" Processus de cadrage et mouvements sociaux :présentation etbilan",Politix,vol 99,no 3; 2012 p.217-255

[371]حسب تصريح الكاتب العام المساعد للجامعة العامة للتعليم الثانوي أحمد المهوّك لقناة نسمة

والجمعيات بالاتحاد العام التونسي للشغل "سمير الشفّي" لفهم طبيعة العلاقة بين المركزية النقابية والتعليم الثانوي تاريخيا، ووجهة نظرها حول الحركة الاحتجاجية لأساتذة التعليم الثانوي، كما توجهت إلى الكتاب العامين المساعدين للنقابة العامة للتعليم الثانوي "أحمد المهوك"(مكلف بالعلاقات الخارجية)، "روضة العيفة" (مكلفة بالمرأة)، "نبيل الحمروني" (مكلف بالدراسات والتشريع) باعتبار موقعهم القيادي في الحركة الاحتجاجية ودورهم فيها، إضافة إلى مقابلات مع بعض الأساتذة الفاعلين في التحركات، إضافة لذلك اعتمدت تقنية الملاحظة بالمشاركة ،حيث أنني أنجز هذا البحث بقبعتين: قبعة الباحث وقبعة الفاعل/المشارك باعتباري أستاذ تعليم ثانوي وكنت من المشاركين في هذه التحركات.

مدخل إشكالي:

قد تبدو تحركات أساتذة التعليم الثانوي منذ الوهلة الأولى شكلا من أشكال العمل النقابي المطلبي الذي يهدف إلى تحقيق مطالب قطاعية تبدأ بتوفّر أسبابها الموضوعية (طلب/ رفض شيء ما) ورافعاتها التنفيذية (الالتفاف حول هذه المطالب، تحديد الخطّة النضالية)، وتنتهي بمجرد تحقق هذه المطالب وهذه هي طبيعة العمل النقابي، فإذا بحثنا عن مفهوم النقابة لغة نجد أنّه يعني الرئاسة، ويقال لكبير القوم نقيب أو رئيس أو عقيد[372]، أما اصطلاحا فنجد أنّها، " هيئة قانونية تتكوّن من مجموعة المواطنين الذين يتعاطون مهنة واحدة أو مهنا متقاربة وهي جمعية تتشكل لأغراض المفاوضة الاجتماعية والمساومة الجماعية بشأن شروط الاستخدام ورعاية مصالح أعضائها الاقتصادية والاجتماعية عن طريق الضغط على الحكومات والهيئات التشريعية واللجوء إلى العمل السياسي في بعض الحالات المعينة"[373] كما

---

[372] علي بن داهية و آخرون. القاموس الجديد للطلاب، مادة النقيب، تونس 1976، ص47

[373] محمد السويدي: علم الاجتماع السياسي، ميدانه و قضاياه، الجزائر، 1991، ص121

تعرّف كذلك بكونها " مجموعة من العمال تضّم مهنة أو أكثر و أنشئت أساسا من أجل الدفاع عن مصالح الأعضاء ورعايتهم من الناحية الاقتصادية التي ترتبط بأعمالهم اليومية[374] ". هذه التعريفات تلتقي معها نقابة التعليم الثانوي في المستوى النظري والعملي، ولكنها تجاوزتها نحو الأعمق للتحوّل إلى واجهة دفاع مجتمعي ضدّ الخيارات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للنظام الحاكم، وليس مطلبيا قطاعيا فقط. وعلى مستوى آخر سعت إلى فرض استقلالية القرار النقابي في علاقة بالمركزية النقابية للاتحاد العام التونسي للشغل التي كانت رافضة لشكل الاحتجاج (مقاطعة الفروض التأليفية للثلاثي الأول)[375].

هذه المهام التي طرحها "جيش الطباشير" على نفسه تتطلّب أساليب احتجاج جديدة خلقت سياقا جديدا لم يشهده قطاع التعليم الثانوي من قبل، فما هي أشكال الاحتجاج الطارئة على القطاع؟ من أبدعها؟ وما هي نتائجها؟ كيف تحوّلت تحركات قطاعية مطلبية إلى مطالب وطنية كبرى؟ ما طبيعة العلاقة بين نقابة التعليم الثانوي والمركزية النقابية خلال فترة التحركات و ما قبلها؟

1. التعليم الثانوي والمركزية النقابية: وحدة وصراع

تأسست نقابة الأساتذة في سنة 1972 بخمس نقابات ثمّ توحدت في سنة 1983،منذ بداياتها كانت علاقتها بالمركزية النقابية تحكمها علاقة صراع -وحدة، فكلما تقاربت المركزية مع السلطةالحاكمة دخلت في علاقة صراع مع نقابة التعليم الثانوي وكلّما تباعدت المركزية مع السلطة اتسّمت العلاقة بالالتقاء والوحدة .

[374] إسماعيل الغزال: القانون الدستوري و النظم السياسية، المؤسسة الجامعية للدراسات، لبنان 1989، ص 159

[375] تصريح سمير الشفي الأمين العام المساعد للإتحاد العام التونسي للشغل في مقابلة معه بتاريخ 11 مارس 2019

في سنة 1977 رفض نواب التعليم الثانوي في اجتماع المجلس الوطني للاتحاد العام التونسي للشغل الميثاق الوطني الذي سيوقعها لحبيب عاشورالأمينالعام للاتحاد آنذاك مع الوزير الأول الهادي نويرة حول عدم المطالبة بالزيادات لثلاث سنوات مقابل تعهّدالحكومة بتجميد الأسعار،هذا الرفض أدى إلى تجميد 177عضو نقابي من التعليم الثانوي في أفريل 1977ثمّ وقبيل اندلاع الأزمة مع السلطة واستعداد اللإضراب العام في 26 جانفي 1978 تم رفع التجميد، وخلال أزمة 1985 التي عرفها اتحاد الشغل تمإغلاقمقرّالجامعة وتجميد 480 عضوانقابيا[376] .

في سنة 2005 وعقب إعلان زيارة أريال شارون رئيس الوزراء الإسرائيلي لتونس في إطار قمّة المعلومات أعلنت نقابة التعليم الثانوي إضرابا بيوم احتجاجا على هذه الزيارة، فنشرت المركزية النقابية بيانا تعلن فيه رفضها لهذا الإضراب وتدعو الأساتذة إلى التدريس بشكل عادي، رغم ذلك حقق الإضراب نسبة نجاح مرتفعة[377].

في 13 أفريل 2018 أعلنت نقابة التعليم الثانوي بعد عقد هيئتها الإدارية القطاعية تعليق الدروس في كافة المدارس الإعدادية والمعاهد الثانوية إضافة إلى مواصلة حجب الأعداد

(الشكل الاحتجاجي الذي اتخذته منذ ديسمبر 2017). هذا القرار لم يتمّ إمضاؤه من طرف المكتب التنفيذي للاتحاد العام التونسي للشغل والذي عبّر عن رفضه لهذه الخطوة وتدخّل في 22 أفريل 2018 بعقد الهيئة الإدارية الوطنية التي قررت استئناف الدروس [378] وعبرت عن استعدادها للتفاوض حول مطالب الأساتذة واعدة إياهم بالعمل على تحقيق مطالبهم، في حين نشرت الجامعة العامة للتعليم الثانوي بيانا تدعو فيه إلى مواصلة تعليق الدروس، هذا الاختلاف في المواقف يُفسّر بنزوع قطاع التعليم إلى فرض استقلالية قراره وحريّة اعتماده كلّ الأساليب الاحتجاجية لتحقيق غاياته، كما كان هناك إيمانٌ جماعي بأن القرارات والتحركات التي اتخذها الأساتذة هي وليدة إرادة جماعية مفوّضة إلى النقابة

---

[376] تصريح أحمد المهوّك الكاتب العام المساعد للجامعة العامة للتعليم الثانوي في مقابلة معه بتاريخ 7 مارس 2019

[377] تجاوزت نسبة المشاركة في الإضراب 95 بالمائة حسب شهادة الكاتب العام المساعد للجامعة العامة للتعليم الثانوي نبيل الحمروني في مقابلة معه بتاريخ 15 مارس 2019

[378] تصريح نور الدين الطبوبي أمين عام إتحاد الشغل لوسائل الإعلام عقب انتهاء الهيئة الإدارية الوطنية بتاريخ 22 أفريل 2018

العامة للتعليم الثانوي ولا يمكن التراجع عنها أو المواصلة فيها إلا بقرار من المُفوّض له وهو ما حصل بعد دعوة النقابة الأساتذة إلى استئناف الدروس في 24 أفريل 2018 .

هذه الأزمة عمّقت فكرة أهمية الفعل الجماعي داخل قطاع التعليم الثانوي الذي أصبح يؤمن بأنه يخوض وحيدا حربا في مواجهة وزارة التربية ومن ورائها الحكومة أمام ما يعتبرونه"تخاذلا أو تواطؤا من طرف المركزية النقابية "[379]

مع فشل المفاوضات بعد نسق ماراطوني امتد لأكثر من ثمانية أشهر أعلنت النقابة العامة مقاطعة امتحانات الفروض التأليفية للثلاثي الأول، في حين رفضت المركزية النقابية هذه القرارات معتبرة أن أي قرار يمّس من الامتحانات والتقييم هو قرار مرفوض باعتبار حساسية المسألة وارتباطها بمصير الآلاف من التلاميذ ومن الأسر التونسية وما سيخلفه ذلك من غضب وسخط على الأساتذة ونقابة التعليم الثانوي وعلى الاتحاد العام التونسي للشغل ككل[380]. هذه المعطيات وجهت بنادق الأساتذة نحو الحكومة من جهة و"الإعلام غير المحايد " من جهة أخرى وحتى قيادتها النقابية العليا ورسخت فكرة التضامن القطاعي والوحدة الأستاذية كسبيل لتحقيق المطالب، فكانت المسيرة الوطنية في 19 ديسمبر 2018 تعبيرا على هذا الشعور حيث انطلقت المسيرة من أمام مقرّ وزارة التربية رفع خلالها الأساتذة شعاراتهم القطاعية المطلبية ثم مرّوا ببطحاء محمّد علي حيث مقرّ الاتحاد العام التونسي للشغل ليصبّوا جام غضبهم على المركزية النقابية رافعين شعارات تندد بالموقف من تحركاتهم، "يا حشّاد وين أمجادك الطبوبي باع أولادك"، "يا حشّاد شوف شوف الخيانة بالمكشوف" هذه الشعارات كشفت عن حجم القطيعة بين المكتب التنفيذي والقواعد الأستاذية، ثم عبر "جيش الطباشير" نحو شارع الحبيب بورقيبة موجها شعاراته للحكومة (سنأتي على ذكر الشعارات في القسم القادم) فكأن الأساتذة يعلنون أنها معركة مفتوحة في اتجاهات مختلفة تذكّر بالمهام الموكولة إلى الحركة الاجتماعية 17 ديسمبر 2010/ 14 جانفي 2011 وهي مهام التغيير الجذري، فهم

---

[379] تصريح أستاذ تعليم ثانوي ففي مقابلة معه بتاريخ 8 مارس 2019

[380] تصريح سمير الشفي الأمين العام المساعد للإتحاد العام التونسي للشغل في مقابلة معه بتاريخ 11 مارس 2019

يواجهون وزارة متقاعسة عاجزة عن إصلاح المنظومة التربوية وفق المتطلبات الجديدة، وحكومة تفتقد الإرادة وسلطة القرار وتسعى إلى تمرير خياراتها الاقتصادية والاجتماعية وإيقاف السيرورة الثورية، ومركزية نقابية تنعتها بـ" البيروقراطية" تخلت عنها وتعمل على إدخالها إلى بيت الطاعة.[381]

يرى

"تورين"أنالمجتمعالمعاصرهومجتمعيميلإلىالهيمنةوالتسلطوالسيطرةعلىالفاعلين،وأنالحركةالاجتماعيةباعتبارهاالذاتالفاعلة،ماهيإلاتعبيرعنرفضهالهذهالهيمنةوالتسلطوالسيطرةبمختلفأبعادها، هكذا يمكن أن نفهم التحركات الاحتجاجية للأساتذة باعتبارها خطوط إفلات من محاولات السيطرة ورفضا للتدجين والاحتواء، وهو ما يفتح أمامنا جملة من التساؤلات: " كيف عبّر الأساتذة عن هذا الرفض/ الاحتجاج؟ ما هي أساليب دفاعهم أمام محاولات الهيمنة؟ ما الذي جدّ في تركيبة قطاع التعليم الثانوي ؟

2. جيش الطباشير: ما الذي جدَّ ؟

مثلت الوضعية الثورية التي عرفتها البلاد التونسية بين 17 ديسمبر 2010 و 14 جانفي 2011 منطلقا لتحولات عديدة على مستويات مختلفة، ألقت بظلالها على الوضع النقابي ككل وعلى النقابة العامة للتعليم الثانوي ومن ورائها الأساتذة بشكل خاص، ولعلّ ذلك بدا جليّا من خلال التحركات الاحتجاجية التي خاضها أساتذة التعليم الثانوي بين نوفمبر 2018 _ فيفري 2019 والتي كشفت عن تحول عميق في السياق العام الاحتجاجي/النقابي الكلاسيكي، ليس على المستوى المشهدي فقط بل حتى المطلبي. سنركّز في هذا العنصر على أبرز التحولات التي عرفها قطاع التعليم الثانوي وهي: التركيبة، أشكال الاحتجاج .

[381] تصريح الكاتب العام المساعد للجامعة العامة للتعليم الثانوي نبيل الحمروني في مقابلة معه بتاريخ 15 مارس 2019

أ- التركيبة :

"هؤلاء الشباب أعادوا لنا الأمل ونزعوا منّا الخوف على القطاع " هكذا حدثتنا إحدى الأستاذات في الإجابة عن سؤالنا حول دور الأساتذة الشباب الوافدين الجدد على القطاع في التحركات الاحتجاجية الأخيرة، تواصل قائلة: " كنت خائفة على مستقبل القطاع وأنا على أبواب التقاعد، هؤلاء الشباب مثّلوا دفعا نضاليا جديدا في التعليم الثانوي الذي كان يعيش حالة تهرّم "هذا الإعلان يفسّر حجم التحول الذي عرفه قطاع التعليم الثانوي خلال السنوات الأخيرة .

معظم الأساتذة في التعليم الثانوي هم خريجو الثمانينات والتسعينات والتحقوا بالتدريس مباشرة بعد تخرجهم، وأغلبهم كانوا مواكبين للزخم السياسي والنقابي التي عرفته الجامعة التونسية خلال تلك الفترة وبالتالي مثّلوا قاعدة نضالية احتجاجية داخل نقابة التعليم الثانوي، ولكن مع إقرار مناظرة "الكاباس "[382] بدأت هذه القاعدة تتلاشى خاصة مع الفرز الأمني الذي كان يتعرّض له المترشحون للمناظرة خاصة من الفاعلين السياسيين والنقابيين في الجامعة التونسية وبالأساس المنتسبين للاتحاد العام لطلبة تونس .

بعد 2011 تعززت صفوف قطاع التعليم الثانوي بفاعلين جدد فالتحق بالتدريس العديد من النشطاء السابقين في الاتحاد العام لطلبة تونس بعد نجاحهم في اجتياز مناظرة الكاباس سنوات 2010 [383] ،2014، 2015، 2017 إضافة إلى عشرات الملتحقين بالتعليم الثانوي تحت ملّف " المفروزين أمنيا " وخريجي دار المعلمين العليا، فمثّل هؤلاء دفعا جديدا داخل قطاع التعليم الثانوي وأحد أبرز الفاعلين في التحركات الاحتجاجية لـ"جيش الطباشير " .

الوافدون الجدد في التعليم الثانوي قدم أغلبهم من تجارب نقابية وسياسية سابقة، كما انخرط العديد منهم في الحملات الشبابية التي عرفتها تونس منذ 14 جانفي 2011 مثل

---

[382] تم إقرار هذه المناظرة للالتحاق بالتعليم الثانوي منذ سنة 1998

[383] أجريت هذه المناظرة في سنة 2010 و لكن النتائج تم الإعلان عنها بعد 14 جانفي 2011 و تميّزت بقبول العديد من النشطاء السابقين في الاتحاد العام لطلبة تونس لأول مرّة

حملة "مانيش مسامح" و"فاش نستناو" و"حاسبهم" فكان البروز الشبابي ملفتا للانتباه في تحركات الأساتذة في مختلف المحطات من المسيرات والتجمعات واعتصام وزارة التربية فكانوا بمثابة " دينامو" الاحتجاجات.

رافق هذا البروز الشبابي مرونة في التعامل من قبل النقابة العامة للتعليم الثانوي التي راهنت على هذه الروح الجديدة التي أنعشت القطاع وأعطتها فاعلية ونجاعة أكثر، " لقد لعبوا دورا مهما في تحركات الأساتذة، كان رهاننا على نشاطهم وقدرتهم الإبداعية وروح الخلق لديهم، منحناهم حرية المبادرة فغيّروا في المعادلة النقابية رغم بعض الانفلاتات التي قد نفسرها باندفاع الشباب أحيانا وبنقص الخبرة أحيانا أخرى"، هكذا عبّر الكاتب العام للجامعة العامة للتعليم الثانوي لسعد اليعقوبي عن دور هؤلاء الشباب في تحركات الأساتذة .

كان هذا المزيج الجيلّي الجديد بين خبرة السابقين وتمرّسهم في العمل النقابي داخل الاتحاد العام التونسي للشغل وبين طموح الوافدين الجدد وقدرتهم الإبداعية ومواكبتهم لطرق الاحتجاج وأساليب العمل النقابي الجديدة، ميزة وسمت التحركات الاحتجاجية للأساتذة بدت جليّة من خلال الاستقراء المشهدي لمختلف المحطات النضالية التي خاضها قطاع التعليم الثانوي، كما كان هؤلاء الشباب سببا أساسيا في نجاح الاعتصام في مقّر وزارة التربية والذي امتد من 21 جانفي

ما يجدر الإشارة إليه أنّ هؤلاء الشباب لهم سابق معرفة ببعضهم من خلال انخراطهم في الفعل الجماعي الاحتجاجي منذ سنوات إمّا في الاتحاد العام لطلبة تونس أو اتحاد حاملي الشهائد العليا المعطلين عن العمل، أو في الحملات الشبابية أو ينتمون إلى نفس الحزب، وهذا ما خلق "كيمياء" فعل جماعي بين الوافدين الجدد ساهمت في تسريع عملية الاندماج داخل التحركات الاحتجاجية وفي سلاسة التعامل النضالي، وهو ما ترجمته إلى

أرض الواقع من خلال تطوير أشكال الفعل الجماعي الاحتجاجي بابتكار أساليب جديدة وغير معهودة في العمل النقابي .

فكيف تطورت أشكال الاحتجاج عند الأساتذة؟ من ساهم فيها؟

ب- أشكال الاحتجاج:

لسنا هنا بصدد تناول أشكال الاحتجاج النقابي الكلاسيكي، رغم كونها كانت تعبيرة واضحة في تحركات الأساتذة فقد اعتمدوا كلّ الأساليب من عرائض وإضرابات ومسيرات وتجمعات وصولا إلى اعتصام مركزي بمقّر وزارة التربية، بل لرصد التحولات التي عرفها القطاع في أساليب وطرق النضال .

"جيش الطباشير" مثّل هذا عنوان الفعل الجماعي الاحتجاجي للتعليم الثانوي ولخصت تسمية: "أساتذة المدارس الإعدادية والمعاهد الثانوية"، ثم انتشر كالنار في الهشيم ليتحوّل إلى "هاشتاغ" في مواقع التواصل الاجتماعي ويغدوَ إمضاءً تحت كل المنشورات الداعمة لتحركات الأساتذة، هذه التسمية تحمل مدلولات عديدة بحسب أصحابها، ففكرة الجيش كانت بمعنى القوة والوحدة والثبات والعزم على الانتصار، وهي تحيل أيضا على فكرة الحرب "الحرب بين الحكومة والوزارة وخياراتها وبين الأساتذة ومطالبهم وأهدافهم، حرب ليست بالصواريخ والطائرات والدبابات، بل بالميدعات والأقلام واللوحات والمحفظات والطباشير"[384]، الطباشير الذي يرمز إلى إحدى أدوات العمل للأساتذة والتي لطالما تسببت لهم في عديد الأمراض، وتشير أيضا بحسب أحد الأساتذة إلى السخرية من تصريح وزير التربية حاتم بن سالم عقب زيارته إلى إحدى المؤسسات التربوية في ولاية سليانة حيث عبّر فيه عن صدمته من تواصل استعمال الطباشير في التدريس.

بدا هذا الشعار إذن رأس حربة التحركات الاحتجاجية، وتكثّف استعماله في "الفايسبوك" هذا الفضاء الافتراضي تحوّل إلى قاعة عمليات الأساتذة من خلال إنشاء مجموعات

[384] مقابلة مع مروى دربال أستاذة تعليم ثانوي بتاريخ 13 مارس 2019

التنسيق وصفحات تختص بالشأن التربوي وأخرى مختصة بتقديم آخر المعطيات والأخبار، وتحولّت كل الصفحات الشخصية للأساتذة إلى صفحات دعاية وأخبار. فقد كان ضرورة على المدرسين أن يخلقوا إعلامهم البديل في مقابل ما يعتبرونه الإعلام المتحامل والمنحاز للحكومة والذي يعمل على تشويه تحركات الأساتذة ومطالبهم وتحريض الرأي العام ضدهم وحتى السخرية منهم، ممّا اضطرّ نقابة التعليم الثانوي إلى مقاطعتها لكل من قناتي "الحوار التونسي" و" التاسعة" لانعدام الموضوعية والحياد في تغطية تحركات الأساتذة [385].

اعتمد الأساتذة في تحركاتهم على الوسائل التقنية المتاحة واستثمروها في التعبئة وفي خدمة مطالبهم وقضيّتهم، فتمّ بث كلّ التحركات الاحتجاجية بشكل مباشر على شبكة الأنترنات، إضافة إلى تركيب مقاطع فيديو ونشر صور كاريكاتورية تهاجم الحكومة ووزارة التربية وخياراتها.

تحولت مسيرات الأساتذة إلى مهرجانات احتجاجية، ويجب الإشارة هنا أن أساتذة التعليم الثانوي ولأول مرّة منذ تأسيس النقابة ينزلون في مسيرة قطاعية في شارع الحبيب بورقيبة بالعاصمة، حيث اعتادوا على الاحتجاج أمام وزارة التربية أو في بطحاء محمّد علي، كان ذلك في يوم الغضب الجهوي الذي أعلنته الجامعة العامة للتعليم الثانوي في 12 ديسمبر 2018، وهو ما أضفى بعدا جديدا لهذه الاحتجاجات، حيث نزل الأساتذة بميدعاتهم البيضاء، وبمحفظاتهم، رفع العديد منهم "الطباشير" والبعض الآخر اللوحات واستعملت مكبرات الصوت بشكل مكثّف ممّا ساهم في توحيد الشعارات لتبرز وحدة هذا الفعل الاحتجاجي الجماعي الذي يقوم به الأساتذة.

الطارئ الجديد على تحركات الأساتذة من حيث شكل الاحتجاج هي الشعارات، فقد كانت متعددة (أكثر من 58 شعارا) وأخذت منحى آخر مغايرا لما كان عليه في السابق، فشكل وتركيبة الشعارات الكلاسيكية النقابية تطوّرت تحت وقع تأثير الوافدين الجدد، ليرفع

[385] مقابلة مع أحمد المهوك كاتب عام مساعد لجامعة التعليم الثانوي

الأساتذة شعارات كانت عناوين لحملات شبابية كشعار:" نظام كلاه السوس هاذي ماهياش دولة هاذي ضيعة محروس" [386] هذا الشعار الذي لاقى رواجا كبيرا في صفوف الأساتذة وردّدوه في كل التحركات الاحتجاجية، وابتكروا شعارات سلسة وسهلة الفهم عند المتقبل، عميقة الأثر مثل شعار "هز أيديك عالطبلية راهي بنات الجمهورية". السمة الأخرى التي برزت هي القدرة الإبداعية للشعارات، فمع كلّ إجراء تتخذه الوزارة أو الحكومة ضدّ تحركات الأساتذة كانوا يبدعون شعارات جديدة، فحين هدد الوزير بالاقتطاع من أجور المدرسين المُقاطعين للامتحانات التأليفية كان الشعار :"قص نهار ..قص شهر والمسيرة تستمر" وحين أصدر منشورا بعزل أحد الأساتذة كان الشعار:" شادين شادين في إرجاع المعزولين".

في وزارة التربية أثث الأساتذة اعتصامهم بحفلات موسيقية ملتزمة وحلقات نقاش، في كل يوم كانت تأتي الوفود الأستاذية من كل جهات البلاد رافعين شعار :"متحدين منتصرين من بنزرت لتطاوين"، هذا الشعار عبّر عن إيمان المدرسين بجدوى الفعل الجماعي وأن لا خلاص فرديّا بل الخلاص لا يكون إلّا جماعيا وأن مواجهة الخيارات الاقتصادية والاجتماعية والتربوية للدولة لا تكون إلا عبر الوحدة وهو ما لخصه شعار:" وحدة وحدة يا أستاذ والعزيمة من فولاذ". ولو سحبنا التحركات الاحتجاجية للأساتذة على المبادئ الثلاثة التي حددها ألان تورين لتأسيس الحركة الاجتماعية لوجدنا تناسقا بينها ،حيث يعتبر ألانتورين أنتأسيسالحركةالاجتماعية تقومعلىثلاثةمبادئيعتبرهاأساسية وهي:

- مبدأالهوية:ويُقصد بها ضرورة تحديد الهويةا لذاتية لهذه الحركة بمعن بالجامع بين الفاعلين (مجموعة،طبقة،شريحةاجتماعية...) ويجب أيضا تحديد هويةالخصم أي يجب أ نتكون هناك فكرة و قضية.

- مبدأالتعارض: يفترض مبدأ التعارض في الحركة الاجتماعية، عند تورين، تحديد الخصم، أي يجب أن يكون الخصم الذي تقوم عليه الحركة،واضحًا وموضوعيًا.

[386] هذا الشعار هو في الأصل من شعارات حملة "مانيش مسامح"

وبصيغة أخرى،أنيكونلسؤال: تحركات أساتذة التعليم الثانوي؟ جوابٌ معينٌ و واضح مثلا: «ضدّ خيارات الحكومة ودفاعا عن حقوق الأساتذة ».

- مبدأالكلية: أي أن تكون الحركة الاجتماعية مكونة من وعي جمعي وبصيغة جمعية و شمولية لا أقليةوفردية، وذلك من أجل النجاح في التأثيرعلى الرأي العام والحصول على الحقوق والمطالب، وذلك لأنه، حسب تورين، إذا كانت هناك حركة كلية شمولية،فمن المستحيل السيطرةعليها، واستنتاجا من مبدأ الكلية عند آلان تورين، أن الحركة الاجتماعية لا يمكن أن تتحقق إلا في ظل الوعي بالسيطرة على حقوقهم. وأن الحقوق لا يمكن أن ترجع إليهم، لأن الحقوق لا يتمتع بها المغفَّلون. ويلخص آلان تورين هدفه من الحركة الاجتماعية الجديدة في تحديد إرادة الحصول على حقوق جديدة، وفرض الاعتراف بالحقوق الواجبة المحتكرة عليهم، ويلحّ على أن الانضمام إلى الحركة الاجتماعية الجديدة التي تمثل كما سبق الذكر الدفاع عن الهوية والمصالح الخاصة والنضال ضدا على الخصم. هكذا عبّر أساتذة التعليم الثانوي عن الغايات والأهداف من تحركاتهم، حيث نفذت من المطلبية القطاعية نحو العمق الوطني لتوجه "مدافعها" نحو خيارات الحكومة الاقتصادية والاجتماعية والتربوي، وهو ما يدفعنا للتساؤل: أيّ علاقة بين تحركات الأساتذة وخيارات السلطة؟ هل كانت مجردّ مطلبية تدافع عن حقوق قطاعية أم أنها تجاوزت ذلك؟ هل في العلاقة نفي للسلطة أو محاولة لافتكاك بعض المطالب فقط ؟

3. جيش الطباشير والسلطة: نفي أم إصلاح

"للسلطة برامج فهل للمجتمع دفاعات؟ جيش الطباشير كان أحد هذه الدفاعات وخطا متقدما في مواجهة السلطة" هكذا صرّح أحد أساتذة التعليم الثانوي المشاركين في التحركات الاحتجاجية، والموقف من السلطة القائمة وخيارات الحكومة لم يرتبط بالتحركات الأخيرة، فحين قدمت الحكومة مشروع قانون ميزانية الدولة لسنة 2018

نشرت النقابة العامة للتعليم الثانوي بيانا تعبّر فيه عن رفضها له واعتبرته مشروع تجويع و تفقير للشعب .

من أجل فهم طبيعة العلاقة بين التحركات الاحتجاجية للأساتذة من جهة والسلطة من جهة ثانية قمتُ بجرد لكل الشعارات التي رفعت، فأحصيتُ حوالي 58 شعارا رفعه الأساتذة طيلة التحركات التي أشتغل عليها (نوفمبر 2018 - فيفري 2019) فكانت النتائج هي الآتية:

- 21 شعارا مطلبيا، أي حوالي 36.20 %من الشعارات، كانت قطاعية مطلبية.

مثال:

إصلاح، تقاعد، منحة خصوصية/الأستاذ يريد إصلاح التعليم/منحة خصوصية حق مش مزية.

- 37 شعارا وطنيّا أي حوالي 63.80 %من الشعارات توجهت نحو خيارات السلطة اللاوطنية واللاديمقراطية واللاشعبية بإملاءات من صندوق النقد الدولي والدوائر المالية العالمية[387].

مثال:

الأستاذ ديما قوي يا حكومة الـ FMI /وينو حقك يا مسكين عند الشاهد وكريستين[388] /

وين مشات الثروات، هربوا بيها العصابات/عدالة جبائية، سيادة وطنية ..

[387] بتعبير نبيل الحمروني كاتب عام مساعد في جامعة التعليم الثانوي

[388] المقصود هنا كريستين لاقارد مديرة صندوق النقد الدولي

389

هذه الشعارات ميّزت كل تحركات جيش الطباشير، رفعوها في كل شوارع البلاد فكانت بمثابة نداء لبقية المجتمع للالتحاق بها والانخراط في هذه الحركة الاجتماعية المضادة لخيارات الحكومة.

"غايتنا ليست قطاعية فقط، ليست منحة خصوصية وتقاعدا مبكّرًا فقط، نحن ندافع عن سيادة الوطن، على كرامة شعبنا وعن حق الأجيال القادمة في عيش كريم" هكذا عرّف أحمد المهوك كاتب عام مساعد للجامعة العامة للتعليم الثانوي الغاية من التحركات الأستاذية. فحين تمت المصادقة على ميزانية 2019 والتي نصت في أحد فصولها على التخفيض في الضرائب على المساحات التجارية الكبرى وتأجيل

[389]©Marwa Derbel 19-12-2018

بداية الاستخلاص إلى سنة2020 رفع الأساتذة شعار" قص..قص مالأجور ..يا حكومة الكارفور "[390]

بعض تحركات الأساتذة (مثل يوم الغضب الوطني في 19 ديسمبر 2018) تميزت بانخراط العديد من القطاعات والفئات الأخرى مثل المعلمين ومتفقدي المعاهد والمتقاعدين، إضافة إلى مئات الطلبة الذين ينتسب أغلبهم إلى الاتحاد العام لطلبة تونس.

ما يجدر الإشارة إليه أن أغلب الأساتذة يعتبرون أن تحركاتهم ليست دفاعا عن مطالبهم القطاعية وعن سيادة الوطن، بل هي انتصارٌ لكرامتهم قبل كلّ شيء ضدّ ما اعتبروه حملات من الشيطنة والتشويه تشنها الحكومة بمعية بعض وسائل الإعلام، فغدت الكرامة فكرة أساسيّة عند هؤلاء الفاعلين الجماعيّين المنتفضين ضدّ هيمنة السلطات الكليّة على ذاتيّتهم، وفكرة الكرامة في نظر تورين، ليست فكرة ثقافيّة أو ماديّة أو اجتماعيّة، بلفكرةأخلاقيّة صميمة، ذلك أنها تعرّف الإنسان لا بما يتعالى عنه أو يرتبط به، بل بما هو بشريٌّ فيه. ولذلك تمثّل الكرامة، إلى جانب الحريّة والعدالة، حقّاً بشريّاً أساسيّاً يجب جعله مناط الصراع ضدّ السلطات الكليّة التي تسعى إلى سلب الإنسان بشريّته من خلال السيطرة على أدوات بناء ذاتيّته

وتتجلى فكرة الكرامة بوضوح حينما يرى أنها أصبحت هي الفكرة المركزية عند الفاعلين الاجتماعيين الذين يصارعون السلطة الكلية، والتي تسعى إلى السيطرة على ذواتهم، إن فكرة الكرامة التي عبر عنها الأساتذة في شعاراتهم ليست فكرة ثقافية، وإنما هي فكرة أخلاقية، لأنها أصبحت من الحقوق الأساسية إلى جانب الحرية والعدالة، وهما كلمتان متصلتان من الصعب الفصل بينهما، ومنهما تنبع فكرة الكرامة، ولهذا يظهر جليا أن مقاومة السلطة الكلية أو الشمولية تتم عبر بناء حركات أخلاقية، تطرح فيها الكرامة كمدخل للدفاع عن حقوق الإنسان.

[390]في إشارة للمساحات التجارية الكبرى

ولكن، إذا كانت المطلبية القطاعية ليست هي جوهر الصراع مع السلطة، وإذا كان عمق القضية وطنيا مرتبطا بطبيعة السلطة وخياراتها وتوجهاتها، فلماذا انتهت الحركة الاحتجاجية للأساتذة بعد إمضاء الاتفاق مع وزارة التربية في 9 فيفري 2019 والذي تحصل خلالها الأساتذة على مطلب التقاعد المبكّر وعلى مضاعفة منحة العودة المدرسية [391] ؟ فهل هذا الصراع مع السلطة هو نفي لها برمتها أم أنها مجرد تحركات إصلاحية تتوقف مع تحصيلها ؟

تحركات الأساتذة راوحت بين النقابي القطاعي والوطني، فرُفعت مطالبهم ودافعت عن السيادة الوطنية في مواجهة حكومة تخضع لإملاءات صندوق النقد الدولي والدوائر المالية العالمية ولضغوط رجال الأعمال في الداخل. نقابة التعليم الثانوي ومن ورائها جيش الطباشير فهموا كيف يديرون هذا الصراع، فهم من جهة يرون أن دور النقابة هو الدفاع عن المصالح المادية والمعنوية لمنظوريها، ومن جهة ثانية يعتبرون أن هذه المطالب تدور في فلك العمق الوطني وأنهم امتداد للحراك الاجتماعي 17 ديسمبر 2010 - 14 جانفي 2011، فالمسألة تحولت بالنسبة لهم إلى مسألة رمزية فلا يجب أن تتوقف الاحتجاجات في البلاد ضد السلطة الحاكمة حتى يسقط النظام، النظام الذي لم يَسقط بل أسقِط تحت ضغط الحركة الاجتماعية، سقطت رؤوسه اليانعة عندما حان قطافها، أي "بن علي" وعائلته وأصهاره وكبار حاشيته الحاكمة .هذه المجموعة التي قدّمها النظام ككبش فِداء وقام بصفقات وتضحيات مُقابل ضمان بقاء أُسسه المتينة.[392]

الأساتذة يعتبرون أن انتصارهم لم يكن على وزارة التربية ولا على الحكومة بل على صندوق النقد كما أسفلنا القول فهو انتصار قطاعي، وطني رمزي

[391] أصبحت قيمة منحة العودة المدرسية 75% من الأجر الخام للأستاذ تصرف في أول السنة الدراسية

[392] سفيان بن جاب الله ، الحملات الشبابية في تونس (حملة فاش نستناو) ،في سوسيولوجيا الاحتجاج و التنظم لدى الشباب التونسي ، راج 2018 ، ص34

4. الباحث الفاعل: صوتٌ مشارك وعينٌ تُلاحظ

خلال هذه الورقة البحثية السوسيو- تاريخية اشتغلتُ بقبعتين، قبعة الفاعل باعتباري أستاذ تعليم ثانوي وكنت منخرطا في الحركة الاحتجاجية للأساتذة وتابعت عن كثب مساراتها وسياقاتها، وقبعة الباحث لكوني بصدد الكتابة حولها والبحث فيها ومحاولة فهمها في سياق الحراك الاجتماعي، وهو ما أعطاني صفة الباحث الفاعل .

فيتناول المفهوم الإشكالي حول الباحث الفاعل نجد أنفسنا في مأزق سوسيولوجي نظراً إلى انعداموجود تعريف علمي له، فأي المفاهيم يطغى؟ وهل يؤثر هذا على موضوعية البحث ؟

يرى تورين أنه يفترض أن ينخرط عالم الاجتماع في الحركة، وأن يقوم بدراسة الفعل من داخلها دون تبني إيديولوجية الفاعلين (القائمين بالفعل)، وهو ما يؤكده حول مهمة عالم الاجتماع بقوله: "ينخرط في الحركة، نعم؛ ولكن يجب عليه أيضا أن يتخلص من تنظيمها [393] بمعنى أن يكون حرّا تجاه تنظيمها. هذا يعني أيضا التركيز على المناضلين في القاعدة وليس مع القادة أو الإيديولوجيين الواقعين تحت تأثير الترسيمات المخصصة للحفاظ على أدوارهم.[394]

من رجّح كفّة الفاعل على الباحث، واعتبر أنّ دوره سيقتصر على النضال الميداني، فالجماهير على حدّ اعتباره لا تقرأ بطبعها، وبالتالي فهو لن يختلف عن أيّ فاعل آخر في الحركة الاجتماعية، كما أنّ مسألة التجييش والتأثير في عموم الناس غير مرتبطة بالرأسمال الأكاديمي للشخص، بل بمميزات ذاتية قد توجد في الباحث أو في غيره (شخصية كاريزمية). وهو ما يحيلنا إلى إلغاء صفة الباحث والاحتفاظ بالتعريف الذي

---

[393] تورين آلان. (1979): من أجل علم الاجتماع، ترجمة، تيسير شيخ الأرض، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ـ سورية.

[394] تورين، آلان. (2011): براديغما جديدة لفهم عالم اليوم، ترجمة جورج سليمان، مراجعة سميرة ريشا، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ـ لبنان، الطبعة 1

خصّ به علماء الاجتماع الفاعلين. في حين رأى آخرون أنّه يُقدّم إضافة نوعية إلى الحركة الاجتماعية، فالتكوين الأكاديمي يُمكّن من رأسمال معرفي يجعل الفاعل الباحث مُلِمّاً بتعقيدات الحركة الاجتماعية وقادراً على تفكيك آليات الهيمنة الرمزية للسلطة، وبذلك تكون تصريحاته الصحفية أو الاجتماعات العامة وحلقات النقاش مع الجماهير التي يقوم بها أثناء الاحتجاجات عميقة وعلمية لكونها من زاوية علمية/موضوعية ليس بإمكان باقي الفاعلين التطرق إليها [395]

خاتمة:

يبدو أن ـ تحركات أساتذة التعليم الثانوي (نوفمبر 2018_ فيفري 2019) قد مثلت منعرجا جديدا في التحركات النقابية وقطعت مع الأشكال الاحتجاجية الكلاسيكية شكلا ومضمونا، وخرجت من البعد القطاعي إلى العمق الوطني ملامسة القضايا الاقتصادية والاجتماعية، مستفيدة من التحولات التي عرفها قطاع التعليم الثانوي خلال السنوات الأخيرة، مجددة في أساليب الاحتجاج وطرقة. غير أنها في النهاية اقترنت بـ"المطلبية" وبالتراتبية النقابية التي تحكم العلاقات داخل الاتحاد العام التونسي للشغل وبعلاقة وحدة /صراع بين نقابة التعليم الثانوي والمركزية النقابية.

ما يمكن استخلاصه من كلّ ما جاء في هذه الورقات هو أن هذه الحركة الاحتجاجية لأساتذة التعليم الثانوي رغم امتدادها الزمني وحجم المنخرطين فيها وتنوع وتعدّد أشكال الاحتجاج وكلّ محاولات "الإفلات" من النقابي، وجدت نفسها في المربع الأول للتحركات وهو المطلبي، ولكن ما يحسب على هذه التحركات كتمظهر من تمظهرات الفعل الجماعي هو أنها مثلت حلقة وصل أخرى من حلقات وصل عديدة للحركة الاحتجاجية 17 ديسمبر 2010 / 14 جانفي 2011.

[395] أمين الحسيني : الباحثون الفاعلون كأفق تفكير: من مدارج الكليات إلى الساحات العامة

المولدي بن علية

باحث ماجستيرفي الفلسفة السياسية.

ناشط في المجتمع المدني ومساهم في الحركة الاحتجاجية جانفي 2019.

خصوصيّة الفعل الجماعي في الهوامش :قراءة في حدود الحركة الاحتجاجية جانفي 2016

الملخص :

يُعتبر الفعل الجماعي للحركات الاجتجاجية بعد الثورة التونسية 17 ديسمبر 2010-14جانفي 2011 فعلا مميّزا يستدعي منا بحثا و دراسة معمقة، وهو يدفعنا باعتبارنا باحثين في الحقل السوسيولوجي ,إلى إعادة فهم كل مايحيط هذه الحركات الإحتجاجية وكل يحدّد مجال تفاعلها و رسم أفق الممارسة الإحتجاجية داخلها. فقد اعتمدنا في هذه الدراسة الكيفية مقاربة فهمية ترتكز على المراوحة بين فهم البنى الاجتماعية التي تفرض على الفاعلين داخل هذه الحركات الإحتجاجية ممارسات خاصة بها و من ثم تفسيرها. كما حاولنا من خلال تحليلنا للفعل الاجتماعي للحركة الإحتجاجية جانفي 2016 أن نستأنس بجملةٍ من الوقائع التاريخية التي تدعم فهمنا للممارسات السوسيولوجية في الاحتجاج، حيث كانت نقطة انطلاق بحثنا متمثلة في الحركة الإحتجاجية واسعة النطاق جانفي 2016 و التي انطلقت من ولاية القصرين بتونس و استقرت في العاصمة أمام مقر وزارة التشغيل، فقد حاولنا من خلال المعطيات الكمية التي رصدناها من هذه الحركة الإحتجاجية الكشف عن حدود فعلها الإحتجاجي بعقد مقارنة منهجية بين الحركات الاجتماعية و أفقها السياسي و بين الحركات الإحتجاجية وذلك اعتمادا على جملة من المعاجم و المراجع الأساسية للبحث السوسيولوجي المعاصر.

The collective actions conducted by protest movement in the aftermath of the Tunisian Revolution (December 17th, 2010 - January 14th, 2011) are peculiar actions that require minute research and study. In our capacity of researchers in sociology, they drive us to rebuild an understanding of what surrounds these movements and what delineates its field of action and reaction. They also drive us to redesign a future for protest actions within these movements themselves. In this qualitative study, we have followed a comprehensive approach that alternates understanding the social structures that impose certain practices on the acting participants of said movements and then explaining them.Throughout our analysis of the social actions of the protest movement of January 2016, we have tried to support our understanding of the sociological practices in protest action with a plethora of factual and historical evidence. The starting point of our research was the far-reaching protest

movement initiated in Kasserine, Tunisia in January 2016 which finally settled in the capital right at the door of the Ministry of Employment. Through the quantitative data the we collected during these protests, we have attempted to explore the extent of their protesting agency by establishing a methodical comparison between social movements with their political prospects and protest movements on the other side of the spectrum. This comparison was possible through our reliance on a collection of glossaries and core references in modern sociological research.

«في الحقيقة، لحظتنا التاريخية الحالية هي نفسها لحظة أدورنو : " على سؤال : ' ماذا بوسعنا فعله؟ ' سأجيب بكل صدق : ' لا أعرف شيئا'." كل ما أستطيعه، هو العمل على تحليل الأشياء كما هي. سيعترض أحدهم بالقول، أن كل محاولة نقدية تستدعي اقترحا إصلاحيا. ينبغي التذكير، بأن الأمر هنا، لا يعدو أن يكون حكما مسبقا بورجوازيا. كثيرا ما حدث عبر التاريخ، أن الأعمال التي سُطرت لها أهداف نظرية محضة، هي نفسها التي أحدثت تغييرا في العقليات، وبالتالي، في الواقع الاجتماعي.

إذا قررنا اليوم الانخراط في العمل الميداني، فلن يأتي هذا الفعل ليُسجل فوق صفحة بيضاء، بل على العكس من ذلك، سيكون ضمن سياق أيديولوجية مهيمنة. أولئك الذي يرغبون فعلا في مساعدة أقرانهم، سيختارون الانخراط في صفوف أطباء بلا حدود أو كرينبيس Greenpeace، أو سيشاركون في حملات للنسويين أو ضد الميز العنصري. كلها أشكال نضالية يسمح بها الإعلام وقد يساندها أحيانا، رغم أنها قد تقتحم الميدان الاقتصادي (عن طريق التنديد ومقاطعة المقاولات التي لا تحترم البيئة أو تلك التي تقوم بتشغيل الأطفال، على سبيل المثال). ومع ذلك، فهذه الأشكال النضالية لا يُغض عنها الطرف، ولا تتمتع بالمساندة الإعلامية اللازمة، إلا لأنها لا تتجاوز حدودا بعينها. لكل هذه الأسباب، سأكون مجبرا على قلب أطروحة ماركس: طيلة القرن الماضي، استعجلنا تغيير العالم، وقد حان الوقت من أجل إعادة فهمه.»[396]

«سلافوي جيجيك»

"قد حان الوقت من أجل إعادة فهمه" انتهى كلام سلافوي جيجيك بهذه الجملة.

[396]: سلافوي جيجيك، "تغيير العالم أم فهمه؟"، ترجمة: يوسف اسحيردة، مجلة كوة الإلكترونية، 11 مارس 2019.

إن اقتباسنا لهذا النص مستمدٌّ من حاجتنا الآن-هنا لفهم كل مايدور حولنا، وسط طفرة هائلة من الدراسات السوسيولوجية التي تُعنى بالحركات الاحتجاجية والتي لم نر في أغلبها سوى نوع من التسارُعنحو تفسير الحركات الاحتجاجية عبر مقاربات سببيّة اختزالية، ربما لأن الإطار الأكاديمي لم يوفّر لنا الأطر النظرية المناسبة أو الملائمة لخصوصية المجتمعات العربيّة والتحولات التي طرأت عليهاخصوصا في الواقع التونسي بعد ثورة الكرامة والحرية ديسمبر 2010-جانفي2011 ، وهو ما يدفعنا إلى الهجرة نحو مُقاربات أخرى تدرس الظواهر الاجتماعية من داخلها بتسليط الضوءعلى الفاعل والمعنى الذي يعطيه لفعله وعدم الاكتفاء بدراستها كأشياء تمارس قهرا وإكراها على أفراد لا حول لهم ولا قوّة.فالطابع الذي غلب على دراسات الحقل السوسيولوجي بعد ثورة الكرامة هو طابعيميل نحو تفسير هذه الظواهر دون التشبّع بمرحلة "الفهم"، أي فهم هذه الظواهر داخل أفق دلالاتها التي تنتج من خلالها المعنى ووفقا لأطر تفكيرها الخاصة التي تفكّر فيها في الواقع وفي طبيعته ومشكلاته. وهو ما يعكس الحاجة الملحّةوالفوريّة إلى تكثيف جهود الفهم قبل الإقدام على أي فعل آخر يحاول أن يختزل مرحلة الفهم في قواعد أو أطر تفكير جاهزة سلفا.

إعادة استكمال المسار الثوري أم مجرد انتفاضة أو انفجار اجتماعي يطالب بتحقيق بعض المطالب الفئوية التي لا ترتقي لأفق أي فعل جماعي ثوري يمكنه أن يعيد ترتيب سلّم الاهتمامات في الحقل السياسي كي يجعل الشعارات المركزية التي قامت عليها الحركة الاجتماعية الثورية 17 ديسمبر2010 -14 جانفي 2010 "شغل- حرية- كرامة وطنية" كأفق للفعل السياسي، كلها فرضيات توصيفية لأحداث الحركة الاحتجاجية جانفي 2016 التي انطلقت من ولاية للقصرين بتونس،وهي فرضيات اختلف حولها الناشطون والفاعلون داخل الحقل السياسي /الاجتماعي إلى حد هذه اللحظة.

عاشت تونس منذ صعود ما يُعرفبالإسلام السياسي المتمثّل خاصة فيحزب حركة النهضة إلى الحكم صراعا سياسيا تقوده المعارضة الرسمية، كان يقوم على مطالب متعلقة باستقلالية أجهزة الدولة ومدنية مؤسساتها، فالتخوّف الكبير الذي كان يحكم تلك المرحلة كان منأسلمة الدولة وتوظيف أجهزتها لتصفية خصوم الحزبالسياسيين وهو نفس الخطاب الذي كان يتكرّر على لسان المعارضة الرسمية ، خاصة بعد اغتيالالشهيدين شكري بلعيد ومحمد البراهمي. فرغم صعود وتيرة الاحتجاج الاجتماعي الذي يطالب بالعدالة الاجتماعية إلا أن الصراع السياسي الذي يقوم على استقلالية الدولة ومنع توظيفها لأغراض تخدم مصالح الطبقة الحاكمة الجديدة، وهو ما يتجسّد على مستوى الخطاب السياسي بـ"مدنية الدولة"، أي حياديّة أجهزة الدولة ومؤسساتها بالنسبة للقائمين على السلطة،هذا الصراع هو الذي كان مهيمنا على الرأي العام، وهو صراع حسب ما وصفه الأستاذ المولدي الأحمر كان محوره الرئيسي النموذج الثقافي للمجتمع[397].

إلى الحد الذي ساءت فيه الأوضاع بشكل كبير،حيث شهدت البلاد صعود مؤشر الفقر والبطالة سنة 2016[398]، وهو ما جعل من حالة الازدراء والاحتقان ترتفع في صفوف سكان المناطق الداخلية التي تنعدم فيها شروط العيش الكريم والتي لا تتمتع بمنوال تنمية عادل مقارنة بالعاصمة والمناطق الساحلية أين يتمركز الرأسمال المالي (رأسمال صناعي+رأسمال مصرفي) حيث تتمتع هذه الأخيرة ببنية تحتية تساعدها على خلق مواطن شغل وفرص عمل وكل ما يساعدها على توفير شروط ملائمة للعيش الكريم ولو بتفاوت نسبي .

[397]: المولدي الأحمر،"هل هناك يسار تونسي؟"، نُشر في مجلة قضايا سياسية التي تصدر في العراق، عدد 39-40، سنة 2015.
[398]: جريدة الصباح نيوز التونسية، العدد الصادر في 24 فيفري2016.

ما نعنيه بالمناطق الداخلية هو تلك المناطق التي انطلقت منها شرارة ثورة 17 ديسمبر 2010، القصرين وقفصة وسيدي بوزيد والتي تقع على تخوم المدن الكبرى والساحلية (سنبين لاحقا التعريف الدقيق)، فكل الظروف المتعلقة بمؤشرات التنمية ونمو نسبة الفقر والبطالة بعد سنة من فوز حزب نداء تونس ومع الحادثة التي جدّت ذات 16 جانفي 2016 في ولاية القصرين، وذلك إثر وفاة الشاب رضا اليحياوي متأثرا بالحروق التي تعرض لها إثر تسلقه عمودا كهربائيا احتجاجا على حذف اسمه من قائمة انتداب لمجموعة من الشباب كانوا اعتصموا سنة 2014 بمقر ولاية القصرين للمطالبة بالتشغيل، مع ظروف أخرى متعلقة بالمناخ السياسي والاجتماعي المتوتّر ساعدت على تهيئة الوضع لانفجار اجتماعيمفتوح على نهايات غير متوقّعة.

فرغم أن هذا الانفجار الاجتماعي شهد تسارعا كبيرًا في توسيع رقعة الاحتجاج بين الجهات والمناطق التي تسمى داخلية، وبنفس التسارع الذي شهدناه في فترة احتجاجات 17 ديسمبر 2010 ، فهل كانت أحداث جانفي 2016 تشكّل حركة اجتماعية ثورية أي منعرجا جديدا تعيد فيه استئناف حركة 17 ديسمبر التي أصابها عطب الانتقال الديمقراطي أو كما اعتبرها المنخرطونفيها بكونها حركة تصحيحيّة للمسار الثوري؟ أم أنها لم تتجاوز حدود الحركات الاحتجاجية المطلبية التي لا تملك أي أفق سياسي يطالب بتغيير النظام السياسي المسبّب الرئيسي للأزمة؟

سنحاول الإجابة في مرحلة أولى ضمن هذه الورقة عن هذه الأسئلة بطريقة نفهم بها حدود الفعل الاحتجاجي، ثم سننطلق فيما بعد لطرح الإشكاليات الأخرى المتعلقة بفرادة هذه

الحركة الاحتجاجية وطرافتها تنظيميا، وسنتوسّل بالوسائل الكمية المتعلقة بالاستبيانات المباشرة للمنتسبين لهذه الحركة الاحتجاجية وخاصة لمن يمثلون هذه الحركة كناطقين رسميين باسمها والذين ينوبونها في التفاوض مع الجهات الرسمية في الدولة. ثم بالوسائل الكيفية، حيث سنفهم شروط اختيار من ينتسبون لهذه الحركة ونفهم أيضا طريقة التنظّم التي وقع اعتمادها دون غيرها في هذه الحركة.

للإجابة عن أسئلة هذه الورقة البحثية سنقوم بجمع المعطيات الاثنوغرافية التي دُوّنت عبر تقنية الملاحظة بالمشاركة، وعبر تحليل مضامين الصور التي تم التقاطها والمتضمنة لشعارات الحركة الاحتجاجية، وكذلك استنادا لمعطيات كمية فيها حصر لمتغيرات متعددة واستمارات استبيان، ومعطيات كيفية، ويتم ذلك في إطار مقاربة منهجية استقرائية نراوح من خلالها بين البحث الامبريقي والمنطلقات النظرية، عبر الانطلاق بأسئلة بحث نكتشف بها الظاهرة دون فرضيات مسبقة. وقد اخترنا منطلقات نظرية قاربت موضوع الفعل الجماعي والحركة الاجتماعية، نقارن بها بين الفعل الجماعي للحركة الاجتماعية وبين الفعل الجماعي للحركة الاحتجاجية وهي في نظرنا مقارنة تتميز بأهمية كبرى ولم يقع بعد دراستها أو تناولها بالعمق المطلوب في التجربة التونسية، قصد فهم وتمييز « الفعل الجماعي ذو الأفق الثوري»[399] الذي يحمل مشروعا وتصورا مجتمعيا وبين الفعل الجماعي المطلبي الذي قد يحمل كما هائلا وواسعامن المطالب التي توحي بكونها تقدم برنامجا وتصورًا مجتمعيًّا مكتملًا، لكنها لا ترتقي لمستوى الحركة الاجتماعية الثورية. وكذلك نحاول أن نبيّن خصوصية التنظّم الرافض للتنظيمات الكلاسيكية (حركة، حزب جمعية، نقابة، منظمة) والنضال تحت سقفها. هكذا نقدم نتائج الورقة البحثية في شكل نص مبوّب العناصر يضمّ تفسيرًا وتفهّمًا في تناولنا للإشكالية المطروحة.

[399]: ما نقصده بالفعل الجماعي ذو الأفق الثوري هو الفعل الذي يسعى إلى تحريك الجماهير لتغيير السياسات العامة للنظام السياسي أو إجبار القائمين على السلطة السياسية بالتنحّي على عكس الفعل الجماعي ذو الأفق الإصلاحي الذي يسعى إلى التفاوض حول تحقيق مطالب لا تمسّ بالسياسات العامة المسبّبة في وضعية "اللاعدالة".

مقدمة منهجية:

لن نبحث هنا من خلال استمارات الاستبيان وعلاقة الترابط بين عدة متغيرات، عن تفسير سببي أحادي للاندماج في هذه الحركة الاحتجاجية باعتبارها شكلا من أشكال الفعل الجماعي، بل سنبحث عن تقاطعات الشروط أو الظروف الموضوعية التي يعيشها الفاعلون في ديناميكية الفعل الاحتجاجي داخل المعتمديات التابعة لولاية القصرين وغيرها، وبين منطقيات الفعل الذاتية التي تجيب عنها المقابلات نصف الموجّهة والتي ترتبط أساسا بالتصورات الذاتية لأهداف الحركة الاحتجاجية والتّي تبيّناها عبر اعتماد تقنية الملاحظة بالمشاركة، هذا التقاطع هو ما سيساعدنا على فهم أسباب انخراط أفراد دون آخرين في الحركة الاحتجاجية بالرغم من اشتراكهم في نفس الواقع الموضوعي.

لرسم ملامح الفاعل داخل هذه الحركة، لم نقم بجمع معطيات عبر وضع عيّنة تمثيلية بل قمنا باختيار من لعبوا أدوارًا حيوية منذ 16 جانفي 2016 في التعبئة وفي تمثيلهم في التفاوض مع المؤسسات الرسمية وأجرينا معهم استمارات استبيان .فقد انتخبنا عددا من الفاعلين وهم عشرون :اثنان حسب المعتمديات التابعة لولاية القصرين وممثلان عن اعتصام ولاية قفصة ومعتمدية الفحص التابعة لولاية زغوان وسنعتمدهم باعتبارهم فاعلين مؤثرين، للبحث عن تدقيقٍ يهدف إلى تحقيق ما آل إليه الفرز الاجتماعي الجهوي، وسنعتمد في ذلك مؤشرات الانتماء للمجتمع المدني والانتماء الأيديولوجي والحزبي لفهم هذا الفرز الاجتماعي الذي دفعهم نحو فعل جماعي مباشر دون وسائط تتعلق بالتنظيمات الكلاسيكية (حزب، نقابة، منظمة...) وهو ما جعلهم أيضا يكونون في الصفوف الأولى وجعلهم يمتلكون نَفَسًا طويلا لمواصلة الاحتجاج لمدة سنة ونصف تقريبا

بالتّالي، ونتيجة لهذا العمل الامبيريقي متعدد التقنيات، تمكّنا من رسم ملامح الفاعل المؤثر حسب المعطيات التالية:

*السن:

90% بين 28 سنة و 32 سنة

*الجندر:

95% رجال، 5% نساء.

*المهنة:

100% عاطلون عن العمل.

*المستوى التعليمي:

90% متحصلون على شهائد جامعية.

*الإنفاق اليومي:

90% الإنفاق بين خمسة وعشرة دنانير والباقي بين خمس عشرة وعشرين دينارا .

*الانتماء لتنظيم نقابي:

40%كانوا ينتمون للاتحاد العام لطلبة تونس حينما كانوا يدرسون بالجامعةوالبقيّة لم تكن الظروف الاجتماعية تسمح لهم بأن يتفرّغوا للنشاط النقابي.

*الانتماء لتنظيم حزبي:

كلهم غير متحزّبين.

*الانتماء للمجتمع المدني:

25% ينتمون لمنظمة اتحاد المعطلين عن العمل "UDC".

*المشاركة في الحركة الاجتماعية المنادية بإسقاط النظام بين 17 ديسمبر و 14 جانفي (مظاهرات واحتجاجات): كلهم شاركوا[400].

*الانتماء الأيديولوجي:

10% قوميّون، 95% يؤمنون بالاشتراكية دون الانتماء إلى أيدولوجيا محدّدة[401]

*الإطار التأويلي لواقع الفعل الجماعي للحركة:

95% يعتبرون نجاح الحركة مرتبطا بإجبار السلطة على إيجاد حلّ لمشكلة التنمية بالمنطقة والولاية ككل قبل كل شيء .5% يعتبرون نجاح الحركة مرتبطا بالتشغيل فقط.

إذا ما الذي يمكن أن تقوله الأرقام عن الحركة وبالأساس عن النواة المؤسسة الفاعلة والمحددة لفعلها الجماعي؟

حسب النسب الطاغية على مستوى الإجابات، يمكن القول أنها حركة أفقية شبابية تتراوح أعمارهم بين الخمسة والعشرين والخمسة والثلاثين سنة، تقع على هامش الأطر الحزبية والأطر المرتبطة بمؤسسات المجتمع المدني ما عدا انخراط البعض في UDC اتحاد الشباب المعطلين عن العمل، أو البعض من قدماء الاتحاد للعام لطلبة تونس، ينتمون للطبقة المفقرة، شاركوا في المسار الثوري للحركة الاجتماعية 17 ديسمبر 2010 وينتمون إلى شعاراتها الكبرى "شغل حرية -كرامة وطنية" ، كما أن الحركة كان هدفها في البداية التشغيل ثم تطوّر في إطار جدلي نحو مطلب التنمية، أي إيجاد حلول تنموية بالجهة

[400]: كلهم شاركوا في الحركة الاحتجاجية المنادية بإسقاط النظام التي بدأت في 17 ديسمبر 2010 إلى حد 14 جانفي 2011. وهو ما شكّل لديهم نسقا من الاستعدادات جعلهم جاهزين لأي "فعل جماعي" احتجاجي ضدّ السلطة السياسية القائمة، فهذه الاستعدادات بالإضافة إلى بقائهم عاطلين عن العمل مثّلت عنصرا أساسيا دفعهم للانتماء لهذه الحركة الاحتجاجية جانفي 2016.

[401]: ما تعانيه جهتهم من الفقر والبطالة كان له دور أساسي في انتمائهم للمنظمة الطلابية (الاتحاد العام لطلبة تونس) وكان له دور أيضا في انتمائهم الأيديولوجي اليساري أو القومي المعارض لحكم بن علي.

للقضاء على الفقر والتهميش بنيويا بشكل جذري، والذي طال المنطقة منذ حقبة ما بعد الاستعمار إلى اليوم.

يجدر بنا في بداية عملنا أن نحيط القارئ علما بالمفاهيم الأساسية التي ينعقد عليها بحثنا ومنها مفهوم الهامش والحركة الاجتماعية والحركة الاحتجاجية والفروق بينها، وذلك من أجل تبيان حدود كل حركة احتجاجية تقوم على مطالب ترتبط بالعدالة الاجتماعية.

مفهوم الهامش الاجتماعي:

1)التعريف اللغوي:

جاء في القاموس المحيط: "الهمش: الجمع، ونوعٌ من الحليب، والعضُّ، وهمشَ كضربَ وعلِمَ: أي أكثر الكلام، وامرأة همشى: كثيرة الجلبة. والهامش: حاشية الكتاب، واهتمشوا: اختلطوا، وأقبلوا، وأدبروا، ولهن همَشةٌ. والدابة أو الجرادة دبت دبيبا. وتهمَّشَ مُنبَطُ الركيّة: تحلَّبَ.

والمهامشة: المعالجة. وتهامشوا: دخل بعضهم في بعضٍ."[402]

ويقول ابن الأعرابي:

الهمَشُ والهمْشُ كثرة الكلام في غير صواب. وأنشد قائلا: ويهمِشون بكلام غير ذي حسن.

إذن يشير الهامش إلى صفة سلبية في قول العرب إن فلان تهمَّشَ في الكلام. فالهامش هو الحاشية والمنطقة الجانبية، فهو دائما في تناقض مع الجوهر والزمان تناقضا يضعه على حافّة المتن.

[402]: الفيروزبادي، "القاموس المحيط"، الجزء الثاني، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثامنة سنة 2005، بيروت-لبنان، ص610.

2)فلسفيا:

الهامش أو الحدّي: هو مايكون على الحافّة، أو على طرف منطقة ما[403].

3) تاريخيا:

المهمشون هم (حسب تعبير "بيار بورديو" في كتابه "الورثة") "ورثة المقصيّين" من الرواية التاريخية التي تعطيها المؤسسات الرسمية التابعة للسلطة المركزية حبكة سردية تضعها في مقام الرواية الرسمية غير القابلة للنقض. وقد أُسقط هؤلاء المقصيون من الرواية التاريخية الرسمية رغم أن الذاكرة الجمعية لازالت تحتفظ بذكرى كفاحهم وبطولاتهم.

3)في علم الاجتماع:

أما في علم الاجتماع فإنّ ظاهرة الهامشية تقوم بصفة عامة على شكلين أساسيين، أولاً واقع الطبقات الاجتماعية المغتربة منذ زمان بعيد عن المشاركة الواقعية في خيرات وأنشطة المجتمع، إنها الهامشية الاجتماعية والاقتصادية التي تعود جذورها إلى بنى الإنتاج والتنظيم الاقتصادي للمجتمع. والشكل الثاني للهامشية يظهر من خلال رفض إرادي وجلي للاندماج في المجتمع الذي نلفظه: إنها الهامشية الاجتماعية الثقافية[404].

[403]: اندريه لالاند، "موسوعة لالاند الفلسفية"، المجلد الأول، تعريب: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت- باريس، الطبعة الثانية سنة 2001، ص 765.

[404] : La marginalité sociale un réservoir de contestation ; 1971 (un article publié dans l'ouvrage sous la direction de Claude Ryan ; pp 41-47 ; Montréal ; les Editions Hurtubise ; 1971 ; 311 pp Guy Rocher.)

فعبارة "الإنسان الهامشي" لم تظهر في علم الاجتماع إلا مع عالم الاجتماع «روبار بارك »سنة 1928، حيث ظلت طويلاً مقتصرة على الاقتصاد، وبفضل نظرية "القيمة التبادلية" أخذت مكانة في الأدب العلمي. في حين فضَّلت العلوم الاجتماعية طويلاً مفاهيم أخرى من قبيل الفقر، الأقلية، المنحرف والمقصيِّ والمختلف، عبارات متعددة تغطي بطريقة مختلطة ظواهر اجتماعية واقتصادية وحتى مكانية[405].

فالهامشي يمكن أن يكون فردا أو جماعة مُبعدين (مجبرين أو عن اختيار) من مركز النظام الاجتماعي الذي يعيشون فيه، ففي كل زمان ومكان هناك أفراد يعيشون على حافّة المجتمع وفي مواجهة مع ثقافة النظام الاجتماعي القائم إما اختيارا منهم أو بأن يتمّ وضعهم بعيدا وإزاحتهم من الدائرة الاجتماعية لأن حضورهم يُنظر له على كونه تهديدا للجسم الاجتماعي.

يمكن للآخر الهامشي كشخص أن يعيش على حافّة المجتمع أو حتى خارجه، فحينما يعيش الآخر الهامشي داخل المجتمع مواجها الثقافة المهيمنة يصبح هذا الهامشي خاضعا لتراتبية معيّنة تميّز النظام الاجتماعي للمجتمع الذي يعيش فيه وهي تراتبية تفرضها سلطة مركزية على الأفراد. بالتالي تصبح عملية النفاذ لمنظومة توزيع المكافآت الاقتصادية لمجتمع ماsystème de distribution des récompenses économiques محدودة أكثر ومقيّدة بشروط أكثر من الأفراد غير الهامشيين.

وحسب رأي ميشال فوكوفإن ما يمكن ملاحظته على الهوامش يتم تحديده بناء على علاقته بالمركز، فالفقراء والمقصيون اجتماعيا يتحدد موقعهم في المجتمع الذي يصبغ عليهم هذه الصفة ويتموقعون بحسب علاقتهم بالمركز الذي يضع المعايير، كما أن هذه المعايير مبنية على تصورات تقوم على علاقات تحكمها ضوابط اجتماعية نفسية

[405] : Antoine. S .Bailly ; La marginalité ; une approche historique et épistémologique. p109 (In: Anales de Geografia de la Universidad Complutense, 1995, n° 15, p. 109-117.)

وأيديولوجية تتأسس على النظرة الدونية وعقدة التفوّق متلبسة بالاحتقار فتجبره على الانطواء والانكماش على ذاته تارة كما يمكن أن تجبره على رد فعل عنيف تجاه السلطة المركزية، وفي كلتا الحالتين فإن هذه النظرة الإقصائية لا تفرز سوى علاقات يكون الاندماج فيها قائما على اللامساواة بين الهامشي والأفراد الذين ينتمون لمركز النظام الاجتماعي، كما أن هذا السلوك الإقصائي قائمٌ هو بدوره على أنواع شتى من التمييز الذي يأخذ طابع النظام الاجتماعي المهيمن (ديني، اثني، طبقي، عرقي، لون البشرة..). ويُطلق عموما على هذا الهامشي: الإنسان غير السوّي اجتماعيا أو المنحرف.

في الفرق المنهجي بين الحركات الاحتجاجية والحركات الاجتماعية:

تعتبر الحركات الاجتماعية بمثابة تنظيمات متنوعة المصالح والأهداف، فهي تمثل أقوى أشكال الأفعال الجماعية والحملات المنظّمة ذات النفس المتواصل والتي توصلت إلى تحقيق نتائج مثيرة. فهي تمثل أفعالا احتجاجية ترفع جملة من المطالب رافضةً من خلالها جلّ خيارات السلطة السياسية أو جزءًا منها.

عرفت الحركات الاجتماعية في تونس بعد 17 ديسمبر 2011 حركيّةً وديناميكية عالية جدا بعد أن أخذت أدوارا ومطالب مختلفة كانت ناتجة بالأساس عن عجز الدولة ومؤسساتها الكلاسيكية للتصدّي للأزمات الاجتماعية المتعلّقة بالعدالة الاجتماعية وتوفير شروط العيش الكريم، وهي ذات المطالب التي اندلعت من رحمها شرارة الحركة الاجتماعية الثورية 17ديسمبر 2010-14 جانفي 2011.

إذن، كانت النقاط المشتركة بين الحركات الاجتماعية والحركات الاحتجاجية متمثلة في ما هوجهد عملي مُكَرَّسٌ من قبل مجموعة من الأفراد من أجل الوصول إلى هدف أو مجموعة أهداف مشتركة، وغالبا ما تكون هذه الأهداف اقتصادية أو كما يقول آلان توران :" قليلة

هي الحركات الاجتماعية التي لا أهداف اقتصادية لها، أو لاوجود لها على الإطلاق." [406] فما هي إذن نقاط الاختلاف بينها ؟

يورد أنتوني غيدنز في كتابه "مفاهيم أساسية في علم الاجتماع" عنصرين أساسيين يمثلان نقطتي الاختلاف بين الحركات الاحتجاجية والحركات الاجتماعية، فهو يعرّف الحركات الاجتماعية بكونها "محاولة جماعية لتعزيز مصلحة عامة أو تأمين هدف عام، وذلك في الغالب من خلال أفعال خارجة عن مجال المؤسسات الرسمية السياسية الموجودة."[407] ففي هذا التعريف يتضح لنا من خلال النقطة الأولى الاختلاف بين المفهومين الذي يتعلق بالمؤسسات الوسيطة للاحتجاج (منظمة، نقابة، جمعية، حزب..)، فهذه المؤسسات التي يتم من خلالها تعزيز مصلحة أو تأمينها من قبل المجموعة تكون خارج المؤسسات الرسمية السياسية الموجودة بالنسبة إلى الحركات الاجتماعية بينما يمكن أن تكون عملية تعزيز مصلحة أو تأمينها احتجاجيّا من خلال المؤسسات الرسمية السياسية بالنسبة للحركات الاحتجاجية.

أما بالنسبة للنقطة الثانية في الاختلاف بين المفهومين فهي تتعلق بمعطى ثقافي مهم، حيث ترتبط هذه النقطة بأفق الحركات الاجتماعية، فالحركات الاجتماعية تمثل كما يقول غيدنز "محاولات جماعية لتغيير المجتمع"[408] على عكس الحركات الاحتجاجية التي لا تسعى لتغيير المجتمع ولا حتى لطرح بديل أو نموذج ثقافي جديد للمجتمع، لأنها لا تمثل سوى فعل اعتراضي تُقْدِمُ عليه جماعة معينة ضد أي جماعة أخرى مسؤولة على المشكل المطروح في إطار مكاني وزماني محدّد.

---

[406]: آلان توران، "براديغمات جديدة لفهم عالم اليوم"، ترجمة: جورج سليمان، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان، أفريل 2011، ص265.

[407]: أنتونى غيدنز-فيليب صاتن، "مفاهيم أساسية فى علم الاجتماع"، ترجمة: محمود الذوادي، المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان، أكتوبر 2018، ص346.

[408]: أنتونى غيدنز-فيليب صاتن، "مفاهيم أساسية فى علم الاجتماع"، ترجمة: محمود الذوادي، المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان، أكتوبر 2018، ص347.

المقاربة النظرية في فهم الحركة الاحتجاجية:

يعتبر "دافيد سنو" أحد مؤسسي نظرية "التحليل الإطاري"، أن التمظهرات الموضوعية (اقتصادية واجتماعية) لـ"اللاعدالة"، التي توجد في وضعية ما، لا تكفي لحشد الجموع من أجل فعل جماعي ضمن هذه الوضعية، وحتى يحدث المرور من وضع قابل لأن يكون فعلًا جماهيريًّا، يجب على الأفراد المعنيين بخلق الفعل الجماعي أن يتفقوا ويجتمعوا أساسا على ثلاثة محددات جوهرية[409]:

١)وجود مشكل وتحديد المسؤولين عنه

٢)تحديد الآليات والوسائل الناجعة والضرورية للفعل ومواجهة الجهة التي تسبب/ تمثل المشكل.

٣)الإيمان/ الاعتماد بالقدرة على الفعل وضرورة الفعل وإمكانية التغيير والانتصار.

هذا الإطار التأويلي للحركة الاحتجاجية يسمح لنا بتحديد ملامحها الأساسية، وننتهي بتعريفها انطلاقا من كونها: "جموع منظمة تنظيما أفقيا غير محدّد وغير مؤقت لأنها لا تسعى لتحقيق مطلب واحد بل تسعى لدفع السلطة السياسية لحل مشكل بنيوي متعلق بالتنمية المرتبط بعديد الملفات (سياسية واقتصادية واجتماعية)، وبكونها إطارا تأويليا مشتركا يجتمعون في سياق محدد لتحديد المشكل، المتسبب في المشكل وطبيعة هذا المشكل، إطار يجمع ذوات غير متحزبة وغير منتمية إلى الحقل السياسي/الاجتماعي الرسمي، وتنتشر بشكل أفقي. فتصبح بعدها الأطر التأويلية للحركة قابلة للتبني والمرور للممارسة من قبل أي فرد يتبناها، في أي مكان دون ارتباط تنظيمي بالحركة وذلك استنادا

[409] : Benfort, Robert D, et David À.Snow. «processus de cadrage et mouvement sociaux: présentation et bilan», politix, vol. 99, no.3, 2012, pp. 217-255.

إلى الشعارات المركزية المرفوعة "شغل حرية -كرامة وطنية"، واستنادا إلى أفق الفعل الجماعي المرتبط بالحلول التنموية المطروحة والتي تنتهي باتفاق تتعهّد فيه السلطة على الإطلاق بإنجاز حلول جذرية لمشكل التنمية بالجهة.

نستنتج أن هذه الحركة الاحتجاجية هي تمظهر من تمظهرات مختلفة لسيرورة واحدة وهي سيرورة الحركة الاجتماعية 17 ديسمبر -14 جانفي 2010.

قد يعتبر أغلب الفاعلين في الحقل الاجتماعي أن الحركة الاحتجاجية التي اندلعت في جانفي 2016 وانطلقت من ولاية القصرين، والتي طالبت بالتشغيل في مرحلة أولى ثم طالبت عبر شعاراتها بالتنمية في مرحلة ثانية، حركة اجتماعية تمثل امتداد للحركة الاجتماعية 17 ديسمبر 2010، نظرا لكونها تتشابه معها في كثير من العناصر أولها مساحة رقعة الاحتجاج ثم لارتكاز مشروعيتها على شعارات الثورة "شغل - حرية -كرامة وطنية"، وأخيرا لتمردها على الأشكال الكلاسيكية في التنظّم (حركة سياسية، حزب ، جمعية) وفي الاحتجاج. ، فرغم أن الفاعلين في جلّ الولايات التي انتفضت في جانفي 2016 كانوا قد تجاوزوا منطق الاحتجاج السلمي الذي يقوم على تجميع المحتجين أمام مقرات السيادة نحو الاعتصام داخل مقرات الولاية (قفصة، القصرين، مدنين) والمعتمديات (القصرين) وتعطيل السير العادي للمرفق العمومي وصولا إلى غلق معتمديات تابعة لولاية القصرين. إلا أن الأفق الذي قامت عليه الحركة الاحتجاجية جانفي 2016 لم يتجاوز حدّ شرعية النظاموذلك لمطالبتهم لمن يمثلون النظام السياسي بإنجاز مطالب اجتماعية محدّدة وقع غض الطرف عنها طيلة الست سنوات بعد ثورة 17 ديسمبر 2010.وهي مطالب تتعلق بملف التشغيل وملف التنمية المحليّة.

قبل الدخول في التفاصيل العميقة لموضوع دراستنا فإنه يجدر الإشارة إلى أنّما يميّز أحداث ديسمبر 2010 عن أحداث جانفي 2016 شكلا، هو أن هذه الأخيرة لم تكن منادية

ومطالبة بإسقاط النظام، كما أنها لم تجد مساندة تعبويّة من الجهات المركزية (المدن الكبرى لم تتحرّك لتساند هذه الحركة ماعدا نشطاء فاعلين في المجال الاجتماعي/السياسي في العاصمة إبان وفاة رضا اليحياوي، وقد نُظّمت وقفة احتجاجية أمام وزارة الداخلية) وبالتالي ما كان ينقص الحركة الاحتجاجية 2016 حتى تتحوّل إلى حركة اجتماعية/ثورية هو قدرتها على وضع أفق سياسي يطالب برحيل القائمين على النظام وتغييرهم كمسببين أساسيين لنظام "اللاعدالة".

طالب الفاعلون في الحركة الاحتجاجية في القصرين بانعقاد مجلس وزاري من أجل حل مشكلة البطالة والتهميش، فوقعت إجابتهم بتوفير حافلة توصل مجموعة تنوب المعتصمين داخل مقر ولاية القصرين إلى تونس لحضور هذا المجلس الوزاري الذي انعقد في مقر وزارة التشغيل يوم 30 جانفي 2016، فكانت مخرجات هذا الاجتماع سلبية جدا بالنسبة إلى أفق انتظارات الفاعلين في الحراك الاحتجاجي، حيث لم يقع طرح مشكلة التنمية بالرغم من أن رئيس الحكومه حبيب الصيد أعلن في خطاب رسمي عن وعود متعلقة بتوفير خمسة آلاف موطن شغل في موفى سنة 2016، وقد قدّم رئيس الحكومة جملة من المقترحات لم تكن في تناغم مع ما كانت مجموعة الفاعلين بحراك القصرين تنتظره من مسؤولي الدولة، حيث كانت المقترحات منحصرة في بعض التمويلات من صندوق الكرامة للتشغيل، ووضع قائمة للتشغيل في الوظيفة العمومية للسنوات المقبلة، وحلول أخرى متعلقة بتسهيلات لنيل قروض لمشاريع صغرى. فكان أن تقرّر فيما بعد إجماع الحاضرين بأن ينصرفوا من المجلس وأن لا يعودوا إلى ولاية القصرين ويعلنوا بالتالي اعتصامهم أمام مقر وزارة التشغيل، كي يعاد المجلس الوزاري من جديد ويتم تناول القضية بالجدية المطلوبة إزاء المطالب التنموية التي جاؤوا من أجلها.

دوافع تمرّد الهامش الاجتماعي على أشكال التنظّم الكلاسيكية في الاحتجاج:

ما نستنتجه من جملة هذه المقترحات التي قدمها الطّاقم الحكومي، هو أن هذه الحلولالتي قدمها هذا الأخير تعكس النظرة التبسيطيةللقائمين على السلطة بالنسبة لواقع سكان المناطق الداخلية والمعوقات البنيوية التي تحول بينهم وبين شروط الحياة الكريمة، هذا التبسيط يعكس بدوره نظرة الحكومات المتعاقبة ما بعد الثورة التي لا تعير اهتمامًا للشروط المطلوبة لخلق منوال تنمية جديد لتكريس وتفعيل مبدأ العدالةالاجتماعية. وكأن قدر هذه المناطق الداخلية بالنسبة إلى الإرادة السياسية وبالنسبة إلى صنّاع القرار هو البقاء على هامش الخيارات الكبرى المتعلقة بالسياسات العامة التنموية، يعني التأكيد على أنّ الحلول الكبرى التنموية منحصرة بالمناطق المركزية (العاصمة والمناطق الساحلية) والحلول الهامشية (مجرد تسهيلات لنيل قروض صغرى، بعض مواطن شغل في القطاع الخاص دون استثمار جدي يخلق مواطن شغل جديدة) مرتبطة بالمناطق الداخلية[410].

هذا النوع من التهميش على مستوى الحلول هو ما يسمّيه المحتجون وعلى لسان ناطقهم الرسمي "وجدي الخضراوي" بـ "الحقرة" أي الاحتقار، وهو بمثابة ميز عنصري تمارسه سياسيا وتاريخيا الدولة على مدىعقود(الحقرة وهو ميز عنصري ورثته الدولة الحديثة من السلطة الاستعماريةقائم على نظرة دونية للآخر الهامشي وتدعي حتمية التفوّق عليه).، هذا التمييز هو الذي خلق ميزًا ثقافيّا مرتبطًا بثنائية الهامش والمركز (مناطق داخلية أو ما قالته رئيسة بلدية باردو مؤخرا "من وراء البلايك" أي ما وراء سكّان الدواخل أو الآفاقيون وهو تعبير رمزي احتقاري لساكني المناطق الداخلية)[411] في الفضاءات الاجتماعية، ثم صار

[410]: تتمثل الحلول الكبرى أساسا في التسهيلات النسبيّة التي تعطيها الدولة في قطاعي الصناعة والخدمات في المناطق الكبرى واقتصار المناطق الداخلية على الاستثمار في القطاع الفلاحي والقطاع الحِرفي.

[411] : يوم 6 مارس 2019 ظهر فيديو نشرته صفحة الفايسبوك "LA COMMUNE DE BARDO" تظهر فيه رئيسة بلدية منطقة باردو بالعاصمة التونسية خلال معاينتها لأشغال بالمنطقة البلدية وهي تخاطب مواطنا بطريقة فظة، ويبدو أنه اشتكى لها من التعطيلات وتأخير إنجاز هذا المشروع. وتوجهت بالقول إلى المواطن " إلي بعثك بالكلمتين هاذوما عيب عليه وعيب عليك باش تقولهم خلينا نخدموا على رواحنا " وأضافت " تخمموا في باردو أكثر منا انتوما أحنا أولاد بادرو ماناش جايين من وراء البلايك".

فالمقصود من كلمة "وراء اللافتات الرسمية"، وهي اللافتات التي تمثّل تواجد مؤسسات الدولة بتلك المنطقة، هو كل من يسكنون وراء تلك الخطوط الجغرافية لتلك اللافتات أي في مناطق لا تتواجد فيها مؤسسات الدولة بالشكل الرسمي التي توجد فيه مؤسسات الدولة في المدن الكبرى، بالتالي كلّ من لاينتمي إلى ثقافة المدن الكبرى المتمدّنة.

أغلب سكّان المناطق المركزية يختزلون الحلول للمحتجين بنفس الحلول التي تطرحها السلطةكموقف تابع لموقف السلطة المركزية، دون وعي عميق بالتهميش البنيوي الذي طال هذه المناطق والذي جعل متساكني هذه المناطق أمام حلول ضيّقة: إما العمل في الفلاحة أو العمل في القطاع الحِرَفي إن أمكن أو الالتجاء إلى العمل في التهريب ومسالك الاقتصاد اللاشكلي أو غير المهيكل (ماجل بن عباس وهي معتمدية من ولاية القصرين خيث يشتغل فيها قرابة 60% من الشباب في الاقتصاد غير الرسمي أو غير المهيكل حسب ما أكده لنا ممثل المعتمدية عن اعتصام ولاية القصرين) أو الهجرة إلى المدن المركزية للعمل داخل الشركات والمصانع.

هذه هي بصفة عامة الحلول التي تطرحها السلطة المركزية، وهي ذات الحلول التي يطرحها أغلب سكّان المناطق المركزية خاصة في تعاطيهم مع المسألة في الفضاء الافتراضي حين وقعت أحداث جانفي 2016. هذا النوع من اللاوعي البنيوي بهامشية سكّان المناطق الداخلية دائما ما ينتج موقفا عاما لأغلب من يسكنون المدن الكبرى (العاصمة والمناطق الساحلية)، ويتمثل هذا الموقف العام في كون : كل من يحتجّ من أهالي المناطق الداخلية هو يطالب بأشياء مستحيلة أو يتعنّت في عدم قبوله بالحلول الممكنة التي تطرحها السلطة (لكنها ممكنة بالنسبة لمن يسكن المركز ومع الظروف البنيوية للمركز، لا لمن يسكن المناطق الداخلية المهمشة تنمويا وبنيويا)، وهو موقف اختزالي دائما ما يعكس التمثلات الاجتماعية[412] التي ورثها سكان المدن الكبرى من الثقافة الأرستقراطية التي تختزل الآخر الهامشي في صور جوهرانية (الكسل، البخل، الجهل، التخلّف) حيث حافظت هذه التمثلات الاجتماعية إلى الآن على قوتها التوجيهية لسلوك أغلب متساكني المدن الكبرى تجاه متساكني المناطق الداخلية، فدائما ما يُوصم أهالي المناطق الداخلية بـ:

[412]: هو مفهوم بدأ مع دوركايم وشهد تطورات عدة وهو في الأعم يمثل مجموع التصورات التي يرسم على ضوئها الفرد ممارساته وتحدد علاقاته الاجتماعية وتوجه سلوكه وأهدافه التي يرثها الأفراد من قبل مجتمعه عبر وسائل التنشئة الاجتماعية.

الجهل والتخلّف (أي جاهل لوضعه الاجتماعي ولشروط تطوّر نمط حياته)[413]وهذا ما يحيلنا إلى فهم تاريخ كامل من التباين الجهوي (جغرافي: شمال وجنوب والمناطق الداخلية في مقابل المدن الكبرى الساحلية والعاصمة) ومن التحولات الاجتماعية، وفهم "سيرورة التهميش الاجتماعي" القائمة على أساس جهوي، وأنتج فيما بعد تهميشا قائما على أساس ثقافي يتم فيه اختزال ومن ثم اتهام كل من يتمرّد على ظروف العيش الرديئة ويثور على الوضع العام بالمناطق الداخلية (سعيا منه لتغيير الوضع بجهته) بنفس الوصم الذي كانت تستعمله السلطة الاستعمارية تجاه سكّان المناطق الريفيةوالداخلية (برابرة، متخلفون، وحشيون).

نستنتج من كل ما سبق أن هناك مسافة واختلافات شاسعة بين الإطار التأويلي الذي يؤوّل به أغلب متساكني المناطق المركزية وبين أغلب متساكني المناطق الهامشية أو الداخلية في تأويلهم للواقع أي في تحديد طبيعة المشكل بالرغم من اتفاقهم على المتسبب فيه (المتسبب هو السلطة بالنسبة لمتساكني المناطق الداخلية لكن طبيعة المشكل هو مشكل بنيوي مرتبط بالسياسات العامة، أما بالنسبة لمتساكني المناطق المركزية فالمتسبّب قد يكون السلطة لكن المشكل دائما ما يكون إجرائيا[414])، على خلاف الحركة الاجتماعية 17 ديسمبر 2010 التي ضمت كل القطاعات وكل الحقول المتعددة داخل الفضاء الاجتماعي الكلي، لأن واقع الاستبداد الذي طال كل القطاعات حتى تلك المرتبطة بالمناطق المركزية جعل كل من هذه المسافات المتعلقة بالقطاعات والاختصاصات

[413]:نحيل إلى البحث والعمل الميداني الذي قام به الطالب زيدون العيادي في إطار مذكرة بحث لنيل الإجازة الأساسية في كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس للسنة الجامعية 2018-2019تحت عنوان :" التمثلات الاجتماعية للمختلف جهويا" تحت إشراف الأستاذة هدى عبد اللاويفي ص 18 وص 19، للتثبت من وجاهة هذه الأوجه من التمثلات الاجتماعية وأثرها في أفعال الفاعلين وتوجيه سلوكهم.

[414]: باعتباري مشاركا في هذه الحركة وباحثا فاعلا، واعتمادا على منهجية الملاحظة بالمشاركة، رصدت عبر مواقف مختلفة وملاحظات اتنوغرافية أن أغلب من استجوبتهم من الأحياء الشعبية خاصة من منطقة المروج وهي الأحياء القريبة من مكان اعتصام أهالي قفصة الذين جاؤوا سيرا على الأقدام، يتبنون موقفا متعاطفا مع المعتصمين ومع مطالبهم التنموية، أما أغلب من استجوبتهم من الأحياء القريبة لوسط العاصمة فهم يتبنون موقفا متعاطفا لكنه غير ملمّ بالمشكلات التنموية بالجهات الداخلية بالتالي فهو يقترح حلولا ظرفية تتعلق بالبحث عن الشغل عبر الهجرة إلى المدن الكبرى.

تذوب وتتقلّص، حيث كانت مشكلة الحرية السياسية وحرية التعبير هي المشكل الأساسي وهي المشكلة التي ارتبطت بالنظام، الاستبدادي- النظام، والحرية- إسقاط النظام، لكن مناخ الحرية ما بعد الثورة وفّر نوعًا من الاكتفاء الذاتي لدى سكان المناطق المركزية وجعل أكثرية الناشطين في المجال الاجتماعي/السياسي مكتفين في أغلب نشاطاتهم بالسقف الليبرالي للحريات الذي حدّده دستور 2014، بالإضافة إلى اكتفائهم بالقبول بالمؤسسات الرسمية للنضال عند المطالبة بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية (ماعدا أغلب متساكني الأحياء الشعبية بالمناطق المركزية التي تُعتبر هي أيضا هامشا طالت إليه سياسة الإقصاء)، والمتمثلة في النقابات والجمعيات ورابطة حقوق الإنسان والمنظمات الوطنية.

كل هذه الاعتبارات والمعطيات ستساعد الفاعلين في الحركة الاحتجاجية على فعل سياسي-اجتماعي متمرّد على الأطر الكلاسيكية-الرسمية،لأن هذه الأطر الكلاسيكية (حزب، نقابة، جمعية، منظمة..) هي بالنسبة إليهم أطر مهيّئة فقط لأن تكون مطابقة لأفق انتظارات من يسكنون في المدن الكبرى (باستثناء الأحياء التي تقع على أطراف أحياء الميسورين) الذين يتمتعون بظروف عامة تسمح لهم بالنفاذ إلى سوق الشغل كما يتمتعون بمرافق عمومية تسمح لهم بالنفاذ إلى أغلب الخدمات التي توفرها الدولة.

حققت هذه الحركة الاحتجاجية شرطا مهما من ضمن الشروط التي تجعل منها حركة اجتماعية، ويتمثل هذا الشرط في المطالبة بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية من خلال سيرورة حركية خارجة عن مجال الدولة ومؤسساتها الرسمية وتنتشر بشكل أفقي. وسنبين لاحقا حدود هذا الشكل النضالي.

لقد اعتمدت هذه الحركة الاحتجاجية على جل أشكال الاحتجاج وهو ما يمنحها فرادة وتميزا من بقية الهبّات الاجتماعية. ومن هذه الأشكال الاحتجاجية نذكر:

*الاعتصام في مقرات السيادة مثل الولاية والمعتمديات.

*غلق الطرقات الرئيسية المؤدية لولاية القصرين والطريق الذي يوجد أمام مقر وزارة التشغيل.

*خياطة الفم من قبل بعض المعتصمين.

*إضراب الجوع.

مسيرات في الشوارع تقف أمام مقر الولاية.

*الاعتصام أمام وزارة التشغيل ردا على مخرجات الاجتماع الوزاري الذي انعقد في مقر وزارة التشغيل.

*مسيرة سيرا على الأقدام من ولاية قفصة إلى العاصمة بالنسبة لاعتصام ولاية قفصة.

تجدر الإشارة إلى طبيعة الحركة الاحتجاجيّة من حيث عفويّتها بمعنى أن الفاعلين فيها دائما ما يقومون بخطوات تصعيدية مباشرة دون تردّد وبحسب الإمكانيات الحاضرة والمتاحة عدديا على المستوى الكمي ولهذه العفوية حدود إذا دققنا التحليل من زاوية أن المحتجين يرفضون أشكال التنظّم الكلاسيكية.وهو ما يدفعنا للبحث عن إجابة لسؤالمهمّ نفهم من خلاله قدرة المناطق الهامشية على التعبئة والتحشيد،وهو: كيف اشتغل الإطار التأويلي لهذه الحركة الاحتجاجية ؟

كيف اشتغل هذا الإطار:

الانطلاق من تعريف وضعية ما بكونها إشكالية يجب تغييرها عند تحميل المسؤولية لطرف أو جهة ما، والمطالبة بمجموعة من المطالب وحثّ أفراد آخرين على المساهمة في التغيير المنشود. هذا النوع من التعبئة قام على جزءين أساسيين: الأول في علاقة بسياسة الإقصاء التي تعتمدها السلطة من خلال حذف اسم "رضا اليحياوي" من قائمة المنتدبين، حيث يختزل الأهالي هذا الفعل في كلمة "الحقرة" أي الاحتقار أو الإقصاء.

يؤكد "دافيد سنو" على ارتباط فعالية التعبئة المرتبطة بالمجهودات المبذولة لتأطير الحركة الاحتجاجية وتوقفها ولو جزئيا على ثلاثة عناصر: الأول مصداقيتها التجريبية، أي قدرتها على إثبات مشروعيتها واقعيا والثاني وهو التناسب الخبراتي أي تناسب هذه الحركة بالنسبة للمطالب والشعارات المرفوعة التي ستؤطّر ضمن إطار الحركة بشكل لاحق، وثالثا وهو الأهم هنا: الإخلاص السردي[415] (narrative fidelity) وهذا العنصر الأخير وهو الأكثر أهمية هنا والمرتبط بقدرة الفاعلين على تنشيط الذاكرة الثقافية التي تتضمن بالنسبة للفاعلين عناصر حيّة لازالت متشبّثة بوقائع تاريخية متعلقة بتاريخ من الإقصاء والتهميش عبر حضور مكثف لسرد المظلومية التاريخية (اللامساواةالجهوية في السياسات العامةللدولة ما بعد الاستعمارية) لأهالي ومتساكني الولاية في الخطاب التعبوي، واستمرار ذلك بعد ثورة 17 ديسمبر 2010. هذا العنصر الذي كان له حضور مكثّف في الخطاب السياسي/الاجتماعي لمنتسبي الحركة الاحتجاجية، كان له الدور الأساسي في توسيع رقعة الاحتجاج بشكل سريع وحينيّ مع وسائل الاتصال الحديثة وشبكات التواصل التي كانت مساهمة بدرجة أولى في توسيع دائرة الاحتقان ومن ثم الاحتجاج، حتى وصل الأمر إلى كل من ولاية القيروان وجندوبة ومدنين وتطاوين وسيدي بوزيد وقفصة وباجة والكاف وزغوان وبعض المناطق التابعة لولاية صفاقس.وهي ولايات تشترك في نفس عناصر الذاكرة الثقافية التي تم تنشيطها من أول يوم في الاحتجاج.

يعدّ هذا التنشيط الحيوي للذاكرة الجماعية مشتركا سرديا فاعلاوأساسيا فيتحويلهذه الحركة الاحتجاجيةمن إطارها الجهوي إلى حركة طالت جهات أخرى تشترك معها في نفس

[415]:Snow(DA),Beneford(R.D.), “ideology, Frame Résonance, and participant Mobilization”, art. Cit., P. 211.

المظلومية التاريخية، تمثلت في أغلب الولايات التي" لم يقع الاعتراف بمستحقاتها التنموية ولم يقع الاعتراف بالجميل الذي قدمه أهلها من شهداء وجرحى في ثورة الكرامة 17 ديسمبر 2010" حسب ما قاله ممثل معتمدية فريانة التابعة لولاية القصرين، وهو ممثل المعتمدية في التفاوض مع الأطراف الحكومية في جانفي 2016، مع العلم أن جل ممثلي الحركة الاحتجاجية الذين يمثلون كل الولايات وخاصةممثلو ولاية قفصة والقصرين الذين شملهم الاستبيان، كانت مطالبهم موحدة ومتعلقة بذات الغرض وهي التنمية، حيث كان جلّهم يعتبر نجاح الحركة الاحتجاجية 2016 رهين المصادقة على حلول جذرية لمعضلة التنمية وفتح أبواب الاستثمار في الجهات الداخلية بتحسين البنية التحتية وتوفير مرافق عمومية ملائمة لمناخ استثمار مناسب لتحسين أوضاع الولاية،

وثانيا: توسيع رقعة الاحتجاج، فكل حركة تعبوية تسعى دائما لحل معضلات التأطير في سياق حملات التعبئة من خلال تمديد إطارها الأساسي عبر دمج قيم كانت في البداية قيما عرضية بالنسبة للفاعلين داخل الحركة ولتصورهم الخاص الذي يؤولون به الواقع وطبيعة المشكل الذي يواجهون[416]،فالقيمة الأولىأو الهدف الأول الذي كان يتمحور حوله الاحتجاج هو التشغيل، فقد كانت في البداية مشكلة التنمية مطروحة لكن بشكل عرضي فقط، ثم تطوّر الخطاب والوعي بالنسبة للفاعلين داخل الحركة الاحتجاجية وأصبح يضمّ هذه القيمة الجديدة (التنمية) ويضعها كقيمة مركزية يقوم عليها الاحتجاج،فأصبحت هي الهدف المشترك بين جلّ الولايات التي التحقت بهذه الحركة الاحتجاجية، وهو ما ساهم آليا في توسيع رقعة الاحتجاج وتكثيف عدد المساندين لهذه الحركةوانخراط الولايات الأخرى في الاحتجاج دون المرور بأي سلطة تنظيمية مركزية، بل يكفي أن تتبنى الخط العام للحركة الاحتجاجية وهدفها الرئيسي المتعلق بالتنمية.

[416] : Snow(DA),Beneford(R.D.), “ideology, Frame Résonance, and participant Mobilization”, art. Cit., P. 211.

ما من شك في أن هذه الحركة الاحتجاجية كانت تستمد مشروعيتها من شعارات الحركة الاجتماعية 17 ديسمبر 2010- 14 جانفي2011، لكن الخطاب الذي كانت ترتكز عليه في سردها للظلم والحيف الاجتماعي التي ينتج بشكل مستمرّ الفقر والبطالة والتي تمثل حسب تعبيرهم أحد تجليات السياسات العامة التي ميزت جهات عن جهات أخرى (حسب تعبير الناطق الرسمي باسم الحراك)، كانت ترتكز على تاريخ كامل من الإقصاء والتهميش منذ ما سمي بتأسيس الدولة الوطنية أي منذ خروج الاستعمار الفرنسي إلى الآن، وحتى الاحتقار أو ما يعبّر عنه في لغة التخاطب اليومي بلفظ "الحقرة" يعتبرونه أسلوبَ الدولة المنتهج منذ قيامها سنة 1956 بالرغم من تمتّع هذه الجهات بموارد طبيعية هامة (الفسفاط في ولاية قفصة، والفلاحة وتربية الماشية في ولاية القصرين)، لتصبح طبيعة الدولة بالنسبة إليهم طبيعة إقصائية وتهميشية وهو ما يجعل سكّان هذه المناطق يلجؤون إلى الاقتصاد الموازي أو غير الرسمي، لكي يتمتعوا بشروط العيش الكريم، فالدولة بالنسبة إليهم لا تمثلهم ولا تعنيهم بدرجة أولى، ولايعرّفون أنفسهم من خلالها (يقول أحد المعتصمين بولاية القصرين وهو ممثل عن معتمدية فوسانة: "لا يربطني بالدولة سوى بطاقة التعريف الوطنية") بل يعرّفون أنفسهم ويفتخرون بذواتهم من خلال انتماءات أخرى (القبيلة أو العشيرة) وهو ما يجعلنا نتساءل عن الشروط التي تم فيها اختيار ممثلي المعتمديات أي ممثلي الحركة الاحتجاجيةلكي يتفاوضوا نيابة عن المجموعة؟ يعني على أي أساس تم الاختيار وأغلبهم لا تمثل الدولة بالنسبة لهم سوى بطاقة هوية؟هذه الأسئلة هي التي سنحاول الإجابة عنها في العنصرين الموالِيَيْن.

البعد التعبوي للبنى الاجتماعيةالمحليّةوكيفية توظيفها في الاحتجاج:

انطلقت عملية الاحتجاج في أول الأمر أمام مقرّ ولاية القصرينيوم الأحد 17 جانفي 2016، حيث تحولت في اليوم الثاني إلى اعتصام داخل مقر الولاية، وكان عدد المعتصمين في البداية لا يتجاوز العشرين، فبعد تجاهل المسؤولين الجهويين وعدم تحملهم مسؤولية ما جرى من تجاوزات بحذف اسم رضا اليحياوي من قائمة المنتدبين قام المعتصمون بحركة تصعيدية تمثلت في تكثيف الاعتصامات في مقر ولاية القصرين وفي مقرات المعتمديات التابعة للولاية وتحوّلت الاحتجاجات من المطالبة بالتشغيل إلى المطالبة بحلول تنموية للجهة وتحميل المسؤولية للسلطة المركزية التي تمثّل حسب تصوّرهم المشكل والسبب الرئيسي في تفاقم نسبة البطالة ونسبة الفقر.

انعقد بعد خمسة أيام اجتماع وزاري يضم وزراء الحكومة مع المعتصمين بمقر ولاية القصرين، فبحكم خصوصية المشاكل التي تعترض كل معتمدية قرر المعتصمون أن يُنخِّبوا اثنين على كل معتمدية تابعة لولاية القصرين لغاية التفاوض حول الحلول التنموية، لكن الملفت للانتباه في عملية التنخيب هذه هي الشروط التي وضعت لتمثيل المعتمديات والتي لم تكن لها أي علاقة بالشروط التراتبية التي وضعت للتنظيمات الحديثة، حيث لم تكن المجموعة تنخّب منوّبيها على أساس الكفاءة المرتبطة بمدى معرفة الشخص للحقوق التي تقوم عليها المواطنة، يعني الحقوق التي بها تصبح مطالبهم شرعية أو مشروعة من الناحية القانونية، بل كانت مرتبطة أساسا بمن يملك ثقة المجموعة، أي من يملك رأسمال رمزي يُكسِبهُ مكانةً رفيعةً داخل الحشود المنتفضة، وهذا الرأسمال الرمزي[417] يرتكز على عنصرين أساسينوهما: الخبرة السياسية والنضالية في التفاوض وهي

[417]: الرأسمال الرمزي هو مفهوم يرجع لعالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو: يقصد به الموارد المتاحة للفرد نتيجة امتلاكه سمات محدّدة كالشرف والهيبة والسمعة الطيّبة والسيرة الحسنة والتي سيتمّ إدراكها وتقييمها من جانب أفراد المجتمع. ويعدّ الرأسمال الرمزي مصدرا للسلطة بحيث يمنح صاحبه مكانة اجتماعية في الجماعة التي ينتمي إليها، ويصبح للشخص كلمة أو رأي مسموع، قد يظن البعض أن مفهوم الرأسمال الرمزي هو ذاته مفهوم "الكاريزما" لدى ماكس فيبر، فلمفهوم الرأسمال الرمزي نقاط تقاطع لكن نقطة الاختلاف تكمن في كون ماكس فيبر جعل من مفهوم"الكاريزما" شكلا مخصوصا للسلطة بدلا من أن يجعله بُعدا لكل سلطة، فالرأسمال

بمثابة مراكمة لرأسمال نضالي/اجتماعي وسياسي، والعنصر الثاني يتمثل في الانتماء العروشي (القبلي) الذي يمثل أغلبية سكانية في المنطقة، فحتى إذا استوت قيمة التاريخ النضالي بين من تم انتخابهم لتمثيل الجهة، يتم اللجوء إلى مبدأ التمثيل العروشي، أي من ينتمي للعرش الأكثر تمثيلية من الناحية العددية في المعتمديات، وهو ما يترجم طبيعة النظام الاجتماعي الذي يرتكز على الوشائج الأولية المتعلقة بالقرابة الدموية الأكثر متانة بالنسبة للجهة المراد تمثيلها.

هذا الارتكاز لنظام العشيرة له بعد وظيفي قلّما يُلتفَتُ إليه، كما يعسر فهمه خارج المعيش اليومي لمن يسكن المناطق الداخلية وخارج أفق دلالاتهم، كما لا يمكن فهم هذا البعد الوظيفي داخل نسق ثنائيات الحداثة الأوروبية (حداثة/تقليد، رجعية/تقدمية)، التي لا تمثل فيها الروابط أو الوشائج الأولية المرتبطة بالقرابة الدموية سوى شكل من أشكال التخلّف والعيش داخل نمط حياة تسوده البربرية. فكون الاختيار يقوم على أساس قبلي في لحظات الصراع، يعني بالنسبة لهم الطريقة التي تملك أكثر نجاعة وفاعلية في تحقيق أكثر تعبئة وجذب وأكثر احتواء للفاعلين حول من يمثلهم، في إطار مواجهة السلطة، خاصة ونحن نتحدث عن حركة احتجاجية غير مؤقتة. فالعروشية أو التشبّث بالانتماء للعرش أو القبيلة يمثل نموذجا محدّدا من الانتماء القائم على الاندماج والتمايز بالنسبة للآخر الخارج عن هذا الانتماء، كما أنه قائمٌ أيضا على وحدة ضرورية دائما ما تستدعي نفسها حالما تصبح هذه الوحدة مهدّدة من الخارج وتصل في بعض الأحيان إلى حدّ التضحية بالنفس.

الرمزي يشير إلى درجات المكانة التي يكتسبها الفرد ويتمّ التعبير عن هذه المكانة أو القوة الرمزية من خلال علامات التمييز داخل الحقل.

وللتعمق أكثر في هذا المفهوم يمكن الرجوع الى كتاب "إعادة الإنتاج" لبيار بورديو، ترجمة: ماهر تريمش، المنظومة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، طبعة أولى 2007 ، ص56.

قد يَسِمُ البعض هذه الشروط المتعلقة بمن يمثل الفاعلين داخل الحراك الاحتجاجي بأنها شروط ما قبل حديثة أي شروط لا تقوم على مدى وعي الفاعلين بشروط وبحقوق المواطنة المجرّدة من الانتماءات التي يمكن أن تعلو أو تقوم مقام شروط الانتماء إلى الوطن/الأمة/الدولة، لكن هذه الحركة الاحتجاجية لم تكن تعنيها قضية الانتماء للوطن بقدر ما كان يعنيها التركيز على مدى وعي من يمثلهم بالمظلومية التاريخية التي تعرضت إليها الولاية مثلها مثل الولايات الداخلية.

فقد سعت هذه الحركة الاحتجاجية من خلال فعلها الجماعي إلى الاحتجاج بصفته فعلا كبيرا أو مكثفا شبيها بالفعل الجماعي واسع النطاق الذي جدّ طيلة فترة 17 ديسمبر 2010 إلى حدود 14 جانفي 2011، لوضع حد لسياسات الإقصاء والتهميش حسب تعبير الناطق الرسمي باسم اعتصام القصرين "وجدي الخضراوي"وهو ما أكده لنا أغلب الفاعلين داخل الحركة الاحتجاجية. لكن هناك طبعا فارق تعبوي لا ينتبه إليه أغلب الناس وهو مهم جدا وله دور محدّد في أفق الحراك الاحتجاجي، حيث تخلت فئة مهمة كانت تمثل كتلة حيوية في الحراك الاجتماعي 17 ديسمبر 2010، وغابت في الحراك الاحتجاجي 2016 رغم توسيع رقعة الاحتجاج الذي ضمّ أغلب الجهات المحرومة من منوال تنموي عادل، هذه الفئة هي ما سماها صدري الخياري "الكتيبة العمالية"[418] وهو ما يستدعينا لطرح سؤال مهم يتعلق أساسا بحدود الحركة التعبوية للحراك الاحتجاجي جانفي2016: لماذا تخلَّفتالكتيبة العمالية عن الالتحاق بالحركة الاحتجاجية جانفي 2016؟وهو سؤال في غاية من الأهمية في علاقة بحدود الإطار التعبوي لهذه الحركة الاحتجاجية موضوع الدراسة، كما سنحاوِلُ الإجابة عنه بطرح الفرضيات الممكنة في العنصر الموالي.

[418] : khiari Sadri, la contre révolution rampante, Contretemps, 04 mars 2016.

مناضل الهامش: هل هو فاعل جديد بعد ثورة 17 ديسمبر 2010؟

قد نختلف مع من يعتبر "مناضل الهامش" فاعلا جديدا بعد الثورة، فقد كان حضوره وتواجده بارزا على مدى تاريخ تونس ما قبل وما بعد الاستعمار، لكن داخل هذه الحركة الاحتجاجية التي كانت على نطاق واسع وشبيهة بالحركة الاجتماعية 17 ديسمبر 2010 أصبح مناضل الهامش أكثر فاعلية وأكثر جرأة وتمرّدا في تجاوزه لأشكال النضال الكلاسيكية، لكن من هو "مناضل الهامش" أولا؟ وبماذا يتمايز عن غيره؟

قلنا في ما سبق أن التهميش السياسي-الاجتماعي والثقافي في مرحلة ثانية دائما ما ارتبط بالجهات الداخلية كمقابل جغرا-سياسيللعاصمة والمناطق الساحلية (أو كما يسميها المؤرخ التونسي الهادي التيمومي بالتناقض الحادّ بين تونس الساحلية و "تونس الأعماق")[419] ، وهو تهميش مرتبط بسياسات دولة ما بعد الاستعمار التي ركّزت جهودها على بناء مؤسسات وأجهزة الدولة الحديثة ومرافقها العمومية[420] والمؤسسات التابعة لها في العاصمة والمناطق الساحلية،وهو الدافع الأساسي الذي حمل القائمين على السلطة على توفير قسط كبير من مواردالدولة فيالخزينة العامة إلى هذه الجهات بعينها، وبالتالي حرمت بصفة آلية المناطق الأخرى من موارد أساسية من الخزينة العامة للنهوض بواقعها ولتطوير أنماط عيشها، وهو ما جعل من هذه المناطق غير قادرة على مجابهة قساوة الحياة بحكم عدم توفر الوسائل والموارد الممكنة لذلك. زد على ذلك تزايد نسبة الهجرة نحو المدن منذ سنة 1956 وتراجع سكان الأرياف تراجعا سريعا منذ فشل تجربة "التعاضد"، وانخراط السلطة الحاكمة في سياسة اقتصاد السوق، وتزايد الاستقرار في المدن والقرى، وهو ما جعل من التناقض الحاصل بين المناطق الداخلية وبين تونس

[419]: الهادي التيمومي، "1956-1987"، دار محمد علي الحامي، نهج محمد الشعبوني-عمارة زرقاء اليمامة 3027 صفاقس : الجمهورية التونسية، الطبعة الثانية: 2008، ص 143.

[420]: هذه التفاوتات الجهوية في توزيع الثروة وإمكانات الإنتاج تعود إلى حقب ما قبل الاستعمار، إلا أن العديد من التوجهات الاقتصادية لدولة ما بعد الاستعمار عمّقت هذا التفاوت، خاصةً بعد توخي سياسات اللبرلة والتعديل الهيكلي انطلاقاً من ثمانينات القرن الماضي..

الساحلية ينتقل بدوره للمدن الكبرى حتى صار هذا التناقض ينقسم حسب رأي الهادي التيمومي إلى ثلاثة أصناف من الأحياء: "أحياء الميسورين" وأحياء "مستوري الحال" (التي سيتمّ إعطاؤها محمولًا طبقيًّا فيما بعد وسيتمّ تسميتها بالطبقة الوسطى) و"أحياء الهامشيّين" ، هذا الهامشي(طبعا نحن نتحدث هنا عن الهامشي الذي يطالب بأحقية جهته كجهة مهمشة سياسيا ومحرومة من تنمية عادلة تتحقق من خلالها شروط العيش الكريم) هو الذي تُستجمع فيه أغلب شروط التمرّد على النظام بحكمسياسة الإقصاء المدولن أو الدولاتي التي دائما ما تُمارس عليه ودائما ما تُلاحقهحتى وإن هاجر منطقته الأم.

فطوال تاريخ تونس ما بعد الاستعمار، لم تكن سياسة الإقصاء الاجتماعي مبنية على أساس طبقي بل كانت ولازالت مبنية على أساس جهوي، هذا ما اتضح من كلام الفاعلين داخل الحركة الاحتجاجية، حيث لم يتم إدماج المناطق الداخلية ومنها القصرين في السياسات العامة التي تجلب الاستثمار حتى تجرّ معها مواطن شغل حيوية. فمنذ قيام دولة "ما بعد الاستعمار" إلى اليوم، فإن كل التحولات الكبرى المتعلقة والمتزامنة مع الأحداث السياسية-التاريخية الكبرى والتي أسفرت عن تغييرات في شكل النظام السياسي، انطلقت شرارتها من "تونس الأعماق" وحينما تنتقل إلى المدن الكبرى لا تجد من حاضنة شعبية سوى تلك الأحياء الهامشية، حتى في الفترة البورقيبية وأحداث الخبز خير دليل على ذلك (أحداث أو انتفاضة الخبز، هو الاسم الذي أطلق على الاضطرابات التي عرفتها تونس في جانفي 1984 بعد زيادة سعر الخبز وعدد من السلع الأساسية، انطلقت أحداث انتفاضة الخبز لسنة 1984 من مدينة دوز بالجنوب التونسي بمناسبة السوق الأسبوعية في 29 ديسمبر 1983 في شكل مظاهرات أدت إلى المواجهة بين المتظاهرين وقوات النظام العام)، وأحداث الصراعات الدموية مع الاستعمار وصمود ‘الفلاقة ’ وهي قوات مسلحة

مقاومة للاستعمار الفرنسي، حيث كانت هذه القوات متمركزة أساسا في جبال المناطق الداخلية وفي صحراء الجنوب التونسي.[421]

لم يكن استدعاؤنالهذه المقاربة التاريخية من قبيل الإسراف في الكلام، بلإنّ الغاية من ورائها هو فهم ورصد الشرارة الأولى التي دائما ما تنطلق منها الصراعات السياسية الكبرى ذات المضمون الاجتماعي كصراع ينشد تغييرا سياسياواجتماعيا. فبحكم أن المناطق الهامشية هي الأكثر تضرّرا من السياسات العامةعلى مرّ التاريخ، فإنمتساكني المناطق الهامشية هم أكثر منيحملون إلى الآن مخزونا نفسيا (ثقافيا و تاريخيا) يدفعهم إلى التمرّد على سياسات الأنظمة الحديثة والتي عمّقت بدورها التفاوت الجهوي لسياسات الأنظمة ما قبل الحديثة (من أبرز الأمثلة التي يمكن رصدهاحول الثورات التي اندلعت ضد الأنظمة ما قبل الحديثة هي ثورة علي بن غذاهم وهي الثورة الشعبية العارمة التي اندلعت سنة 1864 ضد نظام محمد الصادق باي، وقد سميت على اسم قائدها علي بن غذاهم فقد كان السبب المباشر لاندلاعها هو مضاعفة الدولة لضريبة الإعانة من 36 ريالا إلى 72 ريالا تونسيا، إلا أن لها جذورا أخرى أهمها تنامي النفوذ الأجنبي في البلاد. تمردت عدة قبائل في وسط وغرب البلاد وامتدت الثورة بعدها لتشمل عدة مناطق في الساحل والجنوبفالهامش[422] يمثل الفئة التي دائما ما تبادر بالثورات التي تنادي بإسقاط/تغيير

[421]: طبعا كل التحركات دائما ما تنطلق من جهة الوسط رغم أن نسب الفقر في بعض المناطق الشمالية تفوق نسب الفقر في المناطق الداخلية، لكن الجهات الداخلية هي الجهات الأكثر تهميشا بالنسبة إلى جهات الشمال في علاقة بانعدام ظروف التمتّع بالتجهيزات العمومية والخدمات الحياتيّة وذلك خدمةً لبارونات التهريب التي دائما ما يكون لها نفوذ كبير في القرارات الكبرى داخل الجهات الداخلية، فمناويل التنمية غير العادلة تخدم مصالح هذه البارونات لغاية الحفاظ على مصالحها الخاصة والتي تتمثل أساسا في اليد العاملة العاطلة عن العمل التي تلجأ للعمل في الاقتصاد غير المهيكل من أجل توفير لقمة العيش.
للمزيد من التعمّق في كل ما له علاقة بالتهريب وعلاقته بالتنمية المحلية في المناطق الداخلية يمكن الاطلاع على كتاب "التجارة الموازية والتهريب في الفضاء الحدودي التونسي الليبي (1988- 2012): تشخيص وآفاق ضمن عولمة متخفية" لكاتبه كمال العروسي وهو كتاب صادر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

[422]: نحن نتحدث عن هامش اجتماعي مركّب، يتقاطع فيه الجغرافي والطبقي والثقافي، فتتنازعه تصنيفات عديدة بحسب المدخل:
جغرافيّا: ينتمي الهامش الاجتماعي إلى الأطراف الواقعة على تخوم المراكز الحضرية، فهو يتوزع بين الأحياء الشعبية في المدن الكبرى والطبقات الفقيرة في المناطق الداخليّة.
ثقافيا: يمثل الفئات المحافظة على مقوّمات الثقافة المحليّة من عروبة وإسلام وثقافات قديمة أخرى ولو اختلفت أشكال الانتماء إليهما، ضدّ الثقافات الوافدة وعلى رأسها الثقافة الأوروبية الوافدة منذ فترة الاستعمار الفرنسي.
طبقيا: فقراء ضد الأغنياء مع جزء من ميسوري الحال غير المستفيدين من العملية الاقتصادية التي يديرها نظام سياسي مركزي

الأنظمة السياسية، فهو فعليا محرّك أساسي للتاريخ المحلّي، والعنصر الحاضر المشترك في هذا التاريخ، حيث يتمثل حضوره في كونه العنصر المحرّك والدافع لتغيير السياسات العامة ومنظومة الحكم السياسي وظهور الأنظمة السياسية الجديدة.

ما من شكّ في أن ثورة الكرامة 17 ديسمبر 2010 كان خزّانها الرئيسي متمثّلًا في القواعد النقابية مع حشود من الشباب العاطل عن العمل الذي لم تستوعبه المنظمات النقابية ولا منظمات المجتمع المدني آنذاك، لكن الحركة الاحتجاجية جانفي 2016 كان وقودها الأساسي هو الشباب العاطل عن العمل وخاصة الشباب الحامل لشهائد مهنية وجامعية (100% شباب أصحاب شهائد علمية)، لكن هذه المرة تخلّفت المنظمات النقابية عن التحريك وعن التعبئة وانحصر مجال فعلها في المساندة وفي دعم المعتصمين (وهو ما يؤكده لنا الناطق الرسمي باسم الاعتصام بولاية قفصة حيث ساهم الاتحاد العام التونسي للشغل بدعمهم طيلة مدة المسيرة –التي كانت على الأقدام-)على عكس ديسمبر 2010 وعلى عكس مراحل الصراع ضد حكومة الترويكا في 2012، 2013، و2014، لم تكن القضية تعني المنظمة الشغيلة بالأساس، فهدفها الأساسي هو الدفاع عن حقوق الشغالين، وهي غير قادرة على الدفاع عن حقوق المعطلين ما عدا بعض الاستثناءات.

فإذا كانت الحركة الاحتجاجية تسعى لنيل حقوق المعطلين عن العمل والبحث عن حلول جذرية لما وصلت إليه نسبة البطالة والفقر(بلغت نسبة البطالة في تونس 15,6%في 2016 مقابل 15,2 في سنة 2015 حسب ما أفاد به المدير العام للمعهد الوطني للإحصاء الهادي السعيدي حينها) [423]من خلالإجبار السلطة السياسية على إيجاد حل بوضع منوال تنمية عادل للولايات الداخلية، لكن هذا الإطارالتنظيمي النوعي أو الفئويلم يساعد على توسيع مجال التعبئةحتى يضمّ الجهات والفئات الأخرى غير المقتصرة على الجهات

[423]:جريدة الصباح نيوز التونسية، العدد الصادر في 24 فيفري2016.

والولايات المحرومة من منوال تنمية عادل. فقد كانت التعبئة محدودة فئويا (بالنسبة إلى الفئة الشغيلة) بالرغم من توسّعها على كامل الجهات الداخلية (قفصة، القصرين، سيدي بوزيد، القيروان، جندوبة، باجة، مدنين، بن قردان، تطاوين، زغوان..) وهذا راجع لعاملين اثنين الأول وهو المتعلق بخصوصية القضية المركزية من جهة، والتي صارت تتعلق بالتنمية لا بالدفاع عن حقوق الشغالين وثانيا بحكم عدم فاعلية المشاركين المحتملين وهم الطبقة الشغيلة في هذا الحراك الاحتجاجي، إما لضعف تمثيلية الشعارات لهم،ما جعل الطبقة الشغيلة لا ترى لنفسها موقعا داخل هذه الحركة الاحتجاجية أو لغياب الوعي بمشكل العدالة الاجتماعية الذي سيعود بالنفع على كل الطبقات الاجتماعية ككلّ، فقد دافعت هذه الحركة عن حق الجهات الداخلية في منوال تنمية عادل لغاية الحد من البطالة والفقر بعد أن ملّت من الوعود التسويفية، حسب كلام جل الفاعلين، ولم توسّع شعاراتها نحو الدفاع عن حقوق الشغالين وحقوق أخرى قد تمس بشريحة أخرى من المجتمع حتى تكثف التعبئة فئويا،أو لمشكل داخلي يتعلق بالترتيب الهرمي داخل اتحاد الشغل.

التحاق اعتصام ولاية قفصة بالعاصمة سيرا على الأقدام:

لم تلتحق الحركات الاحتجاجية الأخرى بالعاصمة عدا بعض الشباب من الحركة الاحتجاجية بولاية جندوبة أمام مقرّ وزارة التشغيل وكذلك الحركة الاحتجاجية القادمة من ولاية قفصة سيرا على الأقدام، وذلك لأسباب عدّة، نذكر البعض منها: الحركة الاحتجاجية بمعتمدية الفحص من ولاية زغوان، حيث اجتمع صبيحة 17 جانفي 2016 ثلاثون من الشباب العاطلين عن العمل واتجهوا للاحتجاج أمام مصنع "Autoliv" بالمنطقة الصناعية بمعتمدية الفحص تنديدا بالتمييز الجهوي الذي يقع دائما في الانتداب، حيث عمد مالك المصنع كغيره من مُلاّك المصانع بالمنطقة الصناعية إلى عدم انتداب الشباب العاطلين عن العمل من أهالي المنطقة (معتمدية الفحص) حسب قول

أحد ممثلي الاعتصام "صبري بن سليمان"، وقال: "دائما ما يقع انتداب شباب من الولايات الأخرى كسليانة وجندوبة ومعتمدية بوعرادة التابعة لولاية سليانة ومن معتمدية السرس التابعة لولاية الكاف"، فنفّذ الشباب وقفة احتجاجية أمام أحد أكبر المصانع في المنطقة الصناعية "Autoliv" احتجاجا على هذا النوع من التمييز السلبي، ثمّ قرّر المسؤولون بالجهة وعلى رأسهم المعتمد أن ينعقد اجتماع مع المعتصمين ومع ملاّك المصانع، فكانت مخرجاته متمثلة في وعود بانتداب المعتصمين في ظرف لا يتجاوز ثلاثة أيام، لكن ما حدث فيما بعد حسب ما أكده "صبري بن سليمان" هو "التنكّر من قبل مالك المصنع لوعوده بقوله: "أنا ما يُحْكُم فيّا حد ونعمل كان إلي في رأسي" (بمعنى لم تعد تهمني تلك الوعود)، فتطوّرت أوضاع الاحتجاج بعد ذلك وتوسّعت رقعته لتشمل أهالي المنطقة ككل ومن ثم المعتمديات الأخرى كمعتمديتي "الناظور" و"بئر مشارقة"، فقد أصبحت هذه الحركات الاحتجاجية تطالب بمنوال تنمية عادل للمعتمدية والولاية ككل.

أما فيما يتعلّق بالمسيرة التي نفّذها سبعةٌ وخمسون شابًّا من بينهم فتاة وامرأة، وهي مسيرة نفذها هؤلاء الشباب سيرا على الأقدام من ولاية قفصة، ووصلوا إلى العاصمة حيث منعتهم قوات الأمن يوم الاثنين 8 فيفري 2016 من الوصول إلى ساحة القصبة بالرغم من تمكُّنِ ثلاثة من المعتصمين من الدخول إلى مقرّ رئاسة الحكومة لتقديم مطالبهم المتعلقة بأزمة التشغيل والتنميةوالنقص المتزايد في الماء الصالح للشراب والذي يتسبب فيه قطع المياه مرات عديدة في السنة ، كذلك التحقت مجموعة من المعتصمين من ولاية تطاوين بساحة الحكومة بالقصبة ونفّذوا هم بدورهم اعتصاما لمدة يوم واحد من أجل تقديم مطالبهم المتعلقة بالتنمية لرئاسة الحكومة.

وقد وقع تسويف المعتصمين أمام ولاية قفصة ومماطلتهم حسب كلام أحد ممثلي اعتصام ولاية قفصة "جهاد عميرة" مع عدم الأخذ بجديّة ملف التشغيل ومشكلة التنمية بالولاية، بالرغم من أنهم تكبّدوا عناء القدوم سيرا على الأقدام من ولاية قفصة التي تبعد عن العاصمةحوالي 350 كيلومترا ،وبالرغم من كونهم جاؤوا محمَّلين ببرنامج تنموي كامل، يقترحون فيه اقتطاع 20% من عائداتالفسفاط بولاية قفصة للمشاريع التنموية للولاية طالما أن الدولة غير قادرة على جلب المصانع والاستثمارات الكبرى حسب كلام والي قفصة حينما تفاوض مع المعتصمين قبل قدومهم إلى تونس، وكانت المسيرة قد نفّذت كردّ فعل على تجاهل الوالي الذي قال لهم حرفيا "اذهبوا وأشعلوا النار في أجسادكم"، ورغم مطالبة الناطق الرسمي "حسني الصالحي" حينما اجتمع مع "السيد بلال" (هو المستشار لدى رئيس الحكومة المكلف بالملفات الاجتماعية) بإعطاء مهلة للحكومة مدّتها تتراوح بين الثلاث والخمس سنوات على أمل أن تنطلق الحكومة في تنفيذ برنامج تنموي بالجهة يتمثل عموما في توفير بنية تحتية ومرافق عمومية تجلب وتشجع على الاستثمار، إلا أنّ المستشار السيد بلال والحكومة التي يترأسها السيد "الحبيب الصيد" كان موقفهما سلبيّا جدا بالنسبة لانتظارات المعتصمين، فلم يكن مستشار رئاسة الحكومة متجاوبا مع سقف المطالب التي قدّمها الناطق الرسمي باسم اعتصام قفصة حسب كلامه حيث قال لهم :"الشباب الكل في تونس عاطل عن العمل وأنتم لستم استثناء"، وهو ما زاد من موجة الاحتقان في صفوف المحتجين فقرروا الذهاب إلى ساحة القصبة لكن وقع صدّهم وتعنيف البعض منهم من قبل الشرطة.

فقد اعتبر المحتجون على لسان ناطقهم الرسمي أن هذه المسيرة باعتبارها فعلا اجتماعيا،طيلة ثمانية أيام، تمثّل بالنسبة إليهم حركة رمزية حاولوا أن يُبيّنوا من خلالها حجم المعاناة والظروف الاجتماعية القاسية التي يمرّ بها المتساكنون بولاية قفصة، ولعلّ لغة الأرقام خير دليل على ذلك حيث كشف المعهد الوطني للإحصاء يوم 17 أوت 2016،

عن نسب البطالة حسب ولايات الجمهورية بالنسبة للثلاثي الثاني لسنة 2016، حيث احتلّت ولاية تطاوين المرتبة الأولى من حيث ارتفاع البطالة بـ32% تلتها ولاية قفصة في المرتبة الثانية بـ28,2%.[424]

لكن العنصر الأساسي الذي زاد من موجة الإحباط في صفوف المعتصمين هو التجاهل الذي قوبلت به هذه المسيرة، بالرغم من المراسلات العديدة التي أرسلوها لرئاسة الحكومة باسم رئيس المنتدى التونسيللحقوق الاجتماعية والاقتصادية، فرئاسة الحكومة لم تجب عن الرسائل، مما دفع البعض من المعتصمين إلى محاولة الانتحار.

فحتى محاولات الاحتجاج الجماعي من كل من معتصمي ولاية قفصة ومعتصمي ولاية القصرين في شارع الحبيب بورقيبة بالعاصمة في آخر شهر فيفري 2016، لم تغيّر شيئا بالنسبة للمعتصمين، حيث استمرّ الموقف الحكومي في التجاهل حسب كلام الناطقين الرسميين باسم الاعتصامات (القصرين وقفصة). إلى أنقدم مجموعة من النواب على رأسهم النائب كمال الحمزاي اقتراحا يتمثل فيانتدابمجموعات من المحتجين وفق قوائم ويتم انتدابهم على دفعات مقابل إنهاء الاعتصام، وقد تم رفض هذه الحلول من قبل المعتصمين بحكم أنها لا تضع مشكلة التنمية كمحور للنقاش والحوار. كما أن هذه الحلول حسب موقف المعتصمين لن تقضي على مشكلة البطالة والفقر ونقص الموارد والمياه الصالحة للشراب بالجهة (حسب ماأفادنا به ممثلمعتصمي معتمدية ماجل بن عباس وهو عبد اللطيفي فإن انقطاع المياه يكون بمعدل مرة كل أسبوع مع غياب تام للمرافق العمومية والفروع البنكية وحتى الفروع التابعة للشركة الوطنية لاستغلال وتوزيع المياه، والشركة الوطنية للكهرباء والغاز).

[424]:المعهد الوطني للإحصاء يكشف عن نسب البطالة حسب ولايات الجمهورية، موقع كابيتاليس، 17 أوت 2016.

"السيستام هوّ هوّ وما تبدّل شيء":

هذا التكثيف الفئوي الذي كان ينقص الحركة الاحتجاجية جانفي 2016 التي انطلقت من ولاية القصرين، هو العامل الوحيد الذي كان يمكن أن يحوّل المشكل المركزي الذي قامت عليه هذه الحركة الاحتجاجية من مشكل بسيط مرتبط بفشل إجرائي للأداء الحكومي إلى مشكل مرتبط بنيويا بالنظام، ومن ثم يمكن أن يكون الحل المرتبط بالمشكل هو إسقاط النظام، وهو نفس سياق التطورات الذي حَصُل في الحركة الاجتماعية الثورية بين 17 ديسمبر2010 إلى حدود 14 جانفي 2011. حيث تكاتفت جلّ العناصر الفئوية للمجتمع التونسي على شعارات متعدّدة "خبز وماء وبن علي لا" "شغل حرية -كرامة وطنية" وأفرزت في آخر الأمر بشكل ديالكتيكي شعارا موحّدا "خبز وماء وبن علي لا" كشعار يرمز لسقوط النظام.

لكن الشعار الذي دائما ما يتكرّر داخل الحركة الاحتجاجية جانفي 2016 هو "ما تبدّل شيء والسيستام هوّ هوّ"، أي لا شيء تغيّر هنا بعد 2010، ولم يكن الانتقال الديمقراطي يعنيشيئا بالنسبة للفاعلين طالما أن القائمين على السلطة لم يعترفوا بمستحقاتهم التنموية. بل على العكس وقع احتقارهم وممارسة الهرسلة البوليسية عليهم طوال فترة الاعتصام أمام وزارة التشغيل سواء بالنسبة لمعتصمي ولاية القصرين أو بالنسبة لمعتصمي ولاية قفصة في مقر اعتصامهم بمنطقة المنتزه وبولاية بن عروس ، فبعد فشل الحوار الوزاري الذي جدّ صبيحة يوم الثالث من الاعتصام، وهو ما غذّى منسوب الاحتقان داخل صفوف المحتجين، أقدم البعض من معتصمي ولاية القصرين على خياطة أفواههم والبعض الآخر على غلق الطريق الذي يقع أمام مقر وزارة التشغيل بتونس العاصمة.

"السيستام هو هو" بمعنى أن النظام بنيويا لم يتغير بشكل جذري، والنظام ينتج نفس منظومة الإقصاء الاجتماعي المبنية على عنصرية جهوية متجسّدة في مناويل التنمية غير عادلة وغير متكافئة جهويا والتي تتمظهر في التوزيع غير العادل لموارد الخزينة العامة المخصصة لكل ولاية ولكل جهة، حسب كلام الفاعلين داخل الحركة الاحتجاجية جانفي2016. وبالتالي قامت هذه الحركة على وضع حد لسياسة الإقصاء هذه "حتى تلتفت لنا السلط المعنية وإلى مشاكلنا الحقيقية" حسب تعبير الناطق الرسمي باسم اعتصام ولاية القصرين "وجدي الخضراوي"، فبالنسبة للفاعلين داخل الحركة فهم تقريبا مجمعون على "فشل الطبقة السياسية ككل في الدفاع على مطالبهم وفي جعل المسألة الاجتماعية ومشكل مناويل التنمية غير العادلة مركزا لاهتماماتهم ولفعلهم السياسي". وهو ما دفع بالمحتجين والفاعليين داخل هذه الحركة الاحتجاجية بالتمرّد على الأطر وأشكال النضال الكلاسيكية التي تنتهجها الطبقة السياسية في فعلها السياسي (حزب، منظمة، جمعية..) والتي لم تعد تتلاءم مع أفق انتظاراتهم من الفعل السياسي-الاجتماعي بعد 2010.

تقهقر مشروعية النظام السياسي وحدود الحركة الاحتجاجية

يبدو أن أحداث جانفي 2016 أحدثت منعرجا جديدا في أشكال الحركات الاحتجاجية الجماهيرية ذات الإطار الواسع، حيث لم يعد الفعل الجماهيري الكبير يقتصر على التعبئة الحزبية والسياسية كشكل من أشكال الفعل السياسي الكلاسيكي الذي يستوجب المرور عبر التنظيمات التي توفرها وتتيحها الدولة الحديثة والتي ينحصر حدود الفعل الجماعي فيها في نطاق السقف الليبرالي للحريات، ولا حتى على الانفجارات الاجتماعية الكبرى التي تطالب بإسقاط النظام كالحركة الاجتماعية 17ديسمبر 2010-14 جانفي2011، لكن هذا

لا يعني أن هذه الحركات الاحتجاجية ذات النطاق الواسع تسير عكس سيرورة الحركة الاجتماعية ديسمبر 2010-14جانفي 2011، كسيرورة للفعل الجماعي السياسي ذو المضمون الاجتماعي، سيرورة غايتهاالأولى والأخيرة تحقيق العدالة الاجتماعية، بل على العكس فإن هذه الحركة جاءت لتضع حدّا لفشل الطبقة السياسية في تسيير الشأن السياسي ككل، ووضع حدّ لسياسات الإقصاء الاجتماعي المبنية على أساس جهوي والتي تحرم متساكنيها من منوال تنمية عادل قادر على أن يوقف نزيف البطالة والفقر بولاية القصرين مثلها مثل الولايات الداخلية الأخرى، فقد كان الفاعلون داخل هذه الحركة يعتمدون في مفاوضاتهم على المحاججة بالفصل 12 من الدستور التونسي المتعلق بتفعيل منوال تنمية عادلة بين الجهات « تسعى الدّولة إلى تحقيق العدالة الاجتماعيّة والتنمية المستدامة والتوازن بين الجهات استنادا إلى مؤشرات التنمية واعتمادا على مبدأ التمييز الإيجابي»، لكن الحكومة لم تستجب لمطالبهم ولم تقدّم لهم سوى التسويف والمماطلة حتى استنزفت قوة وفاعلية الحركة الاحتجاجية التعبويّة وطاقة الفاعلين ، حتى انتهت بعد مرور سنة وشهرين تقريبا من اعتصامهم أمام مقر وزارة التشغيل.

وهو ما يجعلنا لا نكتفي بالقول بأن النظام السياسي فاقد للشرعية فقط، أي بما يعنيه من عدم موافقة ممارساته مع البنى الفوقية للمجتمع (البنى الفوقية هو مفهوم ماركسي والمقصود به هو المؤسسات التي تقوم بتوزيع السلطة داخل المجتمع وهي التي تعكس علاقات الإنتاج السائدة والقوانين والثقافة والنظريات السياسية التي تتعلق بالنظام)، وهو ما يعبّر عنه البعض بـ"غياب الإرادة السياسية" في تطبيق ما جاء في الدستور وما جاء في القوانين التشريعية، بل نذهب إلى حدّ القول بأنّ هذا النظام فاقدٌ للمشروعية أي فقدانه للصلاحية التمثيلية للمجتمع أو لأغلبه، فالنظام السياسي ومن يمثّله مؤسساتيا لا يعترف بأن هناك خللا إجرائيا وأنه حدث أو وقع تقصير منه بالتالي سيصلح ذلك الخلل كما ادّعى في البداية على لسان رئيس الحكومة بأنه سيتم توفير خمسة آلاف موطن شغل، بل أصبح

يرفض فعل الاحتجاج ويعتبره احتجاجا غير شرعي من ناحية الشكل في البداية ثم من ناحية المضمون (وهو ما صرح به وزير التشغيل عماد الحمامي ورئيس الحكومة الحبيب الصيد في المجلس الوزاري بقولهما " احتجاجكم غير مقبول فنحن لا نملك حلولا حينية الآن") وهو ما تجسّد أيضا في الهرسلة والمضايقات البوليسية والتهم العدلية التي طالت ممثلي اعتصام ولاية القصرين وقفصة بدعوى "تعطيل حرية"، بالإضافة إلى عدم تواجد إرادة سياسية جديّة لبلورة منوال تنمية عادل للمناطق الداخلية من خلال مراجعة مخططات التنمية الخاص بكل جهة، أو حتى تسخير خبراء أكفاء لفتح ملف التنمية بصفة عاجلة وفوريّة، وهو ما يعكس ما جاء على لسان الناطق الرسمي باعتصام القصرين"وجدي الخضراوي" بقوله "هؤلاء أي الفريق الحكومي لا يمثلوننا ولا يمثلون إرادة أغلب الشعب التونسي الذي يبحث عن كرامته"

جلّ الأنظمة السياسية تبدأ بالسقوط حينما تفقد مشروعيتها وصلاحيتها التمثيلية لجزء كبير من مجتمعها، فتلجأ للمضايقات والهرسلة البوليسية وتكميم الأفواه على شاكلة الأنظمة المستبدّة، ومن ثم تدفع حتميا هذه الممارسات نحو انفجارات اجتماعية أخرى قد تنبئ بسقوط جزء من النظام على شاكلة الحركة الاجتماعية 17 ديسمبر 2010، أو تكون موجة احتجاجية واسعة على شاكلة الحركات الاحتجاجية التي تسير في سيرورة الحركة الاجتماعية 17 ديسمبر 2010 كالحراك الاحتجاجي" القصرين وقفصة" وغيرها من سنة 2016، وحراك الكامور في 23 أفريل 2017 ، وقضية هنشير معمّر بجمنة في 9 أكتوبر 2016، وهي كلها أسباب موضوعيّة تُنْبِئ بانهيار النظام السياسي الفاقد للمشروعيّة.

لكن هذه الحركة الاحتجاجية إنما تفتقد لعنصر مهم قادر أن يحولها إلى حركة اجتماعية قادرة للذهاب مباشرة نحو الهدف المطلوب منها والمتمثّل في ترجمة واقع "اللاعدالة" في تعبيرةسياسة-اجتماعية تختزل فيها أسباب وضعية "اللاعدالة" وتطرح فيها بديلا عن

هذه الوضعية بشكل مُقنع بالنسبة للمعنيينبها. ، حتى يبقى هذا التحوّل رهين اتحاد كل الحركات الاحتجاجية باختلاف مطالبها المشروعة لا على مطلب مركزي موحد في الزمان والمكان بل على استراتيجية نضال ومواجهة، قادرة على استيعاب الدرس وفهم حركة التاريخ وطبيعة السلطة التي لم يعد فيها الحكم والسياسة مستقلين عن نظام التحكّم العابر للحدود القومية ومصالحه، "فأشكال التحكم يتم اجتراحها عبر سلسلة من الهياكل والوظائف الدولية"[425] بالتالي استراتيجية لا توحّد كل هذه الحركات المتشظيّة ذات المطالب المختلفة في مركز أو قالب واحد يصادر مشروعية الحركات الاحتجاجية الأخرى، بقدر ما تضع هذه الاستراتيجية ترتيبا عقلانيّا لـ"سلم الفعل الجماعي" يضعه المثقف المحايث للجماهير ولمعاناتهم، وفقا لسلّم اهتمامات الشعب والجماهير المنتفضة التي تطالب بالعدالة الاجتماعية، العدالة الاجتماعية كصيرورة ثورية والتي طالبت بها الحركة الاجتماعية منذ اندلاعها يوم 17ديسمبر 2010، قبل أي مطلب آخر قد يكون مُسقطا على ترتيب سلم اهتماماتهم.

وهو ما يدفعنا إلى القول بأنّه لم يبق للمثقّف المحايث للجماهير اليوم من أدوار قادرة على إحداث تأثير في صلب الحركات الاحتجاجية وعلى استراتيجية فعلها الجماعي حسب رأينا، سوى ترتيب "سلم الفعل الجماعي" من الناحية النظرية، دون الانجرار إلى حلول قديمة مترهّلة قد تدجّن هذه الحركات الاحتجاجية بشتى أنواعها إلى معاقل نضالية تقليدية، لا تستطيع أن تنجز الفعل الجماعي بالفاعلية المطلوبة ،"فنستطيع اليوم، أيضا، أن نرى أن الأشكال التقليدية للمقاومة، مثل المنظمات العمالية المؤسساتية التي تطورت خلال الجزء الأكبر من القرنين التاسع عشر والعشرين، قد بدأت تفقد قوتها. لا بد مرة أخرى، من اختراع نمط جديد من أنماط لمقاومة "[426]، أنماط جديدة للمقاومة تكون خارج المجال السياسي التقليدي/الرسمي حيث يفقد دائما هذ الأخير قدرته على تمثيل شعب ما وفق

[425]: مايكل هاردت وأنطونيو نيغري، "الإمبراطورية، امبراطورية العولمة الجديدة"، ترجمة وتحقيق: فاضل جتكر، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى: فيفري 2002، ص، 449-450.
[426] : المرجعنفسه.

أفق انتظاراته بنفس المسافة التي يفقد فيها النظام السياسي مشروعيته. وهي أنماط للمقاومة تحمل فاعلية أنجع وعمق تعبوي يدفع نحو المنشود.

خاتمة:

ما يمكننا استخلاصه حول كل ما جاء في هذه الورقة هو أنّ هذه الحركة الاحتجاجية (جانفي 2016) الكبيرة والواسعة جغرافيا، لا يمكن اعتبارها حركةً اجتماعيةً ذاتُ مشروع ثقافي (أي حركة تحمل تصوّرا جديدا لنموذج ثقافي للمجتمع) تطالب بإسقاط النظام، أي "عمل جماعي يهدف إلى تأسيس نظامجديد للحياة"[427]، وهو عمل يتّجه نحو تدعيم موقف اجتماعي قائم لكنه موقف لم يرسم أفقا محدّدا لفعل التغيير بعد. لكن هذه الحركة الاحتجاجية حقّقت الشرط الأولي والأساسي لكل حركة اجتماعية ذات مشروع ثقافي وهو: الرفض الجذري لمشاريع الطبقة السياسية الحالية بشتى توجهاتها وهو ماتجسّده وسائل الاحتجاج والتعبير السياسية-الاجتماعيةالتي تقعخارج مجال المؤسسات الرسمية السياسية الموجود كما يقول انتوني غيدنز، والتي ترجمت من خلال هذه الوسائل رفضها لمستوى خطاب الطبقة السياسية ككل بيسارها ويمينها.

إن الهامش كما أوضحنا سالفا هو محركٌ للتاريخ لكونه دافعا أساسيا للانتقال إلى نظام اجتماعي جديد، لكنتاريخيا دائما ما يقع هذا الانتقال تحت قبضة خيارات ترسمها لاحقا نخب سياسية/ثقافية تابعة للمركز السياسي، حيث تمارس هذه النخب هيمنتها على الحركات الاحتجاجية الكبرى، بدل استيعابها وتحويلها إلى حركة اجتماعية ترسم من خلالها مستقبلا جديدا.فيقتصر بعدها طموح هذا الهامش الاجتماعي على أن يكون محض ظل لهذه الخيارات التي تَظهر في البداية كضوء ساطع ينير الدرب الراهن ويفتح أفقه على

[427] : Boudon Raymond et autre, Dictionnaire de sociologie, Impresion Bussiere, France, 2015, P159

المختلف. وهو ظِلٌّ عاجزٌ عن الوصول إلى مصدر هذا الضوء والإمساك بزمامه ورسم خياراتٍ جديدةٍ من خلاله،خيارات جديدة يمكن أن تطرح نفسهابديلا ثقافيا تقطع من جهة مع أنموذج التحديث السياسي والثقافي الذي وضعها "على الحافّة" وتقطع أيضا مع ثقافة الانكماش والتمسّك الهووي بالتجارب التاريخية من جهة ثانية.

المساهمون في كتابة هذا الكرّاس:

سفيان جاب الله :عضو بالمجلس العلمي للمرصد الاجتماعي بالمنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعيّة، وهو المشرف على هذا العمل ومساهم فيه بورقة بحثيّة. أستاذ علم الاجتماع بكليّة الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، باحثدكتوراه في الجماعات السلفيّة والراديكالية بمخبر البحث حول الدولة والثقافة وتحوّلات المجتمع ومختصّ في مقاربات التوقّي من التطرّف العنيف بـ"الكريديف" مركز البحوث والدراسات والتوثيق والإعلام حول المرأة. نشر عدّة مقالات بمقاربات سوسيولوجيّة حول الحقوق الاقتصادية والاجتماعيّة وظواهر"الأولتراس" و"الراب" والسلفية بجرائد أسبوعيّة ومواقع إلكترونيّة، وله كذلك ورقات بحثيّة وورقات سياسية مختلفة حول سوسيولوجيا التطرّف العنيف والحركات الاحتجاجية والاجتماعيّة والحملات الشبابيّة في تونس.

علي كنيس: ناشط سياسي وباحث شاب في العلوم السياسية وهو عضو مؤسس بالحملة الوطنية لدعم جمنة. حاصل على شهادة الماجستير في العلوم السياسية من كلية الحقوق والعلوم السياسية بتونس، موضوع الرسالة يناقش علاقة الدولة بالمجتمع المحلي في تونس وتَمثُّل مشروعية الدولة في ارتباط بالسياسات الاقتصادية وحضور المحلي وعلاقته بالاقتصادي في سياق ثوري من خلال حالة هنشير اِلْمْعَمَّرْ/ستيل بجمنة (واحة جمنة) بقبلي بالجنوب الغربي التونسي، وهو بصدد الإعداد للنشر. له عديد المقالات المنشورة بموقع نواة وموقع انحياز ومجلة الآداب.

محمد سليم بن يوسف : باحث دكتوراه في علم الاجتماع السياسي مختص في الحركات الاحتجاجية وباحث ملحق بمعهد البحوث المغاربية المعاصرة. حاصل على الماجستير في العلوم السياسية من كلية العلوم القانونية والسياسية والاجتماعية بتونس وبصدد إعداد

رسالة دكتوراه في معهد العلوم السياسية بAix-en-Provence. حول الهيمنة والاحتجاج في العوالم الشغلية في تونس. له العديد من المقالات المنشورة في موقع نواة وإسهامات في مشاريع بحثية حول الحركات الاحتجاجية.

مالك زغدودي: مجاز في الفلسفة اختصاص سياسة وإيتيقا، وباحث ماجستير حداثة وتنوير. صحفي تونسي مهتم بالأدب والسينما وتاريخ الفن، نشر في عدد من الجرائد والمواقع التونسية مثل موقع حقائق أون لاين والعربية وجريدة الأخبار اللبنانية وموقع المراسل. (مقالات حول الحركات الفنية والاحتجاجية ومواضيع أخرى).ناشط شبابي وطلابي ساهم في صياغة الميثاق الطلابي الجامعي ضد العنف الذي وقّعهُ الناشطون صلب الاتحاد العام لطلبة تونس "UGET".

عبد الرحمان بن شعبان: أستاذ أول فوق الرتبة - تاريخ وجغرافيا، متحصل على شهادة دار المعلمين العليا (2013) باحث ماجستير في التاريخ المعاصر، له مقالات في عدة مواقع إلكترونية، ناشط سابق في الاتحاد العام لطلبة تونس ونقابي صلب الاتحاد العام التونسي للشغل، صدر له كتاب بعنوان: "الاتحاد العام لطلبة تونس 1952_1957: النشأة والتأسيس والعلاقات.

أمين الحسيني: أستاذ أول فوق الرتبة للمدارس الابتدائية- لغة عربية، كما أنّه باحث ماجستير في علم الاجتماع، ساهم في عدّة مشاريع بحثيّة حول الحركات الاجتماعية، وقد نُشرت له ورقة بحثيّة بعنوان "الحركة الاحتجاجية الفنية" في كتاب جماعي أصدرته جمعية راج .

إلى جانب ذلك فإنّه روائي، وله إصداران، "حياة مع سبق الإصرار والتمرد" (2014)/"بيبولار.(2016) "

شيماء بن رجب:باحثة وطالبة ماجستير علم اجتماع اختصاص تغيرات اجتماعية في كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، متخصصة في دراسة مجموعات الألتراس إضافة إلى اهتمامها بسوسيولوجيا الشباب والتنظيمات اللاهيكلية.

سميحة الحامدي: دكتورة في علم الاجتماع وباحثة في وحدة البحث الدولة والثقافة وتحولات المجتمع بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس. ساهمت في العديد من مشاريع البحث الدولية المتعلقة بالحركات الاجتماعية والمشاركة السياسية والتطرف عند الشباب، ولها عدة مقالات في هذا المجال كما شاركت في عدة ملتقيات وطنية ودولية.

المولدي بن علية:باحث مرحلة ثالثة في الفلسفة، اختصاص: التنوير والحداثة ومرسم بالسنة الثانية إجازة في علم الاجتماع، ناشط فاعل في عدّة حركات احتجاجية مطالبة بالحقوق الاقتصادية والاجتماعيّة.

آية بن منصور: باحثة في علم اجتماع فن الشارع والشباب، متحصلة على شهادة الماجستير في علم الاجتماع من المعهد العالي للعلوم الإنسانية بتونس (ابن شرف) سنة 2018، حاليا هي باحثة دكتوراه في مخبر التنوير والحداثة والتنوع الثقافي بمعهد ابن شرف، ناشطة بالمجتمع المدني ومهتمة بالشأن الثقافي والفني.

وليد عمري: مترجم، مدون وباحث في علم الاجتماع، خريج كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس،اشتغل على ظواهر ذات علاقة بالاقتصاد غير المهيكل،كما نشر في مواقع إلكترونية نصوصا في مواضيع شتى ضمن الاختصاص وخارجه.

منتصر بالله نغموشي : مهندس إعلامية وسينمائي هاوٍ مهتم بالفيلم الوثائقي بصفة خاصة نظرا لارتباطه الوثيق بالشأن الإجتماعي. وهو ناشط في عدّة حركات احتجاجية وحملات شبابية وله العديد من المقالات في نواة والتي تتناول المسائل الاجتماعية والسينما.

أسامة سليم: طالب فلسفة في المعهد التحضيري للدراسات الأدبية والعلوم الإنسانية بتونس، كاتب ومترجم تونسي، لديه إسهامات في النقد الأدبي والترجمة، تصدر له قريبا

ترجمة كتاب أزمات الجمهورية للمفكرة حنا أرندت، وترجمة كتاب حوارات مع بورديو للكاتب مايكل بوراووي (بالاشتراك).

47 شارع فرحات حشاد، العمارة «أ»، الطابق الثاني 1001 تونس
الهاتف : 64 76 25 71 216+ الفاكس : 65 76 25 71 216+
contact@ftdes.net - Contact@ostunisie.org

FTDES
المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

Conception et Impression

ما الذّي يجمع فسيفساء تشتتت قطعها لكنّها في نظر بحوثٍ علميّة تراها ملتئمة ومجمّعة ومتناسقة؟ كيف لبحوث مُماثلة أن تُقرأ مجتعة رغم فرادة كلّ إشكاليّة على حدة؟ إشكاليّات تُقارب واقعا متشابها ومختلفا تتحدّ فيه أضداده وتتفرق في آن؟ كيف لنا أن نبحث عن تشخيص واقع مماثل؟ واقع فيه فنّان راب من هوامش المدينة يُغنّي ليحتجّ على مركزيّة الحقّ في الحياة، وحركة احتجاجيّة هامشيّة تعادي التهميش بفعل جماعي يلغي من ألغاه ولو كان من مسانديه. واقع فيه شباب "أولتراس" يتنبؤون بالثورة ولا تعنيهم صيرورتها، وباحثون يتفاجؤون بها فينخرطون في فعل ينشد تحقّقها ! فيه مُدوّنون يناضلون في شبكة عنكبوتيّة ضدّ نظام سقط رأسه فصار كأرملة سوداء! وحملات أفقيّة في فعلها تنتشر كجذمور في بيئة احتلّتها أشجار السلطة التّي لا تثمر وفنّانون يجعلون الفضاء العامّ مكانا لرفض الواقع، الواقع برّمته. واقع فيه أساتذة غادر طباشيرهم الأقسام ليحتجّ في الشوارع، عُمّالٌ في مصانع الظلّ لا ضوء يُسلّط على نضالاتهم، مُهرّجون يجعلون البوليس يَبتسم ويعوّضون مناضلين أتعبتهم كلاسيكيّة احتجاجهم وأحزنتهم في آن! واقع ترسمه صحراء الكامور بوشائج أوليّة تنتخب فاعلين عاديّين لكن بفعل لم تعتده السلطة، واقع تُصوّره مشاهد جرّرات في جندوبة تغادر حقلا لتذهب إلى حقل آخر :من الحقل الفلاحي إلى الحقل الاحتجاجي ! وواحات جمنة التّي تحتجّ فيها الدقلة في عراجينها مطالبة بالحقّ في الأرض

47 شارع فرحات حشاد، العمارة «أ»، الطابق الثاني 1001 تونس
الهاتف : 64 76 25 71 216+ الفاكس : 65 76 25 71 216+
contact@ftdes.net - Contact@ostunisie.org

FTDES
Forum Tunisien pour les Droits Economiques et Sociaux

FRIEDRICH EBERT STIFTUNG

CCFD TERRE SOLIDAIRE
Soyons les forces du changement